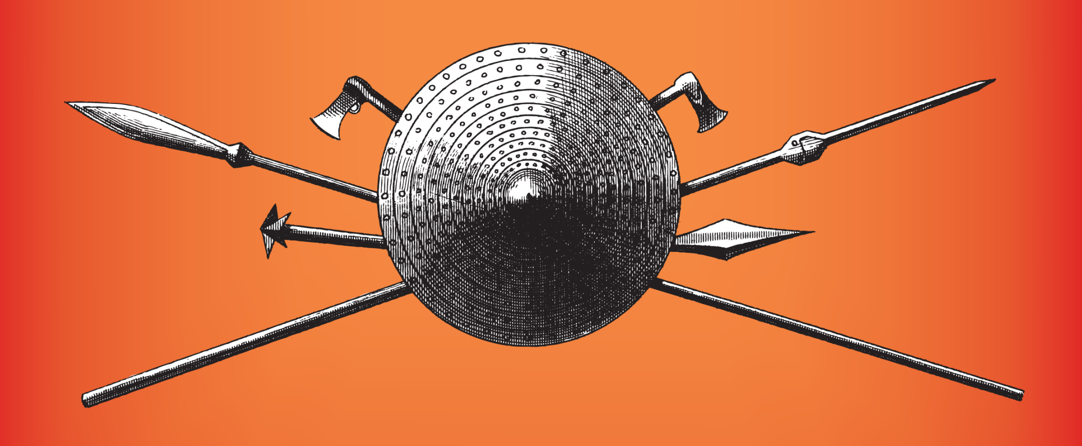
تاريخ غزوات العرب
في فرنسا وسويسرا وإيطاليا
وجزائر البحر المتوسط



شكيب أرسلان

تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف
شكيب أرسلان



تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

شكيب أرسلان

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٥٥٨
تدمك: ٥ ١٣٩ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: هاني ماهر.

المحتويات

عطوفة الأمير شكيب أرسلان



المقدمة

بقلم شكيب أرسلان

جنيف ١٩ ربيع الأول ١٣٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا إليك نفزع من مداحض القدم، وبك نستعصم في ما يجري به القلم، ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، بارئ النسم ومفيض النعم، وباسط الوجود على العدم، شهادة نعدها للنجاة إذا اشتدت الغمم، ونتقي بها النار ذات الضرم، ونشهد أن محمدًا عبدك ورسولك سيد من دعا إلى توحيدك من بين الأمم، وسلطان من طهّر الأرض من عبادة الصنم، المُنزَّل عليه كلامُك الموصوف بالِقدم، المبعوث بالآيات الباهرة والحكم. اللهم صلِّ عليه وعلى آله لهاميم العرب ومعادن الكرم، وأصحابه حملة الكتاب وليوث الكتائب في المزدحم، الذين أشرقت شموسهم في الشرق والغرب فأماطت الظلْم وأنارت الظلَم، وسلم يا رب كثيرًا.

وبعد، فإنه مما يجب أن يخلد في الصدور قبل السطور، وأن يُكتب على الحدق قبل الورق، أن حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ الأمم ونموّها، ورقيّ الأقوام وسموها، وأنه لا يتصور على وجه الكرة وجود أمة تشعر بذاتها وتعرف نفسها قائمة بنفسها إلا إذا كانت حافظةً لتاريخها واعيةً لماضيها، متذكرة لأوليّاتها ومبادئها، مقيدة لوقائعها

مسلسلة لأنسابها حاشدة لأحسابها خازنة لآدابها، مما لا يقوم به إلا علم التاريخ الذي هو الواصل بين الماضي والمستقبل، والرابط بين الآنف والمستأنف، وأنه لا جدال في كون الأمة العربية التي تتحفز لتنباع وتستوفز لتمد طائل الباع، لم تكن لتحدث نفسها بالنهوض الذي جعلته نصب نواظرها، والاتحاد الذي سيّرته شغل خواطرها لو لم تكن رقَّت من رئاسة الممالك فيما غبر هاتيك الدرجات العالية، وطالعت من تاريخها تلك الصفحات المتلالية فجعلت الحاضر منها يخجل أن يقصر عن شأو الغابر، ويستطار أن يعلم أباه سيدًا في الأوائل وهو عبد في الأواخر، فكان إذن تاريخ العرب هو عمدة العرب فيما يطمحون إليه من معالٍ، ووسيلتهم فيما يندفعون إلى تحقيقه من آمال، ولعمري إن هذا التاريخ المجيد وإن سقته سيول المحابر واخضرَّت له أعواد المنابر، وسبقت فيه تآليف استولى أصحابها على الأمد إخراجًا، ولمعت فيه كتب أو لاحت لكانت بروجًا، ولو نضدت لكانت أبراجًا، لا تزال فيه نواقص بادية العوار ومعالم طامسة الآثار، ومظانّ متوارية غامضة، ومعلومات قاعدة غير ناهضة، تحتاج إلى همم بعيدة من الأفواج الآتية ليثيروا من دفائنها، وإلى معارف واسعة عند السلائل المقبلة لينتثلوا من كنائنها، وإن من أخصّ ما أهمل العرب فيه التأليف مع أنه من أمجد ماضيهم وألمع ما لمعت فيه مواضيهم هو الدور الذي كان لهم في القارة الأوربية خارجًا عن الأندلس، وذلك كفتوحاتهم في ديار فرنسة وإيطالية وسويسرة، وما كانوا يقولون له: الأرض الكبيرة، وكفتوحاتهم لجزائر البحر المتوسط التي رفعوا فوقها أعلامهم حقبًا طويلة، وأثّروا فيها آثارًا كثيرة أثيرة، فإن هذا الدور من أدوارهم يكاد يكون عند أبنائهم مجهولًا، بل إن كثيرًا من ناشئتهم لا يعرفون عنه كثيرًا ولا قليلًا، والحال أنه من أقعس فتوحاتهم مجدًا وأوعر مغازيهم غورًا ونجدًا، وأدلّ أعمالهم على ما أوتوه من علو الهمم ومضاء العزائم، وما كان غالبًا على أخلاقهم يومئذ من احتقار الطوائح واستصغار العظائم، فلهذا خصصت بهذا الموضوع كتابًا مستقلًا أسميته «الخبيئة المنسية في مقام العرب بجبال الألب والبلاد الإفرنسية»، وجعلت هذا الكتاب أشبه بجزء من أجزاء كتابي الذي أنا مباشر تأليفه عن الأندلس باسم «الحلة السندسية في الرحلة الأندلسية»، وسيكون فيما أحزر أربعة أو خمسة أجزاء إن لم يكن أكثر.

هذا وقد رأيت أن أتوج هذا الكتاب باسم الملك العربي الصميم منزعًا ونسبًا، ذؤابة بيت الرسول الكريم وحسبك بذلك شرفًا وطهرًا وأمًّا وأبًا، الذي وقف نفسه الأبية على خدمة أمته العربية عاملًا لنهضتها بعد ربضتها، ومجاهدًا في ربوتها بعد كبوتها فيصل بن

الحسين ملك العراق والرافدين، أطال الله أيامه ونصر أعلامه وسدد آراءه وأحكامه، وأبلغه من مجد العرب مرامه، وذلك بالاتفاق مع أخويه الإمامين الهمامين العاهلين العادلين ملكي الجزيرة العربية في هذا العصر، المكتوب لهما فيه بإذن الله التمكين والنصر، الإمام يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب مملكة اليمن السعيدة، والملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود صاحب الدولة العربية السعودية، أيدهم الله جميعًا لتأييد هذه الأمة وصيانة ذمارها، وألهمهم دوام الائتلاف والاتحاد لما به تجديد مجدها وإقامة عثارها، حتى يعود أمرها كما بدا وترجع أيام عزِّها جددًا، وما ذلك على الله بعزيز.

ملحق بالمقدمة

بقلم شكيب أرسلان

جنيف ١٤ جمادى الثانية ١٣٥٢

قد كنت حررت هذه المقدمة منذ أشهر قلائل والملك فيصل في الحياة والأمة العربية تستمد حياتها السياسية من حياته، وتبني معظم آمالها على أصيل آرائه ومنصور راياته، وقبل أن بوشر طبع هذا الكتاب اختار الله هذا العربي الكبير لجواره، وكانت بموته الفادحة التي لم يرزأ العرب بمثلها، وقامت نوادبهم وسالت مدامعهم في كل غور ونجد من أجلها، فلم نشأ أن نغير شيئًا من مقدمة هذا الكتاب بل أبقيناه متوجًا باسمه كما لو كان في الحياة؛ إذ إننا لا نزال نعد فيصلًا حيًّا في القلوب والخواطر وإن غاب بوجهه الكريم عن النواظر، لا سيما أن المرحوم كان قد سمع بخبر هذا التأليف وسألني — وا حسرتاه عليه إذ كان مؤخرًا في برن — عنه وعن مباحثه وعما أمكنني الاطلاع عليه من آثار العرب في القرى السويسرية التي كان انتهى إلى سمعه أنني ذهبت إليها ونقبت فيها، وكان مهتمًا بهذا الموضوع مرتاحًا إلى نشر هذا الكتاب، كما كان مرتاحًا إلى نشر كل أثر عربي، وما كان فيصل رحمه الله إلا رمزًا للقضية العربية، والرمز لا يموت عند قومه، فإذا كان فيصل قد مات فلن يموت تذكاره ولا تمحَّى آثاره، ولنا نعم العزاء في جلالة ولده المعظم الملك غازي الأول الذي نرتقب من هلاله بدرًا ناميًا، ونرجو من كرم الحق تعالى أن يجعله فيصلًا ثانيًا. آمين.

كلمة بين يدي رحلتي لتتبع الآثار العربية في الأقطار الغربية

ليس بعجيب أن يكون مثلي مغرمًا بالأندلس وآثار العرب فيها، وفيما جاورها من الأصقاع الأوربية، فإن كل عربي صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قومه، ويتعلم مناقب أجداده، ويتدارس معالي هممهم مع إخوانه، ويترك من ذلك تراثًا خالدًا لأعقابه، ولعمري إن آثار العرب في الأندلس هي غرة شادخة وهمة شامخة في تاريخ الأمة العربية، بل نقول ولا نخشى مغالطًا إنها من أنفس ما أثَّره العرب، بل من أنفس ما أثره البشر في الأرض. فلا غرو أن يعجب بها العربي، وينقب عنها، ويشد الرحال إليها ويأخذ العبرة اللازمة منها، فليست هي الآية الناطقة والبينة القاطعة على مجدنا الماضي، وعلى ما قدرنا أن نعمله في سالف الحقب فحسب، بل هي الحجة الملزمة والآية المعجزة المفحمة على جدارتنا بالاستقلال التام، وكفايتنا إذا ملكنا الاستقلال أن نحسن الاضطلاع بالأحكام، وهي أيضًا للدلالة على أننا نقدر أن نعمل في الأعصر المستأنفة ما عملناه في الأعصر السالفة إذا تركنا الأجانب وشأننا.

كنت إذن منذ ريعان شبابي وغضاضة إهابي مولعًا بحضارة الأندلس العربية وآثارها، مشغوفًا بتاريخها وأخبارها حتى أني منذ أربع وثلاثين سنة وهي مدة يصح أن تسمى دهرًا نقلت من الإفرنسية إلى العربية رواية الكاتب الأشهر شاتوبريان المسماة بــ«آخر بني سراج»، وذيلت تلك الرواية المترجمة بتاريخ للأندلس استخلصته من الكتب العربية والأوربية، وأجلت معظم قداح البحث فيه عن سقوط مملكة غرناطة، وجلاء العرب الأخير عن تلك الجزيرة؛ لأن هذه الحقبة من ذلك التاريخ كادت تكون في عصرنا مجهولة، وقد صادف ظهور هذا الكتاب مبدأ النهضة العربية فكان له في النواحي رنة

نواح، وسال له من المآقي مدمع سفّاح، وتجددت تذكارات أشجان، وبلغ التأثير من قلوب جميع الذين قرأوه أنهم كانوا يتلونه المرة بعد المرة شفاء لما في صدورهم، أشبه بالثكلى التي لا يشفي ما بها سوى ذرفُ دموعها، ولطم خدودها وتلمس آثار مفقودها، وكانت بازدياد النهضة العربية تزداد الرغبة في هذا المقام وتشرئب إلى الأندلس الأعناق، وتتحلَّب على ذكراها الشفاه، فأعدت من سنين قلائل طبع الرواية المذكورة «آخر بني سراج» مع ذيلها، وأضفت إليهما تاريخًا قديمًا عن سقوط غرناطة عثرت عليه في مدينة مونيخ عاصمة بافاريا يسمى «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» لمؤلف لم يذكر اسمه فيه، لكنه يترجح كثيرًا مما لحظنا من كلامه أنه كان ممن حضر الوقائع بنفسه أو ممن عاصر أهلها؛ لأنه يسرد أخبارها سرد من شاهدها بالعيان، أو من روى عمن شاهدها، وأظن المقري عند ما كتب «نفح الطيب» كان مطلعًا على ذلك الكتاب؛ لأني رأيت في كتاب «أخبار العصر» هذا جملًا كثيرة رأيتها في النفح بحروفها، نعم أعدت طبع كتابي ذاك عن الأندلس مضمومًا إليه هذا الكتاب الذي عثرت عليه في مونيخ غُفْلًا من اسم مؤلفه ومعه أربعة مراسيم سلطانية من السلطان أبي الحسن علي بن الأحمر والد أبي عبد الله آخر ملوك العرب بالأندلس الذي سلم غرناطة إلى الملك فرديناند والملكة إيزابلا، وكان طبعي لهذه الكتب منذ ثمان سنوات بمطبعة المنار الشهيرة بمصر.

ولكن كل هذا لم ينقع غلتي ولم يشفِ ما بي من أمر الأندلس، وبقيت بعد معرفتها بالقلم متشوقًا إلى مشاهدتها بالعيان والتجوال فيها بالقدم، استزادة من معرفة أخبارها واقتصاص آثارها، ووفاء بواجب ازديارها، وما زلتُ أحدِّث نفسي برحلة أقوم بها في تلك الديار التي ترك لنا عنها آباؤنا أجمل تذكار، وتعوقني العوائق عنها، وتعترضني الأشغال من دونها، وأنا أخشى أن توافيني المنية قبل تحقيق هذه الأمنية إلى أن يسر الله هذه الرحلة منذ ثلاث سنوات، والأمور مثل النفوس مرهونة بالآجال، وكنت موطنًا النفس على السفر إلى الأندلس في ربيع سنة ١٣٤٨ وفق سنة ١٩٣٠ فجدت شئون وطرأت طوارئ اقتضت أن نراجع جمعية الأمم في جنيف مراجعات مستمرة قضت عليَّ بأن لا أفارق جنيف في تلك الآونة، بحيث إنه أقبل الصيف يسحب من ذيله، وجاء الحر هاجمًا برجله وخيله، فأخذ بعض الإخوان يشيرون عليَّ بتأخير الرحلة إلى الشتاء التالي أو إلى الربيع الذي وراءه ذهابًا إلى أن السياحة في إسبانية لا تلائم في أيام القيظ لا سيما القطعة الأندلسية التي أنا قاصدها، فلم يكن ذلك ليغير من نيتي ولا ليرخي من مشدود طيتي؛ لأني لم أبرح في هذه المسألة منذ ثلاثين سنة أمني بها النفس، وكلما حدا سائق بدا عائق، ونحن نعتمد على

التأخير والتسويف ونعلل النفس بشتاء وصيف وربيع وخريف، وقد عرفنا أكثر البلاد الأوربية ولم تبقَ مدينة فيها إلا دخلناها، وربما بدل المرة الواحدة مرارًا، وقتلنا أحوالها درسًا واختبارًا، ولم يبقَ من أوربة ما لم نعرفه سوى الأصقاع الإسكندنافية في الشمال والبلاد الإسبانية في الجنوب، فأما الأولى فإنه يجوز لمثلنا أن يعرفها كما أنه يجوز له أن لا يعرفها إذا عاقته العوائق عن معرفتها، ولكن الأندلس التي نحِنّ إليها منذ نعومة الأظفار ونقرأ عنها بل نؤلف الأسفار، فإنه لا يجوز لمثلنا أن يتأخر عن السفر إليها، ونحن لا نزال أنضاء أسفار بين الأقطار، وعليه انتهزنا هذه الفرصة، واغتنمنا من وقتنا هذه الخلسة قاصدين إلى الأندلس عن طريق فرنسة التي حصلنها على رخصة المرور بها أيامًا معدودات، وذلك أنه لما كان الغرض الأصلي من الرحلة اقتراء آثار العرب كيف حلّوا، وأنّى ارتحلوا من هذه الديار الغربية كان لا بد لنا أولًا من زيارة فرنسة التي كانت للعرب فيها جولة، بل كانت لهم في جنوبيها دولة وصولة، وطالما عصفت ريحهم ببلاد الإفرنجة بعد أن عصفت ببلاد القوط والجلالقة والباشكنس وغيرهم من أمم الغرب التي خفضوا دعائمها ونقضوا مرائرها، وكادوا يلحقون بأولها آخرها، وها أنا ذا أحدث عن سياحتي:

في ١٨ يونيو قبل الظهر من سنة ١٩٣٠ فصلت من لوزان قاصدًا إلى باريس فوصلت إلى تلك العاصمة ليلًا، وكان قد عرف بقدومي شابان من نخبة أدباء المغاربة: السيد أحمد بلافريج من ذوائب بيوتات الأندلسيين في رباط الفتح، والسيد محمد الفاسي من آل الجد الفهريين الأندلسيين من أعيان فاس، فما نزلت من القطار حتى وجدتهما أمامي في المحطة وركبنا معًا إلى فندق أورليان پالاس في شارع برون "Bonlevard Brune" وتحدثت إليهما في موضوع رحلتي، وكان ذلك قبل ميعاد عطلة الدروس التي كانا يريدان بعدها السفر إلى وطنهما فاتفقنا على أن يوافياني إلى «مجريط» ليرافقاني في بعض هذه السياحة، وبعد ذلك بأيام قلائل مرًّا عليَّ بالفعل؛ إذ أنا في فندق رومة في عاصمة الإسبانيول، وكان في اليوم التالي من وصولي إلى باريس أقبل علينا أولادنا الطلبة السوريون، وأنسنا بلقائهم واجتمعنا مع فئة من نخبتهم في المطعم العربي الذي بقرب الجامع، وبعدها ذهبت أنا والسيدان محمد الفاسي وأحمد بلا فريج إلى مكتبة غوتنر المتخصصة بالكتب الشرقية حيث اشتريت بعض كتب عربية أكثرها يتعلق بالأندلس، وصادف أني لدى نزولي في أورليان بالاس وجدت صديقي الحميم حسين رءوف بك بطل الدارعة حميدية الشهير،

ورئيس نظار أنقرة سابقًا، وناظر البحرية العثمانية من قبل، فسررت بلقائه كثيرًا لأن آخر العهد بيننا كان في الأستانة سنة ١٩٢٤، وكذلك جاء لزيارتي هناك رحمي بك الذي كان واليًا لأزمير أيام الحرب الكبرى، وكان من أركان جمعية الاتحاد والترقي في تركيا، وهو من أعز إخواني وإخوان ابن عمي الأمير أمين مصطفى أرسلان، فكانت لي بغير ميعاد فرحة عظيمة بالاجتماع بهذين الخليلين اللذين طال عهدي بلقائهما، وذهبنا إلى المطعم العربي فأوصينا على مطاعم مغربية، وسمعنا من شجي ألحان الموسيقى العربية ولا سيما الألحان الأندلسية، وسمرنا أجمل سمر وكانت ليلة كلها سحر، وبعد إقامة خمسة أيام بباريز ركبت القطار الحديدي إلى تولوز «طلوزة» وجاء لوداعي إلى المحطة جمهور من شبان العرب بباريز وهتفوا في المحطة: فليحيا العرب.

ووصلت إلى طلوزة بعد مسيرة ثماني ساعات بالقطار، ونزلت في فندق قريب من محطتها اسمه «ترمينوس»[1] وفي اليوم التالي قصدت قرقشونة[2] التي فيها الآثار الشهيرة فزرت البلدة والقلعة، وصعدت إلى الأسوار، وجولت في تلك الحصون نحوًا من ساعتين، ورجعت في المساء إلى طلوزة، والمسافة بالقطار بين هاتين البلدتين لا تزيد على ساعتين.

(١) الكلام على طلوزة وقرقشونة

رأيت مناسبًا ابتداء الكلام على فرنسة العربية قبل الانتقال إلى إسبانية العربية، وذلك بناء على كوني بدأت رحلتي من فرنسة، ولما كان غرضي من هذه الرحلة هو استقصاء آثار العرب وأخبارهم أينما كانوا وحلوا من القارة الأوربية توخيت أن لا أخرج عن هذا الصدد إلا نادرًا مما يقتضيه سياق البحث، فلو كنت زرت الأندلس مبتدئًا من المكان الذي دخل منه العرب، أي: من الجنوب لكان الترتيب يقضي عليَّ بأن أبدأ بجبل طارق، فالجزيرة الخضراء فشريش فأشبيلية فقرطبة فطليطلة وهلم جرّا نحو الشمال، وأن أنتهي بأربونة فقرقشونة ونيم وأفينيون إلى جبال الألب بين إيطالية وفرنسة وسويسرة، وهكذا كان ينبغي أن أفعل لو كنت حرًّا أن أسكن في هذه الأيام وطني سورية، فكان السفر منها إلى الأندلس على الطريق الذي سلكه أجدادنا عند فتحهم تلك الديار، وهي طريق المغرب، ولكن الغربة التي تطوحنا بها بسبب نضالنا عن استقلال وطننا قضت علينا بأن نسكن أوربة، وأن نقصد الأندلس من شماليها لا من جنوبيها، أي: من حيث نحن مقيمون الآن، ومن حيث انتهى العرب في فتوحاتهم الأوربية لا من حيث ابتدأوا بها، ولما كان المقصود هو كما قلنا من استقراء آثار السلف وتأثر خطواتهم، حيث دلَّ عليها التاريخ، وأثبتها

الأثر من قارة أوربة بدون تقيد بمكان معين وبدون التزام، ما شاهدناه من هذه الأماكن بالعين بل باطراد الكلام على جيل من الغولوا ولا نعلمما شاهدناه إلى ما لم نشاهده مما جاوره ودخل تحت حكمه، أى: جميع ما قيل إن أقدام العرب وطئته من هذه البلدان في حملتهم الأولى على الغرب، لم يكن لنا بد من أن نتناول طلوزة وقرقشونة وأربونة ونيم وأفينيون وليون، وليست هذه فقط بل جميع البلاد التي احتلوها من جنوبي فرنسة، وما صاقب ذلك من شمالي إيطالية، وما ناوح ذلك من جبال الألب العالية الواقعة اليوم بين هذه الممالك الثلاث: فرنسة وإيطالية وسويسرة، إلى حدود بحيرة كونستاتزة من ألمانية.

فكان هذا الكتاب وإن استقل باسم «تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط» هو في الحقيقة جزءًا من رحلتي الأندلسية التي نحن بسبيلها؛ لأنها هي خاتمة مطاف العرب في أوربة، وفاتحة ما أفاضوا إليه من الممالك بعد فتحهم للأندلس، وإذا لحظت أني قد بدأت بالرحلة وبتاريخ حملة العرب على أوربة من هذه الجهة كان لك أن تقول: إني جعلت أولًا ما كان ينبغي أن يكون آخرًا، فإن هذا الجزء هو الآخر باعتبار فتوحات العرب، ولكن قضت الأقدار بأن يكون هو الأول باعتبار ترتيب سياحتي التي بدأت فيها من الشمال إلى الجنوب، فرأيت أنا أولًا ما فتحوه هم أخيرًا، ورأيت آخرًا ما احتلوه هم أولًا.

وبالجملة فموضوع هذا الكتاب هو أيام العرب، في فرنسة وفي شمالي إيطالية وقلب سويسرة، وهو أول تأليف عربي مستقل في هذا الموضوع.

طلوزة Toulouse

كانت طلوزة في قديم الدهر حارات متفرقة، ولم تأخذ شكل مدينة إلا في أيام الرومانيين، ومن ثم صارت قاعدة مملكة التكتوزاجيين[٣] ومركز علم وصناعة، ودخلت فيها النصرانية بواسطة القديس سيرنيه، وبعد أن سقطت سلطنة رومة صارت طلوزة عاصمة ملوك القوط، وبقيت دار مملكتهم من سنة ٤١٩ للمسيح إلى سنة ٥٠٨، وكانت حينئذ قاعدة بلاد أكيتانية المنضمة إلى إسبانية، وسنة ٧٧٨ صارت كونتيَّة مستقلة، واشتهر من أمرائها الكونت ريموند الرابع، ولم تنضم إلى مملكة فرنسة إلا سنة ١٢٧١ للمسيح[٤]. ففي القرن الخامس كانت دار ملك القوط، وفي القرن السابع والثامن كانت مركز دوقية أكيتانية، وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر صارت قاعدة كونتية طلوزة، ولما شن العرب الغارة

على فرنسة كانت طلوزة من المدن التي قصودها لكنهم لم يتمكنوا منها كما تمكنوا من أربونة وقرقشونة وغيرهما.

وقد كانت غارة العرب على طلوزة في أيام إمارة السمح بن مالك الخولاني على الأندلس، وذلك لمضي إحدى عشرة سنة على دخول العرب إلى إسبانية كما سيأتي عند الكلام على غارات العرب في جنوب فرنسة.

قرقشونة CARCASSONNE

مدينة على نهر الأود Aude وقناة الجنوب وهي قسمان: الأول: الذي فيه القلعة وهو مبنى على متن رابية مشرفة على القسم الثاني، وفيه بعض بيوت وشوارع ضيقة وكنيسة معروفة بكنيسة سان نازير Saint-Nazaire من بناء القرن الحادي عشر، وجميع أبنية هذا القسم العالي لا تزال كما كانت في القرون الوسطى، وليس مثلها في كل فرنسة في هذا الباب، ولهذا هي مقصد السياح من كل فج. والقسم الثاني: هو الذي على شاطئ النهر، ويسمى قرقشونة الجديدة، وهي جديدة بالنسبة إلى قرقشونة القديمة التي على الرابية، ولكن هي في الحقيقة من زمن لويس التاسع ملك فرنسة، أي القديس لويس الذي عاش في أواسط القرن الثالث عشر.[٥] وأما تاريخ العرب فيها فالمشهور أنهم افتتحوها في سنة ٧١٣ للمسيح، وأنها بقيت في أيديهم إلى سنة ٧٥٩ على ما ستقرأه عند الكلام على غارات العرب في جنوبي فرنسة.

هوامش

(١) Terminus.

(٢) Carcassonue.

(٣) وهم جيل من الغولوا ولا نعلم Valces Tectosages هل هم الذين أشار إليهم صاحب نفح الطيب في أوائل الجزء الأول عند ذكر الأمم التي عمرت الأندلس وسماهم البشتولقات أم لا؟ وقد تكون اللفظة مصحفة عن تشتولقات، وفي صبح الأعشى يذكر الشبونقات ويقول: إنهم ملكوا الأندلس وبلاد الإفرنجة معًا، وإن القوط خرجوا عليهم.

(٤) Guide pratique illustré de Toulonse.

(٥) هو الذي قام بالحرب الصليبية وغزا مصر، ووقع في الأسر واعتقل في دار ابن لقمان وقيل فيه:

وقل لهم إنْ أزمعوا عودةً   لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها   والقيد باقٍ والطواشي صبيح

مبدأ غارات العرب على فرنسة وما اعتمدنا عليه من الروايات عنها

أهم كتاب وُضع في هذا الموضوع هو كتاب المستشرق الفرنسي الشهير المسيو «رينو»[١] الذي عاش في الثلثين الأولين من القرن الماضي، وكتابه يسمى «غارات العرب على فرنسة، ومن فرنسة على سافواي وبيمونت وسويسرة في القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحي بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين».[٢]

فإن جميع المؤرخين الأوربيين ذكروا غارات العرب على فرنسة بعد استيلائهم على إسبانية، وأجمعوا على أن شارل مارتل الذي يسميه العرب: «قارله» هو الذي أنقذ أوربة في وقعة «پواتييه» الشهيرة من الوقوع تحت سلطة العرب، وأنه لولا انهزام العرب في تلك المعركة لكانوا استولوا على أوربة كلها، وربما كانت بأجمعها قد دخلت في الإسلام، ولا نقدر أن نحصي ما جاء في كتب الأوربيين من فرنسيس وألمان وإنكليز وإسبانيول وطليان في هذا الموضوع، ولا نجد لزومًا لهذا الاستقصاء بعد أن قرروه في الجملة، وأجمع عليه مؤرخوهم وأيدت ذلك تواريخنا العربية، وإنما كان غرضنا في هذا الكتاب استقصاء جزئيات هذه الغارات العربية إلى قلب أوربة، والإحاطة بما يتسنى لنا من تفاصيلها، ولم نجد في هذا الباب كتابًا أوعى من كتاب المسيو رينو المذكور؛ لأنه وُضع خاصًّا بتاريخ هذه الغارات، ولأن واضعه هو من أشهر المحققين في المسائل التاريخية والمطلعين حق الاطلاع على اللغة العربية بحيث يمكنه عند كل رواية أن يقابل ما جاء عنها في الكتب اللاتينية القديمة بما جاء في الكتب العربية، وإنك لتجده لا يروي رواية ولا خبرًا إلا ذكر في الحاشية مأخذ تلك الرواية، أو ذلك الخبر مع تعيين المؤلف والمؤلَّف والجزء والصفحة، وأحيانًا خزانة الكتب التي فيها ذلك المؤلف، وقد يورد النصوص بعينها لا سيما إذا

كانت من التواريخ التي وضعت في عصر تلك الفتوحات، وكما أنه يستعمل هذه الدقة في الاستشهاد من كتب الإفرنجة فإنه يستعمل الدقة نفسها في الاستشهاد من كتب العرب، ومن أجل ذلك كان أكثر اعتمادنا في تاريخ هذه الوقائع على المستشرق المشار إليه، كما أننا اعتمدنا في تاريخ استيلاء العرب على قسم من شمالي إيطالية ومن أهالي سويسرة عليه أيضًا، وعلى مؤلف آخر من أهالي سويسرة الألمانية اسمه «فرديناند كيللر»[٣] سنأتي بتلخيص تأليفه بعد الانتهاء من تلخيص كتاب المسيو رينو، وسنقابل جميع رواياتهم بما لدينا من التواريخ العربية الشهيرة.

قال المسيو رينو في مقدمة كتابه:

جاء وقت كانت فيه فرنسة عرضة لغارات شعب أجنبي كان قد استولى على إسبانية وبلدان أخرى مجاورة لها، وجاء بدين جديد ولسان جديد وأوضاع جديدة، فأصبحت المسألة مسألة هل فرنسة وسائر ممالك أوربة التي لما تخضع لهذا الشعب الجديد تقدر أن تحتفظ بأعز ما يحتفظ به الإنسان من دين ووطن وأوضاع أم لا؟

وكان الناس يتساءلون عن كنه هذه الوقائع التي ترتب عليها احتلال ذلك الشعب لقسم من بلادنا ومن آية جهة وقعت، وأية أحوال أحاطت بها، وهل كان المغيرون كلهم من العرب، أم كانوا من أمم شتى؟ وما كانت نتائج هذه الغارات المتكررة كثيرًا؟ وهل بقي في البلاد منها آثار أم لا؟

ولقد جرى البحث أكثر من مرة عن هذه القضية، ولكن لم يعن أحد فيما يظهر لنا بأن يضع لهذا الموضوع تأليفًا خاصًّا يحيط بجميع الوقائع التي نحن بصددها ويستنبط منها نتائج عامة[٤] ولا شك في أن تأليفًا وافيًا بهذا الغرض ينبغي له الجمع بين الروايات الأوربية المسيحية والروايات العربية الإسلامية ليعرف قول الغالب وقول المغلوب معًا.

ومن مدة طويلة كان الناس في أوربة قد لحظوا أن روايات مؤرخي أوربة المسيحية عن هذه الوقائع لم تكن كافية، وأن الزمن الذي قد حصلت فيه هذه الحوادث، وأغار فيه العرب على فرنسة هو أشد الأزمنة على هذه البلاد وأحلكها سوادًا، ففي سنة ٧١٢ عندما بدأت هذه الحملات على فرنسة كانت هذه البلاد مقسمة بين إفرنج الشمال الذين كانوا يملكون «نوستريا»[٥] و«أوسترازيا»[٦] و«بورغونيا»[٧] وبين إفرنج الجنوب الذين كانوا يملكون «أكيتانية»[٨] من نهر اللوار إلى جبال البيرانه، وبين بقايا القوط الغربيين[٩] الذين كان بقي في أيديهم قسم من مقاطعة «لانغدوق»[١٠] وقسم من مقاطعة «بروفانس»[١١]

وكانت الفوضى قد وقعت في الحكومة والمجتمع، فلذلك لم تأتنا إلا معلومات ضئيلة عن ذلك العهد، ولم تبدأ الأخبار التاريخية تنجلي إلا في أيام «ببين» ابن «شارل مارتل» وفي أيام «شارلمان» بن «ببين»، ولكن في ذلك الوقت كان المسلمون قد نكصوا إلى الوراء، ثم عاد جو فرنسة فاربد ثانية في زمان أولاد لويس الحليم "Le Débonnaire" وجدد العرب غاراتهم على فرنسة أيام كان النورمنديون من جهة، والمجار من جهة أخرى يشنون مثلها ويعيثون في الأرض مفسدين.

ولا نقدر أن نقول: إن تواريخ العرب عن تلك الحوادث كانت مستوفية الشروط، فإن المؤلفين الذين كتبوا عنها جاءوا بعدها بزمن فلم يعاصروها، إلا أن يكون ثمة مؤرخون لم تصل إلينا كتبهم، فقد ذكر العرب أن لموسى بن نصير تاريخًا ألَّفه حفيده، وإن لأحد الشعراء قصيدة في تاريخ طارق بن زياد نظمها بعد عهده بقرنين، ولكن هذه الكتب التي كتبت بعد الحوادث بمدة غير قصيرة لم تكن مستوفية شروط التحقيق، وأكثر الأحيان يروي أصحابها روايات شفهية عن أفواه الرواة[١٢] وغير خافٍ أن العرب كانوا في ذلك الدور، دور الحماسة والمجد، لا يفكرون إلا في إعلاء شأن دينهم، فكان لا يهمهم شيء بقدر الشعر والضرب في أودية الخيال.

إذن حكاية العرب لوقائع غارات العرب على فرنسة كانت متأخرة عن زمن حدوثها في القرن التاسع المسيحي، كما أن منها ما لم يتعرض العرب للبحث عنه أصلًا.

ولقد كان في أيدي العرب وسائل لمعرفة أحوال فرنسة الداخلية وما جاورها؛ لأنهم عدا احتلالهم مدة مديدة جانبًا منها كانت صلاتهم مع هذه البلاد مستمرة، وكانت السفراء تختلف بين الفريقين الفينة بعد الفينة، فقد ذكر المسعودي أنه في نواحي سنة ٩٣٩ مسيحية توجه إلى قرطبة مطران جيرون من كتالونية وكان اسمه «غودمار» Godmar وذلك في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، وألف لولده الحكم المشهور بحبه للعلم تاريخًا لبلاد فرنسة من زمن كلوفيس إلى ذلك العهد[١٣] وكانت كتالونية أيام شارلمان خاضعة لملكة فرنسة، وكان مطران جيرون يعترف بسيادة لويس دوترمير Louis-d'Outremer وعليه نعتقد أن تاريخ فرنسة هذا الذي قال المسعودي: إنه عثر على نسخة منه في مصر تاريخ صحيح، ولكن مع الأسف لم نعلم عن هذا التاريخ شيئًا إلا هذا القليل الذي رواه منه المسعودي.[١٤]

ومما كان يشق جدًّا على العرب كثرة الأسماء الأعجمية من أسماء الرجال والبقاع التي كانت تعرض لهم، وكانت مجهولة عندهم، ولم يكن من المألوف عندهم وضع

الحركات، ثم كان نساخهم كثيري السقط في التنقيط فتبعد اللفظة عن أصلها بعدًا يجعلها مجهولة تمامًا.[١٥]

وقد كان مما يفيد في هذا الباب المسكوكات التي كان يضربها الفاتحون، إلا أن العرب في إسبانية وفرنسة لم يكونوا إلى القرن العاشر يعرفون سوى مسكوكات قرطبة، فأما مسكوكات ما قبل هذا التاريخ فلم يكن فيها شيء سوى آيات قرآنية، ولم يكن فيها ذكر ملك ولا أمير.

فمن أجل هذا كان من الصعب جدًّا معرفة أخبار العرب في الأدوار الأولى من استيلاهم على إسبانية، وأصعب منه معرفة أخبار استيلائهم على ما استولوا عليه من فرنسة.

ومن الكتب النفيسة في هذا الموضوع تاريخ «استيلاء العرب على إسبانية» الذي ظهر بالإسبانيولية في السنوات الأخيرة لمؤلفه «كوند» Conde الذي كان لديه كتب عربية كثيرة في مكتبة الإسكوريال وغيرها؛ فاستقى بدون شك من منابع غزيرة إلا أنه لم ينتدح له أن ينقح كتابه كما يجب، وربما كان هو نفسه غير ماهر في التمحيص.[١٦] وهناك تأليف آخر لم يطلع عليه كوند وهو مجموعة رسائل مفيدة في إيضاح تاريخ إسبانية أيام العرب بقلم «فوستينو بوربون» الذي اطلع على المخطوطات العربية التي في خزانة الأسكوريال، وكان معظم همه تخطئة «تاريخ إسبانية» تأليف «ماسدو» Masdeu.

وفي كتاب فوستينو بوربون هذا شواهد عربية محرفة إلا أنه عنده بصر بالنقد، وإنك لتجد في كلامه على جيوش العرب الفاتحين واختلاف أصولها الذي أدى إلى تنازعها تدقيقات لا يعرفها كوند.

إننا نحن لم نكن في هذا التأليف لنجهل المشكلات التي ستعترضنا في طريقنا، لكننا برغم ذلك وجدنا في استطاعتنا إضافة معلومات جيدة إلى ما تقرر في هذا الباب إلى حد الآن، وفي الغزوات العربية التي لم نجد لها أثر رواية إلا في كتب الأوربيين أمكننا أن نصل إلى أبعد مما وصل إليه «موراتوري»[١٧] والدون «بوكه».[١٨]

ولقد اتبعنا في عملنا هذا الطريقة الآتية، وهي أن نمحص عن الوقائع شهادات المعاصرين أو الذين كانوا في العهد أقرب من غيرهم إليها، ومهما قيل عن النقصان الذي في روايات المؤرخين المسيحيين الذين كانوا في ذلك العهد، فإننا قد وجدنا فيها ما يستحق كثيرًا من الاعتبار بحيث إذا تطابقت مع روايات العرب جزمنا بأن الحقيقة هي هناك، وأما إن لم تطابق روايات هؤلاء روايات أولئك، فإننا ننقل حينئذ ما قاله كلٌّ من

الفريقين ونبدي رأينا في ترجيح الأقرب إلى العقل، وأما المنابع التي لم نقدر أن نصل إليها فقد نبهنا عليها وأشرنا إلى أماكنها، وذلك كبعض وقائع رواها كوندي نقلًا عن كتب العرب فقد كان الأحسن أن ننقل تلك النصوص بعينها، ولكننا لم نظفر بها.

وفي آخر كتابنا هذا نذكر الشعوب التي انضمت إلى العرب، وأوشكت بالاتحاد مع العرب أن تُخضع أوربة كلها لشريعة القرآن، فنحن نطلق على الجميع اسم «سارازين» وهي لفظة لم يُجزم إلى الآن في وجه اشتقاقها، أو لفظ «المور» أي المغاربة؛ وذلك لأن العرب جاءوا أولًا إلى المغرب، ومنه دخلوا إلى إسبانية فسموا من أجل هذا مغاربة، وليعلم أنه في أثناء ما كان المسلمون يكتسحون أراضي فرنسة ويجتاحون شمالي إيطالية وبلاد سويسرة كانت منهم عصائب حاكمة في صقلية وجنوبي إيطالية، ولم يكن لغارات هؤلاء صلة بغارات أولئك، ولكن كان لها تأثير بعضها في بعض مما لم تفتنا الإشارة إليه.

ثم إنه في جميع البلاد التي احتلها العرب طويلًا أو قصيرًا كانت بقيت لهم آثار وسرت عنهم أخبار، فهنا كنت ترى قلعة كانوا يعتصمون بها عندما يجتاحون تلك الأرض، وهناك كانت مخاضة نهر أو قنطرة كانوا يأخذون عندها رسمًا على المارين، وهنالك كهف في واد كانوا يضعون فيه الغنائم، وعلى تلك الجبال أبراج متناوحة كانوا يتبادلون منها الإشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم، وهلم جرّا، فالآثار والأخبار التي لا ترتكز على دليل وثيق من ذلك العصر نفسه لم نتعرض لها.

ومثل ذلك فعلنا بالقصص التي قصها الرواة الذين لم يعاصروا تلك الحوادث، والتى هي أقرب إلى أن تكون من عمل خيالات القصاص المولعين بأخبار الحماسة والمغرمين بأحاديث المجد والرئاسة، ففي القصص التي ترويها الرواة عندنا أغلاط كثيرة؛ منها ما وقع فيه بعض مؤرخي ذلك الوقت مثل تلقيبهم المسلمين «السارازين» بلفظة «بايين» Payens أي: وثنيين، وذلك أن المسيحيين كان من عادتهم أن يسموا جميع الأمم السالفة للنصرانية «وثنيين» وجميع الأمم التي حاربها الإفرنسيس وثنيين، ومن جملة هؤلاء حسبوا المسلمين! ولهذا فقد عزوا إلى هؤلاء آثارًا ومباني وهياكل كانت في الحقيقة هي من عمل غيرهم، وليسوا منها في قبيل ولا دبير.

وكذلك لما كانت شهرة شارلمان قد غلبت شهرة الجميع فإن القُصَّاص نسبوا إلى أيامه حوادث وقعت من قبله، وحوادث أخرى وقعت من بعده، فالوقائع التي جرت في زمان شارل مارتل جعلوها في زمان شارلمان، وما زالوا ينسبون إلى أيام شارلمان غزوات جميع الإفرنج في بلاد المسلمين إلى القرن العاشر بل إلى آخر القرن الحادي عشر أي الزمن الذي استصرخ فيه مسلمو الأندلس يوسف بن تاشفين ملك المرابطين، فتأمل.

ومن هذا النمط تعمد بعض القصاص والزجالين أن ينحلوا أجداد ممدوحيهم فضل تحرير البلاد وطرد الأعداء، وذلك مثل قصيدة غيليوم ذي الأنف الأصلم الذي ينسب إليه الشاعر إجلاء العرب عن تولوز ونيم وأورانج وغيرها من مدن فرنسة.

ثم إنه كان المجار قد جاءوا من شرقي أوربة وعاثوا في نواحي فرنسة، فاختلط على الناس ما عاثه المجار بما عاثه العرب، بحيث كثيرًا ما كان أولئك القصاص يسمون المجار «سارازين» ويسمون الفاندال «سارازين»، وممن قال بذلك الأب «لوكوانت» P. Lecointe مؤلف التاريخ الإكليريكي في فرنسة والدون «مابيون» Mabillon والأب «باجي» Pagi والدون «فاسيت» Vaissette والدون «بوكه» Bouquet والحقيقة أنه لم يوجد دليل واحد من رواية مرجعها إلى القرن الثامن يدل على كون الفاندال اجتاحوا فرنسة في ذلك العصر، وقد يقال: إن هذه الأقاويل وردت في تواريخ القديس «دنيس» Saint-Denis الشهيرة التي هي الحجة الكبرى عند آبائنا، ولكن تواريخ القديس كتبت في أواسط القرن الثاني عشر، وقد حشر فيها كاتبوها كل الأساطير التي كانت تدور في ذلك الوقت، ولم يزل التاريخ لم يمحص ولم ينفصل عن الأقاصيص إلى القرن السابع عشر.

ولنعد إلى موضوع كتابنا هذا فنقول: ليست المسألة مسألة اجتياح بعض مقاطعات محدودة بل قد بقي جانب كبير من فرنسة ميدانًا لجيوش العرب مدة طويلة، ثم تجاوزوا منها إلى «سافواي» و«بيمونت» و«سويسرة» واحتلوا أمنع الحصون من قلب أوربة، وذلك من خليج «سان تروبيس» إلى بحيرة «كونستانزة» ومن نهر الرون وجبل «جورا» إلى سهول جبل «فرات» و«لومبارديه»، ومما لا جدال فيه أن تذكار الغزوات العربية في هذه الديار لم يكن بدون تأثير في الحملات الصليبية وفي هذه الحركة العامة التي اندرأت بها أوربة على آسية وإفريقية، ووضعت أصحاب الإنجيل في وجه أصحاب القرآن مدة قرون مستطيلة.

لقد فسحنا بهذا الكتاب مجالًا للباحثين في هذا الموضوع بحيث يمكن من يأتي بعدنا أن يأتوا بمعلومات جديدة عنه، ولما كانت الشقة بعيدة بين زمن هذه الوقائع والزمان الحاضر فقد بقيت في كتابنا مواضع كثير مفتقرة إلى الجلاء، ومع هذا فإنْ كنا قد قدرنا أن نلقي بعض الشعاع على هذا القسم الذي هو أغمض قسم من تاريخ فرنسة، فلا يكون ذهب عناؤنا سدى.

ولقد قسمنا كتابنا هذا إلى أربعة أقسام: الأول: ما يتعلق بحملات العرب الزاحفين من الأندلس مخترقين جبال البيرانه[١٩] إلى أن طردهم «بيين» القصير من «ناربون»

وكل «اللانغدوق» سنة ٧٥٩ مسيحية. الثاني: ما يتعلق بغارات العرب برًّا وبحرًا على «پروفانس» في نواحي ٨٨٩. الثالث: ذكر توغل المسلمين من پروفانس إلى «دوفيني» و«سافواي» و«بييمونت» وسويسرة. الرابع: شكل هذه الغزوات والنتائج التي ترتبت عليها.

انتهى ملخصًا كلام المستشرق الإفرنسي رينو في مقدمة كتابه.

ثم شرع رينو في سرد الوقائع فقال تحت عنوان: «القسم الأول في حملات العرب الأولى على فرنسة إلى عهد إخراجهم من أربونة واللانغدوق سنة ٧٥٩ مسيحية».

لما وصف أحد مؤرخي العرب كيفية فتح أبناء ملته لإسبانية، روي عن محمد ﷺ الكلمات الآتية: «زُوِيَتْ لِي مَشَارِقُ الأَرْضِ وَمغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِى مَا زُوِيَ لِي مِنْها».[٢٠]

وقد كاد يكون هذا هو الواقع، وجاء زمن ظن الناس فيه أن جميع الربع العامر سيعنو لراية النبي ﷺ، فإنه ما مضت سنوات قلائل حتى ضرب الإسلام بجرانه على العراق وفارس والشام ومصر وإفريقية إلى سيف الأوقيانوس الأطلنتيكي، ثم من إفريقية أغار العرب على إسبانية وما زالوا يجوسون خلال البلاد إلى أن بلغوا فرنسة، وصارت جميع قارة أوربة تحت خطر استيلائهم، ثم من الجهة الأخرى تجاوزوا سيحون وجيحون وما زالوا يفتحون البلدان حتى ظن أنه لن يقف في وجههم شيء إلا أن كان من الحدود الطبيعية التي للكرة الأرضية.

وكان مركز هذه السلطنة التي لا نهاية لها هو في سورية بمدينة دمشق القديمة، وكانت الرئاسة الروحية والدنيوية في الخلفاء بني أمية. وكان الخليفة يومئذ هو الوليد.[٢١]

وكان العرب قد وجدوا في إفريقية أمة تسكن جبال الأطلس اسمها البربر اشتهرت بصعوبة المراس، وبحب الحرية والاستقلال، وقاتلت القرطاجنيين والرومانيين من دونهما، وكان بعض هؤلاء البربر يهودًا وبعضهم نصارى وبعضهم وثنيين، وكان لهؤلاء البربر لسان خاص بهم، ومنهم من كان يتكلم بلغة تقرب من العربي والعبري والفينيقي[٢٢] فسواء كان هؤلاء البربر بقايا شعوب جاءت من أرض كنعان وفينيقية[٢٣] أو كانوا قد رحلوا من اليمن فرارًا من وجه الأحابيش الذين كانوا قد استولوا على بلاد اليمن[٢٤] فهذا التشابه في اللغة كان عاملًا كبيرًا في استقرار دولة العرب في إفريقية، وأعان البربر العرب في فتوحاتهم ومغازيهم، وأضف إلى ذلك كون العرب والبربر متشابهين أيضًا في البداوة، وسكنى الوبر، وشظف العيش، وطلب النجعة، وحب القتال، وشن الغارات.

هوامش

(١) Reinaud واسمه جوزيف رينو وُلد سنة ١٧٩٥ وتوفي سنة ١٨٦٧.

(٢) Invasion Des Sarrazins En France et De France en Savoie, en Pié-mont et dans La Suisse. Pendant les huitième, nenvième et dixième siècles de notre ère.

D'aprés Les auteurs Chréliens et Mahométans. Par M. Reinaud.

Membre de L'institut (Académie royale des inscriptions et belleslet-tres), conservateur — adjaint des manuscrits orientaux de la bibliothèque Royale, etc.

وهو يعبر عن المسلمين بلفظة «سارازين» التي قيل: إنها أُطلقت على العرب لكونهم غالبًا سمر الألوان أشبه بالحنطة السمراء التي يقال لها: «سارازين». وقيل: بل هي محرفة عن «سرا كنو» التي هي المسلمون بلغة الروم وهذه محرفة عن Scharaka أي شرقي أو «شراقة» أي شرقيين بالجمع، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أن ملك القسطنطينية سأل عنه: هل هو سراكنو؟ أي مسلم.

(٣) Der Einfall der Sarazenen in der Schaweiz nm die mitte des x. Yabrhenderis, Von Dr Ferdinand Keller. Mitheiluugen der autiquarischen Gesellschaft in Zurich.

غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر تأليف الدكتور فرديناند كيللر من مطبوعات جمعية الآثار القديمة في زوريخ.

(٤) على أن رينو يستدرك هنا بقوله: إنه سبقه فيه مؤرخان أحدهما صاحب «خلاصة تاريخية لحروب المسلمين في بلاد الغال» والآخر صاحب «التاريخ العام للقرون الوسطى» قال:

> Nous devons cependant Faire mention du “précis Historique des Guerres des Sarrazins dans les Gaules” par M. B … N. C. F. Paris 1810; “l' Histoire générale du moyen-age”, par M. Desmichels, Paris, 1831, T. II.

(٥) Neustrie بلاد واقعة بين نهر اللوار وبريتانيا الإفرنسية وبحر المانش ونهر الموز.

(٦) Austrasie في شرقي فرنسة قاعدتها متز.

(٧) Bourgogne مقاطعة ذات شأن في شرق فرنسة قاعدتها ديجون كانت مملكة مستقلة ثم صارت دوقية كبيرة، وكانت تجاذب ملك فرنسة الحبل، ولم تخضع تمامًا للتاج إلا سنة ١٤٧٧.

(٨) aquitaine مقاطعة من بلاد الغال القديمة تقع على ضفاف الغارون اليوم.

(٩) Visigoths القوط الغربيون سنة ٤١٢ مسيحية زحفوا على بلاد الغال، واستولوا عليها، وسنة ٤١٨ جعلوا طلوزة قاعدة ملكهم.

(١٠) Languedoc ولاية من جنوبي فرنسة قاعدتها طلوزة أو تولوز.

(١١) Provence كانت مملكة مستقلة لها ملوك ثم أكناد، ثم استلحقها الفرنسيس في زمان كارلس الثامن، وهي الآن تشتمل على بلاد الألب السفلى ومصاب الرون ومقاطعة القار وفوكلوز.

(١٢) يقول رينو في حاشية هذه الجملة ما يلي: ولا نقول شيئًا عن تاريخ «فتح العرب لإسبانية مرتين» لأبي القاسم طريف بن طارق أحد الذين حضروا الوقائع، فإن هذا التاريخ مفتعل وضعه في القرن السادس عشر للمسيح ميكال دولونا Miguel de Luna ترجمان الملك فيليب الثاني.

(١٣) قال رينو في الحاشية على هذه الجملة: «إن اسم غودمار واسم جيرون وجميع هذا المبحث قد تعاورها الحذف والتبديل في أكثر نسخ مروج الذهب للمسعودي التي في الخزانة الملوكية (في باريز)، وإنما اعتمدنا على نسخة كانت تخص المسيو شولز.» أ.هـ.

قلت: وجدنا في مروج الذهب للمسعودي طبعة مصر التي طُبعت بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هجرية سرد هذه الرواية كما يلي: وجدت في كتاب وقع إلى الفسطاط بمصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أهداه غومار الأسقف بمدينة زهرة من مدن الإفرنجة في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ولي عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت، في عهده: يا أمير المؤمنين إن أول ملوك إفرنجة «فلووزيه» وكان مجوسيًّا فتنصر هو وابنه لذريق وابنه دفشرت، ثم ولي بعده ابنه لذريق، ثم ولي بعده قركمان بن دفشرت، ثم ولي بعه ابنه تنين، ثم ولي بعده نازلة بن تنين وكانت ولايته ستًّا وعشرين سنة، وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس، وقد تواقع أولاده ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الإفرنجة

بسببهم، وصار لذريق بن نازلة صاحب ملكهم فملك ثمانيًا وعشرين سنة وستة أشهر، وهو الذي أقبل إلى طرطوشة فحاصرها، ثم ولي بعده ابنه نازلة، وهو الذي تهادى مع محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان محمد يخاطب بالإمام، وكانت ولايته تسعًا وثلاثين سنة وستة أشهر، ثم ولي بعده ابنه لذريق ستة أعوام، ثم وثب عليه قائد الإفرنجة المسمى برشة، وملك إفرنجة فأقام في ملكهم ثماني سنين، وهو الذي صالح المجوس عن المدة سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الإفرنج إليهم، ثم ولي بعده نازلة بن بغربرث أربع سنين، ثم ملك بعد نازلة أخوه ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، ثم ولي بعده لذريق بن نازلة وهو ملك إفرنجة إلى هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، واستوت مملكته عشر سنين إلى هذا التاريخ على حسب ما أتى إلينا من خبره. أ.هـ.

قلت: في الأسماء تحريف كثير عن الأصل، فأما «قلووزيه» فهو كلوفيس، هذا ظاهر، وإما أن له ولدًا اسمه «لذريق» فهذا الاسم بدون شك هو هنا خطأ من النساخ؛ إذ إنه لم يكن لكلوفيس أو قلووزيه ولد يقال له ذريق Rodrigue وإنما كان له ولد اسمه «كلودومير» Clodomir ولعل العرب لفظوها «قلذمير» فجاء النساخ للكتاب وقلبوها إلى لذريق، وأما «دفشرت» بن كلوفيس فهو تحريف أيضًا وأصله بدون شك «شيلدبرت» Cheldebert لأنه اسم أحد أولاد كلوفيس، وأما «تنين» فهو تحريف أيضًا وأصله «تييري» Thierry اسم أحد أبناء كلوفيس الذي كان له أربعة أولاد، هؤلاء الثلاثة، والرابع هو (كلوتير) Clotaire فأما نازلة فنظنه مجرد خطأ من النساخ، وربما كان أصل اللفظة «كلوتر» أو «كلاتر» ولم يحسنوا قراءتها وقلبوا راءها زايًا فابتعدت جدًّا عن أصلها، وأما قول المسعودي عن مؤلف هذا الكتاب إنه غومار مطران زهرة من مدن الإفرنجة، فقد تحققنا أن أصل اسمه غودمار وأنه من جيرون، وإنه كان أسقفًا على «سيريه» Ceret من مدن «روسيون» Roussilon التي هي اليوم من مدن ولاية البيرانه الشرقية من فرنسة، فزهرة تحريف عن «سيريه» أو «سره».

(١٤) غير موجود هذا التاريخ بالإفرنسية ولا بالإسبانية.

(١٥) هذا شأن الفريقين سواء العرب أو الإفرنج عندما يخوض كل فريق في لغة الفريق الآخر، فليس تحريف «شيلدبرت» إلى «دفشرت» إلا من قبيل تحريف ابن رشد إلى «أفرويس».

(١٦) اسم الكتاب Historia de la dominacion de los Arabes en Espana ذكر رينو أنه ظهر ترجمتان لهذا الكتاب بالإفرنسية إحداهما ترجمة ملخصة بقلم المسيو أوديفرة Audiffred في كتابه عن تحقيق تواريخ السنين، والثانية بقلم المسيو «دومارليس» De Marlés قلت: ونحن عندنا ترجمة دومارليس مع حواشيها، وسننقل في بعض الأماكن عنها، ولكن كتاب كوند هذا — والإسبانيول يقولون له: «كوندي» — موصوف بعدم الضبط وكثرة الخطأ، وأكثر من أنحي عليه بالتخطئة المستشرق دوزي الهولاندي الذي يعده الأوربيون أفضل مؤلف عن الأندلس قرأ ودري، وقال قديره Kodeira المستشرق الإسبانيولي الذي يقال إنه من أصل عربي: إنه لم يكن أشأم على تاريخ الأندلس من كتاب كوندي هذا.

(١٧) Muratori واسمه لودوفيكو أنتونيو مؤرخ آثاري طلياني توفي سنة ١٧٥٠.

(١٨) Don Bouquet اسمه مارتين: راهب بنديكتيني مؤرخ بحاثة مشهور وُلد في (آميين) Amiens بفرنسة وتوفي سنة ١٧٥٤.

(١٩) العرب يقولون: جبال البرانس.

(٢٠) ذكر رينو في الحاشية أن هذا الحديث ورد في تاريخ إسبانية للمقري وقال: إن منه مخطوطًا في الخزانة الملوكية وأنه عبارة عن مجموع في عدة أجزاء قد ألَّفه صاحبه في أوائل القرن السابع عشر، ونقل عن كتب لم تصل إلينا، وقد ظهر أن المؤرخ كوندي الإسبانيولي لم يطلع على هذا الكتاب. أ.هـ.

قلت: هذا الكتاب هو «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للعلامة أحمد بن محمد بن أحمد المقري المغربي التلمساني المالكي الأشعري رحمه الله، وهو من أشهر كتب الأدب والتاريخ في العربية، ألفه صاحبه في سنة ١٠٣٧هـ، وذلك في الشام حيث كان قد ألقى عصا التسيار بعد أن حج البيت الحرام وزار المسجد الأقصى، وقد ذكر في مقدمة الكتاب أن له بالشام تعلقًا من وجوه عديدة؛ أولها: أن الداعي لتأليفه أهل الشام. ثانيها: أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام. ثالثها: أن غالب أهل الأندلس هم من عرب الشام الذين اتخذوا بالأندلس وطنًا مستأنفًا. رابعها: أن غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها لشبهها بها في القصر والنهر والدوح والزهر ... إلخ.

أما حديث: «زُوِيَتْ لِي مَشَارِقُ الأَرْضِ وَمغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِى مَا زُوِيَ لِي مِنْها» فقد رواه مسلم وأحمد والنسائي، وهو مروي عن أبي الربيع العتكي وقتيبة بن سعيد

عن حماد بن زيد (واللفظة لقتيبة): حدثنا حماد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتى أن لا يهلكها بسنة بعامة» (وعلى رواية أخرى: بسنة عامة) وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة»، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها (أو قال: مَن بين أقطارها) حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا». أ.هـ.

(٢١) الوليد بن عبد الملك بن مروان.

(٢٢) استند رينو في ذلك على الجريدة الآسيوية الجديدة نقلًا عن مقدمة ابن خلدون، والأصح أن يكون ابن خلدون تكلم عن ذلك في تاريخه الخاص بالبربر، وهو أحسن تاريخ لهذه الأمة، وقد ترجم إلى الإفرنسية بقلم البارون «دوسلان» De Slane وأعيد طبعه سنة ١٩٢٧ تحت إشراف «بول كازانوفا» من أساتيذ مدرسة فرنسة Collège de France وهو جزءان.

(٢٣) استشهد رينو على هذه الرواية بكلام بروكوب Procope في تاريخ حروب الفندال وبتاريخ لوبو Lebeau الإفرنسي الذي ألف تاريخ دولة بيزنطية Histoire du Bas-empire.

(٢٤) استشهد رينو بكلام ابن خلدون وبتاريخ أهالي إفريقية الشمالية الذي وضعته لجنة من أكاديمية الآثار الكتابية والآداب بفرنسة، ونشر سنة ١٨٣٥ وبغير ذلك.

الفصل الأول

حملات العرب الأولى على فرنسة إلى عهد إخراجهم من أربونة واللانغدوق سنة ٧٥٩ مسيحية

خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد

فما رسخت أقدام العرب في إفريقية حتى فكروا في عبور بحر الزقاق الفاصل بين إفريقية وأوربة، وكان ذلك سنة ٧١٠م وأمير إفريقية من قبل الخليفة هو موسى بن نصير من أهل الحجاز، وُلد في زمان عمر بن الخطاب ورضع مع اللبن الغرام بالغزو حبًّا في نشر عقيدة التوحيد.[١] وكان عمره يوم قام بهذه الغزوات ثمانين سنة، ولكن كانت فيه همة الشبان تتوقد نارها لم يفتر منها شيء، وكانت إسبانيا تحت حكم القوط وكان الأمير عليها لذريق.[٢] وكان يتبعها من أرض فرنسة مقاطعة «روسيون»[٣] وقسم من «اللانغدوق»[٤] من (بروفنس)[٥] وكانت في إسبانية حواضر حافلة بالعمران زاهرة، إلا أن روح الانتقاض كان كامنًا في النفوس، وفساد الأخلاق كان قد تغلغل في جسم الأمة، فلم يكن عجبًا أن تسقط مملكة كهذه ولو عظيمة في ظاهرها بيد عدد قليل من المتدينين الأحامس الذين يسوقهم إلى الحرب حب الغنائم، فضلًا عما يعتقدونه من أنهم مرسلون من الله لهداية البشر.

فجرّب موسى التجربة الأولى ببعض برابر أجازهم إلى طريفة[٦] فعاثوا ونهبوا ولم يصادفوا مقاومًا فاشتد بذلك عزم موسى. وفي السنة التالية (٧١١) جرد تجريدة جديدة اثني عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر عقد عليهم لطارق بن زياد، فهزم طارق بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله، واحتز رأس لذريق وبعث به إلى الخليفة[٧] في دمشق. وفي أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة ومالقة وطليطلة، وقد روى أحد مؤرخي

العرب أنه لأجل أن يلقي الرعب في القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا في يده، وجعل من لحومهم شواء أطعم منه عسكره. وطارق بن زياد[٨] هو الذي سمي باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق، فالمسلمون المؤمنون كانوا يرون هذا الجهاد مما يزيد سواد المسلمين ويضمن لهم الجنة، والمسلمون الذين لم يكونوا يفكرون في أمر الآخرة قد رأوا في الأندلس قطرًا خصيبًا فياضًا بالخيرات، فيه كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. فاجتمعت إذن في هذا الفتح مقاصد الدنيا والآخرة، وانتظم فيه الاحتساب مع الاكتساب، ومما لا نزاع فيه أنه قد كان من أهم أسباب فوز طارق في الأندلس عضد اليهود الذين كانوا كثيرين في إسبانية، وكان المسيحيون يغلظون في معاملتهم ويعدون عليهم أنفاسهم فلما أقبل العرب وجدوا فيهم إخوانًا يأخذون بثأرهم[٩] وينفسون من خناقهم.

فلما بلغ موسى بن نصير ما فتحه الله على يد طارق هاج أشد هياج للأخذ بنصيبه من هذا الفتح، وأقبل بجيش من العرب والبربر[١٠] ومعه واحد من أصحاب محمد ﷺ عمره مائة سنة وكثير من أبناء الصحابة.[١١] وقد انتحى موسى طريقًا غير الطريق التي سلكها مولاه طارق، وفتح بلدانًا أخرى مثل ماردة[١٢] وسرقسطة[١٣] وكان أكثر جنده من الفرسان، وكانت تتبع كل كوكبة من فرسانه طائفة من حملة الأرزاق بالبغال، وإن مؤرخي العرب متفقون على أن موسى بن نصير وصل بغزواته إلى فرنسة، وأنه في «ناربون»[١٤] وجد في إحدى الكنائس سبعة تماثيل فضية منقوشة، وكذلك في قرقشونة عرضت لمطامعه في كنيسة «سانت ماري» سبعة أعمدة كبار هائلة من الفضة.[١٥]

وكان العرب يطلقون على فرنسة اسم «الأرض الكبيرة» ويعنون بها جميع الأرض الواقعة بين جبال البيرانه (التي يقول لها العرب: البرانس) وجبال الألب والأوقيانوس ونهر البا ومملكة الروم، وهذه البلاد تنطبق في الحقيقة على فرنسة في زمن شارل مارتل[١٦] وابنه ببين[١٧] ولا سيما في زمان شارلمان.[١٨] وكانت الأمم التي في هذه المملكة تتكلم بعدة لغات كما يقول مؤرخو العرب.

وقد كان أشد ما بُهت له المسيحيون أوانئذ أنهم كانوا يرون أعداءهم هؤلاء في كل مكان وفي وقت واحد، وكانت طريقتهم في الفتح أنه إذا خضع لهم بلد بدون قتال لم يعتدوا على سكانه في مالهم ولا في دينهم، وإنما كانوا يحولون جانبًا من الكنائس إلى جوامع ويغنمون ما فيها من النفائس، ويضعون أيديهم على الأراضي التي نزح أهلها وعلى الخيل والأعتدة التي كانت ضرورية لهم في تلك الغزوات المتواصلة، وكانت الجزية

التي يضربونها على الأهالي متفاوتة بحسب الأحوال، وربما أخذوا من الأهالي رهائن ليستوثقوا منهم، فأما البلاد التي لم تخضع لهم إلا بالسيف فقد كانت عرضة لجميع المظالم التي تصحب الفتوحات، وكان يضرب عليها ضعف جزية البلاد الخاضعة بلا قتال، وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها، وربما جعلوا في هذه الحامية بعض اليهود الذين كانت عداوتهم للمسيحيين أضمن سبب للثقة بهم.

وقد ذكر مؤرخو العرب في عرض الكلام على الفتوحات العربية في فرنسة أنه قد كان مقصد موسى بن نصير رحمه الله المعاد إلى دمشق حضرة الخلافة عن طريق ألمانيا مارًّا بالقسطنطينية وبآسية الصغرى، بحيث يصبح البحر المتوسط كله عبارة عن بحر متوسط للمملكة الإسلامية، يخدم مواصلات بعضها مع بعض، أما مؤرخو المسيحيين فلم يذكروا شيئًا عن دخول موسى إلى أرض فرنسة، ولعل زحفة موسى عليها كانت قاصرة على غارات سريعة مر بها كخطفة البازي ورجع. ومما لا مشاحة فيه أن النصرانية كانت يومئذ تحت أشد الأخطار، وأن الإنسان ليرتجف رعبًا عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحل بأوربة لو لم يقع الخلف من أول الأمر بين العرب الغالبين» أ.هـ كلام رينو ملخصًا.

وقد استشهد رينو هنا بكلام المقري فوجب أن ننقل قول المقري في هذا الصدد جاء في الصفحة ١٢٩ من الجزء الأول من نفح الطيب ما يأتي ببعض اختصار: كانت نفس موسى بن نصير تنزعج إلى جليقية (وهي ما يسميه الإفرنج Galicie غاليسيا وقاعدتها مدينة كان العرب يسمونها شانت ياقو Santiago ويقول لها الإفرنج Saint-Jacques De Compostelle) فبينما هو يعمل في ذلك ويعد له إذ أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج عن الأندلس والإضراب عن الوغول فيها، فساءه ذلك وقطع به عن إرادته؛ إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقت ذلك غير جليقية، فكان شديد الحرص على اقتحامها، فلاطف موسى مغيثًا رسول الخليفة وسأله أنظاره إلى أن ينفذ عزمه في الدخول إليها ويكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك (هو في الإفرنجية Luque) فأقام هناك وبث السرايا حتى بلوغ صخرة بلاي على البحر الأخضر، وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية، وسكنت العرب المفاوز، وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس، وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوة الأمل إذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى: أبا

نصر أردف به الوليد مغيثًا لما استبطأ موسى في القفول، وكتب إليه يوبخه وألزم رسوله إزعاجه، فانقلع حينئذ من مدينة «لك» بجليقية وخرج على الفج المعروف بفج موسى، ووافاه طارق في الطريق منصرفًا من الثغر الأعلى، فأقفله مع نفسه ومَضَيا جميعًا، وقف معهما الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلوا أشبيلية، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس وأقره بمدينة أشبيلية لاتصالها بالبحر، وركب موسى البحر إلى المشرق بذي الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه، وكان مقام طارق قبل دخول موسى سنة، وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر، وحمل موسى الغنائم والسبي وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة (سيأتي ذكر ذلك كله في محله من الجزء الآتي) منوهًا بها ومعها من الجواهر ما لا يقدر قدره، وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاته آسف على ما لحقه من الإزعاج، وكان يؤمل بأن يخترق ما بقي عليه من بلاد إفرنجة ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس في الشام، متخذًا مخترقه بتلك الأرض طريقًا مهيعًا يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحرًا، وقيل: إنه أوغل في أرض الفرنجة حتى انتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنمًا عظيمًا قائمًا كالسارية مكتوبًا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فإذا هي: «يا بني إسماعيل انتهيتم فارجعوا» فهاله ذلك، وقال: ما كتب هذا إلا لمعنى كبير، فشاور أصحابه في الإعراض عنه وجوازه إلى ما وراءه فاختلفوا عليه، فأخذ برأي جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصي الغاية أ.هـ.

وجاء في نفح الطيب بعد ذلك بصفحتين ما يأتي: وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا في الحجر بعدما تقدم من الكتابة التي هي: ارجعوا يا بني إسماعيل ... إلخ ما معناه: (وإن سألتم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض).[١٩] أ.هـ.

وقال ابن خلدون عن دخول موسى بن نصير إلى الأندلس ما يلي:

> نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، فوافوا خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء، فأجاز إلى الأندلس، وتلقاه طارق فانقاد واتبع. ويقال: إن موسى لما سار إلى الأندلس عبر البحر من ناحية الجبل المنسوب إليه المعروف اليوم بجبل موسى، وتنكب النزول على جبل طارق وتمم الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة المشرق، وأربونة في الجوف، وصنم قادس في الغرب، ودوَّخ أقطارها وجمع غنائمها، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية، ويتجاوز إلى

الشام دروب الأندلس ودروبه، ويخوض إليه ما بينهما من بلاد أعاجم أمم النصرانية مجاهدًا فيهم ومستلحمًا لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق، ونمى الخبر إلى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما همَّ به موسى تغرير بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف وأسرَّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده، ففتَّ ذلك في عزم موسى وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية في ثغورها، واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة، واحتل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها، بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر. يقال: إن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي. وولَّى على إفريقية ابنه عبد الله، واندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية المغرب، فكان صاحب القيروان ناظرًا في الجميع، وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك وقد ولي الخلافة بعد الوليد فسخطه ونكبه. وثارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته بإغراء الخليفة سليمان، وكان خيِّرًا فاضلًا وافتتح في ولايته مدنًا كثيرة، وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وكان سبب غضب سليمان على موسى أنه لما توجه إلى المشرق وانتهى إلى مصر وصل أشرافها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد، ووافاه كتابه يستحثه على القدوم، ووافاه كتاب آخر من سليمان يثبطه، فأسرع موسى باللحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام ودفع إليه ما معه من الذخائر والأموال، فغاظ ذلك سليمان، وأساء مكافأته حين أفضى الأمر إليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع، وكانت وفاة موسى رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين، وقيل غير ذلك. أ.هـ.

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني: ارتدت البربر اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر إسلامهم حتى عبر موسى بن نصير البحر إلى الأندلس، وأجاز معه كثيرًا من رجالات البربر برسم الجهاد، فاستقروا هنالك فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه وتناسوا الردة. أ.هـ.

وقال ابن عذارى المراكشي في «المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» ما يلي:

> وفي سنة ٩٦ توفي الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة وولي الخلافة سليمان فغضب على موسى غضبًا عظيمًا وأمر عليه فأوقف في يوم شديد الحر في الشمس، وكان رجلًا بادنًا ذا نسمة، فوقف حتى سقط مغشيًّا عليه، وقال له سليمان: كتبت إليك فلم تنظر كتابي هلمَّ مائة ألف دينار. فقال: يا أمير المؤمنين، قد أخذتم ما كان معي من الأموال فمن أين لي مائة ألف؟ فقال سليمان: لا بد من مائتي ألف. فاعتذر، فقال: لا بد من ثلاثمائة ألف دينار، وأمر بتعذيبه وعزم على قتله. فاستجار بيزيد بن المهلب، وكانت له حظوة عند سليمان فاستوهبه منه وقال: يؤدي ما عنده. وقيل: إن موسى افتدي من سليمان بألف ألف دينار. ذكر ذلك ابن حبيب وغيره. ثم إن يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى فقال له: يا أبا عبد الرحمن، في كم تعتد أنت وأهل بيتك من الموالي والخدام، أتكونون في ألف؟ فقال: نعم وألف وألف. قال: فلم ألقيت بيدك إلى التهلكة؟ أفلا أقمت في قرار عزك وموضع سلطانك؟ فقال: والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئًا، ولكني آثرت الله عز وجل ولم أرَ الخروج عن الطاعة. أ.هـ.

قلت: لم يكن يزيد بن المهلب بالذي يجهل فضل الطاعة للخليفة وشناعة شق العصا، ولكنه قال لموسى هذا الكلام لما أثار من غيظه عمل خليفة كسليمان بن عبد الملك برجل عظيم خدم الإسلام ما لم يخدمه أحد مثل موسى بن نصير، فقد كافأه بما لا يكافأ به مجرم، وهو في الحقيقة لا من أعاظم رجال الإسلام فقط بل من أعاظم رجال العالم، وحسبك أنه هو الذي دوخ البربر المشهورين بشدة البأس وصعوبة المراس بعد أن أشعلوا ثورات، لا ينادى وليدها ولا يحصى عديدها، وبعد أن ارتدوا عن الإسلام اثنتي عشرة مرة، فلم يستقر إسلامهم إلا على يد موسى بن نصير، وحسبك أنه دخل الأندلس واستتم فتحها واستصفى ممالكها وهو ابن ٧٥ سنة، وكان جميع جيشه هو وطارق لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل، ولو أن قائدًا معه ثلاثمائة ألف مقاتل ما أحاط بالأندلس وأثخن فيها ما أحاطه موسى وأثخنه في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تموج حواليه كالأبحر الزاخرة، وما رأى الأندلس وحدها كفؤًا لهمته بل حدثته نفسه التي قل مثلها في نفوس البشر في بُعد الهمة، أن يوغل في أرض الإفرنج، ويعطف منها إلى الشرق حتى ينفذ من القسطنطينية.

وقرأت في «تاريخ دول الإسلام» للإمام الذهبي أن موسى بن نصير توفي في وادي القرى عن ٧٨ عامًا، وأنه كان يقول: لو أطاعني عسكري نفذتهم حتى أفتح رومية.

وروى ابن عذارى أنه أقام على المغرب والأندلس أميرًا نحوًا من ١٨ سنة.

ومما ذكر في وفاته أنه حج مع الخليفة سليمان فلما وصلا إلى المدينة قال موسى لأصحابه: ليموتن بعد غد رجل قد ملأ ذكره المشرق والمغرب، وبالفعل كان موسى الرجل الذي ملأ اسمه المشرق والمغرب، وكان في الرجولية كالصخرة التي تنحط عنها السيول.

هذا ولم يكتفِ سليمان بنكبة موسى في شخصه حتى نُكب جميع أولاده، فأمر محمد بن يزيد أمير إفريقية بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه واستئصال أموال بني موسى، فسجنه محمد وعذبه ثم قتله، وأما عبد العزيز بن موسى فقد رُويت في أسباب قتله روايات كثيرة، أقربها إلى العقل أنه لما بلغه ما حلَّ بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع طاعة بني مروان، فجاء أمر سليمان إلى وجوه العرب بالأندلس بقتله، فقتلوه وحمل رأسه ورأس أخيه عبد الله حتى وضعا بين يدي أبيهما موسى وهو في عذابه.[٢٠]

قال ابن عذارى: «فكان فعل سليمان هذا بموسى من هفوات سليمان التي لم تزل تنقم عليه».

قلت: من هفوات ابن عذارى أن يعبر عن أعمال سليمان هذه بلفظة هفوات، وهي في الواقع من الجرائم التي لا تُغفر، ولكن مما لا يجوز أن ننساه أن موسى بن نصير أخذته الغيرة مما وفق إليه طارق بن زياد من الفتوح، وأهانه بعد أن تلاقيا في الأندلس، وكان هذا العمل الصغير غير متناسب مع كبارة نفس موسى وعلوّ همته، ولم يخلُ من تأثير في قضية نكبته؛ لأن طارقًا شكا إلى الخليفة ما فعله به وظاهره في ذلك مغيث الرومي رسول الوليد إلى الأندلس. قال صاحب «أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم» وهو من أقدم ما كتب من تواريخ الأندلس يظهر أن صاحبه حرره[٢١] في عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر: أنه لما دخل موسى الأندلس كان ذلك سنة ثلاث وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفًا — وهذا خلاف الرواية التي نقلها المقري وهي أنه دخلها بعشرة آلاف — وقد بلغه ما صنع طارق فحسده، فلما نزل الجزيرة قيل له: اسلك طريقه. قال: ما كنت لأسلك طريقه. فقال له العلوج الأدلّاء: نحن ندلك على طريق هي أشرف من طريقه، ومدائن هي أعظم خطبًا من مدائنه لم تُفتح بعد يفتحها الله عليك إن شاء الله، فامتلأ بذلك سرورًا، فكأن فعل طارق قد غمَّه، فساروا به إلى مدينة شذونة فافتتحها عنوة ألقوا بأيديهم إليه، ثم سار إلى مدينة قرمونة[٢٢]

فقدم إليها العلوج الذين معه، وهي مدينة ليس في الأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن ترجى بقتال أو حصار، وقد قيل له حين دعا إليه: ليست تؤخذ إلا باللطف، فقدَّم إليها علوجًا ممن قد أمنه، واستأمن إليه مثل (يليان) ولعلهم أصحاب يليان، فأتوهم على حال الأفلال معهم السلاح فأدخلوهم مدينتهم، فلما دخلوها بعث إليهم الخيل ليلًا وفتحوا لهم باب قرطبة — من أبواب قرمونة — فوثبوا على أحراسه ودخل المسلمون قرمونة، ومضى موسى إلى أشبيلية وهي أعظم مدائن الأندلس شأنًا وخطبًا وأعجبها بنيانًا وآثارًا، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس، فلما غلب القوطيون حولوا السلطان إلى طليطلة، وبقي شرف الرومانيين وفقههم ودينهم ورئاستهم في دنياهم بأشبيلية، فأتاها موسى بن نصير حتى حصرها أشهرًا، ثم إن الله فتحها وهرب العلوج إلى مدينة باجة، فضم موسى يهودها ومضى إلى مدينة ماردة، وكانت أيضًا دار بعض ملوك الأندلس، ذات آثار وقنطرة وقصور وكنائس تفوت الوصف، فحصرها وقد كان أهلها خرجوا إليه وزحمهم دفعة، فقاتلوه من سورها على قدر ميل أو أكثر قتالًا شديدًا، فلما رأى خروجهم إليه أبصر فيها حفرًا كانت مقاطع للصخر فأكمن فيها الرجال والخيل ليلًا، فلما أصبح زحف إليهم فخرجوا إليه كهيئة خروجهم بالأمس، فركبهم المسلمون وخرج عليهم الكمين وقتلوا قتلًا ذريعًا، ونجا من نجا منهم إلى المدينة، وهي مدينة حصينة لها سور لم يَبنِ الناسُ مثله، فثبت عليهم يقاتلهم أشهرًا حتى عمل دبابة فدبَّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراجها فنقبوا صخره، فلما نزعوا صخره أفضوا في داخله إلى الصماء التي يقال لها: «اللاشّة ماشّة» بلسان أهل الأندلس، فنبت عنها معاولهم وفئوسهم، فبينا هم يضربون فيها إذ استفاق عليهم العلوج فاستشهد المسلمون تحت الدبابة فسمي بذلك البرج «برج الشهداء» إلى اليوم، وما أقل من يعرف هذا، وكان فتحه لها في رمضان سنة أربع وتسعين يوم الفطر، فلما كان من أمر الشهداء ما كان، قال العلوج: قد كسرناه، فإن كان يومًا مجيبًا إلى الصلح فاليوم فاطلبوه إليه، فخرجوا إليه فألفوه أبيض اللحية فراوضوه على شيء لم يوافقه ثم رجعوا، فلما كان قبل العيد بيوم خرجوا إليه ليراوضوه، فإذا هو قد شبب لحيته بالحناء فألفوه أحمر اللحية، فعجبوا، وقال قائلهم: أظنه يأكل ولد آدم، أو ما هذا الذي رأيناه بالأمس؟ ثم خرجوا إليه يوم الفطر فإذا اللحية سوداء فرجعوا إلى أهل مدينتهم فقالوا: يا حماقى، إنما تقاتلون أنبياء يتخلقون، كيف شاءوا يتشببون[٢٣] قد صار ملكهم حدثًا بعد أن كان شيخًا، اذهبوا فأعطوه ما سأل، فصالحوه على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين، وأموال

الكنائس وحليها له، ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر في سنة أربع وتسعين، ثم إن عجم أهل أشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين، وجاءوا من مدينة يقال لها: لبلة. ومدينة يقال لها: باجة. وقتلوا من بها من المسلمين — قُتل فيها ثمانون رجلًا — فقدم فلّهم على موسى بن نصير بماردة، فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش إلى أشبيلية فافتتحها ورجع، ثم مضى موسى من ماردة في عقب شوال يريد طليطلة، وبلغ طارقًا إقباله فخرج معظمًا له متلقيًا، فلقيه بكورة طلبيرة، فلما رآه نزل إليه، فوضع موسى السوط على رأسه، ووبنه فيما كان من خلاف رأيه، ثم سار به إلى مدينة طليطلة، ثم قال له: أحضرني بما أصبت وبالمائدة[٢٤] فأتاه بها وقد اقتلع رجلًا كسرها من أرجلها فقال له: أين هذه الرجل؟ فقال: إني لا علم لي، كذلك أصبتها. فأمر بالرِّجل فعمل لها من ذهب، وعمل لها سفط من خوص فأدخلها فيه ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومداينها. أ.هـ.

ولم يرد في «أخبار مجموعة» أن موسى دخل بلاد إفرنجة، ومقتضى كلام صاحب هذا التاريخ أن هذا حصل من بعده، فإنه يذكر بعد ولاية موسى بن نصير ولاية ابنه عبد العزيز، ولا يذكر أن مقتل عبد العزيز كان بإشارة من سليمان بن عبد الملك كما ذكر كثيرٌ من المؤرخين، ولا يقول إن عبد العزيز بن موسى خرج عن الطاعة بعد ما بلغه ما فعل الخليفة بأبيه، بل بالعكس هو يقول: إنه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شقَّ ذلك عليه وأمر عبيد الله بن زيد عامله على إفريقية بأن يتشدد في قضية قتل عبد العزيز، وأن يقبض على حبيب بن أبي عبيدة وزياد بن النابغة اللذين قتلاه، وأن يقفلهما إليه مع من شركهما في قتله من وجوه الناس.

الولاة على الأندلس بعد موسى بن نصير

وهو يذكر أن أهل الأندلس ولوَّا عليهم بعد عبد العزيز واليًا صالحًا كان يؤمهم في صلاتهم هو «أيوب بن حبيب اللخمي»[٢٥] ابن أخت موسى بن نصير، وتولى بعده «الحر بن عبد الله الثقفي»، ثم في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تولى السمح بن مالك الخولاني، وأمره الخليفة بأن يخمس الأراضي ويخرج منها ما كان عنوة خمسًا لله من أرضها وعقارها، وبقر القرى في أيدى غُنَّامها بعد أن يأخذ الخمس، وأمره بأن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها، وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين.

قال صاحب «أخبار مجموعة»: وليت الله كان أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله.

وهذه العبارة تدل على أن عقلاء المسلمين من أول الفتح، وفي أيام عنجهية العرب بالأندلس، وأيام كانت قرطبة عاصمة فيها مليون ونصف من السكان، وكان في الأندلس من عز الإسلام ما كان، لم يزالوا يستشعرون خطر المقام بتلك البلاد نظرًا لانقطاعها عن بلاد الإسلام، ولكثرة فتن العرب بعضهم مع بعض، وفتن العرب مع البربر وغير ذلك.

هذا وبعد السمح بن مالك الخولاني تولى عنبسة بن سحيم الكلبي، ثم يحيى بن مسلمة الكلبي، ثم عثمان بن أبي سعيد الخثعمي، ثم حذيفة بن الأحوص القيسي، ثم الهيثم بن عقير الكناني، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي استشهد في واقعة بلاط الشهداء[٢٦] ثم عبد الملك بن قطن المحاربي القرشي.[٢٧]

قال صاحب «أخبار مجموعة»: وكان من وصفنا مَن الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد حتى بلغو إفرنجة وحتى افتتحت عامةُ الأندلس. أ.هـ.

وذكر المؤرخ (كوندي) الإسبانيولي أن الحر الثقفي هو الذي تجاوز حدود الأندلس إلى بلاد إفرنجة ونواحي أربونة وسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم.

وقال: إن غزو الحر لإفرنجة وصرف قوته إلى الجهاد في بلاد الغال كانا من الأسباب التي سهلت للمسيحيين الملتجئين إلى جبال آستوريا الاجتماع على العصيان، وزرع نواة المقاومة ووضع أساس دولة مسيحية في إسبانية محل الدولة التي كان قد بادت، وقد انضم إلى هذا السبب سبب آخر أراد الله به تيسير أمرهم هو سخط الناس على إدارة الحر، وتبرم الدهماء بعسفه، المسلمون والمسيحيون في ذلك سواء، فإن الحُر كان قد آسف الخاصة والقواد والأمراء وصاروا إلبًا عليه، وكانت الأهالي في غاليسيا وليون والجبال الأشتورية حديثة العهد بالخضوع للعرب، فثقل عليهم الظلم أكثر مما ثقل على الذين أطاعوا من قبل، وظهر في ذلك الوقت رجل استفاد من هذه الأحوال الروحية في الشعب وجمع شمل بقايا حزب المقاومة وثار به، وهو بيلاي[٢٨] أول ملك للإسبانيول بعد دخول العرب للأندلس أ.هـ.

وذكر صاحب «أخبار مجموعة في فتح الأندلس وأخبار أمرائها والحروب الواقعة بينهم» أن عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث، مولى بني سلول من قيس، عندما ولاه الخليفة مصر أقر بشر بن صفوان على إفريقية وولى عقبة بن الحجاج السلولي الأندلس فدخلها سنة ١١٠ وافتتح الأرض حتى بلغ أربونة.

ثم ذكر أنه لما وقعت الواقعة بين العسكر الشامي وعبد الملك بن قطن أمير الأندلس في خبر سيأتي ذكره في الجزء الآتي، وقتل الشاميون عبد الملك وصلبوه في قرطبة، كان ابناه في نواحي أربونة. قال صاحب «أخبار مجموعة»: فلما بلغ ابْنَيْهِ ما كان حشدًا من أقصى أربونة ورَاجَعَا أهل البلد والبربر، وسيُوفُهم تقطر من دماء البربر، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام[٢٩] فإذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأي، فأقبل قطن وأمية ومعهما عبد الرحمن بن حبيب، وأقبل معهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب أربونة، فأقبلوا في مائة ألف أو يزيدون أ.هـ.

ومن هنا يعلم القارئ ما كان من بال العرب بأربونة منذ خيم الإسلام بعقرتها، وما كان من وفرة جيوشهم فيها لأجل الرباط وسداد الثغور.

رجع إلى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسة

نعود إلى كلام المستشرق «رينو» في موضوع غارات العرب على جنوبي فرنسة، فهو يذكر أن فتن العرب المستمرة المصطلمة، بعضهم مع بعض، قد نفَّست من خناق المسيحيين في الأندلس وإفرنجة، ويقول: إن معظم اهتمام الخلفاء كان وقتئذ توجه إلى الاستيلاء على القسطنطينية التي كانوا أغزوها جيشًا عدته مائة وعشرون ألف مقاتل، وأسطولًا عدده ألف وثمانمائة سفينة، ولا شكَّ أن سموهم إلى فتح شرقي أوربة شغلهم عن الزحف على غربي أوربة، ولكنه يقول: إن مؤرخي العرب ذكروا مع ذلك بعض غارات على «اللانغدوق» في أيام ولاية الحر الثقفي سنة ٧١٨ مسيحية.

وقد أيد هذه الرواية «أيزيدور» أسقف «باجة»[٣٠] وهو من المؤرخين الذين عاشوا في ذلك العصر، و«لذريق شيمنيس» مطران طليطلة[٣١] وقالوا: إن العرب زحفوا إلى الأمام حتى وصلوا إلى مدينة «نيم»، ولم يجدوا مقاومًا ورجعوا بالغنائم والسبي الكثير.

قال رينو: ولم تكن مقاطعات جنوبي فرنسة لتقدر أن تقف في وجه العرب المندفقين عليها من جبال البيرانه، وكان الحكم للدولة المعروفة بدولة «الكسالى»[٣٢] إذ ذاك، وكانت بلاد اللانغدوق يقال لها: «القوطية» Gotie بسبب طول مقام القوط بها، وقد يقال لها أيضًا: «سبيتمانية» أي «السبعية» لاشتمالها على المدن السبع: أربونة، ونيم، واقد، وبيزيه، ولوديف، وقرقشونة، وماقلونة.[٣٣] وكانت من جملة مملكة «أود» دوق اكيتانيه[٣٤] وكان هذا يدعي أنه من ذرية الملك كلوفيس[٣٥] وبهذا السبب كان من أبناء عم ملوك فرنسة الشمالية فكان يكره بطبيعة الحال حُجَّاب القصر، الذين قد استولوا

على الأمور واستبدوا بها من دون الملوك، ولم يبقَ لهم همٌّ إلا في توطيد سلطتهم وسلطة جنس الفرنج[٣٦] في تلك المملكة مما ثني أعنتهم عن صد العرب الموجفين على جنوبي فرنسة.

فصارت بلاد اللانغدوق والبروفانس متروكة لأهلها الغاليين[٣٧] وكان هؤلاء شعبًا مركبًا من أعقاب الرومانيين القدماء ومن القوط، وكانت لكل من الفريقين عادات خاصة وشرائع يمتاز بها، فلم يكن من واقٍ لجنوبي فرنسة في ذلك الوقت أحسن من وقوع بأس العرب فيما بينهم، وذلك أن حكومة إسبانية العربية كان مرجعها القيروان في إفريقية، وحكومة إفريقية كانت عائدة إلى دمشق دار الخلافة، فلم يكن من الممكن أن تكون سلطة موزعة إلى هذا الحد، وأن تتعدد مراكزها كل هذا التعدد وأن يستتب بها النظام، وأن تقيم على الطاعة رجالات نشأوا في ظلال السيوف، ثم إن النزاع كان وقع بين العرب والبربر، وبين المسلمين وغير المسلمين من الجيوش الفاتحة، ولما كانت أراضي المسيحيين التي دخلت في حوزة الفاتحين قد صارت إلى أيدي عدد من ذوي الأطماع، وحرم كثير من المستحقين الفيء الذي يستحقونه، أدَّى ذلك النزاع أخيرًا إلى القتال، وسالت الدماء ومشت الصفوف بعضها إلى بعض، وهناك سبب آخر كان به أعظم الفرج لفرنسة، نَفَّس من خناقها وأرخى من رباقها وهو انتفاض عصابة من مسيحيي إسبانية فيهم شِماس، وصعوبة مراس ثاروا بالعرب ثورة الضواري، وأبوا إلا الدفاع عن دينهم ووطنهم، فلجأوا إلى جبال آستورية[٣٨] وغاليسية[٣٩] ونابار.[٤٠] وهناك بدأوا بمقاومة لم تضع عصاها إلا بإجلاء المسلمين أجمع عن تلك البلاد.

وكان الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز اطلع على ما دبَّ من الخلل إلى موقف العرب بالأندلس، فأنفذ إليها السمح بن مالك الخولاني أميرًا، وعهد إليه بإصلاح الأمور ورمِّ الثغور، وكان السمح مدبرًا حكيمًا وقائدًا باسلًا وسائسًا حازمًا، ذا دربة بتمشية الأمور، فرتق الفتوق، ووازن بين الدخل والخرج، وأنصف الجند في الأعطيات، ووزع على المجاهدين جانبًا من الأراضى، وعهد بما بقي منها إلى وكلاء من ذوي الأمانة ورد ريعها إلى بيت المال، وكان الخليفة قد أمر السمح بأن يقدم له بيانًا عن البلدان المفتوحة وما فيها من النفوس والجبايات، ليبرم في أمر الأندلس رأيًا، فقد كان عمر بن عبد العزيز شديد الخوف على الإسلام، وكان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين في تلك البلاد، واستشعر من ورائهم خطرًا على مستقبل المسلمين، ففكر في إجلاء مسيحيي إسبانية وجنوبي فرنسة إلى إفريقية حيث لا يكون من وجودهم تهلكة على الدولة، إلا

أن السمح طمأن مخاوف الخليفة قائلًا له: إن الإسلام ينمو وينتشر وتمتد شماريخه بسرعة في إسبانية، وأنه لا يبعد اليوم الذي تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد. روى ذلك بعض مؤرخي العرب وأسفوا من كون السمح بن مالك الخولاني لم يعمل برأي الخليفة في هذا الموضوع.[٤١] انتهى.

ولنقابل الآن كلام رينو وكلام من نقل عنهم من مؤرخي الإسبانيول والإفرنج بكلام العرب لتزداد الحقائق وضوحًا فنقول: نقل المقري في النفح عن ابن حيان ما يلي:

قالوا: إن موسى اصطلح مع طارق وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته على رسمه، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه وسار موسى خلفه في جيوشه فارتقى إلى الثغر الأعلى، وافتتح سرقسطة وأعمالها، وأوغل في البلاد، وطارق أمامه، لا يمران بموضع إلا فتح عليهما وغنَّمهما الله تعالى ما فيه، وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة لم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه، ويوثِّق للناس ما عاهدوه عليه، فلما صفا القطر كله وطمأن نفوس من أقام على سلمه، ووطَّأ لأقدام المسلمين في الحلول به أقام لتمييز ذلك وقتًا، وأمضى المسلمين إلى إفرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا حتى انتهوا إلى وادي «ردونة»[٤٢] فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم، وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلد إفرنجة، فملكت مدينتي برشلونة[٤٣] وأربونة[٤٤] وصخرة «أبينيون»[٤٥] وحصن «لودون»[٤٦] على وادي ردونة، فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جدًّا، وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد إفرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخًا، وقيل: ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخًا. ولما أوغل المسلمون إلى أربونة ارتاع لهم قارله ملك الإفرنجة بالأرض الكبيرة وانزعج لانبساطهم، فحشد لهم وخرج عليهم في جمع عظيم، فلما انتهى إلى حصن لودون، وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه، وأقبل حتى انتهى إلى صخرة أبينيون فلم يجد بها أحدًا، وقد عسكر المسلمون قدَّامه فيما بين الأجبل المجاورة لمدينة أربونة، وهم بحال غرة لا عيون لهم ولا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله، فاقتطعهم عن اللجا إلى مدينة أربونة، وواضعهم الحرب فقاتلوا قتالًا شديدًا استشهد فيه جماعة منهم، وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ودخلوا المدينة ولاذوا بحصانتها، فنازلهم بها أيامًا أصيب له فيها رجال، وتعذر عليه المقام وخامره ذعر وخوف مدد للمسلمين، فزال عنهم راحلًا إلى بلده، وقد نصب في وجوه المسلمين حصونًا على وادي ردونة شكَّها بالرجال فصيَّرها ثغرًا بين بلده والمسلمين، وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس. انتهى.

إن كلام ابن حيان هذا يجمل خبر غزوات العرب لإفرنجة أو فرنسة من أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى زمان عبد الرحمن الغافقي، ومنه يُعرف أن غزو العرب لإفرنجة يرجع إلى أول الفتح الأندلسي، وإن كان مؤرخو الإفرنج لا يذكرون مغازي العرب لفرنسة إلا من بعد ولاية السمح بن مالك الخولاني، وأما المؤرخان المسيحيان أيزيدور الباجي وشيمينش مطران طليطلة، وأولهما عاصر زمان الفتح، فإنهما يذكران غارات للعرب على فرنسة في زمان الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي أمير الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ثأر به الجند، وقتلوه حسبما تقدم الكلام عليه.

والذي في نفح الطيب نقلًا عن ابن خلدون أن محمد بن يزيد عامل الخليفة سليمان بن عبد الملك على إفريقية لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير بعث الحر بن عبد الرحمن الثقفي أميرًا على الأندلس. وفي صفحة ١٤٠ من نفح الطيب من الجزء الأول الطبعة الأزهرية يذكر أمراء الأندلس على النسق الآتي:

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، ثم الأمير موسى بن نصير، وكلاهما لم يتخذ سريرًا للسلطنة، ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير، وسريره أشبيلية، ثم أيوب بن حبيب اللخمي، وسريره قرطبة، وكل من يأتي بعده فسريره قرطبة والزهراء والزاهرة بجانبيها إلى أن انقضت دولة بني مروان على ما ينبه عليه، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي، ثم السمح بن مالك الخولاني، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، ثم عنبسة بن سحيم الكلبي، ثم عذرة بن عبد الله الفهري، ثم يحيى بن سلمة الكلبي، ثم عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، ثم حذيفة بن الأحوص القيسي، ثم الهيثم بن عبيد الكلابي، ثم محمد بن عبد الله الأشجعي، ثم عبد الملك بن قطن الفهري، ثم بلج بن بشر بن عياض القشيري، ثم ثعلبة بن سلامة العاملي، ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبي، ثم ثوابة بن سلامة الجذامي، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري. قال: وها هنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة أفرادًا عددهم عشرون فيما ذكره ابن سعيد، ولم يتعدوا في السمة لفظ الأمير. قال ابن حيان: مدتهم منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الأندلس النصراني، وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة ٩٢ إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري وتغلَّب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك قرطبة، وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ١٣٨ ست وأربعون سنة وخمسة أيام. انتهى.

وأما ابن عذارى في «البيان المغرب» فيذكر في الجزء الأول أن محمد بن يزيد أمير إفريقية استعمل على الأندلس الحر بن عبد الرحمن القيسي، وكانت الأندلس إذ ذاك إلى

والي إفريقية كما كان أيضًا والي إفريقية من قِبَل والي مصر. ثم قال: وسنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك واستخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يوم وفاته فاستعمل على إفريقية إسماعيلَ بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم. قال: «واستعمل إسماعيل بن أبي المهاجر على الأندلس السمح بن مالك الخولاني. ثم ذكر ابن عذارى أنه عند ولاية بشر بن صفوان على إفريقية ولي الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي. ثم ذكر أنه عند ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على إفريقية تولى عثمان بن أبي نسعة على الأندلس، ثم من بعده حذيفة بن الأحوص القيسي، ثم الهيثم بن عبيد الكناني، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي استشهد ببلاط الشهداء، ثم ذكر إمارة عبد الملك بن قطن على الأندلس، ثم ولاية بلج بعد مقتل عبد الملك، ثم ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي، ثم ولاية أبي الخطار الكلبي، ثم ولاية ثوابة بن سلامة الذي ثار على أبي الخطار وهزمه، ثم ولاية يوسف الفهري آخر أمراء الأندلس الذي دخل في زمانه عبد الرحمن بن معاوية الأموي إلى تلك البلاد.

وأما صاحب «أخبار مجموعة في تاريخ أمراء الأندلس» فذكر بعد إمارة عبد العزيز بن موسى بن نصير إمارة أيوب بن حبيب اللخمي، كان يؤم أهل الأندلس في صلاتهم وكان رجلًا صالحًا، فولوه أمرهم بعد قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وهو ابن عمة عبد العزيز، وجاء بعده الحر بن عبد الله الثقفي[٤٧] (ولم يقل: الحر بن عبد الرحمن الثقفي) ثم ذكر أنه لم يستقر بالحر القرار حتى ولي عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة فعزل عبد الله بن يزيد والي إفريقية (ولم يقل: محمد بن يزيد) وولاها إسماعيل بن عبد الله مولى بني مخزوم، وذلك أن الخلفاء كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذي حق حقه، فأتى وفد إفريقية بخراجها وذلك أنها لم تكن يومئذ ثغرًا فكان ما فضل بعد أعطيات الأجناد وفرائض الناس يُنقل إلى الخليفة، فلما وفدوا بخراج إفريقية في زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا فحلف الثمانية، ونكل إسماعيل بن عبيد الله مولى بني مخزوم، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولاني، فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ثم ضمهما إلى نفسه فاختبر منهم صلاحًا وفضلًا، فلما ولي عمر ولَّى إسماعيل إفريقية، وولَّى السمح بن مالك الأندلس وأمره أن يخمِّس أرضها، ويخرج منها ما كان عنوة خمسًا لله

من أرضها وعقارها، ويقر القرى في أيدي غنَّامها بعد أن يأخذ الخمس وأن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها، وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين، وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله، فقدمها السمح سنة مائة فوضع يدًا في السؤال عن العنوة ليميزه من الصلح وفي إخراج البعوث، وبنى القنطرة وذلك أنه كتب إلى عمر يستشيره ويعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة «فإن أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلتُ فإن قِبَلِي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم» فيقال والله أعلم: إن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور، وأن يبني السور باللبن؛ إذ لا يجد له صخرًا فوضع يدًا فبنى القنطرة في سنة إحدى ومئة.

ثم هلك عمر رحمه الله، فولَّى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان أخا حنظلة بن صفوان إفريقية، فعزل بشرُ السمحَ بن مالك وولَّى عنبسة بن سحيم الكلبي، ثم تتابعت ولاة الأندلس بعد عنبسة، فوليها يحيى بن مسلمة الكلبي، ثم وليها بعد يحيى عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، ثم وليها بعد عثمان حذيفة بن الأحوص القيسي، ثم الهيثم بن عفير الكناني، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وعلى يديه استشهد أهالي بلاط الشهداء، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن، وولي عبد الملك بن قطن المحاربي محارب فهر من قريش، وولايته الأولى نحوٌّ من ستة أشهر، لم تطل، وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا إفرنجة وحتى افتتحت عامة الأندلس (إلى أن يقول): إن هشام بن عبد العزيز رحمه الله بعث على مصر عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث مولى بني سلول من قيس، وجعل إليه أمر إفريقية والأندلس، فأقر بشر بن صفوان على إفريقية، وولَّى عقبة بن الحجاج الأندلس (ثم قال): فدخل الأندلس (أي: عقبة بن الحجاج) سنة عشر ومئة فأقام عليها سنين وافتتح الأرض حتى بلغ أربونة، وافتتح «جليقية»[٤٨] و«إلبة»[٤٩] و«بنلونة»[٥٠] ولم يبقَ بجليقية قرية لم تُفتتح غير «الصخرة» فإنه لاذ بها ملك يقال له: «بلاي» فدخلها في ثلاثمائة راجل، فلم يزالوا يقاتلونه ويناورونه حتى مات أصحابه جوعًا وترامت طائفة منهم إلى الطاعة، فلم يزالوا ينقصون حتى بقي في ثلاثين رجلًا ليست معهم عشر نسوة. فيما يقال: إنما كان عيشهم بالعسل، ولاذوا بالصخرة فلم يزالوا يتقوتون بالعسل معهم جباح[٥١] والنحل عندهم في خروق الصخرة، احترزوا وأعيى المسلمين أمرهم فتركوهم وقالوا: ثلاثون علجًا ما عسى

أن يكون أمرهم؟ واحتقروهم، ثم بلغ أمرهم إلى أمر عظيم سنذكره إذا بلغنا موضعه إن شاء الله. أ.هــ.

ثم ذكر صاحب «أخبار مجموعة»: أن عقبة بن الحجاج بقي أميرًا على الأندلس إلى سنة ١٢١ إذ ثارت البربر في إفريقية ودخلوا طنجة، وقتلوا واليها عمر بن عبد الله المرادي، وشغل صاحب إفريقية بشر بن صفوان بهذه الثورة، فوثب عبد الملك بن قطن المحاربي على عقبة بن الحجاج، فخلعه ولا أدري أَقَتَلَهُ أم أَخْرَجه؟ فملكها بقية ٢١، ٢٢، ٢٣ حتى دخل بلج بن بشر القشيري ثم الكعبي بأهل الشام، وقد وصفنا سبب دخوله في أحاديث تأتي بعد هذا.

ثم ذكر ما معناه: أنه بعد موت بلج القشيري تولى الأندلس ثعلبةُ بن سلمة العاملي، وجار في سياسته، وذهب وفد من الأندلس إلى حنظلة بن صفوان أمير إفريقية يشكون ما هم فيه، فأرسل عليهم واليًا أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي، فأصلح الأمور ورضي به الشاميون والبلديون، وكان رجلًا من خيار الناس وأنزل أهل الشام في الكور، وبقي أبو الخطار أربع سنين وستة أشهر إلى أن دخل الأندلس الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن، وشمر هو الذي قتل الإمام الحسين بن علي رضي الله عنه، وقتله بعد ذلك المختار بالكوفة، فارتحل ولد الشمر عن الكوفة إلى الجزيرة، ثم ارتحلوا إلى الأندلس مع جند قنسرين، ورأَسَ الصميل بالأندلس ودانت له قيس فيها واقتتل مع أبي الخطار وانهزم هذا، وتولى ثوابة بن سلمة الجذامي، ثم مات سنة ١٢٩، وتولى بعده يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهري، وفي أيامه اشتدت العداوة بين قيس واليمن، فانحازت مضر وربيعة إلى يوسف ومعه الصميل، واجتمعت يمن الأندلس حِميرُها وكندتُها ومذحجُها وقضاعتُها تحت لواء أبي الخطار، وكانت بين الفريقين أشد حرب عرفها العرب بعضهم مع بعض. قال صاحب «أخبار مجموعة»: وهي الفتنة العظمى التي بها يخاف بوار الإسلام بالأندلس إلا أن يحفظه الله.

ومن كلام هذا المؤرخ الذي كتب هذا التاريخ في أيام الحكم المستنصر يظهر أنهم كانوا يخشون على إسلام الأندلس البوار، لا من جهة انقطاع مسلمي الأندلس من وراء البحر فقط، بل من جهة الفتنة التي لا يفتر أوارها فيما بينهم، ولقد وقع ما كانوا منه يحذرون، فما كان زوالهم من هناك بحرب الإسبانيول فحسب بل كان أقوى عامل على زوالهم من الأندلس شدة عداوة بعضهم لبعض، وهو مرض الفرقة الذي رافقهم إلى الساعة الأخيرة من ملكهم هناك.[٥٢]

رجع الحديث إلى حرب القيسية واليمانية

ذكر صاحب «أخبار مجموعة» أن ابن حريث[٥٣] وأبا الخطار زحفا إلى يوسف والصميل[٥٤] بقرطبة، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة بقبليها بقرية «شقندة»[٥٥] وعبر يوسف والصميل النهر إليهما بمن معهما، فالتقوا حين صلوا الصبح فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح وثبتت الخيل وحميت الشمس، ثم تداعوا إلى البراز فتنازلوا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت، ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ولم يكن في الإسلام صبر مثله إلا ما يذكر من صفين.[٥٦] ولم يكن القوم بالكثير لا هؤلاء ولا هؤلاء وإنما كانوا خيار الفريقين، وكانوا متقاربين، إلا أن اليمن كانوا أكثر قليلًا، فلما أعنى بعضهم بعضًا تواقفوا يضرب بعضهم وجوه بعض بالقسي والجعاب، ويحثي بعضهم التراب على بعض؛ إذ قال الصميل ليوسف: ما وفقنا إذ خلفنا جندًا نحن منهم في غفلة. قال: ومن هم؟ قال: أهل السوق بقرطبة. فرد إليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب سوقه، فأخرجا منهم نحوًا من أربعمائة راجل معهم الخشب والعصي، ومع قليل منهم السيف والمزراق، فخرج الجزارون بسكاكينهم فجاءوا إلى قوم موتى، وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوهما لا صلاة خوف ولا أمن، فجردوهم وقتلوا وأسروا بشرًا كثيرًا خيارًا، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين، وكان ابن حريث لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيَّب ودخل تحت سرير الرحى التي بموضع بيع الخشب، فلما أسروا أبا الخطار وهمُّوا بقتله قال: ليس عليّ فوت ولكن عندكم ابن السوداء ابن حريث، فدَّل عليه فأخرج وقتلا جميعًا، وكان ابن حريث يقول: لو أن دماء أهل الشام جُمعت لي في قدح لشربتها، فلما استخرج قال له أبو الخطار: يا ابن السوداء هل بقي في قدحك شيء لم تشربه؟ فقتلا، وأُسِر منهم بشرٌ كثير. ثم أُتي بالأسرى، وقعد الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة، وهي اليوم موضع مسجدها الجامع، فضرب أوساط سبعين منهم. فلما رأى ذلك أبو عطاء بن حمد المري قام إليه فقال له: أبا جوشن أغمد سيفك أو ارجِع سيفك. قال له: اقعد أبا عطاء فهذا عزك وعز قومك. فجلس ولم يغمد السيف، ثم قام إليه فقال له: يا عرابي، والله إن تقتلنا إلا بعداوة صفين لتكفنَّ أو لأدعون بدعوة شامية، فأغمد سيفه وأمن الناس على يدي أبي عطاء بعد بلاء عظيم، فيقال والله أعلم: إن تلك الوقيعة توجد في بعض العلم أنها قاطعة الأرحام.[٥٧] وكانت قبل سنة إحدى وثلاثين ومئة، قال: فأعقبهم الله بالجوع والقحط، فجاعت الأندلس سنة اثنتين وثلاثين ثم سنة ثلاث، فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علج يقال له بلاي، قد ذكرناه

في أول كتابنا، فخرج من الصخرة[٥٨] وغلب على كورة «واستورس»[٥٩] ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل «استورقة»[٦٠] زمانًا طويلًا حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابة.[٦١] فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها، وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخروج، وقتل من قتل وصار فلَّهم إلى خلف الجبل إلى «أستورقة» حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضًا المسلمين عن أستورقة وغيرها، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى «قورية»[٦٢] و«ماردة»[٦٣] في سنة ست وثلاثين، واشتد الجوع فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين، وكانت إجازتهم من واد بكورة «شذونة»[٦٤] يقال له: وادي «برباط»[٦٥] فتلك السنون تسمى سني برباط فخف سكان الأندلس، وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم. أ.هـ.

هذا ما اخترنا تلخيصه وتمحيصه من أخبار الأمراء الذين تعاقبوا على الأندلس والذين كانوا يغزون إفرنجة أو فرنسة، ولنضف إليهم ما ذكره ابن عميرة صاحب «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس»[٦٦] فهو يذكر الحر بن عبد الرحمن القيسي ويقول: إنه عزل بعنبسة بن سحيم الكلبي. ويقول: إن عنبسة تولى الأندلس سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان أمير إفريقية في أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل ١٠٩.

وأما ابن خلدون فيذكر أن ولاية عنبسة بن سحيم كانت من قبل يزيد بن أبي مسلم عامل إفريقية، لا بشر بن صفوان، وأن بشر بن صفوان كان واليًا على إفريقية وقت مقتل عنبسة، ولما بلغه الخبر أرسل مكانه واليًا على الأندلس يحيى بن مسلمة الكلبي. ويقول ابن خلدون: إن استشهاد عنبسة كان في أرض الفرنجة سنة ١٠٧.

وبيَّن ابن خلدون وصاحب «أخبار مجموعة» اختلاف في الأسماء، لعله من تصحيف النساخ، ففي نفح الطيب نقلًا عن ابن خلدون يذكر «الهيثم بن عبيد الكلابي» — وهكذا في صبح الأعشى — وفي «أخبار مجموعة» الهيثم بن عفير الكناني، ثم إن صاحب «أخبار مجموعة» يذكر بعد الهيثم ولاية عبد الرحمن الغافقي بلا فاصل، على حين أن ابن خلدون يذكر بعد الهيثم محمدَ بن عبد الله الأشجعي، ولعل صاحب أخبار مجموعة أهمله لقصر مدته لأنه لم يلبث إلا شهرين.

وأما ابن عذارى فيذكر في «المُغرب» أن بشر بن صفوان تولى إفريقية مرتين، وفي الثانية منهما ولى على الأندلس عنبسة بن سحيم. ثم يقول: إنه سنة ١٠٧ ولى على الأندلس يحيى بن سلمة الكلبي. ومن هنا يعرف أن مقتل عنبسة بن سحيم بأرض إفرنجة غازيًا كان سنة ١٠٧، وهذه هي رواية ابن عميرة وابن خلدون أيضًا. والمستشرق

رينو[٦٧] يقول: إنه قتل سنة ٧٢٥ مسيحية، والمؤرخ كوندي الإسبانيولي يجعل قتله سنة ١٠٦ هجرية الموافقة ٧٢٤ مسيحية.

ولنرجع إلى تاريخ رينو عن غارات العرب على فرنسة فهو يقول: إن السمح بن مالك الخولاني الذي تولى الأندلس في خلافة عمر بن العزيز بعد أن سكَّن الدهماء وأصلح الأمور في الداخل، أعمل همته في الجهاد ليستأنف المسلمون الحرارة الأولى، وليجدد عزائمهم بعد الالتياث، ويعقد صرائمهم بعد الانتكاث قال: وكان ذلك سنة ٧٢١ مسيحية في خلافة يزيد بن عبد الملك، وكان مضى على فتح العرب للأندلس إحدى عشرة سنة لا غير، فأجاز السمح إلى بلاد فرنسة، تفيض بجيوشه أقطارها، وزعم مؤرخو الإفرنجة المعاصرون أن العرب جاءوا ومعهم نساؤهم وأولادهم؛ لأنهم كانوا على نية الاستقرار في البلاد. قالوا: وكان الفقراء والمحاويج يأتون من جزيرة العرب والشام ومصر وإفريقية ومعهم عائلاتهم لأجل سد مفاقرهم بالفتوحات وارتياد الرزق من وراء الغارات.

قال رينو: ولم يزل السمح يتقدم بجيشه إلى أن صار أمام أربونة فحصرها ولم يلبث أن فتحها وقتل رجالها وسبى نساءها وذراريها، وكانت أربونة بمصاقبتها للبحر وسهولة الوصول إليها بالسفن من إسبانية ثم بمنعتها الطبيعية من جهة البر تصلح أن تكون مسلحة للعرب في أرض إفرنجة، فزاد السمح في تحكيم حصونها ووضع الحاميات في المدن المجاورة لها.

الكلام على مدينة أربونة Narbonne

كانت زيارتي لأربونة بعد أن قفلتُ من الأندلس، لا كما كانت زيارتي لطلوزة وقرقشونة، أي قبل أن دخلت إليها. وأربونة هي كما لا يخفى المدينة التي توجهت إليها همة العرب أكثر من الجميع من أرض فرنسة، وذلك لكونها على كثب من البحر ولسهولة التوصل إليها من الأندلس على الماء، وكونها لذلك العهد أهم حاضرة إفرنسية في جوار إسبانية، فكان العرب إذا أفاضوا من جبال البيرانه ناحرين الشمال يجدون أربونة هي المدينة الأولى التي تستقبلهم.

وموقع أربونة هو على ارتفاع ١٠ أمتار فقط عن سطح البحر الملح، وعلى مسافة ١٤ كيلو مترًا منه إلى الشرق، ونهر الأود يمر بالقرب منها، والسهول التي بينها وبين البحر هي متكونة من الرواسب التي أبقاها هذا النهر بجريه من آلاف وآلاف من السنين.

وهي الآن مدينة من الدرجة الثالثة، لا يزيد عدد أهلها على ٣٠ ألفًا، ومناخها شبيه بمناخ المدن العربية، أي: إنها لطيفة الشتاء نادرة الثلج، حارة القيظ لولا نسمات لطاف

تهبُّ عليها أحيانًا من جهة البحر فتخفف من حرارتها، وفي مدة تزيد على نصف السنة تعصف الرياح في أربونة من الشمال الغربي، وتسفي التراب وتكدر صفو المزاج، ولكنها تفيد في تنشيف ما حول أربونة من المستنقعات، وأكثر حاصلات أربونة من الكرم، وفيها جميع أشجار البلاد الحارة، وقد شاهدتُ فيها التين والزيتون والصبير.

ويمر بأربونة جدول اسمه «روبين»[٦٨] مشتق من قناة الجنوب المستمدة من الأود وأربونة من أقدم مدن الأرض، عثروا فيها على آثار الآدميين من العصر الحجري، وعلى قبور مما قبل التاريخ، وفي أواخر القرن الثاني عشر قبل المسيح أغار السلتيون على أربونة واستقروا بها، وكانت لهم علاقات تجارية مع اليونانيين الذين كانوا يترددون إلى سواحل بروفانس والكاتالان.

وقد جعل الجبل المسمى «بالفولسك»[٦٩] مدينة أربونة حاضرة لهم، وجاء الرومانيون سنة ١٢١ قبل المسيح فافتتحوها وصارت في أيامهم مركزًا تجاريًّا عظيمًا تضارع مرسيلية، وكان الولاة الرومانيون يقيمون بها، وكانت لها امتيازات لعهدهم عريضة، وبلغ عدد أهلها مائة ألف نسمة في ذلك العصر، وسنة ١٤١٣ استولى عليها القوط، وتزوج فيها ملكهم أدولف بالأميرة «بلا سيدة غالة»[٧٠] أخت الإمبراطور الروماني، وكانت لزفافه فيها حفلة عظيمة، ثم استولى على أربونة «غوندبود»[٧١] ملك البرغونديين،[٧٢] لكنه لم يتمتع بها طويلًا، وعادت للقوط، وثبت هؤلاء فيها برغم غارات الفرنج عليها.

نقلنا هذه الخلاصة عن «دليل أربونة»[٧٣] ولنذكر ما جاء في هذا الدليل بشأن العرب، قال: في أوائل القرن الثامن للمسيح ظهر العرب على «سبتيمانية» وافتتح «زاما»[٧٤] أربونة سنة ٧١٩ بعد حصار استمر ثمانية وعشرين يومًا فقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ثم نظر «زاما» إلى أهمية أربونة الجغرافية فحصنها وشحنها بالميرة. وهكذا تمكن العرب فيها من صد غارة شارل مارتل الذي حاصر أربونة سنة ٧٣٢ بعد أن هزم العرب في معركة بواتيه، ثم إن «ببين» القصير حاصر أربونة سنة ٧٥٢ ونكص عنها، ولم يتمكن منها سوى شارلمان سنة ٧٥٩، وذلك بعد أن حاصرها مدة سبع سنوات، فإن الأهالي الذين في البلدة كانوا ملوا هذا الحصار الطويل فثاروا بالحامية العربية وذبحوها، وعاد العرب سنة ٧٩٢ فحاصروا أربونة، فبعث شارلمان لنجدتها بعثًا عدته عشرون ألف مقاتل، عقد لواءه للفارس المشهور غليوم،[٧٥] وتلاقى الجمعان بقرب أربونة، فاستأصل العرب جيش الإفرنج ولم يبقَ من هؤلاء إلا غليوم وثلاثة عشر من رفاقه، وصُلم أنف غليوم في المعركة، ولُقب من ذلك اليوم بذي الأنف القصير، إلا أنه أحرز مجد قتل عبد

الملك أمير الجيش العربي بيده، فأما أربونة فبرغم انكسار الإفرنج ذلك اليوم لم تسقط في أيدي العرب.

انتهى ما جاء في دليل أربونة، وهذا غير مطابق لما في تواريخ العرب. انظر إلى ما جاء في نفح الطيب في هذا الصدد، قال: «كان هشام (ابن عبد الرحمن الداخل الأموي) يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور، فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه أو أنصف منه ولم يستعمله بعد، ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال: نسأل الله تعالى أن يزين موسمنا بمثل هذا.[٧٦] وفي أيامه فُتحت أربونة الشهيرة، واشترط على المعاهدين من أهل جليقية[٧٧] من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة وبنى منه المسجد الذي قدَّام باب الجنان، وفضلت منه فضلة بقيت مكومة، وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروبًا، ثم كانت الدائرة له. وقصد إلى بلاد الحرب غازيًا، وقصد «ألبة»[٧٨] «والقلاع»، فلقي العدو وظفر بهم وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين، وبعث العساكر إلى جليقية مع يوسف بن بخت، فلقي «ابن منده»[٧٩] وهزمه، وأثخن في العدو، وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث[٨٠] لغزاة العدو، فبلغ ألبة والقلاع فأثخن في نواحيها، ثم بعثه في العساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجرندة[٨١] فأثخن فيها ووطئ أرض برطانية.[٨٢] وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى بلاد جليقية، فانتهى إلى «أسترقة»[٨٣] فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك الباشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه وأتبعه عبد الملك، وكان هشام قد بعث بالجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك وأثخنوا في البلاد، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا سالمين ظافرين. أ.هـ.

فمن هنا يظهر أن العرب عادوا فافتتحوا أربونة في زمان الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، ولكن الرواية عن الفتح التام والاستقرار تضعف بقول المقري في النفح: «ثم بعثه في العساكر إلى أربونة، وجرندة فأثخن فيها» فإذا كان قد تم له فتحها فلا محل لغزوها ثاني مرة والإثخان فيها. وقد جاء ذكر الأمير هشام في المعلمة الإسلامية لهوتسما وباسيت ورفاقهما، ولم يذكروا أنه فتح أربونة، وإنما قالوا: إنه أغزى مرارًا الجيوش الإسلامي بلاد النصارى وجنوبي فرنسة، ووصلت جيوشه إلى «أسترقة» و«أوبياده»[٨٤]

من المملكة التي أسسها بقايا ملوك المسيحيين في إسبانية، ممن لم يخضعوا للعرب، من أعقاب بلاي[٨٥] وغزا جيرونة[٨٦] وأربونة، ولم يرد في الأنسيكلوبيديا الإسلامية أنه فتح أربونة.

أما المؤرخ الإسبانيولي كوندي فإنه يذكر غزوات الأمير هشام في جليقية بالجيش الذي أرسله تحت قيادة الحاجب عبد الواحد بن مغيث، وغزواته في نواحي البيرانه بالجيش الذي أرسله تحت قيادة عبد الله بن عبد الملك، ويقول: إن عبد الله هذا فتح جيرونة سنة ٧٩٣ وفق ١٧٧، وبعد أن فاز بفتح هذه البلدة زحف صوب الشمال فعبر البيرانه وفتح أربونة وذبح أهلها واكتسح أقطارها، ووصل إلى قرقشونة حيث تجمعت لصده أمراء البلاد قاطبة، وناجزته الحرب بين قرقشونة وأربونة، فظهر المسلمون في هذه المعركة، وانهزم المسيحيون انهزامًا غير تام، يدل على ذلك أن عبد الله قفل راجعًا إلى الأندلس بعد تلك الطائلة. وقيل: إن سبب قفوله هو خوفه أنه بطول القتال يفقد الغنائم الوافرة التي كان غنمها. وقالوا: إن هشامًا جعل هذه الأموال في بناء جامع قرطبة، ثم إن الأمير ولى عبد الله بن عبد الملك سرقسطة، وسرح عبد الكريم بن الحاجب عبد الواحد إلى جليقية فعاث ودمر، ولكنه سقط في كمين دبره له الأذفنش، وهلك فيه أكثر عسكره وقواده ومنهم يوسف قائد الفرسان.

وأما المستشرق رينو في كتابه: «غارات العرب على فرنسة ومن فرنسة على سافواي وبييمونت وسويسرة» فإنه يذكر ما رواه مؤرخو العرب عن هذه الغزاة وما تابعهم فيه لذريق شيمينيس، ويروي قصة أحمال التراب التي حملها أسارى المسيحيين المساكين على ظهورهم وبالعجلات من مسافة مائتي مرحلة، ويقول: إن مؤرخي العرب زعموا سقوط أربونة تلك النوبة في أيديهم، ولكنه يستبعد هذا الأمر بسبب كون المؤرخين المسيحيين لم يذكروا ذلك ولو بمناسبة دخول المسيحيين ثانية إلى أربونة، ثم يقول: إن النويري الذي روى خبر هذه الغزاة ببعض تفصيل لم يصرح بأن جيوش العرب استولت على أربونة في هذه الغزاة واستقرت فيها،[٨٧] وسنذكر بقية هذا البحث فيما يأتي عند الكلام على غزوات بني أمية في فرنسة.

رجع الحديث إلى السمح بن مالك الخولاني وغارات العرب على فرنسة

قال رينو: وبعد أن انتهى السمح من أمر أربونة، وشجن المدن المجاورة لها بالمقاتلة، زحف نحو طلوزة[٨٨] وكانت وقتئذ عاصمة أكيتانية[٨٩] فحشد «أود» دوق أكيتانية كل ما قدر على حشده من الجنود، وخف لصد العرب عن المدينة، بينما كانوا قد أخذوا بمخنقها واستعملوا المنجنيقات وسائر آلات الحصار في قتالها إلى أن أوشك أهلها أن يسلموها، وإذا باود قد أقبل بجيش يسد الفضاء حتى قال مؤرخو العرب: إن العثير المتطاير من زحف أقدامهم كان يغطي عين الشمس من كثرتهم، فتلا السمح لعسكره الآية القرآنية: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ الله فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ولما تدانى الجمعان خيل أن الجبال تلاقى بعضها ببعض، وكانت المعركة من أهول ما يتصوره العقل، وكان السمح يظهر في كل مكان وسيفه ينطف دمًا وهو يشدد عساكره بقوله وبفعله، وكان كالفحل الهائج لا يرد رأسه شيء أو كالأسد الزائر يحمل على العدو فلا يقف أحد في وجهه، فما هو إلا أن أصابته طعنة خرَّ بها صريعًا عن جواده، فلما رآه المسلمون مجدلًا[٩٠] فتَّ في أعضادهم ونكصوا على أعقابهم، وتركوا قتلاهم بالعراء ورجعوا إلى الوراء، وكانت هذه الواقعة في شهر مايو من سنة ٧٢١ وطاح فيها عدد من فرسان المسلمين المغاوير الذين شهدوا الفتوحات السابقة. ولقد تولى قيادة الجيش — بعد قتل السمح وتقهقر العرب — عبد الرحمن (الغافقي) وعاد به إلى الأندلس.[٩١]

ولما شاع خبر هذه الواقعة دبت الحماسة في قلوب أهالي اللانغدوق والبيرانه وهبوا لخلع طاعة العرب وحميت أنوفهم، إلا أن هؤلاء كانوا لا يزالون متمكنين في أربونة، وكانت قد جاءتهم نجدات من الأندلس فعادوا يشنون الغارات منها على البلاد المجاورة، وآضت جيوشهم تتقدم من كل مكان وتجر بخزائم الطاعة أنوف السكان، وكان الرهبان والقسيسون في ذلك الوقت هم أصحاب الكلمة العليا، وكانت الكنائس والأديار ملأى بالنفائس والذخائر، فلم يكن من العجب أن تتوجه همة العرب قبل كل شيء إلى اجتياح هذه المعابد وصبِّ البلاء على الرهبان، ولم يكن من العجب أن يكون هذا القسم من تاريخنا ملآن بقصص تدمير العرب للأديار والبِيع؛ لأن الذين كانوا يكتبون إذ ذاك إنما كانوا من الرهبان والإكليريكيين، فكان معظم كلامهم الحديث عما حل بأديارهم وتقديمها على ديارهم.

فقد جاء في تواريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع أن العرب هدموا دير «جوسل»[٩٢] بقرب «بيزيه»[٩٣] ودير القديس «بوزيل»[٩٤] بقرب «نيم»[٩٥] ودير «صنجيل»[٩٦]

بقرب «آرل»[٩٧] والدير المشهور بالثروة المسمى بدير «الترتيل»[٩٨] بقرب «آغيمورت».[٩٩] وكان يسمى كذلك لأن الرهبان كانوا ألزموا أنفسهم فيه النشيد الدائم بتسبيح الرب، وذلك على أنه كلما تعبت طائفة خلفتها طائفة في الترتيل فلا ينقطع الترتيل من الدير لا ليلًا ولا نهارًا. فدهم العرب هذه الأديار كلها بغتة، منحدرين عليها انحدار العقبان، بحيث لم يقدر الرهابين الذين فيها إلا أن يخلصوا، نجيًّا برقابهم وببعض ذخائر القديسين التي كانت عندهم،[١٠٠] وكان العرب أول ما يعمدون إلى الأجراس والنواقيس فيكسرونها[١٠١] وكانت بعض عصائب من أهالي البلاد تقاتل العرب في الأحايين، وكان هؤلاء لا يسيئون معاملة الذين يدخلون في طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال.

ثم إنه في سنة ٧٢٤ تولى إمارة الأندلس عنبسة (ابن سحيم الكلبي)[١٠٢] واجتاز جبال البيرانه بجيش جرار، وأوغل في البلاد، وفتح قرقشونة وأوقع بمن وجد فيها، ثم فتح نيم وأخذ من أهلها رهائن أرسلهم إلى برشلونة[١٠٣] وقد كانت فتوحات عنبسة بحسب رأي أيزيدور الباجي فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة، ولذلك تضاعف في أيام عنبسة خراج بلاد الغال. وقيل: إن عنبسة نفسه قد زاد الخراج على الأهالي، ولا يظهر أن ذلك صحيح، وإنما ازداد الخراج بتوفيره وبحسن تدبيره، ثم إن عنبسة وقع قتيلًا في إحدى الوقائع سنة ٧٢٥ فخلفه في القيادة «حديرة» وجاءت إلى هذا نجدات من الأندلس، وعادت ريح الإسلام فعصفت ببلاد النصرانية من كل جهة، بحسب تعبير أحد مؤرخي العرب، فالسبتيمانية إلى حدود الرون و«الألبيجوا»[١٠٤] و«الرورغ»[١٠٥] و«الثبيلاي»[١٠٦] و«التبيلاي»[١٠٧] صارت ميدانًا لغارات العرب، وشملها الخراب من كل جهة، وما لم يؤخذ بالحديد سلطوا عليه النار إلى حد أن كثيرين من الغزاة أنفسهم أكبروا هذا العبث الزائد في تلك البلاد، فإنهم لم يكونوا يعفون عن شيء سوى الجواهر النفيسة والسلاح والخيل وكل ما يزدادون به قوة على قوة.

وأكثر ما شمل الخراب مقاطعة «روديس»[١٠٨] فقد احتل العرب فيها حصنًا يظنه بعضهم حصن «رو كبريف»[١٠٩] والآخرون حصن «بالاغيه»[١١٠] وأخذوا يحتاجون جواره ولا يلقون مناهضًا ولا عرقًا نابضًا، وقد بقيت عندنا عن تلك النوازل شهادة رجل كان يقال له: «دادون»[١١١] عندما زحف العرب خرج بسلاحه ومعه جماعة مسلحون من أهل وطنه، فجاء العرب إلى بيته ولم يجدوا فيه سوى أمه فأخذوها من جملة السبي، وعادوا إلى الحصن الذي كانوا تبوأوه، فجاء دادون بسلاحه ومعه رفاقه، ووقفوا أمام باب الحصن، وطلب دادون تسليم أمه، وقال: إنه ليس ببارح حتى ينقذها فأجابه واحد

من العرب: إن شئت أن نردَّ عليك أمك فادفع إلينا الجواد الذي أنت راكبه وإلا فإننا نذبح أمك أمام عينيك. فأجاب دادون وقد كاد الغضب يُخرجه من عقله: افعلوا بأمي ما تريدون فلا أسلم جوادي. عند ذلك جاء البربري بأم دادون وقطع رأسها وألقاه من فوق الحصن إلى ما بين يدي ذلك المسكين، فعندما شاهد دادون رأس والدته كادت نفسه تزهق من الألم وأخذ ينتحب ويصيح: يا للأخذ بالثأر. ولكنه لم يكن يقدر أن يدخل إلى الحصن، فذهب وقد خولط في عقله وانقطع عن الناس، وأقام على ضفاف وادي «دوردون»[١١٢] في المكان الذي بني فيه فيما بعد الدير المسمى بدير «كونك».[١١٣]

وقد استشهد رينو على هذه الحادثة بقصيدة «أرمولدس نيجلّوس»[١١٤] التي نشرها في موراتوري[١١٥] ثم الدون بوكيه[١١٦] في مجموعة مؤرخي بلاد الغال، ثم المسيو بيرتس[١١٧] في تاريخ الجرمانيين، وقد جاءت هذه الحادثة في البيت المائتين والسبعة من قصيدة «نيجلوس» وليس يوجد في القصيدة ولا في تاريخ دير «كونك» ما يدل على السنة التي أغار فيها العرب على «رورغ»، ولكن إذا عرفنا أن دادون مات في أواخر القرن الثامن علمنا الزمن الذي وقعت فيه هذه الحادثة، فأما دير «كونك» فقد بقي قائمًا إلى زمان الثورة الفرنسوية.

ولنذكر حادثًا آخر يدل على ما بلغته من الفجائع تلك الغارات التي كان جانب عظيم من فرنسة مرزحًا لها، وهذا الحادث وقع في دير «موناستييه»[١١٨] في جهات «فيلي»[١١٩] فقد كان المسلمون اجتاحوا مقاطعات «بوي»[١٢٠] و«كليرمون»[١٢١] وكنيسة «بريود»[١٢٢] ثم أشرفوا على دير «موناستييه» فجمع القديس «شافر»[١٢٣] رئيس الدير رهبانه، وأمرهم بأن ينسحبوا إلى الحراج المجاورة، ويأخذوا معهم الأعلاق النفيسة والذخائر التي في الدير ويتواروا في البرية، إلى أن يتأذن الله بالفرج وبأوقات أحسن فيعودوا فيها إلى متبوئهم الأول، أما هو، أي: القديس المذكور فقد أجمع أن يبقى في الدير مهما كان البرابرة يريدون أن يفعلوا به، فإن أمكنه أن يردهم إلى الصراط المستقيم فذاك، وإلا فإن قتلوه فيكون تَردَّى بالأحمر من أثواب الشهادة، فأخذ الرهبان يبكون ويستغيثون راجين منه أن يذهب معهم إلى البرية ويطلب النجاة كما يطلبون أو أن يتركهم يموتون معه، فأصر القديس على كلامه، وقال لهم: إن اتقاء الخطر ضروري لا سيما إذا كان في السلامة فائدة للكنيسة، وضرب لهم مثلًا مسألة الرسول بولس الذي كان اليهود أعداؤه يقتصون أثره في دمشق للاقتصاص منه، ففر منهم ونزل ليلًا في زنبيل تدلى به من عن سور المدينة وخلص نجيًّا، وكذلك بطرس رئيس الحواريين كان قد أجمع الفرار من وجه نيرون لو

لم يكن سبق في إرادة الله توقيف خطواته، ثم قال لهم القديس: أما أنا فإني لست بذاهب من هذا الدير، فإن من واجبات الراعي أحيانًا أن يضحي بنفسه في سبيل خلاص رعيته، وإني إن سال دمي هذه المرة فربما يسكن بانفجاره الغضب الإلهي الثائر بدون شك من خطايا البشر.

فلما رأى الرهابين تصميم القديس هذا لم تسعهم إلا طاعته، وبعد أن سمعوا القداس وأخذوا معهم النفائس التي في الدير خرجوا إلى البرية، وتغلغلوا في الغابات، ولكن انسلَّ منهم اثنان فصعدوا فوق رابية مشرفة على الدير ليشهدوا ما عساه أن يقع فيه، ولم يلبث العرب أن حضروا فوجدوا القديس «شافر» عاكفًا على الصلاة في زاوية من الدير، فلم يأبهوا له، وإنما أخذوا يطوفون في الدير أملًا بالعثور على شيء يغنمونه، وكان مرادهم أن يثقفوا الرهبان وأن يأخذوا منهم أحدثهم سنًّا وأقواهم بنيةً ليبيعوهم في سوق النخاسين بالأندلس، فلما علموا أن الرهبان قد فروا بأسرهم وأنه لم يبقَ في الدير شيءٌ من النفائس التي كانت تحدثهم أنفسهم بها استشاطوا غضبًا وانهالوا على القديس بضربٍ مبرِّح.

وكان في ذلك اليوم عند البرابرة عيد يقدمون فيه ضحية لله، ولم يقل المؤرخ الذي ننقل عنه هذه القصة ما شكل تلك الضحية؟ ولكنه يقول: إنهم كانوا في ذلك العيد يشربون الخمر ويطنزون، مما يدل على أن العصابة التي أغارت على كورة «فيلاي» لم تكن عصابة مسلمة، ولكن عصابة بربرية لا يزال أهلها غائصين في لجج الوثنية، فلما رآهم القديس قد انتبذوا مكانًا للقيام بشعائر عيدهم جاء إليهم ونصح لهم بأنهم بدلًا من عبادة الشياطين يكون أولى بهم أن يعبدوا خالق الأكوان الذي لولاه لم يكن شيء في هذه الدنيا، فلم يكن هذا الكلام ليقع منهم موقع القبول بل زادهم سخطًا، وجاء أحدهم فرماه بحجر فسقط على الأرض مغشيًّا عليه، ثم أراد البرابرة أن يحرقوا الدير ويدكوه إلى الحضيض، ولكن يقول المؤرخ: إنهم بينما هم يهمون بأن يفعلوا سلط الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية وصواعق محرقة فأركنوا إلى الفرار، وتركوا الدير، ثم مات القديس بعد أيام قلائل من أثر الضرب، بعد أن عاد الرهبان إلى ديرهم، ولا تزال الكنيسة تحتفل بعيد القديس «شافر» في ١٩ أكتوبر من كل سنة، وأما الدير المذكور فقد بقي قائمًا إلى زمان الثورة الفرنسية الكبرى.

ونظن أنه في ذلك العهد كانت قد وقعت غارة العرب على مقاطعة «دوفيني»[١٢٤] وعلى مدينة «ليون»[١٢٥] وعلى بلاد «برغونيا»[١٢٦] وقد ذكر أحد مؤرخي العرب هذه الغزوات

قائلًا: إن الله قد قذف الرعب في قلوب الكفار، فلم يكن واحد منهم يقف في وجه المسلمين إلا لطلب الأمان، ولم يزل المسلمون يتقدمون في البلاد ويؤَمِّنُون العبَّاد إلى أن وصلوا إلى وادي «الرون» وهناك ابتعدوا عن السواحل وأوغلوا إلى الداخل.

وقد نقل رينو هذا الكلام عن المقري، ولكن إن كان الكلام الذي نقله هنا هو الوارد في النفح فإن العبارة التي اطلعنا عليها هي هذه نقلًا عن ابن حيان: إن موسى اصطلح مع طارق وأظهر الرضا عنه، وأقره على مقدمته، على رسمه، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه، فارتقى إلى الثغر الأعلى وافتتح «سرقسطة» وأعمالها وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما وغنَّمهما الله تعالى ما فيه، وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه، فلما صفا القطر كله وطمأن نفوس من أقام على سلمه، ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به، أقام لتمييز ذلك وقتًا، وأمضى المسلمين إلى إفرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا وانتهوا، حتى انتهوا إلى وادي «ردونة» فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم، وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلد إفرنجة فملكت مدينتي «برشلونة» و«أربونة» وصخرة «آبينيون» وحصن «لودون» على «وادي ردونة» فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جدًّا. انتهى.

فهذه العبارة قد تقدم نقلنا إياها في الكلام عن موسى بن نصير وطارق.

رجع إلى كلام رينو. قال: ولا نعلم في الحقيقة الأمكنة التي أشرف عليها العرب ذلك اليوم إلا بأخبار الاجتياح الذي وقع فيها، فإنه في نواحي «فيين»[١٢٧] على ضفاف «الرون» أصبحت الكنائس والأديار كلها دكًّا، و«ليون» التي يسميها العرب «لودون» رأيت أيضًا تخريب أعظم كنائسها، وكذلك شمل العيث «ماسون»[١٢٨] و«شالون»[١٢٩] وكذلك «بون» [١٣٠] حل فيها من العيث ما لا يوصف، ووصل العرب إلى مدينة «أوتون»[١٣١] وأحرقوا كنيسة «سان نازير»[١٣٢] وكنيسة «سان جان»[١٣٣] ودير «سان مرتين».[١٣٤] وكذلك نهبوا دير «سين أندوش»[١٣٥] في «صوليو»[١٣٦] وكذلك دمر العرب دير «بيز»[١٣٧] بقرب «ديجون».[١٣٨] وقد استشهد «رينو» على هذه الحوادث بتاريخ «مواساك» من مجموعة مؤرخي بلاد الغال، وبتاريخ «الدون بلانشيه»[١٣٩] المسمى بتاريخ برغونيا وبتاريخ «غاليا كريستيانيا».[١٤٠]

ويذهب بعضهم إلى أن غارات العرب قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا، وقالوا: إنهم بثوا سراياهم إلى جهات نهر «اللوار» وأخرى بقرب «نيفير».[١٤١] وأخرى إلى مقاطعة «فرانش كونتي».[١٤٢]

وقالوا: إن دير «سان كولمبان»[١٤٣] قد دكَّه العرب في تلك الغزوة، وأنهم قتلوا أكثر الرهابين والقسيسين الذين صادفوهم في «بيزانسون». قال «رينو»: وليس في هذه الروايات شيء لا يقبله العقل ولا سيما ما تعلق منها بمقاطعة «فرنش كونتي» التي فيها أسماء وآثار عربية كثيرة، وقالوا أيضًا: إن الدير الذي في سفح جبال «الفوج»[١٤٤] المسمى بدير «لوكسول»[١٤٥] قد جعله العرب أيضًا أثرًا بعد عين، وذبحوا الرهابين الذين كانوا فيه تحت رئاسة القديس «ميلين».[١٤٦] نقل هذه الروايات «رينو» عن الأب «لكوانت»[١٤٧] ونقل أيضًا عن «مابيون»[١٤٨] وقال: يظهر أن المسلمين لم يجدوا مقاومة حقيقية إلا أمام مدينة «سانس»[١٤٩] فإن هذه المدينة كان فيها مطران ينتسب إلى عائلة نبيلة، يقال له: «أبيول»[١٥٠] اشتهر بالفضائل والكمالات حتى جعلوه في مصاف القديسين، فهذا المطران عندما سمع بإيجاف العرب قاصدين بلده بدأ بتحصين البلدة، وهيَّأ أسباب الدفاع عنها، بحيث لما وصل العرب إليها وأخذوا يقذفونها بقذائف منجنيقاتهم كان أهاليها يرمونهم من أعالي الأسوار بأجزاء محرقة كانت تلتهب بها آلاتهم الحربية.

قال «رينو»: إلا أنه يعترضنا في هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بأن أصحاب هذه الغارات كانوا من السرازين[١٥١] ولا ثمة لفظة تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم مسلمون بدون شك، بل كان المؤرخون يشيرون إليهم بقولهم: «فندال»[١٥٢] وطالما كانوا يطلقون هذا الاسم في النصف الأول من القرن العاشر على المجار عندما جاء هؤلاء إلى ألمانية ودخلوا إلى فرنسة واكتسحوا «الألزاس» و«اللورين» و«فرانش كونتي» و«برغونيا» و«شمبانيا» وغيرها.

ثم يعود رينو، فيقول: إنه على كل حال قد تحقق مجيء العرب إلى فرنسة وتغلغلهم في أحشاء البلاد وأنهم لم يكن لهم خطة مرسومة معينة في مغازيهم ومراميهم، وأنهم لم يجدوا في البداية من أهل فر نسة إلا مقاومة واهية وعزمًا غير جميع. نعم تختلف فرنسة عن إسبانية في هذا الباب بأن إسبانية وجد فيها من انضم إلى العرب وسعى بين أيديهم ودان بدينهم، وأما في فرنسة فإذا استثنينا بعض أشخاص لا يعرفون معنى للدين ولا للوطن لم يوجد من الأهالي فئة كان لها شيء من الوجاهة والنبالة رضيت بأن تنحاز إلى العرب أو أن تصبأ عن دينها، بل إنه في وسط مدينتي أربونة وقرقشونة، حيث أقام العرب مدة طويلة، بقي الأهلون متمسكين بدينهم المسيحي لا يرضون به بدلًا.

وكان أود دوق أكيتانية طول هذه المدة منحرفًا عن القتال، متجنبًا الانغماس في الحرب؛ لأن غارات العرب كانت واقعة على أطراف بلاده ولم تكن في قلب البلاد مثل ذي قبل، وأما «شارل مارتل» فكان مشغولًا بمحاربة «الغريزونيّين» و«البافاريين» و«السقسون» الذين كان يخشى أن يعبروا عليه نهر الرين وينازعوه مركز سلطانه، وكان بينه وبين «أود» ما بين النظراء الذين يغص بعضهم بمكان بعض، فأما مؤرخو العرب الذين لم يكن لهم اطلاع على تلك المنافسات الداخلية بين ملوك الإفرنج فعللوا سكوت «شارل مارتل» الذي كانوا يسمونه: «قارله» عن مقارعتهم بالتعليل الآتي. قالوا: إن كثيرًا من أمراء الإفرنج فزعوا إلى «قارله» وشكوا له الأضرار التي حلت بهم من عيث المسلمين في البلاد، وأوضحوا له العار الذي يلحق بها من كون جيش كالجيش العربي، مجهز بأسلحة خفيفة، يتغلب على جيوش شائكة بأثقل الأسلحة غائصة في الزرد إلى أعناقها كالجيوش الإفرنجية، فأجابهم قارله: دعوهم الآن يفعلون فإنهم في إبان صولتهم أشبه بالسيل الذي يجرف كل ما يقف في وجهه، وهم اليوم قد اتخذوا من جرأتهم دروعًا ومن أقدامهم حصونًا، ولكنهم بعد أن تمتلئ أيديهم من الغنائم، وبعد أن يألفوا نعيم الحضر ويستولى الطمع عليهم فينافس بعضهم بعضًا ويدخل الشقاق في صفوفهم، حينئذ نزحف إليهم ونتغلب عليهم ونترك جمعهم شريدًا وقائمهم حصيدًا، وقد نقل هذا الكلام «رينو» عن المقري صاحب النفح، ونحن راجعنا المقري فوجدناه يقول في آخر صفحة ١٢٨ من الطبعة الأزهرية المصرية ما يلي:

وقال الحجاري في المسهب: إن موسى بن نصير نصره الله نصرًا ما عليه مزيد، وأجفلت ملوك النصارى بين يديه حتى خرج على باب الأندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة، فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارله — وهذه سمة لملكهم — فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم، فقال لهم ما معناه: الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيدهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر. قال: فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء. انتهى.

قلت: إن أعظم العوامل التي قضت برجوع بدر العرب كالعرجون القديم، بعد أن كان تمامًا وأنار المشرق والمغرب، تعود إلى عاملين كبيرين: أحدهما الفتنة التي ذكرها صاحب المسهب بين الشاميين والبلديين، فقد طال بينهما النزاع وتحول إلى فتنة صماء أوقفت سير الإسلام في أوربة بعد أن مشى فيها مشي النار في يابس العرفج، وأهم من فتنة البلديين والشاميين فتنة العرب والبربر، فقد أجمع المؤرخون من العرب والإفرنجة على أن الحرب التي اصطلت بين المسلمين في شمالي إسبانية والتي تغلب فيها البربر على العرب وأخرجوهم بها من تلك الديار كانت هي السبب في انتهاز الإفرنج والإسبانيول تلك الغرة اللائحة لاستئناف دولتهم وصولتهم وطردهم للمسلمين من شمالى إسبانية. وبعد ذلك عندما جمع العرب شملهم وكروا على البربر وأوقعوا بهم، انتقامًا عما صدر من البربر من قبل، استفاد الإسبانيول والإفرنج فائدة كالفائدة الأولى، واغتنموا أيضًا مثل تلك الفرصة، وقد كان أنكى من الفتنتين المار ذكرهما فتنة القيسية واليمانية وواقعة شقنده المشهورة ووقائع أخرى كانت تشغل العرب بعضهم ببعض، فيستأسد العدو في خلالها وينهض من ورائها فيكر عليهم ويسترجع منهم قلاعًا وحصونًا وحواضر عامرة، وقد شوهد أنه لما اشتدت الفتنة في قرطبة بين العرب والبربر في أيام الخليفة المستضعف هشام الثاني كان كل فريق من المسلمين يستعين بالإسبانيول، وكان هؤلاء يشترطون للنجدة كذا وكذا من الحصون، وكذا وكذا من المدن، وكان أولو الأمر في قرطبة ينزلون لهم عنها.[١٥٣] أما العامل الثاني الذي لم يكن يقل خطرًا عن الأول فإنه ولوع العرب بالغنائم وحرصهم عليها إلى الدرجة التي كانت سببًا في الهزائم، فإن الواقعة الكبرى التي وقعت بين عبد الرحمن الغافقي و«شارل مارتل» الذي يقول له العرب: «قارله» كان سبب إدبار العرب فيها، وتملص أوربة من أيديهم هو شدة الخوف على الغنائم لا غير، فإنه لما تلاقى الجمعان أراد عبد الرحمن أن يأمر جيشه بترك الغنائم التي كانوا جمعوها حتى لا تبقي قلوبهم مشغولة بها عن القتال، ولكنه توجس خيفة أن يكسر بذلك من قلوبهم، فتفتر عزائمهم وتخبث نفوسهم، فأذن لهم في حفظ غنائمهم وهو كاره، فجعلوها وراء المعسكر وأعينهم فيها، وعلم بذلك الإفرنج ولحظوا شدة حرص العرب عليها، فلما حمي الوطيس زحف جانب من جيش الإفرنج من طريق آخر قاصدًا المعكسر الذي فيه الغنائم، فانكفأ العرب عن ميدان القتال راجعين إلى معسكرهم الذي فيه تلك الأسلاب ليدافعوا من دونها، ولم يبقَ في الميدان قوة كافية لصد السواد الأعظم من الجيش الإفرنجي، وهكذا كانت تلك الهزيمة الكبرى في المحل الذي يسميه العرب

ببلاط الشهداء، ويسميه الإفرنج بمعركة «پواتييه». فأنت ترى أن «قارله» عندما قال للإفرنج قوله ذاك: «دعوا العرب يملأون أيديهم» كان كأنه يقرأ في ظهر الغيب.

نعود إلى سياق التاريخ بحسب رواية «رينو» فنقول:

وفي سنة ٧٣٠ تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن «الغافقي» الذي خَلَفَ السمح بن مالك الخولاني في قيادة الجيش المحاصر «لطلوزة» عند مصرع السمح في المعركة، وكان عبد الرحمن هذا رجلًا صارمًا عادلًا محببًا في جنده، لنزاهته ولعدم رغبته في حطام الدنيا لنفسه، وكان أيضًا محل احترام صلحاء المسلمين لمعرفته بالحديث النبوي ومصاحبته لأحد أولاد الخليفة عمر.[١٥٤]

وقبل أن نكمل ترجمة عبد الرحمن الغافقي التي ستنتهي بواقعة بلاط الشهداء ينبغي لنا أن نكمل الخبر عن الفترة التي وقعت بين إمارة عنبسة بن سحيم الكلبي وإمارة الغافقي، فنقول: قال المؤرخ الإسبانيولي «كوندي»: إن أول عمل قام به عنبسة هو تنظيم الخراج وتقسيم الأراضي بين المسلمين بدون تجاوز على الأراضي التي لها مُلاكون أصليون من الأهالي، فكان يستوفي العشر من الذين خضعوا لدولة العرب من أنفسهم، ويستوفي الخمس ممن لم يخضعوا إلا بالسيف، وهو الذي بنى جسر قرطبة.[١٥٥]

وطاف عنبسة في المقاطعات ينظر في مظالم الناس ويوزع بينهم العدل بدون تمييز بين الأديان، ثم إن أهالي «طرَّسونة» انتقضوا عليه فزحف إليهم ودوخهم ودكَّ حصونهم، واقتص من زعماء الثورة وفرض عليهم غرامة مضاعفة.

ثم أغزى جيوشه بلاد إفرنجة، فدمر وأحرق ونسف زروعًا وأسر خلقًا كثيرًا، وقيل: إنه كان يكره هذا العيث في بلاد العدو، إلا أنه كان يداري جنده ويحذر أن يُتهم بفتور الحمية الإسلامية.[١٥٦] قال «كوندي»: ثم إنه في ذلك الوقت خرج في سورية نبي كذاب اسمه «زوناريا»[١٥٧] كان يزعم أنه المسيح المنتظر عند اليهود، فلما سمع بخبره عرب الأندلس، وكان كثير منهم من أهل الشام، صدقوا مقالته هذه وتركوا الغنائم التي كانوا غنموها والمساكن التي كانوا ارتضوها، وعادوا إلى سورية مجفلين، فضبط عنبسة الأملاك التي تركوها، وحولها لبيت المال، ثم في السنة التالية غزا عنبسة بلاد فرنسة ورافقه النصر في أول الأمر، وما زال يقطع الأودية ويستقري البسائط حتى عبر نهر «الرون» إلى الشرق، ولكنه وقع في إحدى الوقائع مثخنًا بجراحات كثيرة، مات على أثرها، وذلك سنة ١٠٦ للهجرة، وقبل أن مات استخلف حديرة الفهري، فلم يشغل هذا المنصب إلا مدة يسيرة؛ لأن أمير إفريقية أرسل أميرًا على الأندلس يحيى بن سلمة.[١٥٨] وكان

هذا قائدًا مجربًا محبًّا للعدل صارمًا جدًّا في إعطاء الحقوق لأصحابها، فهابه المسلمون والمسيحيون معًا، وبينما كان يطوف في الولايات الشمالية انتهز أعداؤه الفرصة فطلبوا من أمير إفريقية عزله فأجابهم إلى ما سألوا وأرسل أميرًا على الأندلس عثمان بن أبي نسعة[١٥٩] وكان عثمان هذا مشهورًا بالبسالة والنجدة والبصيرة بالحروب، فتولى الإمارة واضطلع بها، ولكن وجد أصحابه فيه عودًا صليبًا وقناة لا تلين لغامز ولم يحققوا فيه آمالهم، ولا هو عرف لهم جميل سعيهم في تأميره، بل رأوا منه ما أمضّ وأرمض، فما زالوا يسعون به كما سعوا بسلفه حتى حملوا الخليفة هشامًا على صرفه بحذيفة بن الأحوص[١٦٠] فلم يقم هذا إلا قليلًا، وعاد أمير إفريقية فولى على الأندلس عثمان بن أبي نسعة نفسه، ولكن ولاه وكيلًا لا أصيلًا، إلى أن قدم من دمشق بأمر الخليفة الهيثم بن عبيد الكناني[١٦١] وكان الهيثم شاميًّا ولكنه كان فظًّا بخيلًا جاسيًا، فآسف شيوخ العرب والبربر وساءت ملكته فيهم، فاتحدوا عليه فألقى بهم في السجون وأهلك بعضهم.

وكان من جملة المنكوبين زياد بن زيد فرفع الشكوى إلى الخليفة، هو ومن معه، واتهموا الهيثم بأنه يسير في الأندلس سيرة لا مناص من أن تنتهي ببوار الأمة والخطوب المدلهمة، فأرسل الخليفة هشام محمد بن عبد الله، وفوض إليه أمر التحقيق عن الشكاوى الواقعة بحق الهيثم، وأذن له بأنه إذا ثبت لديه كون الهيثم مجرمًا يعزله ويقتص منه ويتبدل به الأمير الذي يراه الأصلح، فجاء محمد هذا ومضى بالتحقيق اللازم على أحسن وجه، وعند ما ثبت لديه إجرام الهيثم ألقاه في السجن وأطلق الذين كان نكبهم ورد عليهم أموالهم، ويقال: إنه قبل أن نفى الهيثم من الأندلس إلى إفريقية أمر بتطويفه في شوارع قرطبة راكبًا على حمار، تشهيرًا له ونكالًا وفاقًا.

وبعد ذلك فوض محمد بن عبد الله بالإمارة الأمير عبد الرحمن الغافقي فاستحسن الجميع تولية عبد الرحمن الغافقي لما كانوا سبروا من نجابته ومن مزاياه العالية، ولم يشذ عن الجمهور إلا عثمان بن أبي نسعة الذي كان يرى نفسه أولى بالإمارة، فتولى عبد الرحمن سنة ٧٢٨ وفق ١١٠ (هنا فرق بثلاث سنوات عن رواية نفح الطيب). وكان متوفر العناية بإقامة العدل ورفع المظالم وإيتاء الحقوق أصحابها، ولأجل أن يتمكن من تسكين الدهماء وإرضاء الجمهور بقي سنتين يطوف على بلد بلد ويباشر إماطة المظالم وإزاحة العلل بنفسه غير مميز بين المسلم والمسيحي، وعزل كثيرًا من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية، وكذلك أعاد إلى المسيحيين الكنائس التي كانوا انتزعوها من أيديهم، والتى كان لهم الحق بها وفقًا للعهود، كما أنه هدم الكنائس التي كانوا أخذوا الإذن فيها بالرشوة خلافًا للعهود.

ولم يكن يهدأ له بال إلا بغزو فرنسة حتى يدوخها ويضمها إلى إمارته أو يضم منها البلدان التي كانت من قديم الزمان تحت حكم القوط، فحشد جيشًا جرارًا من نخبة المقاتلة والصابرين في الحروب، واستنجد أمير إفريقية فأرسل إليه بجنود مختارة للجهاد، تتلظى شوقًا إلى الجلاد، ولما وصلت نجدة أمير إفريقية سرحها عبد الرحمن إلى الدروب، وبعث إلى عثمان بن أبي نسعة أمير الثغر بأن يشاغل العدو بالغارات إلى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش، فوقع من عثمان على باقعة شديد البأس كان بدون هذا ينافس عبد الرحمن على الإمارة، ولم يكن مرتاحًا إلى عمل يبدأ به عبد الرحمن، وينال به حسن الذكر. وقد انضاف إلى هذا السبب في كراهيته لتلك الحرب أنه في إحدى غاراته على فرنسة وقعت في يده ابنة «أود» دوق أكتيانية، ويقال: إنها كانت تسمى «نوميرانسه»[١٦٢] ويقال: إن اسمها «مينين»[١٦٣] ولكنها كانت مشهورة باسم «لامبيجيه»[١٦٤] وكانت بارعة في الجمال مع مكانها من بيت الملك، فهام عثمان بها حبًّا وتزوج بها كما تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأميرة «أيجيلونة»[١٦٥] أرملة الملك «لذريق» فمن بعد أن أصبح عثمان بن أبي نسعة صهرًا لدوق «أكيتانية» عقد مع أبيها معاهدة سلم ومهادنة أمن بها «دوق أكيتانية» غارات العرب ولو إلى مدة من الزمن.

فلما ورد أمر الأمير عبد الرحمن الغافقي إلى الأمير عثمان بن أبي نسعة بالزحف على بلاد حميِّه «دوق أكيتانية» وقع في حيص بيص، وراجع الأمير قائلًا له: إنه لا يقدر أن يخفر جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله، وكان عبد الرحمن قد عرف بزواج عثمان مع ابنة «أود» وأنه قد شغفه حبها فغضب من تلكؤ عثمان عن الزحف، وأفهمه أن ذلك العهد الذي كان عقده مع الإفرنج بدون علمه لا يعده هو موثقًا له، وأن عليه أن يتحرك للجهاد بدون مراجعة، فلما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن إعمال الغارة في بلاد «أود» أرسل إلى حميِّه يخبره بما وقع[١٦٦] حتى يأخذ حذره ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان، فأرسل جيشًا إلى الباب تحت قيادة ابن زيان، انتخبه من أصدق رجاله، وأمره بأنه إن تمكن يقبض على عثمان بن أبي نسعة ويرسله إليه، وإن أبى الطاعة يهدر دمه، فوصل ابن زيان بعسكره بغتة إلى مقر عثمان، وهو ينوي القبض عليه، ففر هذا في الجبال ومعه بعض أعوانه واستصحب أيضًا زوجته الأميرة «لامبيجيه» التي كان لا يفارقها ولا يرى الدنيا إلا بها، فسار الجيش في إثره حتى أدركوه وأحاطوا به، فتفرق عنه أصحابه في تلك الأوعار ولم يبقَ معه سوى زوجته الحسناء، فدافع عن نفسه وعنها دفاع الأسود حتى أردوه قتيلًا، وفي جسمه ما

لا يحصى من طعن وضرب، فاحتزوا رأسه وأتوا به وبالأميرة الحسناء إلى الأمير عبد الرحمن، فلما رأى عبد الرحمن هذه الغادة هتف قائلًا: والله ما كنت أظن أنه يوجد مثل هذا الصيد في جبال البرانس. وقد وقعت هذه الواقعة سنة ٧٣٠ وفق ١١٣ ثم إن الأمير عبد الرحمن أرسل الأميرة إلى دمشق هدية للخليفة، وهكذا انتهت حياة الأميرة «لامبيجيه» ابنة دوق «أكيتانية» في حرم الخليفة الأموي في الشام.[١٦٧]

ولما وصل خبر مصرع عثمان إلى دوق «أكيتانية» علم أن الحرب واقعة لا محالة وتأهب للدفاع الشديد، ولكن الجيش العربي اندلق من جبال «البيرانه» اندلاق السيول من الجبال، لا يقف في وجهه شيء، فاكتسح الأرضين من «نافارا»[١٦٨] إلى «بوردو»[١٦٩] وامتلأت أيدي المسلمين بالغنائم، ولما وصلوا إلى «بوردو» حاول أهلها أن يدافعوا عنها فكسروهم وأخذوا البلدة عنوة ووضعوا السيف فيها ونهبوها، وكان الأهالي الذين وقعوا في اليد يفدون أنفسهم بالمال، وأما أمير «بوردو» فقد قتل في المعركة.

وبعد أن انتهى عبد الرحمن من فتح بوردو تقدم إلى الشمال فوجد دوق «أكيتانية» في طريقه يحاول صده في مضيق «دوردون»[١٧٠] غير أن حملات العرب لم يكن ليصدها شيء، فانهزم «أود» وفر بجيشه، وقطع أمله من ملكه، فتناسى جميع ما كان بينه وبين «شارل مارتل» من الأحقاد والضغائن، وأرسل يستصرخه، فلم يمكن «شارل مارتل» أو «قارله» إلا إجابة «أود» لا لأجل الإنسانية فقط بل لأجل السياسة؛ إذ كان جميع مصير فرنسة والممالك المجاورة لها متوقفًا على نتيجة هذه الحرب فلو كان العرب تغلبوا ذلك اليوم على الإفرنج لما كانوا وقفوا إلا على ساحل البلطيق.

فامتد الصريخ في كل بلاد فرنسة وزحفت المقاتلة من كل صوب، وانضم الجميع تحت لواء «شارل مارتل» وبقي العرب يتقدمون إلى أن وصلوا إلى قريب من مدينة «تور»[١٧١] وهناك علم عبد الرحمن الغافقي أن جيشًا عظيمًا زاحف لمصادمته، وكان عبد الرحمن مع شدة بأسه وغرامه بالحرب عاقلًا حازمًا بصيرًا بالعواقب، ففكر ساعة فيما بين أيدي رجاله من الغنائم الثقيلة، وعلم ما يعوقهم عن القتال من اهتمامهم بحفظها، فهَمَّ بإعطاء الأمر إلى الجيش بترك جميع ما في أيديهم من الغنائم والأسلاب، ولكنه خاف من إغضاب عسكره فيما لو حملهم على تجرع هذه الكأس المرة؛ إذ قد تفتر همتهم وتلقس نفوسهم، فرجع عن عزمه هذا معتمدًا على ما كمن في نفوسهم من شجاعة وصبر، ثم تقدم وحصر «نور» وأخذها عنوة بمشهد من جيش «شارل مارتل» وخيم بساحتها، ولما دخل العرب المدينة أسرفوا في القتل والنكاية، ثم تلاقى الجمعان

بين «تور» و«پواتييه»[١٧٢] وكان عبد الرحمن هو البادئ بالمناجزة فاستمرت المعركة مدة طويلة، قبل أن يترجح النصر للإفرنج، ولما رأى عبد الرحمن الخلل قد ابتدأ يظهر في صفوفه ألقى بنفسه في وسط المعمعة يصطليها بيده، ودخل حتى بين صفوف الأعداء أنفسهم، يغامر مغامرة الجندي الذي هو من عرض الجند، إلى أن خر هناك صريعًا، فلما رأى العرب مصرع قائدهم الأكبر نزل بهم الرعب ونكصوا على أعقابهم وبنكوصهم خمدت جمرتهم وسقط في أيديهم، فأذرع الإفرنج فيهم القتل وطرحوا منهم بالعراء ألوفًا وما زالوا يعملون في أقفيتهم السلاح إلى «أربونة».[١٧٣]

فلما وصل خبر هذه الفاجعة إلى الأندلس وإلى إفريقية زلزل المسلمون زلزالًا شديدًا، وعم الحزن واشتد البث ولبس المسلمون أثواب الحداد، فأسرع أمير إفريقية بإرسال عبد الملك بن قطن الفهري، خلفًا لعبد الرحمن الغافقي، وأنفذ معه جيشًا من خيل ورجل وبعث إلى الخليفة بدمشق يعلمه بفاجعة بلاط الشهداء وقتل الأمير عبد الرحمن الغافقي وبأنه أنفذ عبد الملك الفهري مكانه وجرد معه جيشًا، فوافق الخليفة على عمل عامله وشمر للأخذ بالثأر وأمر بغزو بلاد فرنسة وأخذها بالسيوف من كل ناحية، فسار عبد الملك الفهري وفي نيته أن يأخذ بذحل المسلمين ويجبر الكسر الذي وقع، ولكن هيهات فقد كان بلغ بالمسلمين اليأس مبلغه، وذهب كل كلام القائد في استنهاض هممهم سدى، وسار منهم مع عبد الملك جيش إلى فرنسة لكنهم ساروا بصدور غير منشرحة وآمال غير منفسحة، وكيف يقاتل جيش تعوزه القوة المعنوية، فانهزم جيش عبد الملك في جبال «البيرانه».

وأخيرًا أرسل الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج (السلولي)، وكان اشتهر ببسالته وحسن تدبيره في حرب البربر بإفريقية فوصل إلى الأندلس، وانتعشت به الآمال بما كان عليه من زكاء السيرة والعدل وسداد التصرف، فبدأ بعزل العمال الذين عسفوا الرعية وحبس الذين غلوا من أموال الدولة أو قاموا بجبايات غير شرعية، وانتصر للضعفاء واقتص لهم من الأقوياء، وأمر الولاة بتجنيد فرق من الجند أرصدها لاستئصال قطاع الطرق، وأسس كثيرًا من المدارس والمساجد على نفقة الدولة، وخصص لها الخدمة الكثيرين، وكان لا يميز في المعاملة بين أصناف رعيته، وبالإجمال فقد كان عقبة هذا كامل العدالة تام الرجولية لا يجد قائل فيه مطعنًا، ثم نظر في سيرة سلفه عبد الملك الفهري فلم يجد عليه ما يؤاخذه به، فجعله أميرًا على الخيالة، وأرسله إلى الثغر، وكان في نية عقبة أن يزحف إلى فرنسة بجيش جرار[١٧٤] امتثالًا لأمر الخليفة، ولكن لما وصل إلى

«سرقسطة» جاءه الخبر بأن البربر في إفريقية ثاروا عودًا على بدء، وأمره أمير إفريقية بأن يتولى قيادة الجيش الثائر للتنكيل بهم وأن يعبر البحر إلى طنجة، وهكذا اضطر عقبة أن يعدل عن غزو فرنسة وأجاز إلى طنجة واشتدت به عزائم العرب في إفريقية.

وكانت هذه الواقعة سنة ٧٣٧ مسيحية وفق سنة ١٢٠ هجرية، وفي آخر هذه السنة توفي «بيلاي» بطل «أستورية» الذي كان هو وحده بنفسه نواة المقاوة بما بقي من قوة الإسبانيول في وجه العرب بعد أن استصفى هؤلاء جميع إسبانية وأخنوا على ملك المسيحيين بها، فإنه بطائفة قليلة من رجاله لم يزل يفر في جبال «أشتورية» من صخرة إلى صخرة إلى أن اعتصم بمغارة جعلها مركز قوته المنيعة، ولم يبرح معتصمًا بذلك الغار يشن منه الغارات على الأطراف القريبة منه، وهو بمنجاة من العرب، حتى وسع رقعة إمارته، وما زالت تتسع شيئًا فشيئًا إلى أن صارت إمارة مذكورة ثم مملكة ثم تغلبت هذه المملكة بعد عدة قرون على جميع إسبانية وأخرجت العرب من كل أوربة، وسنذكر في الجزء التالي جميع ما يتصل بنا علمه من خبر «بيلاي» هذا، وكيفية نشوء إمارته ونمو أعقابه إلى أن استرجعوا جميع وطنهم بعد ثمانية قرون، ولنعد الآن إلى تاريخ «رينو» عن غزوات العرب في فرنسة، ولنمهد لكلامه بما يلي:

واقعة بلاط الشهداء

قبل الدخول في شرح هذه الواقعة وأسبابها وما قيل فيها أرى أن أترجم للقارئ بطلي هذه المعركة عبد الرحمن الغافقي العربي و«شارل مرتيل» الإفرنجي الذي يسميه العرب «قارلة» وأذكرُ خلاصة خبرهما، فيكون ذلك أعون على فهم الواقعة والحوادث التي أدت إليها ونشأت عنها.

«فشارل مرتيل» هو ابن «ببين ديريستال»[١٧٥] مولده سنة ٦٨٩ كان اتهمه أبوه بقتل أخيه الذي كان من غير أمه فاعتقله في كولونية[١٧٦] وما زال إلى أن مات أبوه ببين سنة ٧١٤ في الاعتقال فثار الأسترازيون أي أهالي القسم الشرقي من المملكة الميروفنجية الإفرنجية بتلك الدولة وجعلوا شارل (أو كارل أو قارله) دوقًا عليهم وتغلبوا به على أهالي القسم الغربي من المملكة بعد وقائع متعددة سنة ٧١٦ وسنة ٧١٧ إلى سنة ٧١٩، وعند ذلك اضطر الملك «شيلبريك» الثاني أن يتخذ شارل حاجبًا فتسلم زمام الأمور، واستبد بها وصار مع الملك «شيلبرك» الثاني والملك «تيتري» الرابع كما كان المنصور بن أبي عامر في الأندلس مع الخليفة الأموي هشام أو كما كان عز الدولة ابن بويه أو

ابن عمه عضد الدولة بن بويه مع الخليفة الطائع العباسي أو كما هو المقيم العام الذي تجعله إحدى الدول الاستعمارية من قبلها في هذا العصر بجانب أحد سلاطين الإسلام ممن ليس له من السلطنة إلا الاسم، هذا ومن ذلك الوقت أخذ شارل يمهد البلدان التي تليه ويدوخ الشعوب التي في جواره فقهر السكون والبافاريين وغيرهم من الألمان وكذلك كان «أود» دوق أكيتانية قد هاجمه فدحره.

ولكن لم يبلغ تلك الشهرة التي بلغها ولم يلقب بشارل مارتل، أي: المطرقة إلا بعد أن ظهر على العرب في واقعة «پواتييه» أو بلاط الشهداء، جاء في «المعلمة التاريخية الإفرنسية لغريغوار وموريس فال»[١٧٧] ما يلي: وكان العرب استولوا على إسبانية وسبتيمانية وتهددوا بلاد الغال والنصرانية كلها وهزموا «أود» دوق أكيتانية، فاستصرخ هذا شارل فزحف شارل إلى العرب على رأس جيش الأسترازيين والمقاتلة التي جاءته من وراء الرين، فانتصر على الأمير عبد الرحمن انتصارًا عظيمًا بين «تور» و«پواتييه» سنة ٧٣٢، ويقال: إنه بعد هذه الوقعة تلقب بمارتيل، وهي لفظة معناها المطرقة، ثم إنه بسط الملك الإفرنجي على البلاد التي يسقيها نهر الصاوون ونهر الرون، ودخل سبتيمانيا، وطرد العرب من نيم ومدن أخرى، لكنه لم يقدر على أربونة التي تم فتحها فيما بعد على يد ابنه ببين القصير. انتهى.

ومات شارل مارتل سنة ٧٤١ ولم يسمح لأحد من الملوك الميروفانجيين بشيء من الملك ولا بلقب الملك، وترك سبعة أولاد ذكور، أشهرهم ببين وكارلومان، فتقاسم هذان المملكة بينهما.

أما عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فهو أمير الأندلس، كان مع السمح بن مالك الخولاني في غزاة طلوزة بحسب رواية «رينو»، ولما استشهد السمح رحمه الله في تلك الغزاة تولى عبد الرحمن قيادة جيش العرب الغازي للإفرنجة، وقفل به إلى الأندلس وآلت إليه الإمارة فيما بعد، وقد ذكرنا في حاشية متقدمة ترجمة الأمير عبد الرحمن المذكور نقلًا عن بغية الملتمس لابن عميرة. ولنذكر الآن شيئًا عن نسب هذا الرجل العظيم فنقول:

> يقال له: الغافقي نسبة إلى غافق، وهي قبيلة من الأزد، وهو ابن الشاهد بن عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد، وقيل: بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث بن عدنان، وإليهم يُنسب الحصن المعروف بغافق في الأندلس على مسافة مرحلتين من قرطبة. وجاء في تاج العروس: إن لهم خطة أيضًا بمصر. وذكر ياقوت في معجم البلدان: غافق. فقال: إنها حصن بالأندلس من أعمال

فحص البلوط منها أبو الحسن علي بن محمد بن الحبيب بن الشماخ الغافقي كان من أهل النبل، وتولى الأحكام ببلدة غافق مدة طويلة قدر ٦٥ سنة ومات سنة ٥٠٣. وقال المقري في نفح الطيب: إن غافقًا هو ابن عك بن عدنان بن أزان بن الأزد، قال ابن غالب: من غافق أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب، وأكثر جهات شقورة ينتسبون إلى غافق. انتهى.

قلت: ومن العلماء المعروفين المنسوبين إلى غافق عبد العزيز بن علي بن عيسى بن سعيد بن مختار الغافقي أبو الأصبغ المعروف بالشقوري، المتوفى سنة ٥٣١ ترجمه ابن بشكوال في الصلة وابن الأبَّار في التكملة.

ومنهم عبد الرحمن بن بشر بن الصارم الغافقي أبو سفيان، وفد على سليمان بن عبد الملك ورجع إلى الأندلس فاستشهد بها في قتال الروم، روى عنه بكير بن الأشج وعبد الرحمن شريح.

ومنهم أبو بكر محمد بن أبي عامر بن حجاج الغافقي الأشبيلي وهو الذي جاور بالمدينة المنورة، وقال:

لم يبقَ لي سؤل ولا مطلب مذ صرت جارًا للحبيب الحبيب
لا أبتغي شيئًا سوى قربه وها أنا منه قريب قريب

جاء ذكره في نفح الطيب.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن فطيس الغافقي الألبيري الزاهد: كان من أهل الحديث والضبط رحل إلى المشرق وسمع من شيوخ كثيرين وعاد إلى البيرة وطنه، وتوفي بها في شوال سنة ٣١٩ عن تسعين سنة، ورد ذكره في النفح أيضًا.

ومنهم محمد بن عيسى بن دينار الغافقي من أهل قرطبة كان فقيهًا زاهدًا حجَّ وحضر افتتاح أقريطش «أي جزيرة كريت» واستوطنها. قاله الرازي.

ومنهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقي، من أهل بلنسية أصله من جيان، وسكن المرية ثم مالقة، يكنى: أبا يحيى، ترجمه صاحب نفح الطيب، وقال: إنه كتب لبعض الأمراء بشرقي الأندلس، وله كتاب سماه «المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب» جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية بعد أن رحل إليها من الأندلس سنة ستين وخمسمائة، وتوفي بمصر سنة ٥٧٥.

ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الغافقي الأشبيلي الشهير بالمسيلي: رحل حاجًّا وقفل إلى بلده، ذكره صاحب النفح.

ومنهم أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن خصيب بن أحمد بن حزم الغافقي: أندلسي سكن دمشق وتولى بها الحسبة وسمع بمصر وبغداد وطرابلس ودمشق وغيرها، كان مالكي المذهب لكنه كان يميل إلى مذهب المعتزلة، قال المقري: ما سمعت بمالكي معتزلي غير هذا، توفي سنة ٤٠٤ ذكره ابن عساكر.

ومنهم أبو أمية إبراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد الغافقي من أهل المرية نزل مرسية، وتولى القضاء والخطبة فيها وحدَّث بصحيح البخاري آخر الحجة سنة ٥٥٥ ذكره صاحب النفح، ومنهم غير هؤلاء من الأعلام.

وأما عبد الرحمن الغافقي، أمير الأندلس، فقد ذكر المقري في النفح نقلًا عن ابن سعيد أنه كان من التابعين، تولى إمارة الأندلس في حدود العشر ومائة وهو من أبطال الإسلام المعدودين، كل ما ذكره المؤرخون من أخباره يدل على أنه كان من أفذاذ الرجال، جمع إلى الشجاعة والإقدام، العدل في الأحكام، والسهر على مصالح الأنام، وبُعد النظر في السياسة.

قال المؤرخ «رينو» إنه كان مهتمًا بأخذ ثأر المسلمين عن الغزوات التي أصيبوا فيها في السنين الأخيرة قبل إمارته، وكان يفكر في حملة شديدة على فرنسة يدوخ بها هذه المملكة ثم يجتاز منها إلى إيطالية فألمانية فالقسطنطينية ويُدخلها في حكم الإسلام، ولما كانت الحماسة الدينية في ذلك الوقت في إبان غليانها، وكانت الأندلس وفرنسة الجنوبية بخصب أراضيهما واعتدال هوائهما أصبحتا مقصدًا للعرب من جميع الجهات، وكان يأتيها كل يوم رجالات أشداء من جزيرة العرب ومن جبال الأطلس، فقد كان الأمير عبد الرحمن الغافقي يمرن هؤلاء المجاهدين على استعمال السلاح ويثير فيهم نخوة القتال، وكان مقامه بقرطبة، ولكنه بقي مدة يطوف في الأندلس وينظر في مظالم العباد ويقتص من القوي للضعيف ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ويتبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة، وكان يعامل المسلمين والمسيحيين على السواء تقريبًا وعلى كل حال لم يكن يخرج في معاملة المسيحيين عن العهود المعقودة معهم.

وفي تلك الأيام كان المسلمون يوالون الغارات من أربونة وقرقشونة على البلدان المجاورة لهما، ولكن حصل حادث نفَّس من خناق المسيحيين بعض الشيء، وذلك أن القائد الذي كان في سردانة من جبال البيرانيه كان بحسب رواية إزيدور الباجي ولذريق

شمينيس أحد أحلاس الحرب الإفريقيين الذين بالاتحاد مع العرب فتحوا الأندلس، وكان يسمى «مونوزه» وكان من ذوي البطش والشبا المرهوب، وكان في مبدأ أمره صارمًا جدًّا في معاملة المسيحيين، وأحرق حيًّا أسقفًا اسمه «أنامبادوس» فلما وقعت الحرب بين البربر والعرب مال بطبيعة الحال إلى قومه البربر، واتحد مع «أود» صاحب جنوبي فرنسة الذي لأجل أن يتمكن منه أزوجه ابنته المسماة «لامبيجيه» وكانت فتاة بارعة في الجمال[١٧٨] بلغت شهرة عظيمة.

وقد روى «كوندي» الإسبانيولي هذه الحادثة بشكل آخر نقلًا عن مؤرخي العرب، فجعل «مونوزه» هذا محرفًا عن عثمان بن أبي نسعة[١٧٩] الذي تولى إمارة الأندلس مرتين، وكان ينافس عبد الرحمن الغافقي على الإمارة ويرى نفسه أولى بها، وروى «كوندي» أن ابن أبي نسعة هذا أصاب هذه الأميرة في إحدى غزواته فسباها في من سبا وهام بحبها نظرًا لجمالها واتحد من أجلها مع «أود» أبيها، ثم لما حمله عبد الرحمن على شن الغارات في بلاد إفرنجة اعتذر «مونوزه» أو ابن أبي نسعة بوجوب مراعاة الميثاق الذي بينه وبين «أود» فلم يقبل عبد الرحمن منه هذا العذر وأصر عليه بالتعبية والزحف، فأسرع ابن أبي نسعة بتحذير حميه «أود» ليكون على أهبة ضخمة في وجه عبد الرحمن، فأرسل عبد الرحمن نخبة من جنوده إلى «البيرانه» وأمرهم بالقبض على ابن أبي نسعة حيًّا أو ميتًا، فلما رأى هذا نفسه لا يقدر على الوقوف أمامهم فر ومعه زوجته الحسناء إلى الجبال، فتأثروه إلى حيث ثقفوه، وتغلبوا عليه واحتزوا رأسه وأرسلوا بالرأس إلى دمشق، وكذلك أرسلوا إلى دمشق الأميرة «لامبيجيه» التي دخلت في حرم الخليفة. روى هذه الحادثة أيضًا إيزيدور الباجي ولذريق شيمينس، ثم رويا أن المسلمين الذين كانوا في جنوبي فرنسة كانوا قبل واقعة «پواتييه» غزوا مدينة «أرل».

قال «رينو»: وقد أشار مؤرخو العرب إلى هذا الحصار بدون تسمية هذه المدينة ولكن بوصفهم إياها بأنها مبنية على ضفاف نهر كبير هو أكبر نهر في تلك البلاد كانت تصعد به السفن من البحر، ويظن بعض مؤرخي الإفرنج أن حملة العرب على مدينة آرل لم تكن إلا خدعة يقصدون بها صرف نظر الإفرنج عن وجهة الحرب الحقيقية، وهي الجهة الشمالية، فإن عبد الرحمن بعد أن لبث نحوًا من سنتين، يتأهب للزحف ويكتِّب الكتائب ويعبي الجنود، توجه إلى جبال البيرانيه، وكان جيشه جرارًا يزج الأرض ويهتز شوقًا إلى القتال، والأرجح أن مروره من هناك وقع في ربيع سنة ٧٣٢، وقد جعل طريقه على أرغون ونابارة ودخل أرض فرنسة من أودية «بيغور»[١٨٠] و«بِيرن»[١٨١]

يستدل على ذلك من آثار التدمير التي وقعت في تلك الديار فقد هدم العرب الكنائس والأديار مثل دير «سان سافين»[١٨٢] بقرب «طارب»[١٨٣] ودير «سان سيفر دورستان»[١٨٤] في «بيغور» وخرَّب العرب «آير»[١٨٥] و«بازاس»[١٨٦] و«أوليرون»[١٨٧] و«بيرن» وكذلك دير «سانت كروا»[١٨٨] بقرب بوردو. ثم افتتحوا بوردو[١٨٩] عنوة. وأقبل أود دوق أكيتانيا بجموعه محاولًا صدهم في ممر دور دفاون[١٩٠] نهزم. وكان عدد قتلى المسيحيين من الكثرة بحيث إن المؤرخ إيزيدور الباجي[١٩١] قال: إن الله تعالى وحده يقدر أن يحصيهم. فلما رأى أود أن لا طاقة له بالثبات أمام العرب استصرخ شارل مارتل الذي كان في ذلك الوقت يدافع عن مملكته فاستجاش عصائبه القديمة من جهات الدانوب والألبا[١٩٢] والأوقيانوس، ثم إن العرب بعد أن ظفروا بأود أوغلوا حتى وصلوا إلى پواتييه وأحرقوا دير «سانت إيميليين»[١٩٣] وكنيسة «سانت إيلير»[١٩٤] في پواتييه.

قال رينو: إنه بلغت حماسة العرب في تلك الغزوة أن بعض مؤرخيهم شبههم بريح صرصر، تقتلع كل ما جاء أمامها، أو بسيف ماضٍ يقطع كل ما يصادمه، وكان العرب قد وضعوا نصب أعينهم مدينة «تور» التي كان فيها دير «سان مارتين»[١٩٥] المشهور بنفائسه، وهناك تلقى العرب خبر قدوم شارل مارتل بجيوش الإفرنجة، فقلما ذكر التاريخ معركة لها ما بعدها مثل هذه المعركة، فكان المسيحيون من جهة يذبون عن ديانتهم وأوضاعهم وأملاكهم وأنفسهم، وكان المسلمون من جهة أخرى معتقدين أيضًا أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله، خلا ما كان يهمهم من حفظ الغنائم التي في أيديهم. قال رينو: إن مؤرخًا عربيًّا روى أن عبد الرحمن كان في آخر الأمر في خوف شديد من لهو جيشه بالغنائم الكثيرة التي كانوا يجرونها في أثناء زحفهم؛ وأنه قد فكر في حملهم على تركها في أرضها لئلا تشغلهم عن القتال فتكون عليهم وبالًا، لكنه لم يشأ — وهو في مأزق كذلك المأزق — أن يغيظهم ويخسر توجه قلوبهم، وبقي واثقًا بشجاعتهم وبيمن نقيبته في القتال، فكان لتردده هذا تلك النتيجة المشؤومة. وقد روى هذا المؤرخ العربي أن العرب هاجموا مدينة تور، بمرأى من شارل مارتل، وأنهم انقضوا مثل النمور الكاسرة على أهلها فذبحوهم ذبح الشياه مما لا شك أنه قد أغضب الله تعالى فعاقبهم بنكال قريب، أما مؤرخو المسيحيين فكانت رواياتهم عن هذه المعركة قاصرة، ولم يذكروا شيئًا عن أخذ العرب لمدينة تور، وقد بقي الجيشان يرابط كل منهما الآخر مدة ثمانية أيام، وبعد مناوشات ليست بذات بال أجمع الجيشان على الوقعة الفاصلة، وبحسب هذه الرواية العربية تكون الوقعة قد حصلت بقرب تور، وهذا هو رأي لذريق شيمينيس الذي

كان يروي عن مؤرخي العرب، وأما مؤرخو الإفرنجة فأكثرهم يذهبون إلى أنها وقعت في إحدى ضواحي «پواتييه» ويستدلون على ذلك من الآثار المحفوظة في دير مواساك، ومن الممكن الجمع بين الروايتين. وذلك بأن يقال إن بداية المعركة حصلت بقرب تور وأنها انتهت بقرب پواتييه وقد كان ذلك في شهر أكتوبر سنة ٧٣٢ بحسب رواية بعضهم، وكان المسلمون هم الذين بدأوا القتال، وكان الفرنج قادمين من حروب اتسق لهم فيها النصر، فكانت حماستهم تغلي مراجلها ويزيدها فيهم وجود شارل مارتل الذي كان كلما ظهرت ثلمة خف وسدَّها بنفسه، وقد هاجم المسلمون بخفة حركاتهم على سروات الخيل مهاجمات شديدة، يحاولون بها خرق صفوف الإفرنج فكانوا يجدون أمامهم صفوفًا أشبه بالجدران في ثباتها، فكانت تتكسر عليها حملات العرب، فاستمر القتال أول يوم طول النهار، ولم يحجز بينهم سوى الظلام، وفي اليوم التالي تجدد القتال ورخصت النفوس في سوق المنايا وحمل المسلمون حملات اليائسين؛ إذ لم يكونوا ينتظرون من الإفرنج مثل هذا الثبات ولكنهم لم ينالوا منهم وطرًا، وبينما كانوا يضاعفون حملاتهم؛ إذ أغارت فرقة من الإفرنج على معسكر المسلمين يظن أن قائدها كان أود دوق أكيتانية، فلما رأى المسلمون غارة جانب من الإفرنج على مخيمهم أشفقوا على الغنائم التي كانوا حازوها فتركوا المصاف وانكفأوا إلى المخيم ليستخلصوه من أيدي الإفرنج، وعند ذلك هرع عبد الرحمن يرد المنكفئين ويسوي الصفوف، فذهب اجتهاده عبثًا، وأصابه سهم من جهة العدو فخرَّ صريعًا، وعند ذلك وقع الفشل في صفوف المسلمين، لكنهم تمكنوا من تخليص مخيمهم من أيدي الأعداء وإن كانوا فقدوا كثيرًا من رجالهم، وأقبل الظلام فحال بين الفريقين، وكان مراد شارل مارتل الكر على العرب عند الصباح، إلا أنه عندما أصبح الصباح لم يجد منهم أحدًا، وذلك أنهم لما رأوا ما حل بهم سروا في أحشاء الليل وانحازوا إلى الوراء قاصدين جبال البيرانه، وكان مسراهم من السرعة بحيث إنهم تركوا خيامهم منصوبة وغنائمهم مطروحة في الأرض.

ولما رأى شارل مارتل أن العدو أقلع بقضه وقضيضه وزع على عساكره ما وجده في مخيم العرب من الغنائم المركومة، ولكنه لم يتأثر العرب في طريقهم وهم قافلون، وعللوا ذلك بأنه خشي أن يكون انكفاؤهم إلى الوراء استدراجًا ومكيدة، أو أنه قد أمن بعد هذه الوقعة على مملكته وأصبح لا يخشى عليها شرًّا، فلذلك قطع نهر اللوار، راجعًا إلى الشمال، مفتخرًا بما أحرزه من النصر الباهر، ومنذ ذلك اليوم لقبوه بمارتل (أي المطرقة) سموه بها لمتانته ولما سد به بنفسه من الثلم التي كانت تقع في جيشه.

ولا يمكن قبول روايات بعض مؤرخي المسيحيين الذين أوصلوا عدد المسلمين الصرعى في تلك المعركة إلى ثلاثمائة وستين ألفًا، فإن المسلمين ذلك اليوم لم يسقطوا كلهم صرعى، وما كان من الممكن جمع جيش مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل في تلك الأيام وقد كانت الحروب الداخلية المستأصلة للرجال لا تنقطع، ثم على فرض المُحال وأنه كان ممكنًا حشد فيالق جرارة كهذه فكيف كان يمكن إيجاد الميرة اللازمة لهذه الفيالق الجرارة في البلاد التي تمر فيها، وقد كانت خربت تقريبًا من توالي الغارات والرزايا، نعم لا ينكر أن هذا الجيش الذي قاده عبد الرحمن الغافقي، تلك النوبة، كان أعظم جيش وأحمس جيش قاده العرب إلى وطننا الجميل، وأنه كان قد هبَّ للحرب كالريح المرسلة، وأدل دليل على ذلك هو كون فرنسة بأجمعها جمعت ذلك اليوم جموعها وجاءت بالشوك والشجر لمقابلة ذلك الجيش العربي المغير، وأن هذه المعركة لا تزال حتى اليوم شاغلة أعظم موقع في أذهان جميع الأوربيين.

وأما مؤرخو العرب فلم يكونوا يعلمون من تفاصيل تلك المعركة الفاصلة أكثر مما عرفه مؤرخو الإفرنج، وغاية ما ذكر العرب أن عددًا كبيرًا من رجالهم استشهدوا في بلاط الشهداء وهو الاسم الذي أطلقوه على تلك الواقعة، ويقولون: إنه لا يزال يسمع هناك دوي خفي هو ضجيج الملائكة الذين ينزلون من السماء للصلاة في ذلك المكان المقدس على الشهداء الذين لقوا فيه ربهم.

قال المستشرق رينو: وبعد هذه الهزيمة انكفأ فل الجيش العربي إلى البيرانه مدمرًا كل ما مر به، ومن جملة ذلك دير سولينياك.[١٩٦] وقيل: إن الإفرنج عندما انكفأ العرب أعملوا في أقفيتهم السلاح إلى أن بلغوا أربونة، ولا يظهر أن هذه الرواية متينة[١٩٧] وقد كان تأثير هذه الهزيمة مختلفًا جدًّا بين المسلمين والمسيحيين، فالمسيحيون استجدوا عزائمهم واستأنفوا صرائم، وهبوا في جبال البيرانه للأخذ بالثأر، واعتقدوا أن الله عاد معهم يؤيدهم على أعدائهم، والمسلمون استولى عليهم الوهل ونزل الوهن بعزائمهم، وأخذ الأتقياء منهم يقولون: إن ما حل بهم من الأدبار بعد الإقبال إنما كان جزاء وفاقًا من الله تعالى على استرسالهم في معاصيهم وإمعانهم في ركوب أهوائهم.

وكان النائب في الإمارة الذي تركه عبد الرحمن الغافقي في قرطبة قد طير الخبر بهزيمة المسلمين في بلاط الشهداء إلى القيروان وإلى دمشق، فارتمض الخليفة لهذا الخطب وأرسل أميرًا على الأندلس اسمه عبد الملك[١٩٨] وجهز معه جيشًا وأمره بالأخذ بثأر المسلمين وشفاء صدور المؤمنين واستنفاد الوسع في هذا الأمر، فأقبل هذا الأمير

على الأندلس، يحاول رتق الفتق ورفو الخرق، وأغذ بجيشه إلى البيرانه، وأخذ يخطب في الغزاة والمرابطة، ويشدد من عزائمهم، ويجدل سواعد المسلمين، ويحبك من مرائرهم ويبين فضائل الجهاد وعلو رتبة الاستشهاد، إلا أن كل هذه الخطب في المجاهدين لم تفعل فيهم الفعل الكفيل برأب ذلك الصدع، وكان نصارى شمالي إسبانية وجنوبي فرنسة قد رفعوا رؤوسهم بعد هذه الوقعة ونبذوا إلى المسلمين على سواء، وروى مؤرخ من مؤرخي العرب أن جيشًا من الفرنسيس قطع وقتئذ البيرانه واستولى على بانبلونه وجيرونه.

أما الأمير عبد الملك فأعمل الحركة أولًا إلى كتالونيا وأراغون ونافار[١٩٩] ثم تقدم إلى بلاد اللنغدوق[٢٠٠] وحصن المدن التي كانت منها في أيدي المسلمين، ثم أبعد المغار في بلاد العدو، وكانت بلاد «السبتيمانيا» و«بروفانس» في حالة الفوضى تقريبًا، وكان كل ذي طمع فيها قد انفرد بإمارة واستأثر بزعامة، وكان بعض من هؤلاء الزعماء ينضوون تحت جناح دوق أكيتانية والآخرون يتفيأون في ظل شارل مارتل، وذلك مصانعة لكل منهما، ولكنهم كانوا في الحقيقة إنما يريدون الاستقلال بإماراتهم، وكثيرًا ما كانوا يتحدون يدًا واحدة مع المسلمين الذين كانوا في أربونة، وذلك ليتقوا بأس أولئك الملوك الكبار ومن هؤلاء الأمراء «موروند» الذي كان يلقب بدوق مرسيلية والذى كان بيده أكثر مقاطعة بروفانس.

وفي تلك المدة كان شارل مارتل مشغولًا يبسط سلطته على برغونية وعلى مقاطعة ليون، حيث كان المسلمون قد شنُّوا الغارات وأهرجوا البلاد وأمرجوها، ثم إنه زحف لقتال «الفريزون»[٢٠١] فشغلوه أيضًا عن قتال المسلمين.

وفي سنة ٧٣٤ اتفق يوسف أمير أربونة العربي مع موروند دوق مرسيلية وزحف المسلمون بجيش جرار، وعبروا نهر الرون واستولوا على مدينة «آرل» ونهبوا أديار الرسل والعذراء[٢٠٢] وهدموا قبر سان «سيزير»[٢٠٣] ثم تقدموا إلى أواسط بلاد البروفانس، وحاصروا مدينة «فريتا» المعروفة اليوم «بسان ريمي»[٢٠٤] واستولوا عليها، وساروا منها نحو «آفينيون» وعبثًا حاول مقاتلة «آفينيون» صد المسلمين في ممر «دورانس»[٢٠٥] فإن المسلمين ذللوا كل العقبات، وكانت «آفينيون» في ذلك الوقت عبارة عن الصخرة التي بني عليها فيما بعد قصر الباباوات، وهو المكان الذي كان مؤلفو العرب يسمونه بصخرة أبنيون، وقد بقي المسلمون في ذلك الوقت أربع سنوات محتلين بلاد «بروفانس»[٢٠٦] وكان «أود» دوق أكيتانيا قد توفي سنة ٧٣٥ فجاء شارل مارتل واستولى على بلاده وخضع له أولاد الدوق المذكور.

وأما الأمير عبد الملك[٢٠٧] فبعد أن أهَّب الله له ريح النصر في هذه الغزوات بأرض فرنسة، عاد إلى جبال البيرانيه، لتدويخ الأهالي الباقين على العصيان، فصادفته أنواء وأمطار وهو في جبال وأوعار فوقعت عليه هزيمة، وعندما بلغ الخليفة ما أصابه قلد إمارة الأندلس أميرًا غيره اسمه عقبة[٢٠٨] ولم يبقَ في يد عبد الملك سوى إمارة المقاطعات التي في جوار البيرانه.

وكان عقبة هذا رجلًا يتقد حمية على الإسلام ويرى في الجهاد قرة عينه، ويقول مؤرخو العرب: إنه اختار إمارة الأندلس حبًّا بالجهاد والرباط، وكان إذا وقع في يده أسير من المسيحيين لا يهمل أن يعرض عليه الإسلام، وفي أيامه حصَّن المسلمون جميع المواقع التي أمكنهم تحصينها في بلاد اللنغدوق، حتى ضفاف نهر الرون، وشحنوها بالمقاتلة، وفي ذلك الوقت أعادوا المغار كما بدا على بلاد «دوفينيه»[٢٠٩] فخربوا بلدة «سان بول» المعروفة بالثلاثة القصور و«دونزير»[٢١٠] واحتلوا «فالانس»[٢١١] وأصبحت جميع الكنائس المجاورة لمدينة «فيين»[٢١٢] على ضفتي الرون قاعًا صفصفًا.

وكان المسلمون للأخذ بثأر جيشهم الذي قهره شارل مارتل في بلاط الشهداء قد احتلوا مدينة ليون من جديد، وبثوا الغارات منها على بلاد «بورغونية» فأخذ شارل مارتل يتأهب لقتالهم، وقد كان وافقه الحظ من جهة الشمال والشرق حيث سكنت الثورات التي كانت ثائرة عليه، فسرح أخاه «شيلد براند»[٢١٣] بجيش إلى ليون، وأرسل يستصرخ «لويتبراند»[٢١٤] ملك «اللومبارديين» في إيطالية ليوافيه بجيش لقتال المسلمين الذين كانوا ألبًا واحدًا مع موروند دوق مرسيلية، وقد تمكنوا من جبال «دوفينه» و«بييمونت».[٢١٥] فجاء شيلد براند (أخو شارل مارتل) وحاصر المسلمين في آفينيون واستعمل في حصارها الآلات المعروفة لذلك العهد، وتبعه شارل مارتل نفسه بجيش جديد، وجاء لويت براند ملك اللومبارديين بجيش آخر من إيطالية، فاستولوا على أفينيون عنوة واستأصلوا من بها من المسلمين، وتقدم بعد ذلك شارل مارتل صوب أربونة وكان فيها أمير يقال له بحسب تلفظ المؤرخين القدماء: «أتيما»[٢١٦] وكانت مواصلات مسلمي الأندلس مع مسلمي سبتيمانيا أكثرها من طريق البحر نظرًا لكون أهالي جبال البيرانيه المسيحيين حائلين بين الفريقين، فلما وصل الخبر إلى عقبة بأن شارل مارتل قد ضيق الحصار على أربونة أرسل جيشًا في البحر، لنجدة هذه البلدة، تحت قيادة رجل يقال له: عامر.[٢١٧] فلما عرف شارل مارتل بمجيء هذا الجيش الجديد جاءه بغتة قبل أن يتأهب للقتال فأخذ المسلمون على غرة وكانت هزيمتهم تامة، وقتل أميرهم ولم ينجُ منهم إلا فل قليل

خلصوا إلى مراكبهم وآخرون وصلوا إلى «أربونة»، ولكن برغم هذا كله لم يتمكن شارل مارتل من أخذ «أربونة» وصعرت له خدها، وفي تلك الأيام جاءه الخبر بأن الفريزون والسكسون أشعلوا الثورة من جديد، فاضطر شارل أن يرحل عن «أربونة» ولكنه قبل رحيله خرب القلاع التي كانت في «بيزيه»[٢١٨] و«أقد»[٢١٩] ودمر أبواب مدينة «نيم»[٢٢٠] الشهيرة وقسمًا من الملهى الروماني الذي كان فيها خوفًا من أن يتحصن به العرب، وكذلك دمر مدينة «ماجلون»[٢٢١] وأَخَذَ المسلمين الذين فيها أسارى ومعهم أيضًا أناس من المسيحيين أبقاهم رهائن عنده.

ولا يمكن أن يقال: إن جميع أهالي جنوبي فرنسة كانوا يحبون شارل مارتل، ولو كان قد دفع عن النصرانية غارات المسلمين؛ لأن هؤلاء الأهالي كانوا ينظرون إلى هذا الرجل وقومه كبرابرة من أهل الشمال، بينما هم يرون أنفسهم أمة ذات مدنية قديمة من زمان الرومانيين، ولا نزاع في أن المسلمين كانوا قد خربوا الكنائس والأديار وما يخصها من الأراضي، ولكن شارل مارتل عندما جاء ودفع عادية المسلمين عن تلك البلاد لم يرد تلك العقارات على الرهبان والأساقفة، بل وزعها على رجال الحرب من أنصاره، فبقيت الكراسي الأسقفية خالية. ويقال: إن «فليكارپوس»[٢٢٢] مطران «فيين» بعد أن خرج المسلمون من البلاد لم يرجع إلى أسقفيته، لخلو الكرسي مما يقوم بأوده، فذهب إلى «فاله»[٢٢٣] حيث جعلوه رئيسًا لدير «سين موريس»[٢٢٤] وكان الأحبار ورجال الدين يؤولون هذه المصائب بأنها عقاب صبَّه الله تعالى على هام العباد تنبيهًا لهم للرجوع إلى طريق الفضيلة.[٢٢٥] ولم يخلُ الأحبار ورجال الدين من أناس تعلقوا بشارل مارتل الذي تولى كبر دفع المسلمين عن أوربة، وأشهر هؤلاء «هينماروس» مطران «أوكسير»[٢٢٦] الذي كان يحارب في جيش شارل مارتل بنفسه ويقاتل المسلمين في البيرانه، وهو في ثوب الأسقفية.

وكان مورونـد دوق مرسيلية قد فر هاربًا من وجه شارل مارتل، وبقي متواريًا إلى أن غادر شارل مارتل جنوبي فرنسة عائدًا إلى الشمال، فلما ذهب شارل مارتل شمالًا ظهر مورونـد من مخبأه، وجدد علاقاته مع المسلمين، وقاموا بعمل واحد، فبلغ الخبر شارل مارتل، وفي سنة ٧٣٩ زحف إلى الجنوب ومعه أخوه شيلدربرند واستولى على مرسيلية ومن ذلك الوقت أصبح المسلمون في أربونة لا يجرؤون على عبور نهر الرون.

وليست عندنا معلومات يوثق بها عن كيفية معاملة المسلمين لأهالي مقاطعة بروفانس، ويجوز أن يكون اتفاقهم مع مورونـد قد جعلهم أقل ضغطًا على بلاده مما

كانوا في غيرها، ولكن نزلت على بلاد بروفانس و«لانغدوق» مصيبة ثانية، وهي غارات المسلمين البحرية التي كانت سواحل جنوبي فرنسة دائمًا عرضة لها.

وكان المسلمون في أول الأمر لا يحبون ركوب البحر، ولكن بعد أن فتحوا سورية ومصر وإفريقية اضطروا إلى استعمال الأساطيل البحرية، وبعد وفاة الرسول بخمس عشرة سنة غزا معاوية أمير الشام جزيرة قبرص، وفي سنة ٦٦٩ غزا العرب جزيرة صقلية، ومن ذلك الوقت لم تبرح سواحل سلطنة القسطنطينية عرضة للغارات البحرية الإسلامية، وكانت طوائف الأساطيل الإسلامية، في بادئ الأمر، جمعًا مؤتشبًا من الأفاقين ومن النصارى الذين أسلموا، ومن الشذّاذ من كل قوم، ولكن المسلمين فيما بعد تعودوا ركوب البحر والغزو فيه طمعًا في الغنائم، ومنهم من كان يغزو في البحر جهادًا في سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب، وصاروا يروون أحاديث عن الرسول معناها الحث على الجهاد في البحر، حتى بلغت بهم الحماسة إلى أن النساء صرن يغزون في البحر، ومنهن «أم حرام» امرأة أحد الصحابة التي ماتت في غزاة بحرية في قبرص، وقيل: إنه لما ذهب الأسطول الإسلامي يغزو القسطنطينية، كان أحد أولاد الخليفة عمر حاضرًا، فسأل أمير البحر عن ذنوب الغزاة المجاهدين، فأجابه الأمير بأن آثامهم معلقة في أعناقهم، فأجابه ابن عمر: والذى نفسي بيده، لقد تركوا آثامهم على الشاطئ. وعزوا إلى الرسول أنه قال: إن الجهاد في البحر فيه عشرة أمثال أجر الجهاد في البر.

وكانت الغزوات الإسلامية البحرية، صدر الإسلام، موجهًا أكثرها إلى مملكة الروم، ولما استولى العرب على مدينة قرطاجنة لم يفكروا في أول الأمر أن يجاهدوا فيما وراء البحر، ولذلك بنو مدينة القيروان على مسافة بعيدة عن الشاطئ، ولما غزا موسى بن نصير الأندلس لم يكن عنده إلا أربع سفن لا غير، كانت تذهب وتجيء لنقل الجنود من إفريقية إلى جبل طارق.[٢٢٧] وعند ذلك فهم موسى ضرورة بناء الأساطيل وأنشأ دور الصناعة في كثير من مرافئ الأندلس، وكذلك كانت للعرب مرافئ كثيرة ممتدة من جبل طارق إلى طرابلس الغرب، وسنة ٧٣٦ أنشأ العرب دار صنعة عظيمة في تونس، وكان لهم في الأندلس قائد للبحر اسمه أمير الماء[٢٢٨] ويظن أن لفظة (أميرال) محرفة عنها، وذكر مؤلفو العرب أن موسى غزا جزيرة سردانية سنة ٧١٢، وذكر مؤرخو المسيحيين غزاة للعرب في جزيرة كورسكا[٢٢٩] وكانت جزائر سردانية وكورسكا وصقلية تابعة لملك القسطنطينية، ففي البداية كان العرب يكتفون بانتقاصها من أطرافها ولكن أخذوا فيما بعد يتوغلون في الداخل.

وكان أول نزول العرب في سواحل فرنسة، هو في جزيرة «ليرين»[٢٣٠] بقرب عين الطيب.[٢٣١] وقد اختلف المؤرخون في التاريخ الذي يقال: إن العرب غزوا فيه هذه الجزيرة. فقالوا: إن ذلك وقع سنة ٧٢٨. وقالوا: بل سنة ٧٣٩ وكان في هذه الجزيرة دير شهير تخرج منه آباء للكنيسة وأساقفة مشهورون، ويوم كبسه العرب كان فيه خمسمائة راهب آتين من فرنسة وإيطالية وسائر بلاد أوربة، وكان رئيس هذا الدير القديس «پورسير»[٢٣٢] فلما قرب المسلمون من الدير جمع القديس الرهبان بأجمعهم وقال لهم: إنه يجب عليهم أن ينتظروا الموت، وإنما أرسل إلى البر الأحداث الذين كانوا يتعلمون في الدير، فلما نزل المسلمون في الجزيرة فتشوا عن غنائم يأخذونها فلم يجدوا شيئًا ذا بال، فعرضوا على الرهبان الإسلام، فلم يقبل أحد أن يترك دينه فذبحوهم جميعًا.

ومات شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بيين القصير، واشتغل في توطيد ملكه في شمالي فرنسة وجنوبيها، بحيث كان يمكن العرب أن يغتنموا هذه الفرصة ويحددوا غاراتهم على جنوبي فرنسة ويبلغوا منهم مرادهم، ولكن وقع الشقاق بين العرب أنفسهم فعاقهم عن كل عمل من هذا القبيل، فإن العرب لم يكونوا في هذه الغزوات وحدهم بل كان معهم البربر، وكان القبيلان في نزاع دائم، كما أنه كان العرب أنفسهم منقسمين إلى يمانيين وهم أبناء قحطان، وإلى عدنانيين وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم. وكانت الحروب دائمة بين هذين الشعبين، لشدة ما عند العرب من العصبية، فبعد أن وقعت في بلاد العرب امتدت إلى مصر والشام ثم الأندلس وفرنسة.

وفي ذلك الوقت أعفى العرب الأقوام الذين خضعوا لهم وساروا معهم من الجزية التي كانوا ضربوها عليهم، ومنهم البربر، فاعتاد هؤلاء أن لا يؤدوا شيئًا، إلا أنه في سنة ٧٣٧ عاد أمير إفريقية فتقاضى البربر الجزية فعصوا عليه، وكانوا أقوامًا أشداء نشأوا على صهوات الخيول، فلم يقدر الأمير على تدويخهم، واضطر عقبة أمير الأندلس أن يجيز إلى بر العدوة، أي: إلى إفريقية، لإدخال البربر في الطاعة. وهكذا تمكن شارل مارتل، في غياب عقبة في إفريقية لإدخال البربر في الطاعة، أن يخضد شوكة العرب في جنوبي فرنسة.[٢٣٣] ثم اشتدت ثورة البربر في إفريقية ظهروا على العرب ولجأ فريق من العرب إلى الأندلس، وكان العرب والبربر الذين في الأندلس قد تقاسموا الأراضي فيما بينهم، سواء في الأندلس أو في جنوبي فرنسة، فخافوا من أن هذا الفريق الذي دخل الأندلس من العرب ينازعهم على الأراضي، وقصدوا أن يجلوهم عن البلاد، وكان الأمير عبد الملك أمير الأندلس عدوًّا لهؤلاء العرب الذين دخلوا الأندلس، فقتلوه ونصبوا رأسه على جسر

قرطبة، وكان في أربونة أمير اسمه عبد الرحمن، من أنصار عبد الملك فزحف من أربونة بجيش يقال: إنه بلغ مائة ألف مقاتل، وكان يريد الأخذ بثأر عبد الملك، فوصل إلى قرطبة واقتتل الفريقان ورمى عبد الرحمن قائد جيش العدو بسهم فقتله، وقفل إلى أربونة بعد أن أخذ بثأر صديقه.[٢٣٤]

ولم يكن في وسع الخلفاء في دمشق أن يعيدوا السكون إلى نصابه في بلاد بعيدة كبلاد الأندلس؛ لا سيما أن الثورات كانت تتوالى في الولايات الشرقية فتشغلهم عن المغرب، وهكذا تغيرت الحالة في جنوبي فرنسة، وخلا الجو للمسيحيين، برغم قصر باع ببين القصير وفتور همته، وكان المسلمون الذين في أربونة قد استولوا على مدينة نيم والمدن المجاورة لها، ولكن الحاميات الإسلامية في تلك المدن أخذت تخف شيئًا فشيئًا، فصار في نيم وفي بيزييه وفي ماغلون إدارة أهلية مستقلة بعض الشيء، وأصبح لكل من هذه البلدان أمير يدير أمورها لكنه معترف بسلطان المسلمين.[٢٣٥] ومثل هذا حصل في شمالي إسبانية، أي في أشتورية ونابار وغيرهما.

وفي سنة ٧٤٧ تولى قيادة الأندلس أمير اسمه يوسف[٢٣٦] فأنفذ ابنه عبد الرحمن بجيش، إلى البيرانه، لأجل تدويخ تلك البلاد؛ ولكن المسيحيين قاوموه بالسلاح مقاومة شديدة، وكانت طرق الاتصال بين مسلمي أربونة وبين قرطبة، تكاد تكون منقطعة، بسبب جبال البيرانه، ولذلك لم يطل الأمر حتى ابتدأ المسيحيون في السبتيمانية ينتفضون على المسلمين، وكان يتنازع هذه البلاد، أي المدن السبع، فيفر[٢٣٧] بن أود دوق أكيتانيا وببين بن شارل مارتل، وكان وببين قد نال من البابا لقب ملك، وهو اللقب الذي لم ينله أبوه برغم جميع ما بلغه من الشهرة والمكانة.

وفي سنة ٧٥٢ سار وببين بجيش إلى اللانغدوق، واستولى على نيم وأقت وماغلون وبيزيه.[٢٣٨] وبعد ذلك زحف لحصار أربونة وضيق عليها بجميع قوته، ولما وجد أن أمر حصارها يطول أبقى جانبًا من عساكره حولها تحت قيادة أمير من أمراء القوط اسمه أنسماندوس[٢٣٩] إلا أن العرب قتلوا أنسماندوس هذا في كمين عملوه له، وصادف ذلك حصول مجاعة في جنوبي فرنسة عطلت حركات الجيوش.

وكان بنو العباس في الشرق قد تغلبوا على بني أمية، ونقلوا مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد واستأصلوا الأمويين، وتعقبوهم في كل مكان، ففر منهم واحد إلى إفريقية ومنها أجاز إلى مالقة فتلقاه عرب الأندلس كمنقذ لهم، وكان اسم هذا الأمير عبد الرحمن[٢٤٠] وكانت هذه الواقعة سنة ٧٥٥ وقد قدر أن يكون على يد هذا الرجل وأعقابه أعظم مجد

ممكن لمسلمي إسبانية، وفي أيامهم تأثلت المدنية العربية في الأندلس تأثلًا لا تزال له آثار باهرة هناك إلى اليوم، وإلى يوم مجيء عبد الرحمن لم يكن لأمراء المسلمين في الأندلس شغل إلا بقتال بعضهم بعضًا فلم يؤثروا آثارًا خالدة.

وقد لقي عبد الرحمن نفسه خطوبًا وأهوالًا، وبقي يسكن الثورات ويرتق الفتوق مدة طويلة، ولكنه تمكن أخيرًا من توطيد سلطته وتمكين استقلاله، واستوسق له أمر الأندلس بتمامها، إلا أنه لم يقدر أن يتجاوز إلى غيرها، فلذلك تحاشى أن يتلقب بلقب الخليفة واقتصر على لقب أمير، وبقي أعقابه إلى القرن العاشر مكتفين بهذا اللقب، وإنما كانت عاصمتهم قرطبة مركزًا للعلوم والصنائع ومبعثًا لأشعة المعارف.

وبعد أن رسخت قدم عبد الرحمن الأموي في الأندلس، فكر في مدينة أربونة وما يليها من جنوبي فرنسة، وسرح جيشًا تحت قيادة أمير اسمه سليمان، زحف إلى البيرانه أملًا برفع الحصار عن أربونة، ولكن المسيحيين كبسوهم في تلك الأوعار، فانهزموا هزيمة تامة.

ولما كان جمهور أهالي أربونة من المسيحيين، وقد ضرسهم حصار أربونة بنابه ولم يعد لهم طاقة بتحمل تلك الحالة، داخلوا الملك ببين سرًّا على أن ينتفضوا على المسلمين وينضموا إلى جيشه، بشرط أنهم يكونون في المستقبل أحرارًا في بلدتهم، وتكون إدارة أمورهم بحسب عرف القوط، وهكذا تم الاتفاق بينهم وبين ببين، فبينما كانت الحامية الإسلامية غافلة عما يصنعون كبسوها على غفلة منها، وذبحوها بأجمعها، وفتحوا أبواب البلدة للفرنسيس، وكان ذلك سنة ٧٥٩ فانقرضت حكومة الإسلام من أربونة، وأبقى الملك ببين جيشًا وافرًا لأجل حراسة البلاد.[٢٤١] أ.هـ. ملخصًا من كلام رينو.

هوامش

(١) وُلد موسى بن نصير اللخمي بالولاء المكنى بأبي عبد الرحمن في سنة ١٩ للهجرة في خلافة عمر رضي الله عنه، قال ابن خلكان: إنه كان عاقلًا كريمًا شجاعًا نقيًّا، وكان من التابعين روى عن تميم الداري، وكانت ولاية موسى على إفريقية سنة ٨٩ بأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك، وهو الذي أداخ البربر بعد حروب شديدة، وبعد أن دوخ المغرب كله إلى السوس الأقصى استعمل مولاه طارق بن زياد البربري على طنجة، وترك عنده ١٩ ألف فارس من البربر بالعِدد الكاملة، وكانوا أسلموا وحسن إسلامهم، وترك عندهم بعض العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الإسلام ورجع إلى إفريقية، أي: بلاد

تونس اليوم، وقد أطاعته كل بلاد المغرب، وعند ذلك أرسل إلى طارق بغزو الأندلس، وسيأتي خبر موسى وطارق وغزواتهما مفصلًا في باطن هذا الجزء ثم في الأجزاء المتعلقة بفتح العرب لإسبانية، وكانت وفاة موسى سنة ٩٨ بوادي القرى من الحجاز وعمره ٧٩ فالصحيح أنه لما فتح الأندلس كان ابن ٧٣ سنة.

(٢) Rodrigue رودريق والعرب تقول: لذريق آخر ملوك القوط بإسبانية، كان أبوه دوق قرطبة فغضب عليه غيطشة ملك البلاد، وسمل عينيه فثأر لذريق على غيطشة وقاتله وهزمه واستوى على عرش إسبانية مكانه، فاتفق أولاد غيطشة مع الكونت يليان والي سبتة واستنجدوا العرب، وأجاز طارق بن زياد إلى الأندلس وهزم لذريق وجموعه بالقرب من شريش كما سيأتي الكلام عليه في الأجزاء التالية، وقتل لذريق في المعركة وأخذ العرب رأسه. وقيل بل غاب ولم يدر أين وقع، وإنما وجد المسلمون فرسه الأبيض، وهذه رواية «أخبار مجموعة».

(٣) Roussillon هي المقاطعة المسماة بالبيرانه الشرقية استولت عليها فرنسة سنة ١٦٥٩ قاعدتها (بربينيان) Perpignan.

(٤) Languedoc هي المقاطعة الواقعة إلى الشمال من روسيون وقاعدتها تولوز، وكان استيلاء فرنسة عليها سنة ١٢٧١.

(٥) Provence هي مقاطعة عظيمة في جنوبي فرنسة تضم جبال الألب السفلى، ومصاب نهر الرون، وبلاد القار والفوكلوز، وقد تقدم التعريف بها.

(٦) Tarifa والعرب يقولون: طريف مرسى في جنوبي الأندلس بإزاء جبل طارق إلى الغرب، سمي كذلك باسم أبي زرعة طريف بن مالك النخعي من جماعة موسى بن نصير كما سيأتي الكلام عليه في الجزء التالي.

(٧) هذا على إحدى الروايات، وقيل: إن لذريق لم يوجد بعد المعركة لا حيًّا ولا ميتًا.

(٨) ذكر ابن عذارى المراكشي صاحب «البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» نسب طارق بن زياد فقال: هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورفحوم بن برغاسن بن ولهاص بن يطومت بن تفزاو، فهو تفزي، ذكر أنه من سبي البربر، وكان مولى موسى بن نصير. وقال: في سنة ٩٢ من الهجرة خرج طارق إلى الأندلس، وافتتحها بمن كان معه من العرب والبربر، ورهائنهم الذين ترك موسى عنده، وكان قد أخذهم حسان (أي حسان بن النعمان أمير إفريقية لعهد عبد الملك بن مروان) من المغرب الأوسط قبله. وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة ٨٥،

وفي هذا التاريخ تم إسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات. أهـ وسنذكر عن طارق ما هو أوسع من هذا في الأجزاء الآتية من هذا الكتاب، وأما أن طارقًا أطعم عسكره من لحم أسرى العدو فقد ذكر رينو في حاشية كتابه أن راوي هذا الخبر هو ابن القوطية في كتابه «فتح المسلمين للأندلس». قال رينو: وقد عاش ابن القوطية في النصف الثاني من القرن العاشر للمسيح. وقيل له: ابن القوطية؛ لأنه من ذراري ملوك القوط بإسبانية. أ.هـ.

قلت: قيل له: ابن القوطية نسبة إلى جدته ابنه «وبة» ابن «غيطشة» ملك إسبانية الذي انتزع لذريق منه الملك وانضم بسبب ذلك أولاد غيطشة إلى العرب. هذه رواية ابن خلكان قال: وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أرطباس، فتزوجها في الشام عيسى بن مزاحم من موالي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وسافر معها إلى الأندلس، وجاءت القوطية بكتاب من الخليفة إلى عامله على الأندلس، فكف عمها عنها وأنصفها مما كان لها قبله ورعي حرمتها، وطالت حياتها إلى أيام الأمير عبد الرحمن الداخل، فكانت تدخل عليه وتقضي حاجتها وغلب اسمها على ذريتها، وعرفوا بها إلى اليوم. ذكر ذلك في كتاب الاحتفال في أعلام الرجال، تأليف أبي عمر أحمد بن محمد بن عفيف. انتهى ملخصًا. وابن القوطية المؤرخ هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسي الأشبيلي الأصل القرطبي المولد والدار. أما في نفح الطيب فيقول: إنها سارة بنت «المد» كبير أولاد غيطشة، بسط عمها أرطباش يده على ضياعها، فأنشأت سارة مركبًا حصينًا في أشبيلية وركبت فيها مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها، ثم قصدت باب الخليفة هشام بدمشق، فأنهت خبرها وشكت ظلامتها من عمها، واحتجت بالعهد المنعقد لأبيها وإخوته على الخليفة الوليد، فأوصلها هشام إلى نفسه وأعجبه صورتها وحزمها، وكتب إلى حنظلة بن صفوان عامله على إفريقية بإنصافها من عمها أرطباش، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عمه، فتم لها ذلك وأنكحها الخليفة عيسى بن مزاحم فابتنى بها في الشام. ثم قدم بها إلى الأندلس وولد له منها ولداه إبراهيم وإسحاق فأدركا الشرق المؤثل والرئاسة بأشبيلية. انتهى ملخصًا.

(٩) ذكر دوزي R. Dozy المستشرق الهولندي الشهير في الجزء الثاني من تاريخه لدولة المسلمين في إسبانية عللًا كثيرة لسرعة فتح العرب لتلك البلاد سنذكرها في مكانها، إلا أننا نعجل منها هنا بقضية اليهود التي قد أشار إليها رينو في كتابه، فقال دوزي:

إن رجال الدين الكاثوليكي كانوا يرهقون اليهود عسرًا ويبالغون في إيذائهم. قال المؤرخ الإفرنسي المشهور ميشلة: Michelet كان الناس في القرون الوسطى كلما سألوا: لماذا هذا العالم الذي ينبغي أن يكون المثل الأعلى من الفراديس في ظل الكنيسة نراه انقلب جحيمًا؟ أجابتهم الكنيسة: «لأن هذا من غضب الله الذي يرى أن قتلة ربنا لا يزالون وافرين».

فبدأ اضطهاد الكنيسة لليهود سنة ٦١٦ في أيام الملك «سيسبوت» Sisebut وتقرر إعطاء اليهود مهلة سنة ليتنصروا فإن لم يتنصروا في خلال تلك السنة نفوا إلى خارج إسبانية، وضبطت أملاكهم وجلد كل منهم مائة جلدة، فتنصر منهم تسعون ألفا من مجرد الرعب، ولكن المتنصرين كما لا يخفى لبثوا يختنون أولادهم سرًّا ويدينون بدين موسى، فقرر مجمع الأساقفة الرابع المنعقد في طليطلة تركهم أخيرًا وشأنهم بشرط أن يسلموا أطفالهم لأجل تنشئتهم في النصرانية، ثم في المجمع السادس في طليطلة قرر الأساقفة أنه لا يؤذن بمبايعة ملك على إسبانية إلا على شرط إنفاذ قرارات المجامع الأسقفية بحق اليهود، وبرغم هذا كله بقي يهود في تلك البلاد كثيرون، ولكن استمر المسيحيون يعذبونهم نحوًا من ثمانين سنة إلى أن فرغت جعبة اصطبارهم فأجمعوا الثورة بمظاهرة يهود البربر في إفريقية، ووعدهم هؤلاء بالإجازة إلى الأندلس لأجل نجدتهم، وكان ذلك في زمن الملك «أجيكا» Egica الذي بلغه هذا الخبر فجمع الأساقفة، وبعد أن استوثقوا من صحة الخبر قرروا استعباد اليهود بأجمعهم وضبط جميع أملاكهم، ومن الغريب أنه قضى على بعض اليهود بأن يكونوا عبيدًا لمن كانوا عبيدًا، وتقرر أن يؤخذ أولادهم من بعد بلوغ سن السابعة وينشأوا في النصرانية، ولم يكن يؤذن بزواج اليهودي من اليهودية، بل كان لا بد لليهودي بعد أن صار عبدًا من أن يتزوج بأمة مسيحية، وكان لا بد لليهودية من أن تتزوج بعبد مسيحي ... إلخ.

فلما جاء المسلمون وفتحوا إسبانية كان اليهود هناك في أشد العذاب، فحررهم المسلمون من الرق، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يمارسوا شعائر دينهم فنشقوا نسيم الفرج، فلذلك كانوا هم والأرقاء وجميع الضعفاء من أعظم أنصار الإسلام. انتهى ملخصًا.

(١٠) جاء في نفح الطيب نقلًا عن الرازي أن موسى خرج من إفريقية إلى الأندلس في رجب سنة ٩٣٠ واستخلف على إفريقية أسن ولده عبد الله بن موسى، وكان موسى في عشرة آلاف.

(١١) جاء في النفح: زعم ابن حبيب أنه دخل الأندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة اسمه المنيذر، قال: ودخلها من التابعين (الذين صحبوا من صحب النبي ﷺ)

ثلاثة: الأمير موسى بن نصير، وعلي بن رباح اللخمي، وحيوة بن رجاء التميمي. وقيل: إن ثالثهم إنما هو حنش الصنعاني، صنعاء الشام، (قرية كانت على باب دمشق دون المزة) وإنهم قفلوا عنها بقفول موسى، وأهل سرقسطة يزعمون أن حنشًا مات عندهم ولم يقفل للمشرق، وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه. أ.هـ. وقيل: إن التابعين الذين دخلوا الأندلس أربعة بأبي عبد الرحمن الجيلي الأنصاري وخمسهم بعضهم بحيان أبي جبلة مولى بني عبد الدار كان في ديوان مصر، فأرسله عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها، وكان روي عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر وغزا مع موسى بن نصير، وانتهى معه إلى حصن من حصون العدو يقال له: قرقشونة (هي حصن Carcassonne في جنوبي فرنسة) أ.هـ. وقال ابن الأبار في التكملة: حيوة بن رجاء التميمي، ذكر عبد الملك بن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير وأصحابه، وأنه من جملة التابعين. قاله ابن بشكوال. وقال ياقوت في معجمه عند ذكر صنعاء الشام: وحنش بن عبد الله الصنعاني — صنعاء الشام — سمع فضالة بن عبيد، روى عنه خالد بن معدان والحلاج أبو كبير وعامر بن يحيى العامري. قال ابن الفرضي: عداده في المصريين، وهو تابعي كبير ثقة، ودخل الأندلس. قال: وهو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن فهد بن قينان بن ثعلبة بن عبد الله بن تامر السبأي وهو الصنعاني، يكنى: أبا رشَيد (بفتح الياء) كان مع علي بن أبى طالب رضي الله عنه بالكوفة، وقدم مصر بعد قتل علي، وغزا المغرب مع رويفع بن ثابت، والأندلس مع موسى بن نصير (إلى أن يقول): ومات بإفريقية وولده بمصر. وقيل: مات بمصر، وقيل: بسرقسطة، وقبره بها معروف، كل ذلك عن ابن الفرضي، أ.هـ. وأما المنيذر الصحابي فقد جاء في النفح أن ابن حبيب لم ينسبه، وإنما ذكره ابن عبد البر (الأندلسي) في الصحابة، وقال: إنه المنيذر الإفريقي، وروى عنه أبو عبد الرحمن الجبلي. قال: حدثنا المنيذر الإفريقي، وكان سكن إفريقية، وكان صحب رسول الله ﷺ، أنه سمعه ﷺ يقول: «من قال: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا فأنا الزعيم له فلآخذن بيده فلأدخلنه الجنة» رواه ابن عبد البر بسنده إليه.

(١٢) Mérida من ولاية بطليوس وإلى الشرق منها، وهي بلدة من بناء أغسطس الروماني استولى عليها العرب نحوًّا من ٥١٥ سنة، وسيأتي ذكرها في الجزء الآتي من الحملة.

(١٣) أصل اسمها عبد الأيبريين «سالدوية» وقد سميت سرقسطة في زمان الرومانيين باسم الإمبراطور أغسطس، فهي Cesar-Augusta أي: سيزار أوغسطة وقد حرفها

العرب إلى سرقطسة، وكان يقال لها: الثغر الأعلى؛ لأنها قاعدة الحدود بين العرب والإفرنجة، وكان القوط استولوا عليها سنة ٤٧٦ وحاصرها الإفرنج (الفرنسيون) في زمان أحفاد كلوفيس فعجزوا عنها، ولما استولى العرب على إسبانية كانت من القواعد الكبار، وحصرها شارلمان في أيام عبد الرحمن الداخل وعجز عنها، واسترجعها الإسبانيول سنة ١١١٨ كما سيأتي الكلام عليه، بعد حصار استمر تسعة أشهر وحرب استمرت خمس سنوات، دخل إليها محرر هذه السطور سنة ١٩٣٠ في أواخر يونيو وشاهد أهم آثارها، ومن جملتها قصر الجعفرية المنسوب إلى أبي جعفر أحمد، بناه في أواسط القرن الحادي عشر للمسيح، ولا يزال الجامع الذي فيه محفوظًا، ومما شاهدناه فيها كنيسة «السيو» التي بنيت على أنقاض الجامع الأعظم، وبقي الإسبانيول يشتغلون بها من سنة ١١١٩ إلى سنة ١٥٢٠ فجاءت من أفخم كنائس أوربة، ولها باب من الجهة الشمالية الشرقية لا تزال عليه الصنعة العربية والزليج الذي تمتاز به قصور العرب، وفي هذه الكنيسة قبة بالنحاس الأصفر من صنع المهندس العربي الذي كان يقال له: الرامي، بنيت سنة ١٤٩٨، وفيها من الزخرف شيء كثير يحار له العقل، وفي سرقسطة كنائس كثيرة بديعة غير هذه وقصور وجسر على نهر «أيبره» يصل بين البلدة والربض Rabal ويلفظون الربض «رابال» وهو لفظ غريب، ولكن له أصل في العربي، وقد سمعت أناسًا من ثقيف ومن هذيل يقلبون الضاد لامًا، وذكرت ذلك في رحلتي الحجازية المسماة بالارتسامات اللطاف، هذا وسكان سرقسطة اليوم ١١٠ آلاف نسمة.

(١٤) Narbonne والعرب يقولون لها: أربونة كانت قاعدة ثغورهم الشمالية مدة نصف قرن، وهي مدينة على مسافة قريبة من البحر يمر بها جدول من نهر الأود، وقد دخلتها سنة ١٩٣٠ في أوائل سبتمبر وأنا قافل من الأندلس، ورأيتها تشبه كثيرًا المدن العربية في ضيق أزقتها وازدحام بيوتها، ورأيت فيها الأشجار التي تكثر في البلاد العربية كالتين والصبير والرمان وما أشبه ذلك، وفيها زقاق منسوب إلى السمح Zama وهو السمح بن مالك الخولاني، وعدد سكانها الآن لا يزيد على ٣٠ ألف نسمة.

(١٥) في الصفحة ١٣٠ من نفح الطيب، الجزء الأول الطبعة الأزهرية يقول: قال بعضهم: إن بين قرقشونة وبرشلونة مسافة خمسة وعشرين يومًا، وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة «سنت مريه». وقد حكى ابن حبان أن فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراءون مثلها، لا يحيط الإنسان بذراعيه على واحد منها مع طول مفرط.

(١٦) Charles Martel أي: كارل المطرقة، والعرب تقول: «فارله» ابن «بابين دريستال» وُلد سنة ٦٨٩ واتهمه أبوه بقتل أخيه «غريموالد» فحبسه في «كولونيه» ولما مات أبوه سنة ٧١٤ صار هو حاجب الملك مكان أبيه بمساعدة الأوسترازيين، وقهر التوستريين في عدة وقائع واستبد بأمور الملك شيلبريك الثاني، ثم بأمور «تييري» الرابع، ولم يبقَ لأحد منهما من الملك سوى الاسم، وحارب الصكصون والبافاريين وتغلب عليهم، وهزم أولاد دوق أكيتانية، إلا أن هذا لما رأى العرب فتحوا بلاده استصرخ قارله، وعند الشدائد تذهب الأحقاد، فحشد لقتال العرب عصائب الأوسترازيين والألمان، وتغلب على الأمير عبد الرحمن الغافقي في وقعة بواتيه سنة ٧٣٢ ومن بعدها لقب بالمطرقة أو الصاقور، وأجمع الأوربيون على أن هذه الواقعة هي التي أنقذت أوربة والنصرانية من الإسلام، ثم طرد العرب من «نيم» وغيرها، لكنه لم يقدر على طردهم من أربونة أو ناربون، وكانت وفاته سنة ٧٤١، وقد ترك من الولد «ببين القصير» و«كرلومان» و«غرينون» و«رمي» و«برنار» و«جيروم» فاقتسم المملكة الأولان فيما بينهما وصار «رمي» مطرانًا على مدينة روان Rouen.

(١٧) Pepin le Bref ببين القصير ابن قارله، حارب الصكصون والبافاريين وأمير أكيتانية، وفي سنة ٧٥١ بويع ملكًا على الفرنج Les Trancs وهو أول الدولة الكارلوفنجية Carlovingienne وكانت مبايعته بعضد الكنيسة له، وترك من الولد شارلمان charlemagne وكارلومان Carloman ومات سنة ٧٦٨ وهو الذي استرد أربونة وقرقشونة من أيدي العرب.

(١٨) هو كبير ولد ببين القصير، كانت ولادته في نوستريا سنة ٧٤٢ وتولى الملك هو وأخوه كارلومان إلى أن مات هذا سنة ٧٧١ فانفرد شارلمان بالملك، وحارب الأكيتانيين واللومبارديين وقهرهم وأخذ ملك لومباردية أسيرًا، وحارب الصكصونيين والبافاريين والتورنجيين والسلاف والآفاريين والدانمركيين، ودوخهم جميعًا، ولكن أشد حروبه كانت مع الصكصونيين؛ إذ جرد عليهم ٣٣ تجريدة ولم يبرح حتى أدخلهم في الطاعة وفي النصرانية معًا، وكانوا من أشد أعدائها فبث فيهم الدعاة والمبشرين حتى تنصروا قاطبة، وبلغت جيوشه شرقي أوربة، وانتزع من يد روم القسطنطينية سواحل دالماسيا (اليوم في يوغوسلافيا) وبلدان الدانوب، وهكذا دخل في حوزته كل ما كان يسمى بأوربة المسيحية، وتوجه البابا لاون الثالث إمبراطورًا على الغرب في سنة ٨٠٠ وجدد به السلطنة الرومانية، وكان عدا غرامه بالفتوحات مجتهدًا في تنظيم إدارة رعيته وتوزيع العدالة بينها، وفي

تهذيب الأهالي وتعليمهم وإيداب الثوار منهم، فهو أعظم ملوك الغرب في القرون الوسطى، خطب وده نيقوفور ملك الروم وهارون الرشيد خليفة العرب، وأدارسة المغرب وغيرهم من الملوك المعاصرين.

وقاتل شارلمان العرب قتالًا مستمرًا، برًّا وبحرًا، وأجلاهم عن جزيرتي كورسيكا وسردانية، واسترجع منهم بلاد كتالونية وأراغون إلى سرقسطة، وذلك بمساعدة إسبانيول آستوريا ونابارة، ولكنه لم يتمكن من فتح سرقسطة، وبينما هو قافل عنها دهمه الباشكنس في «رونسفالس» فاستأصلوا ساقة جيشه، وقتل في ذلك اليوم «رولان» Roland أحد الأبطال الذين رافقوا شارلمان في تلك الحملة، وهو الذي وضعت له الأقاصيص في فرنسة وتغنت بوقائعه شعراؤهم وزجالوهم، أشبه بعنترة عندنا، وقيل: إن العرب هم الذين هزموا جيش شارلمان في البيرانه وظاهرهم الباشكنس.

(١٩) قصة الكتابة العربية هذه أشبه بأن تكون ملفقة أو محرفة عن قصة أخرى، والحقيقة أن عدم تحقيق موسى بن نصير مقصده العظيم ذاك من اختراق أوربة من الغرب إلى الشرق ونفوذه إلى دمشق عن طريق القسطنطينية لم يكن عن قراءته في الصخر كتابة عربية أو سريانية، فالذي يقوم بتلك الأعمال الكبيرة الخارقة للعادة لا يكون ممن يعمل فيه الوسواس لكتابة كهذه يجوز — إن صح خبرها — أن تكون كتابة محدثة نقرها الإفرنج أنفسهم ليدخلوا الوهل على قلوب العرب بعد أن رأوهم أوغلوا في بلادهم وصمموا أن يصلوا إلى غايتها، وإنما لم يتمكن موسى بن نصير من إكمال مشروعه بسبب إلحاح الخليفة الوليد عليه في القدوم إلى دمشق ليقف منه على حقيقة خبر الأندلس وإفرنجة ويشافهه في عمل عظيم كهذا لا تكفي المكاتبة من بعيد في تدبيره، وقد يكون الوليد خاف على المسلمين أن تأكلهم القاصية أو تنزل بهم داهية، وأنت تعلم أن موسى بن نصير لما اتصل به يليان كونت سبتة وشوقه إلى غزو الأندلس انتقامًا من الملك لذريق الذي كان اغتصب ابنه يليان على ما سيأتي خبره في الجزء التالي، وكتب موسى إلى الوليد يخبره بما دعاه إليه يليان ويستأذنه في اقتحام الأندلس كان جواب الوليد أن: خضها بالسرايا حتى ترى وتخبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجعه موسى بأنه ليس ببحر زخار وإنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه، فكتب إليه الخليفة: وإن كان فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه.

فإذا كان الخليفة لم يسمح لموسى بعبور بحر الزقاق وهو خليج ضيق عرضه ١٤ كيلو مترًا إلا بعد مراجعات متعددة فكيف يسمح له باختراق أوربة من إسبانية إلى

فرنسة إلى إيطالية إلى بلاد البلقان إلى القسطنطينية إلى آسية الصغرى بدون أن يتروى في الأمر ويروزه مائة مرة قبل أن يقدم عليه، فقد كانوا في إشفاق دائم على جيوش المسلمين أن ينقطعوا عن مركز الخلافة وتحل بهم نائبة.

وسنرى فيما بعد أن الأندلس كانت امتلأت بالمسلمين، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لا يزال يفكر في إخراج المسلمين منها وإعادتهم إلى إفريقية خوفًا عليهم لانقطاعها عن بلاد الإسلام، ولقد صح خوفه من بعد ثمانمائة سنة، فالخليفة الوليد باستقدامه موسى بن نصير إليه كان قد وقف بالمشروع حتى يتروى فيه، ولكن ما وصل موسى إلى دمشق حتى مات الوليد وخلفه سليمان أخوه، وكان حاقدًا على موسى فنكبه تلك النكبة الشنيعة وجازاه على فتوحاته جزاء سنمار، وعطل ذلك المشروع بحقده وانقياده إلى هواه دون المصلحة العامة، وسنرى في كلام ابن خلدون أن استقدام الوليد لموسى لم يكن إلا من خوفه على المسلمين.

(٢٠) جاء في كتاب «بنية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس» لابن عميرة الضبي ترجمة عبد العزيز بن موسى بن نصير قال: كان والده قد استخلفه على الأندلس عند خروجه منها سنة ٩٥، فأقام واليها إلى أن كتب سليمان بن عبد الملك إلى الجند هنالك فقتلوه وأتوه برأسه. كذا قال سعيد بن يونس: وكان قتله فيما قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في سنة ٩٩. وقال: إن الجند اجتمعوا على قتله لأمور نقموها منه وبلغتهم عنه فثاروا به وقتلوه وخرجوا برأسه إلى سليمان بن عبد الملك، وأنه لما أحضر بين يدي سليمان حضر موسى بن نصير فقال له سليمان: أتعرف هذا؟ قال: نعم أعرفه صوامًا قوامًا فعليه لعنة الله إن كان الذي قتله خيرًا منه. أ.هـ.

(٢١) قد أورد دوزي المستشرق الهولاندي المتخصص بتاريخ الأندلس عن كتاب «أخبار مجموعة» هذا بحثًا مدققًا كعادته في المقدمة التي وضعها بالإفرنسية على كتاب «المغرب في أخبار المغرب» لابن عذارى المراكشي فقال دوزي ما مجمله:

> «إن العرب لم يكونوا يكتبون التاريخ في القرنين الأولين من استيلائهم على إسبانية، وذلك لأن العرب كانوا يعتمدون كثيرًا على الروايات الشفهية، وإن قوة ذاكرتهم لعجيبة؛ فليس في الأمم أمة تضاهيهم في حفظ ما يحفظونه من وقائع وسنين وأعلام وأنساب، وذلك بدون ضياع ولا تحريف إلا ما لا بال له، فلم يكن بهم حاجة إذن إلى كتب مدونة، وكان التاريخ في جميع الأفواه يتناقله الأبناء عن الآباء، ثم إن الذين كانوا يشتغلون بالكتابة كان عددهم نزرًا

جدًّا، وكانوا إذا كتبوا اختاروا التأليف في الديانة وكانت التآليف في غير الديانة مكروهة، فلهذا ندرت الكتابة في التاريخ في الصدر من أيام أمراء بني أمية بالأندلس، ومع هذا فقد وجدت شذرات تاريخية من ذلك العهد ملحقة بتاريخ ابن القوطية، وعليها هذا الاسم التالي: أخبار مجموعة في افتتاح الأندلس، وذكر مَن وليها من الأمراء إلى دخول عبد الرحمن بن معاوية وتغلبه عليها، وملكه فيها هو وولده والحروب الكائنة في ذلك بينهم، ومن تأمل في هذا الاسم علم أنه موضوع الكتاب وشك في أن يكون هو اسمه، لهذا قد كنت ظننت أن «أخبار مجموعة» هو «الكتاب الخزائني» إلا أني رأيت ابن الخطيب ينقل في كتابته عن الصميل بن حاتم فصلًا عن الخزائني لم أجده في مخطوط «أخبار مجموعة» الذي في خزانة باريز، فعدلت عن هذا الرأي، والذي يدور عليه الكلام في أخبار مجموعة هو كيفية فتح العرب للأندلس ثم الحروب الأهلية التي وقعت بينهم إلى زمان عبد الرحمن الداخل، ومن عهده إلى زمان عبد الرحمن الثالث وهناك ينتهي الكتاب. ويظهر أن المؤلف عاش إلى ما بعد سنة ٣٥٠ لأنه يذكر أن عبد الرحمن الثالث ملك مدة خمسين سنة، بل أظن أن المؤلف عاش بعد ذلك بكثير لا في أيام الحكم بن عبد الرحمن الثالث، ولا في زمن المنصور بن أبي عامر بل في القرن الحادي عشر للمسيح؛ لأنه عندما ذكر كيف فكر عمر بن عبد العزيز في نقل المسلمين من الأندلس هتف قائلًا: «وليت الله كان أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله». وغير ممكن أن يكون كاتب شاهد لفتوحات الحكم الثاني وفتوحات المنصور بن أبي عامر ويقول هذا الكلام، وهو كلام جدير بالعربي الذي شاهد حوادث الأندلس في عهد تقهقر العرب فيها كالقرن الحادي عشر للمسيح (أي بداية الأربعمائة للهجرة) الذي كاد فيه الأذفنش السادس يستولى على جميع ديار المسلمين في الجزيرة الأندلسية، ولكن يوجد في هذا الكتاب فصل لا يمكن أن يكون قد كُتب إلا في القرن العاشر المسيحي، وهو الذي يقول فيه: أخبرنا محمد بن الوليد، وهو رجل محدث ترجمه الحميدي مات سنة ٣٠٩، ثم إنه يقول في مكان آخر: إنه سمع رواية فرار عبد الرحمن الداخل عن فم أحد معاصري هذا الأمير؟ وهو تناقض غريب؛ إذ ينبغي أن يكون سمع من فم رجل عاش في القرن الثامن، وعبارته هذه هي: أخبرني من سمع عبد الرحمن

بن معاوية يحدث طائفة من بدء حديث هربه قال ... إلخ. فلأجل التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين ينبغي أن يكون بعض هذا الكتاب كُتب في أواخر القرن الثامن وأن النسخة المحفوظة في مكتبة باريز قد اشتملت على فصول كتبها بعض رجال القرن الحادي عشر، فهو بالحقيقة مجموعة تواريخ لا تاريخ واحد، ومما يجدر بالذكر أن كل من تأمل في هذا الكتاب يرى مؤلفيه من أنصار دولة بني أمية. أ.هـ.

قلت: يجوز أن يكون في هذا الكتاب روايات مجموعة لعدة رواة منهم من تقدم، ومنهم من تأخر، ولكن تشاؤم مؤلف الكتاب بمصير الأندلس لا أراه بسبب كون المتشائم عاش في القرن الحادي عشر المسيحي أو الرابع للهجرة، بل يجوز أن يكون قد عاش أيام الفتوحات والطوائل، ويبقى متشائمًا وذلك لاستمرار الفتن بين مسلمي الأندلس بدون انقطاع، ولأن الشيطان ألقى بينهم روقه فأطاعوه، وهذا مع ثقل حملهم وكثرة عدوهم واتصال الأندلس بالأرض الكبيرة، أي: أوربة، ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين خطر هذا المقام من بداية الأمر والعاقل بشفوف بصيرته يدرك طرفًا من خزائن الغيب، وصدور الأمور مؤذنات بأعجازها، وسنذكر فيما يلي من الأجزاء خلاصة ما قاله دوزي عن تواريخ الأندلس العربية.

(٢٢) مدينة مبنية على متن أكمة عالية تنحط عنها الأرض من جميع جهاتها، وحولها سهول قيح إلى مسافة بعيدة قد زرتها سنة ١٩٣٠ في سياحتي إلى الأندلس، وشاهدت آثارها وحصونها المتهدمة، وهي من عمل أشبيلية.

(٢٣) ما ورد في كتب اللغة فعل «تشبب» بمعنى جعل نفسه شابًا، ويظهر أن الكاتب قاسها على فعل «تشيخ»، أي: صار شيخًا.

(٢٤) سنأتي بخبر هذه المائدة التي أصابوها بطليطلة في الجزء القادم عند الكلام على فتح طليطلة.

(٢٥) هو الذي بنى «قلعة أيوب»، والإسبانيول يقولون: Cnlatayoud وهدى مدينة مررنا عليها في طريقنا من سرقسطة إلى مجريط.

(٢٦) هي واقعة بواتيه الشهيرة.

(٢٧) في الجزء الخامس من صبح الأعشى ورد ترتيب أمراء الأندلس كما يلي: موسى بن نصير، أقام بالأندلس سنتين واستخلف عليها ابنه عبد العزيز، ثم وليها بعد قتله عبد العزيز بن عبد الرحمن القيسي سنتين وثلاثة أشهر، ثم وليها السمح بن مالك الخولاني

سنتين وتسعة أشهر، ثم وليها عنبسة بن سحيم الكلبي أربع سنين وخمسة أشهر، ثم وليها يحيى بن مسلمة سنتين وستة أشهر، ثم وليها حذيفة بن الأحوص القيسي سنة واحدة، ثم وليها عثمان بن أبي نسعة الخثعمي خمسة أشهر، ثم وليها الهيثم بن عبيد خمسة أشهر، ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي سنتين وثمانية أشهر، ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهري أربع سنين، ثم وليها عقبة بن الحجاج خمس سنين وشهرين، ثم وليها مفلح بن بشر القيسي أحد عشر شهرًا، ثم وليها حسام بن ضرار الكلبي سنتين، ثم وليها ثوابة الجذامي سنة واحدة، ثم وليها يوسف بن عبد الرحمن الفهري تسع سنين وتسعة أشهر، وكانت دولة بني أمية بالأندلس. انتهى.

وقد جاء في الحاشية في الطبعة الأميرية من الكتاب تصحيح لهذا الترتيب من ذلك أن أول والٍ بعد عبد العزيز هو أيوب بن حبيب اللخمي كما في نفح الطيب والعبر.

(٢٨) Pélage.

(٢٩) وذلك أن عبد الملك بن قطن كان قَاتَل البربر الثائرين عليه بأهل الشام، وهزمهم وأوقع بهم وأخذ ثأر العرب الذين كان البربر قد أخرجوهم من جليقية واسترقة وشمالي الأندلس، ولكن لم تستقر الغلبة للعرب حتى عادوا إلى أحقادهم القديمة، وثار الجند الشامي بعبد الملك وقتلوه واضطر ولداه قطن وأمية أن يَرْجِعَا إلى البربر ويَسْتَعِينَا بهم على العرب، وقد جاء نسب عبد الملك بن قطن في بغية الملتمس هكذا: عبد الملك بن قطن بن عصمة بن أنيس بن عبد الله بن حجوان بن عمر بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر الفهري أمير الأندلس، وليها سنة ١١٥ بعد عبد الرحمن العكي من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسي الأمير بإفريقية، وقُتل بالأندلس سنة ١٢٥.

(٣٠) قال رينو في الحاشية: إنه نقل روايات أيزيديور الباجي عن مخطوطات متعددة.

(٣١) لذريق شيمنيس: كتب في القرن الثالث عشر للمسيح، واعتمد على كتب العرب، قال رينو: إن تاريخه مطبوع بالعربي واللاتيني في ليدن.

(٣٢) Fainéants هو اللقب الذي أطلقه المؤرخون على أواخر ملوك الدولة الميروفنجية الذين سلموا الأحكام لِحُجَّاب القصر تسليم خلفاء قرطبة بعد الحكم المستنصر إلى المنصور بن أبي عامر ثم إلى أولاده من بعده، وقد استمرت هذه الحالة في فرنسة من عهد «تيري» الثالث (سنة ٦٧٥) إلى عهد «شيلدريك» الثالث (٧٥٢).

(٣٣) Narbone, Nime, Agde, Beziers, Lodéve, Carcassonne et maguelone.

(٣٤) Eudes due D’itquitaine.

(٣٥) Clovis أول ملوك فرنسة هذا الذي يسميه المسعودي قلوزيه.

(٣٦) Les Francs الفرانك وهم من السلالة الجرمانية تغلبوا على فرنسة فنسبت إليهم وتسمت بهم، ثم إن العرب تلفظوا بها «الفرنج» أو «الإفرنج» وغلبت هذه اللفظة على كل الأوربيين.

(٣٧) Gaulois نسبة إلى بلاد الغال، والفرنسيس يقولون: الغول.

(٣٨) Asturies والعرب يقولون: أشتوريش.

(٣٩) Galice غاليسة وأكثر ما يقول العرب: جليقية.

(٤٠) Navarre والعرب تقول: نبره ونابار. والإسبانيول يقولون: ناباره.

(٤١) قال رينو في الحاشية: إن من جملة هؤلاء الذين سفهوا رأي السمح هذا ابن القوطية والمقري.

(٤٢) نهر الرون Rhone وهكذا لفظ اسمه اليوم، ولكن أصل اسمه هو «رودانوس» باللاتنيني، ومنه قال العرب: «ردونه». كما كان الإفرنج يقولون له في أيام قدومهم إلى تلك الديار. وهذا النهر يخرج في سويسرة، وينصب في بحيرة ليمان، ثم يخرج منها عند جنيف ويدخل أرض فرنسة، ويتصبب إلى البحر المتوسط وطول مجراه ٨١٢ كيلو مترًا.

(٤٣) Barcelone قاعدة كتالونيا وأكبر مدينة في إسبانية، وأرقاها وسيأتي عليها الكلام فيما يأتي.

(٤٤) Narbonne.

(٤٥) Avignion والعرب تقول: «أبينيون» لأنها تجعل الفاء باء وربما قالت: «أفينيون» بالفاء الموحدة، وصخرة أفينيون هي المكان الذي بُني عليه قصر الباباوات الذين جعلوا إقامتهم بأفينيون من سنة ١٣٠٩ إلى سنة ١٣٧٧.

(٤٦) Lyon ثالث مدينة في فرنسة في عدد السكان، وأصل اسمها «لودونوم»، يمر بها نهر الرون والصاوون ويقسمها إلى ثلاثة أقسام، وهي من أعظم المدن الصناعية في أوربة، وقد بنى ليون الواليُّ الرومانيُّ لوسيوس موناتيوس سنة ٤١ قبل المسيح، وصارت عاصمة بلاد الغال في زمان أغسطس، ولا تزال من أمهات مدن فرنسة.

(٤٧) وبعض المؤرخين يسمونه الحر بن عبد الله القيسي وهو واحد لأن الثقفي قيسي وثقيف من بطون هوازن، وهوازن هو ابن منصور بن عكرمة بن خصبة بن قيس عيلان.

(٤٨) جليقية أوغاليسية: يحدها من الشمال والغرب بحر الأوقيانوس، ومن الجنوب البرتغال، ومن الشرق بلاد ليون وجبال أشتوريش، وفيها لقي العرب أشد المقاومة، وكان انضمام هذه البلاد إلى مملكة قشتالة سنة ١٠٧٣ لكنها بقيت حافظة استقلالها الداخلي إلى زمان فرديناند وإيزابيلا، ففي عهدها اندمجت في بقية إسبانية، والإسبانيول يكتبون اسمها هكذا Galicia.

(٤٩) Alava إحدى مقاطعات شمال إسبانية واقعة في جنوبي البيرانه، أهلها من الباشكنس.

(٥٠) العرب كانوا يسمون نافار بنبلونة وأحيانًا نبرونة، وقد يقولون لها: نبرة. وهذه اللفظة بنبلونة Pampeluna اسم مدينة في نافار فيها قلعة.

(٥١) الجُبْح — بضم فسكون وبكسر فسكون — حيث تعسل النحل. قال في لسان العرب: إذا كان غير مصنوع والجمع أَجْبُح وجُبُوح وجِبَاح. وقيل: هي مواضع النحل في الجبل.

(٥٢) كان لم يبقَ للعرب في كل الأندلس إلا مدينة غرناطة، وكان الطاغيتان فرديناند وإيزابلا آخذين منهم بالمخنق الذي يقطع الأنفاس، وقد أقاما وعساكرهما بمعسكر من الحجر بدلًا من الخيام إيذانًا بأنهما لن يقلعا عنها، وكان أهل غرناطة مع ذلك يقاتلون الإسبانيول في النهار ثم يعودون مساء فيقتتلون في البلدة بعضهم مع بعض، حارة غرناطة مع حارة البيازين. راجع كتابنا «آخر بني سراج» مع ذيله. وإذا أراد الله شيئًا هيأ أسبابه.

(٥٣) يحيى بن حريث على وزن أمير: كان أميرًا بكورة رية وبها سكنى أهل الأردن.

(٥٤) الصميل على وزن أمير.

(٥٥) الإسبانيول يكتبونها Xecunde.

(٥٦) حرب صفين بين علي ومعاوية هي التي أخرت سير الإسلام إلى الأمام بعد أن كان أوشك أن يشمل الأرض، ولقد اضطر معاوية بسببها أن يهادن الروم. قال البلاذري في «فتوح البلدان»: إن معاوية صالح الروم على أن يؤدي إليهم مالًا. وحرب القيسية واليمنية في الأندلس كانت الثلمة التي اقتحم منها الإسبان والإفرنج على العرب حتى نكص هؤلاء إلى الوراء، وما زالوا ينكصون إلى أن عادوا من حيث أتوا وأكروا كما أرموا، وانطوى من هناك بساطهم الطويل العريض، وكان وعد الله مأتيًّا.

(٥٧) قرأت في كتاب «تاريخ مسلمي إسبانية» لدوزي المستشرق الهولندي الذي يعده الأوربيون أفضل مؤرخ لدولة العرب في إسبانية كلامًا معناه: أن بُغض قيس لليمن وبغض اليمن لقيس هو أشد من بغض العرب للأمم الأعجمية، فتأمل.

(٥٨) يقال لها: صخرة Aguilar «أغيلار».

(٥٩) Asturias.

(٦٠) استورقة: من بلاد ليون في شمالي إسبانية، والإسبانيول يكتبونها Astorga.

(٦١) أي إن هذه الفتنة بين العرب بعضهم مع بعض اهتبل الإسبانيول فيها الغرة فأخرجوا المسلمين من جليقية، وهكذا تأسست الدولة الإسبانية الأولى بعد الفتح العربي، وما زالت تشتد وتمتد حتى أخرجت المسلمين من كل إسبانية.

(٦٢) Coria.

(٦٣) Merida من بلاد بطليوس في غرب الأندلس.

(٦٤) Sidonia.

(٦٥) بقرب طرف الأغر Trafalgar وتُكتب بالإسبانيول Barbate.

(٦٦) أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، له تاريخ بغية الملتمس وصل فيه إلى أوائل دولة الموحدين، وذكر واقعة الأرك الشهيرة التي أدال الله فيها للمسلمين على الأذفنش الملقب بالإمبراطور وتاريخها ٩ شعبان ٥٩١.

(٦٧) استشهد رينو على هذه الرواية بتاريخ دير «مواساك» Abbaye de Moissac الذي في مجموعة «مؤرخي بلاد الغال» Recueil Des Historiens des Gaulesللدون «بوكيه» Don Bouquet الراهب البنديكتي المشهور في علم التاريخ ولد في «آميان» سنة ١٦٨٥ وتوفي سنة ١٧٥٤، واستشهد بمجموع آخر اسمه مجموع «موزاتوري» Recueil de Muratori.

(٦٨) La Robine.

(٦٩) Volsques.

(٧٠) Placida-Galla.

(٧١) Gondebaud.

(٧٢) Burgundes شعر جرماني أغار على بلاد الغال سنة ٤٠٦ للمسيح واستوطن وادي الرون أو ردونة وأخذ بالثقافة اللاتينية وامتزج بالغاليين، وقد تزوج كلوفيس ملك فرنسة بابنة غوندبود ملك البورغوند أو البورغون هؤلاء، وكان العرب يقولون لهم: البرجان.

(٧٣) اسمه Narbonne Historique et Archéologique.

(٧٤) السمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز، وفي أربونة اليوم شارع باسم السمح Rue, de Zama.

(٧٥) Guillaume au court nez.

(٧٦) قد بلغ هذا الكلام عن سيدنا مالك رضي الله عنه الأمير هشامًا الأموي صاحب الأندلس فمال إلى مذهبه في الفقه، وحمل عليه أهل الأندلس، وكانوا من قبل يتفقهون على مذهب سيدنا الأوزاعي رضي الله عنه، وقد استوفينا الكلام على ذلك في الكتاب الذي حررناه عن الأوزاعي وهو الآن تحت الطبع.

(٧٧) العرب كانوا يسمون بالجلالقة أهالي غاليسيا في شمالي إسبانية وأهالي جنوبي فرنسة أحيانًا.

(٧٨) Alava وقد تقدم ذكرها.

(٧٩) لا أعلم إن كان هذا هو الاسم الحقيقي أو كان محرفًا عن «برمودة» Bermude، وهو ملك كان في جيليقية نزل في آخر الأمر عن الملك للأذفنش لأنه كان أضلع به منه، إننا لم نقرأ اسم ملك ولا أمير أسباني اسمه «ابن منده» وتحريف العرب أسماء الإفرنج وتحريف الإفرنج أسماء العرب بحر لا يلجج فيه.

(٨٠) المؤرخ الإسبانيولي كوندي يذكر أن الأمير هشامًا أرسل جيشًا إلى جبال الأشتوريش Asturies عدته ٣٩ ألف مقاتل بقيادة عبد الواحد بن مغيث لا عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، وقد ذكرنا أن المحققين لا يمدحون تاريخ كوندي ولا يثقون بسيل تلعته.

(٨١) Gironde هي إحدى مقاطعات فرنسة الجنوبية الغربية، يحدها اليوم من الشمال شارانت Charente السفلى، ومن الغرب خليج غامسقونيا، ومن الجنوب مقاطعة اللاند Landes ومن الشرق مقاطعة لووغارون Lot-et-Garonne ومقاطعة دوردون Dordogne.

(٨٢) مقاطعة عظيمة من غربي فرنسة Bretagne أهلها من الجنس السلتي ولغتهم غير الإفرنسية يحد برطانية من الشمال بحر المانش، ومن الغرب والجنوب الغربي البحر المحيط، ومن الجنوب الشرقي «بواتو» ومن الشرق «أنجو» و«ماين» ومن الشمال بلاد نورماندیا، وكانت برطانية مستقلة في القديم تولاها ٣٥ أميرًا وما استلحقتها فرنسة إلا في أيام فرنسوا الأول سنة ١٥٣٥، ولا تزال فيها بقايا عصبية تنزع إلى الاستقلال

عن فرنسة، والأرجح أن لا يكون المراد هنا ببرطانية برطانية الإفرنسية بل أمبرطانية الكتالانية، وعند ذلك يلزم أن لا تكون البلاد التي قبلها جرندة التي هي في جنوبي فرنسة وقاعدتها بوردو بل جرندة التي هي من مقاطعات كتالونيا، أي: جرندة التابعة لبرشلونة والتي يقال لها اليوم: جيرونه، فإن اسمها الروماني القديم جرندة Gerunda، وكان اسمها هذا هو المستعمل يوم فتحها العرب. نبهني إلى ذلك ولدنا الفاضل محمد الفاسي الفهري وقال لي: إنه لم يزل بفاس إلى الآن عائلة من الأندلس يقال لها: عائلة الجرندي نبغ منها علماء أعلام مثل أبي العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن الجرندي الأندلسي المتوفى بفاس سنة ١١٢٥ ترجمه القادري في نشر المثاني، والكتاني محمد بن جعفر في سلوة الأنفاس. ولا شك في أن العرب سكنوا جرندة الكتالونية طويلًا ولكنهم لم يسكنوا جرندة التي عاصمتها بوردو ولا عرفوها إلا في الغزوات عابري سبيل، روى لي محمد الفاسي أن المستشرق الإسباني قديره Codera كتب فصلًا خاصًّا عن فتح العرب للمدن الثلاث: برشلونة وجرندة وأربونة، يتلخص منه أن العرب فتحوا جرندة عندما فتحوا الأندلس، وبقيت في أيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥ ثم استردها العرب سنة ٧٩٣ ثم أُخذت منهم سنة ٧٩٧ أو ٧٩٨ ثم عادوا ففتحوها ثم أُخرجوا منها نهائيًّا سنة ٨٠٠.

(٨٣) Astorga من بلاد ليون في شمالي إسبانية.

(٨٤) Oviedo وابن حوقل يسميها أوبيط.

(٨٥) Pélage أول من ملك على فل الإسبانيول وأسس دولتهم المستقلة بعد فتح العرب للأندلس، وسنذكر خبره وخبر أعقابه تفصيلًا في الجزء الثاني.

(٨٦) Gironna من بلاد الكاتالان تابعة لبرشلونة.

(٨٧) قال المسعودي في مروج الذهب بعد أن روى واقعة سمورة على جيش عبد الرحمن الناصر ما نصه: وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الفرنجة، ومدينة أربونة خرجت من أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها، مما كان بأيديهم من المدن والحصون، وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦ من شرق الأندلس طرطوشة، وعلى سائر بحر الروم مما يلي طرطوشة إفراغه على نهر عظيم ثم لاردة. انتهى.

ثم ذكر دوزي الهولندي، أدرى من حرر تاريخ عرب الأندلس من الأوربيين، وذلك في الجزء الثالث من «تاريخ الإسلام في إسبانية» أنه بعد ثورة «بلاي» جرت حوادث أخذت

بأيدي الأستوريين، وهي أن مسلمي شمالي إسبانية كان أكثرهم من البربر فثاروا على العرب ووقعت بين الفريقين الوقائع، وظهر البربر في البداية على العرب، ثم عاد هؤلاء فأخذوا بالثأر وغلظوا على البربر فألجأوهم إلى الجلاء راجعين إلى إفريقية، وعلى تفيئة ذلك حصلت مجاعة شديدة استمرت نحوًا من خمس سنوات متوالية، فلم يبقَ من البربر هناك إلا النذر، وخلت الديار تقريبًا من المسلمين فثار الأستوريون تحت قيادة الأذفنش صهر «بلاي» وذلك سنة ٧٥١ مسيحية، وذبحوا مَن بقي من المسلمين، ولم يبقَ منهم أحد في «براغة» ولعل براغة هذه هي التي يسميها المسعودي إفراغة (لأن القاء يلفظها الإسبان باء) Braga ولا في «بورتو» Porto ولا في «فيزو» Viseu وأصبح جميع الساحل إلى مصب نهر «دورو» أي الوادي الجوفي Duero خاليًا من المسلمين، ثم انكشف المسلمون عن «أسترقة» Astorga و«ليون» Léon و«سمورة» Zamoura و«دجمنة» Diesma و«طلمنكة» Talamanqua فاستقروا في «قورية» و«ماردة» Merida وأما من جهة الشرق فجلا المسلمون عن «سردانة» Serdana و«سمينكه» Simankas و«سيقوبيه» Segovia و«أبيلة» Avila و«أوقة» Oca و«ميرانده» Miranda على نهر «إبرة» Ebra وصارت ثغور الإسلام «قويمرة» Coimbra وقورية و«طلبيرة» Talavera وطليطلة و«تطيلة» Tudela و«بنبلونة» Pampelona.

(٨٨) Toulouse.

(٨٩) Aquitaine.

(٩٠) جاء في «بغية الملتمس في تاريخ رجل الأندلس» لابن عميرة الضبي ما يلي في حرف السين: السمح بن مالك الخولاني ثم الحياوي؟ أمير الأندلس استشهد في قتال الروم بالأندلس في ذي الحجة يوم التروية سنة ١٠٣.

(٩١) استشهد رينو هنا بكوندي الإسبانيولي وايزيدور الباجي والستاز الكتبي صاحب ترجمة حياة البابا غريغوار الثاني ومجموعة مواساك التي فيها كتاب مؤرخي فرنسة.

(٩٢) Jaucels.

(٩٣) Beziers.

(٩٤) Saint-Bausile.

(٩٥) Nimes.

(٩٦) Saint-Gilles.

(٩٧) Arles.

(٩٨) Psalmodie.

(٩٩) Aiguemortes.

(١٠٠) استشهد رينو على ذلك بتاريخ نيم تأليف مينار Menard.

(١٠١) نقل رينو هذا الخبر عن النويري.

(١٠٢) جاء في «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ما يلي: عنبسة بن سحيم الكلبي كان أمير الأندلس في سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان أمير إفريقية في أيام هشام بن عبد الملك، ومات سنة ١٠٧ وقيل سنة تسع. والله أعلم.

(١٠٣) نقل رينو هذا الخبر من مجموعة «مؤرخي بلاد الغال» عن تاريخ مواساك Moissac.

(١٠٤) Albigeois.

(١٠٥) Rouergue.

(١٠٦) Gevaudan.

(١٠٧) Velay.

(١٠٨) Rbodés.

(١٠٩) Roqueprive.

(١١٠) Balaguier.

(١١١) Dadon.

(١١٢) Dourdon.

(١١٣) Conques.

(١١٤) Ermoldus Nigellus.

(١١٥) Muratori.

(١١٦) Bouquet.

(١١٧) Pertz.

(١١٨) Monastier.

(١١٩) Velay.

(١٢٠) Puy.

(١٢١) Clermont.

(١٢٢) Brioude.

(١٢٣) Saint Chaffre وكان يقال له أيضًا: Saint Théofroi.

(١٢٤) Dauphiné مقاطعة من فرنسة قاعدتها «غرينوبل» تتألف منها الآن ولايات «الأيزير» و«الدروم» و«الألب» العليا.

(١٢٥) مدينة ليون الشهيرة وقد تقدم ذكرها.

(١٢٦) تقدم ذكرها أيضًا.

(١٢٧) Vienne مدينة على وادي «الرون» تبعد ثمانين كيلو مترًا عن «غرينوبل» إلى الشمال الغربي.

(١٢٨) مدينة Maçon من مقاطعة الصاوون واللوار على مسافة ٤٤١ كيلو مترًا إلى الجنوب من باريز.

(١٢٩) قصبة Chalon على نهر الصاوون على ٥٨ كيلو مترًا من ماسون، وهي غير مدينة شالون على المارن.

(١٣٠) Bon مدينة على ٣٨ كيلو مترًا إلى الجنوب الشرقي من «ديجون».

(١٣١) Autun مدينة على مسافة ١٠٦ كيلو مترات إلى الشمال الغربي من ماسون.

(١٣٢) Saint-Nazaire.

(١٣٣) Saint-Gean.

(١٣٤) Saint-Martin.

(١٣٥) Saint-Andoche.

(١٣٦) Saulieu قصبة من ساحل الذهب من ولاية سيمور Semur.

(١٣٧) Beze.

(١٣٨) Dijon قاعدة بلاد «برجونيا» على مسافة ٣١٥ كيلو مترًا من الجنوب الشرقي من باريس.

(١٣٩) Plancher.

(١٤٠) Gallia Christiania.

(١٤١) Nevers.

(١٤٢) Franche-Comté مقاطعة في شرق فرنسة، قاعدتها «بيزانسون» تحتوي على ولايات «الصاوون» العليا و«دوبس» Doubs و«جورا» Jura.

(١٤٣) Saint-Colomban.

(١٤٤) Vosges.

(١٤٥) Luxeuil.

(١٤٦) Mellin.

(١٤٧) Lecointe.

(١٤٨) Mabillon.

(١٤٩) Sens قصبة مقاطعة إفرنسية تسمى يوند "Yonnd".

(١٥٠) Ebbon.

(١٥١) Sarrazins وهو لقب المسلمين عند الإفرنج في ذلك الوقت.

(١٥٢) Vandales.

(١٥٣) قال ابن عذارى في البيان المغرب: قال إبراهيم بن القاسم: وكان أهل قرطبة على حال شدتهم وعظيم محنتهم لاجين في الفتنة والتعصب على البربر، ومن ذكر الصلح قُتل، حتى إن رجلًا من وجوه أهل العلم قال في الجامع: اللهم أصلح علينا فقُتل في مكانه. وقال آخر في الجامع: إن الله أحب الصلح وأمر به، فقُتل في الحين. وجاءت امرأة من الفرن فأوقعت قِدرًا فانكسرت فكانت سوداء فقالوا: بربرية سوداء فقتلت. «إلى أن يقول»: وأتى رسل ابن مامة القومس زعيم نصرانيته يستنجزون تسليم الحصون إليه على ألا يعذرهم ولا يتعرض لشيء من ثغورهم، فرضوا بهذا وحضر الفقهاء والعدول والقاضي وكتبوا كتابًا بذلك.

قال: ولما وصل الرسل إلى قرطبة حضر الفقهاء والقاضي والعدول وكتبوا كتابًا بالشروط وتسليم الحصون للنصارى، وقرئ على الناس بحضرة هشام (أي: الخليفة) وواضح (أي: الحاجب) وشهد فيه جميع من حضر، وخرج القوم من القصر مستبشرين بما كان (تأمل كيف كانوا يستبشرون بتسليم الحصون إلى الإسبانيول بشرط أن يظاهروهم على البربر) فكان الذي صار لابن مامة جميع الحصون التي كان أخذها الحكم بن عبد الرحمن ومحمد بن أبي عامر وابنه المظفر، كل ذلك استخفافًا من هشام — هكذا ذكر الرقيق في كتابه.

قال: وسمع اللعين ابن شائجة أيضًا بما سلم إلى اللعين ابن مامة دونه من الحصون، فكتب يطلب حصونًا أُخَر، وتوعد وتهدد، فأجيب إلى ما سأل من ذلك وكتب بتسليمها إليه، وهذا كله لجاجًا في ألا يصالح البربر. أ.هـ..

(١٥٤) جاءت ترجمة عبد الرحمن الغافقي في كتاب «بغية الملتمس في رجال أهل الأندلس»، لأحمد بن يحيى بن عميرة، كما يلي:

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي وهو العكي، أمير الأندلس، وليها في حدود العشر ومائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسي صاحب إفريقية، وعبد الرحمن هذا من التابعين يروي عن عبد الله بن عمر وروى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وعبيد الله بن عياض، استشهد في قتال الروم بالأندلس سنة ١١٥ حكى ذلك غير واحد، وكان رجلًا صالحًا جميل السيرة في ولايته كثير الغزو للروم عدل القسمة في الغنائم وله في ذلك خبر مشهور، أخبرني أبو طاهر إسماعيل بن قاسم الزيات لقيته بفسطاط مصر، قال: أخبرنا الصادق بن مرشد بن يحيى بن القاسم المديني سماعًا عليه، أخبرنا علي بن منير الخلال قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج، أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن بن خلف قال: أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم قال: غزا عبد الرحمن يعني: ابن عبد الله العكي إفرنجة وهم أقاصي عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم، وكان فيما أصاب رجل من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزبرجد فأمر بها فكُسرت، ثم أخرج الخمس وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه، فبلغ ذلك عبيدة يعني: ابن عبد الرحمن القيسي الذي هو من قبله فغضب غضبًا شديدًا، وكتب إليه كتابًا يتوعده فيه، فكتب إليه عبد الرحمن: إن السموات والأرض لو كانتا رتقًا لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجًا. انتهى.

وسنذكر في متن الكتاب تكملة أخبار عبد الرحمن الغافقي رحمه الله.

(١٥٥) أكثر المؤرخين يقولون: إن باني جسر قرطبة هو سلفه السمح بن مالك الخولاني، ولعل عنبسة أكمل بناءه بعد قتل السمح.

(١٥٦) لا شك أن الغافقي بمكانة من معرفة الشرع كان يعلم أن نسف الزروع وهدم البيوت وقطع الأشجار واستعمال النار كل ذلك مخالف لقواعد الحرب في الإسلام ولو في بلاد العدو، وقد نصَّ على ذلك الأئمة بالصراحة، وغاية ما شدد المشددون منهم هو أنه يصح إذا بدأ العدو ولم تبقَ للمسلمين حيلة إلا بمقابلته بالمثل.

(١٥٧) Zonaria وهذا الخبر الذي رواه كوندي، ونقله عنه رينو لم نسمع به حتى الآن وهو من أغرب ما سمع من الأخبار، ونظن أنه إن كان له أصل فيكون في المجتمع اليهودي لا المجتمع الإسلامي.

(١٥٨) في نفح الطيب أن يحيى بن سلمة الكلبي أنفذه بشر بن صفوان الكلبي، والي إفريقية، لما استدعى منه أهل الأندلس واليًا بعد مقتل عنبسة فقدمها آخر سنة ١٠٧، وأقام في ولايتها سنتين ونصفًا.

(١٥٩) الإفرنج يسمونه «مونوزه» Munuza وهكذا جعلوا ابن أبي نسعة محرفًا إلى «مونوزه». ويقول «رينو»: إن كلًّا من الإفرنج والعرب يحرفون أسماء بعضهم حتى تنكر على الإنسان أصلها.

(١٦٠) في نفح الطيب أن عثمان بن أبي نسعة اللخمي قدم واليًا من قِبَل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب إفريقية وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الأحوص القيسي.

(١٦١) في نفح الطيب يقول: إنه قدم من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي أمير إفريقية وأنه وصل في المحرم سنة ١١١ وغزا أرض مقوشة فافتتحها وتوفي سنة ١١٣ لسنتين من ولايته، وقدم بعده محمد بن عبد الله الأشجعي فوُلِّي شهرين، ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها سنة ١١٣ وغزا الإفرنجة … إلخ.

(١٦٢) Numérance.

(١٦٣) Minine.

(١٦٤) Lampégie.

(١٦٥) Egilone.

(١٦٦) كان العرب يطلقون لفظة الباب على بلدة واقعة في أحد منافذ جبال «البيرانه» أو «البرانس» والمؤرخ «كوندي» يظن أنها مدينة «بوي سردا» Puy Cerda وهذا الرأي موافق لرأي المسيو «شينييه» Chonier الذي يقول: إن عثمان بن أبي نسعة كان أميرًا في «سردة» ويقول آخرون: إنه كان في الطرف الغربي من مقاطعة «روسيون» Rousillon في المحل الذي يقال له: «سردانة»، وهو قرية صغيرة لا تبعد عن «بوي سرده» وكانت تابعة لإسبانية برغم كونها محاطة بأرض فرنسة، وكان إلى شمالي هذه القرية على جبل منفرد في حذاء «البيرانه» حصن قديم فيظن بعضهم أن هذا الحصن هو الذي كان يقيم فيه أمير الباب من قبل العرب.

(١٦٧) قال المسيو «دومارليس» صاحب الحواشي على تاريخ «كوندي» الإسبانيولي: إن هذه الواقعة هي السبب في قول المسيو «شينيه» Chenier بأن المسلمين يعتقدون أن أحد خلفائهم تزوج بأميرة إفرنسية. قلت: وليس هذا القول خطأ؛ لأن «أود» دوق «أكيتانية» أي ملك بلاد الغال في عصره كان ينتسب إلى «كلوفيس» أول ملوك فرنسة.

(١٦٨) Navarr هي مملكة في شمال إسبانيا كان العرب يقولون لها: «نافارا» وأحيانًا «نبرا».

(١٦٩) Bordeaux مدينة عظيمة في غرب فرنسة على مسافة ٣٧٨ كيلو مترًا إلى الجنوب الغربي من باريس، وهي قاعدة مقاطعة «الجيروند» التي كان العرب يقولون لها: «جيرندة» وكانوا يقولون لمدينة «بوردو» بورديل.

(١٧٠) Dordogne والمؤرخ «كوندي» الإسبانيولي يقول: إن هذه الواقعة حصلت على وادي «الغارون» ولكن «دومارليس» الذي حشَّى كتاب «كوندي» يقول: إن أكثر المؤرخين الإفرنسيين يجعلونها في مضيق «دوردون».

(١٧١) Tours من مدن فرنسة المشهورة واقعة على نهر «اللوار».

(١٧٢) Poitiers مدينة على مسافة ٣٣٢ كيلو مترًا إلى الجنوب الغربي من باريس.

(١٧٣) يقول المسيو «دومارليس» في حاشية كتاب «كوندي»: إن المؤرخين من الإفرنج لم يتفقوا على تعيين يوم هذه الواقعة ولا على محل نشوبها، فبعضهم يقول: إنها وقعت في ٧ أكتوبر سنة ٧٣٢ وبعضهم مثل «كوندي» يقول: إنها وقعت سنة ٧٣٣ وأما العرب فإنهم أوثق رواية عن يوم وقوعها؛ لأن هذه الحادثة المشؤومة على الأمة العربية، التي كانت سبب توقف سير قوتها والتي سقط فيها رجل من أعاظم قواد العرب في التاريخ، كانت عندهم من أشد الوقائع نكاية بهم فحفظوا جيدًا تاريخ وقوعها، فالعرب يقولون: إنها وقعت سنة ١١٥ للهجرة. قلت: يريد «دومارليس» أن يقول: إنها وقعت سنة ٧٣٣ ولكن الذي في نفح الطيب يخالف هذا؛ إذ يقول: إنها وقعت في رمضان سنة ١١٤ أي وفق سنة ٧٣٢.

قال: بقي مكان الواقعة، فبعض المؤرخين من الإفرنج مثل «فيللي» Velli يجعل وقوعها على خمس مراحل من «تور». والآخرون يقولون: بل جرت بقرب «پواتييه» ومؤرخو العرب يذكرون أنها نشبت على ضفاف نهر «أوڤار» Ovvar، وربما قصدوا بذلك نهر «ڤيين» Vienne الذي ينصب في اللوار، ويقول العرب: إن سبب الهزيمة هو أنهم كانوا وضعوا الغنائم في المخيم وراءهم فانحرف فريق من الإفرنج، وهاجموا المخيم

فخاف العرب على الغنائم التي فيه، وبينما المعركة في أشد معمعاتها ترك جانب كبير من فرسانهم ساحة الحرب ورجعوا لحماية الغنائم، وبرجوعهم هذا خفت كفتهم في ميدان القتال حيث كان منتصبَ الميزان، وكان أقل شيء يمكنه أن يرجح الكفة الواحدة على الكفة الأخرى، فعبد الرحمن كان حسب لقضية الغنائم هذه حسبانًا كبيرًا، وخاف أن تكون سبب بوار العرب ذلك اليوم فوقع فيما خاف منه.

(١٧٤) وأما في نفح الطيب فيقول: إن عقبة بن الحجاج السلولي تولى من قِبل عبيد الله بن الحبحاب، فأقام خمس سنين محمودَ السيرة مجاهدًا مظهرًا حتى بلغ سكنى المسلمين «أربونة» وصار رباطهم على نهر «ردونة» ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهري سنة إحدى وعشرين فخلعه وقتله، ولكن المؤرخ كوندي الإسبانيولي لا يروي الحوادث على هذه الصورة بل يقول: إنه في غياب الأمير عقبة في إفريقية وقع الخلل في إدارة الأندلس، وصار كل أمير يعمل بما يعن له ووقعت الفوضى، ولم يكن غير عبد الملك الفهري من يعرف أن يحفظ النظام في جيشه وأن يسد الثغور، وفي ذلك الوقت انتهز الأشتوريون فرصة هذه الفوضى بين العرب وخرجوا من جبالهم وطردوا العرب الذين يلونهم، وتقدموا صوب بلاد المسلمين فزحف عبد الملك إليهم بجيشه وهزمهم واضطرهم إلى الرجوع من حيث أتوا، ثم بعد ثلاث سنوات كانت استمرت بها ثورة البربر إلى أن دخلوا في الطاعة عاد عقبة بن الحجاج إلى الأندلس فوجد الولاة في أسوأ حال، وليس هناك أمير كفؤ للإمارة قائم بالواجب عليه غير عبد الملك الفهري فكتب إليه عقبة أنه لما كان طرأ عليه مرض أصبح لا يقدر معه على الإمارة فقد كتب إلى الخليفة بأن يوليه مكانه، وهكذا كان، ومات عقبة في قرطبة وبكاه الجميع بدون استثناء نظرًا لحسن سيرته.

(١٧٥) Pepin D’heristal.

(١٧٦) Cologne والألمان يقولون: كولن.

(١٧٧) Dictionnaire Encyclopédique Par L. Gregoire et Maurice Vahl.

(١٧٨) ذكر رينو أن بعض مؤرخي ذلك العصر اتهموا أود بأنه هو الذي دعا العرب إلى فرنسة، وهو وغيره يظنون أن هذه التهمة باطلة، وأن الذين كتبوا ذلك كانوا من أنصار شيلد براند أخي شارل مارتل وأنصار شارل وكلهم كانوا يريدون الوقيعة بأود.

(١٧٩) عثمان بن أبي نسعة هو عربي لخمي كما يظهر من كتب العرب، وهو الذي تزوج بابنة «أود» أمير بلاد الغال بحسب رواية «كوندي» الإسبانيولي ومؤرخي

العرب، فأما ما يقوله «رينو» من أن صهر الأمير «أود» لم يكن عربيًّا وإنما كان بربريًّا اسمه «مونوزه» فلم يقل على أي شيء استند في هذه الرواية، ولا ذكر شيئًا من تاريخ «مونوزه» هذا الذي سماه.

(١٨٠) Bigorre.

(١٨١) Béarn.

(١٨٢) Saint-Savin.

(١٨٣) Tarbe.

(١٨٤) Saint-Sever-De-Rustan.

(١٨٥) Aire.

(١٨٦) Basas.

(١٨٧) Oleron.

(١٨٨) Sainte-Croix أي: الصليب المقدس.

(١٨٩) Bordeaux.

(١٩٠) Dordogne.

(١٩١) تقدم ذكر هذا المؤرخ.

(١٩٢) الدانوب معلوم، ونهر الألبا هو نهر شهير في ألمانية.

(١٩٣) Saint-Émilien.

(١٩٤) Saint-Hilaire.

(١٩٥) Saint-Martin.

(١٩٦) Solignac.

(١٩٧) بل الأظهر أنهم رجعوا من بلاط الشهداء والعدو خائف أن يطأ أذيالهم لشدة ما كان لهم من الرعب في قلوب الإفرنج.

(١٩٨) هو عبد الملك بن قطن الفهري.

(١٩٩) كتالونيا هي بلاد الكتالان التي قاعدتها برشلونة، وأراغون هي مملكة شمالي إسبانية إلى الشرق، ونافار هي من البلاد المجاورة لأراغون والعرب يسمونها نابرا وأحيانًا نبرونه.

(٢٠٠) Languedoc.

(٢٠١) Frisons شعب جرماني كان ينزل بين بحر الشمال ونهر الرين الأدنى.

(٢٠٢) Couvents des Saints-Apôtres et de la Vierge.

(٢٠٣) St-Césaires وقد روى رينو هذا الخبر عن تاريخ «غاليا كريستيانيا».

(٢٠٤) Fretta, aujourd'hui St Remi.

(٢٠٥) Durance.

(٢٠٦) قد ذكر المستشرق رينو في حاشية كتابه نصوص التواريخ التي تخبر عن هذه الواقعة، وهي باللاتينية كما لا يخفى؛ لأنها كانت لغة الكتابة في ذلك العصر، فمن هذه النصوص ما نقله عن تاريخ دير «مواساك» "Moissac" ومجموعة مؤرخي فرنسة "Recueil des Historiens de france"، وتاريخ بروفانس للمؤلف بابون "Papon"، وذكر أيضًا لتأييد خبر الوقائع التي جرت بين العرب والإفرنج على ممر «دورانس» كتابة لاتينية كانت في كنيسة بقرب بون با Bonpas.

(٢٠٧) أي عبد الملك بن قطن الفهري الذي سبق ذكره.

(٢٠٨) هو عقبة بن الحجاج السلولي الذي تقدم ذكره أيضًا.

(٢٠٩) "Dauphiné" مقاطعة في شمالي «بروفانس»، وغربي «سافوا» وشرقي «ليون» تقدم ذكرها.

(٢١٠) "Saint-Paul-Trois Chateaux et Donzere".

(٢١١) مدينة على نهر الرون "Valeuce".

(٢١٢) "Vienne" مدينة على الرون أيضًا.

(٢١٣) Childebrand.

(٢١٤) Luitprand.

(٢١٥) Piemont هي اليوم اسم البلاد الواقعة في شمالي إيطالية.

(٢١٦) لعله الهيثم.

(٢١٧) روى ذلك إيزيدور الباجي.

(٢١٨) Béziers مدينة على القناة المسماة بقناة الجنوب، ذات آثار قديمة، سكانها خمسون ألفًا.

(٢١٩) Agde مدينة على الضفة الشمالية من نهر هيرولد، كانت إحدى المدن السبع التي نُسبت إليها مقاطعة سبتيمانية التي معنى اسمها السبعية.

(٢٢٠) Nimes مدينة مشهورة في جنوبي فرنسة ذات آثار رومانية عظيمة.

(٢٢١) Maguelon مدينة على البحر كانت ترفأ إليها سفن المسلمين الواردة من الأندلس وإفريقية.

(٢٢٢) Wilicarius.

(٢٢٣) Valais.

(٢٢٤) Saint-Maurice في سويسرة، وسيأتي ذكر هذا الدير الذي أحرقه العرب.

(٢٢٥) ذكر رينو شواهد بهذا المعنى من جملتها مكتوب من القديس «بونيفاس» رئيس أساقفة «مايانس» إلى ملك «مرسية» في إنكلترة سنة ٧٤٥، وهي مملكة كانت في أواسط إنكلترة قاعدتها لنكوكن.

(٢٢٦) Auxerre مدينة على ١٧٠ كيلو مترًا إلى الجنوب الشرقي من باريس.

(٢٢٧) روى ذلك ابن القوطية.

(٢٢٨) نقل رينو هذا عن النويري بحسب تأليف مخطوط في خزانة الكتب الملوكية بفرنسة.

(٢٢٩) إن أحد مؤرخي القرن الخامس عشر زعم أن المسلمين دخلوا جزيرة كورسكا في زمان الرسول نفسه ولبثوا فيها إلى زمان شارلمان، ولكن هذه الرواية منقوضة.

(٢٣٠) Lerins.

(٢٣١) Antibes بلدة على شاطئ البحر بقرب نيقية أونيس.

(٢٣٢) Saint Porcaire.

(٢٣٣) ظهر من هنا أنه لولا ثورة البربر على العرب ما كان أمكن شارل مارتل أن يضم جنوبي فرنسة إلى مملكته ويخلص بروفانس ولانغدوق وسبتيمانيا من أيدي المسلمين.

(٢٣٤) نقل رينو هذا الخبر عن ابن القوطية، وقد جاء في أخبار مجموعة.

(٢٣٥) نقل رينو هذا الخبر عن تاريخ اللانغدوق تأليف «فيسيت» Vaissette وعن تاريخ نيم تأليف مينار Menard.

(٢٣٦) يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

(٢٣٧) Vaifre.

(٢٣٨) أورد رينو على ذلك نصًّا من مجموعة مؤرخي فرنسة منسوبًا إلى مواساك الذي تقدم ذكره في إحدى الحواشي.

(٢٣٩) Ansemundus.

(٢٤٠) هو عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل، والإفرنج يكتبون اسمه Ebn-Moavia وكان الإفرنج الأقدمون من كثرة تحريفهم لأسماء العرب يسمونه Benemauguis وأظنهم قد خاطوا بينه وبين ابن مغيث الذي كان من أمراء دولته.

(٢٤١) نقل رينو عن هذه الحادثة رواية الدون بوكيه Bouquet ذكر رينو في الحاشية نقلًا عن الدون بوكيه أن بعض مؤرخي الإفرنجة يذهبون إلى أن المسلمين لم ينقرضوا من جنوبي فرنسة، تلك المرة بل بقيت منهم طوائف في مقاطعة دوفينيه، وفي مقاطعة نيس أو نيقية وفي جبال الألب، وأن هذه الطوائف بقيت متمكنة في تلك الجهات طول مدة ببين وولده شارلمان، وقد ورد في بعض التواريخ المتعلقة بمقاطعة دوفينيه أن المسلمين احتلوا مدينة غرينوبل Grenoble، وذهب مؤرخ دير ليرين المسمى فنسان بارال إلى أن المسلمين كانوا في نيس، وأن شارلمان هو الذي طردهم منها، ومن هنا استدل بعض المؤرخين على أن المسلمين كانوا لا يزالون في دوفينيه من زمان شارل مارتل إلى أوائل القرن العاشر حيث جددوا غاراتهم على بروفانس وتقدموا إلى بلاد البيمونت وسويسرة.

الفصل الثاني

غارات العرب على فرنسة من بعد جلائهم عن أربونة إلى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ مسيحية

قال «رينو»: إن العهد الذي سنتكلم عنه الآن في هذا القسم من تاريخنا مختلف عن العهد الذي تقدمه والذي سردنا وقائعه، فقد ظهر لنا مما تقدم من الوقائع أن العرب في تغلغلهم في فرنسة لم يكونوا مقتصرين على نية الاستيلاء على هذه المملكة فقط، وإدخالها في الإسلام، بل كان هدف رميهم الاستيلاء على سائر أوربة وإضافة هذه القارة التي كادت في زمان الرومانيين تستولى على العالم، إلى سلطنة الإسلام كإحدى مقاطعاتها، ومما لا ينبغي أن ننساه أن قواد الجيش العربي الفاتح كان أكثرهم من الجزيرة العربية والشام والعراق، فكان مركز ديانتهم ومبعث قوتهم في الشرق، ومن الشرق، فكانت جميع أعراقهم تنزع بهم إلى هناك، ولم يكن في نظرهم عقبة كؤود بعد أن قاموا بتلك الفتوحات التي لا نظير لها، وكانوا كلما كانت مملكة أوسع رقعة وأكثر رجالًا وجدوها أصلح للغارة وأجدر بالفتح وبنيل المجد في الدنيا والثواب في الآخرة.

أما العهد الذي سندخل فيه الآن فلا يماثل العهد السابق؛ فإن الأمير الذي بدأ يتولى الأندلس كان بقية عائلة مالكة قد ثلَّ عرشها في الشام وأبيد رجالها بالسيف، ففر شريدًا وانسل وحيدًا إلى إسبانية، وأصبح لا يرى في إفريقية وفي سائر أقسام السلطنة الإسلامية إلا أعداء له ولأهله، ولم تكن الجزيرة الأندلسية بالقطر الذي يمكنه وحده أن يستقل بحملات عظيمة كفيلة بالاستيلاء على الأرض الكبيرة، بل كان المسلمون في ذلك القطر قد دبَّ في جوانبهم الوهن بسبب الفتن الداخلية المستمرة التي كانت بينهم، والتي كانت قد أبادت خضراءهم، وبما تأصل في طباع أهل الأندلس من غريزة حسب

الانتقاض على كل سلطة مما اهتبل به المسيحيون، سكان المقاطعات الشمالية، الغرة لأجل الكرة على العرب.

وكانت فرنسة التي هي مرمى العرب في هذه الغارات تتأيد يومًا فيومًا ويغلظ أمرها، فإنها في عهد «ببين» و«شارلمان» خضعت بأجمعها لسلطة واحدة، وكان يمكنها لدى الحاجة أن تستعين بجيوش جرارة تأتيها من ألمانية وبلجيكا وإيطالية، فارتفع إذًا كل خوف من وجودها بعد ذلك عرضة لاعتداء المعتدين، ولم يعد مسلمو إسبانية هم المهاجمين لمسيحيي فرنسة، بل أصبح مسيحيو فرنسة هم المهاجمين لمسلمي إسبانية.[١] وكان «ببين» و«شارلمان» قد أخذا يراسلان أهالي «كتالونيا» و«أراغون» و«نابار» ليوحدوا حركتهم مع الإفرنج، كما أنهما كانا دائمًا يمدان أيدي التحريك إلى أمراء العرب الثائرين على السلطان في قرطبة، وكثيرًا ما هم، ثم لم يلبث شارلمان وأولاده أن وطئوا بالفعل أرض إسبانية وأدخلوا بعضها في مملكتهم؛ لأن الولايات التي تشرب من نهر الأيبر[٢] بقيت مدة من الزمن تابعة لفرنسة، ثم عندما أخذ المسيحيون سكان الشمال يكرون على العرب ويسترجعون بلاد آبائهم كان أهالي جنوبي فرنسة الذين أكثرهم والإسبان من أصل واحد يخفون لنجدتهم ويجيبون لصريخهم.

ومما يدلك على بعد المدى الذي تصل إليه أهواء النفوس إذا استحكمت العداوة أن أمراء قرطبة كانوا في نزاع دائم مع خلفاء بغداد، وكان وكد كل من الفريقين النكاية بالآخر، أكثر منه في الفتوحات في بلاد المسيحيين أنفسهم، وبينما كان ملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيس الذين كانوا في حرب مستمرة مع مسلمي الأندلس، وكانت لذلك العهد العلاقات التجارية قد بدأت بين الشرق والغرب وسارت السفن تختلف بين «مرسيلية» و«فريجوس» ومرافئ سورية ومصر؛ لأجل التجارة بالبهارات والطيوب والمنسوجات الحريرية، وانضمت إلى هذه العلاقات التجارية أسباب دينية كان يستهان لأجلها بجميع الأخطار، وذلك أن المسيحيين في الغرب كانوا في أثناء الحروب بينهم وبين المسلمين لا يتأخرون ساعة عن أن يزوروا البقاع المقدسة في فلسطين.

وفي سنة ٧٣٣ ذهب حجاج من الغرب إلى بيت المقدس والناصرة وكانوا يجولون آمنين في فلسطين والشام وزاروا قصر الخليفة نفسه في دمشق ولم يعترضهم أحد[٣] ولا خافوا ولا حزنوا.

وكان الخلفاء العباسيون يعاملون الدولة الإفرنسية أحسن معاملة، ويتبادلون وإياها التحف والألطاف، وإن كان قد وجد من عمالهم في إفريقية من يشن الغارات على سواحلنا، في الأحايين، فما ذاك إلا لتباعد المسافات بين أولئك العمال وبين مركز الخلافة العباسية.

هذا ومنذ استرجع «ببين» القصير «أربونة» وأجلى العرب عنها سكنت الأمور بين مسلمي الأندلس والفرنسيس، وكان «ببين» يعد «البيرانه» هي التخم الطبيعي بين فرنسة وإسبانية، وكان عبد الرحمن مشغولًا حينئذ بمحاربة الأمراء الخارجين عليه، ولم يكن «ببين» يهمل شيئًا من الوسائل لإثارة نيران الفتن بين المسلمين، وسنة ٧٥٩ أي بعد استرداد الفرنسيس لأربونة دخل أمير برشلونة المسمى سليمان[٤] في علاقات مع «ببين» وتعاهد معه.[٥] ومؤرخو الفرنسيس يزعمون أنه انضوى تحت لواء «ببين» ولكن الأصح أن يقال: إنه ما قصد إلا أن يستعين به على الاستقلال عن سلطانه، ومن بعد ذلك أصبحت هذه خطة أمراء المسلمين في شمالي الأندلس، فيوم يضغط عليهم السلطان في قرطبة يلجأون إلى فرنسة، ينشدون عندها التنفيس من حناقهم، وإذا ظهرت لهم مطامع الفرنسيس بحق بلادهم عادوا إلى رئيسهم في قرطبة واعتصموا به، وكانت تساعدهم على الاستقلال طبيعة البلاد التي كانوا فيها فإنها بلاد جبلية كثيرة الأوعار صعبة المرتقى يسهل على المقاتلة بها، ولو كان عددها قليلًا، أن تشاغل الجيوش الجرارة، وكان العرب يسمون «قشتالة» القديمة و«ألبة» بلاد «البا» و«القلاع»[٦] وكانوا يسمون النابار بلاد البشكنس، وربما أطلقوا هذا الاسم على البلاد التي وراء البيرانه إلى جهة فرنسة؛ لأن أصل الأهالي واحد سواء في السفح الجنوبي أو السفح الشمالي من البيرانه.

وكان العرب يسمون البيرانه جبل البورتات وهذه اللفظة مشتقة من الكلمة اللاتينية Portus وبالإسبانيولية Puerto ومعناها الممر؛ وذلك لأنه من هناك كان الممر من الأندلس إلى الأرض الكبيرة، وكان يوجد في البيرانه أربعة أبواب معروفة عند العرب: الأول طريق برشلونة إلى أربونة على مدينة «پربينيان»[٧] الحاضرة. والثاني: طريق «بويسردا» على «سردانة».[٨] والثالث: الطريق الذي يؤدي من «بنبلونة» إلى «سان جان بييه دوپور»[٩] والرابع: طريق طلوزة إلى بايُّون.[١٠] وكانت طرق البيرانه في القرون الوسطى أوعر مما هي الآن بلا نكير.

وكما كان ببين ملك فرنسة كثير التضريب بين أمراء المسلمين، لا يفتأ يغري بعضهم بالإيقاع ببعض، كان الخليفة العباسي المنصور بعد أن بنى بغداد مجتهدًا

أيضًا في توحيد المملكة الإسلامية كما كانت لعهد بني أمية، ولذلك أرسل من سواحل إفريقية أسطولًا فيه عساكر لمقاتلة عبد الرحمن الأموي الملقب بالداخل[١١] ووجد من أمراء المسلمين بالأندلس من مالأه على عبد الرحمن، ولما كان ببين لا يخشى عادية المنصور، بمكانه من البعد عن فرنسة، وكان يرجو نصرته لكون عدوهما واحدًا أسرع إلى الدخول في العلاقات مع المنصور، وأمَّل منه الجذب بضبعه.

وفي سنة ٧٦٥ أرسل رسلًا إلى بغداد لبثوا ثلاث سنوات حتى رجعوا إلى فرنسة ومعهم رسل الخليفة، فنزلوا في مرسيلية وصعدوا إلى مقر ببين فبالغ في الاحتفاء بهم وقضوا ذلك الشتاء في مدينة «متز» باللورين، ثم أمر بإقامتهم في قصر سلس Sels على ضفاف اللوار ثم أعيدوا إلى الشرق، عن طريق مرسيلية، ومعهم الهدايا إلى الخليفة.

هذا وقد اتبع شارلمان خطة أبيه «ببين» في هذا المعنى فما استوسق له الأمر حتى أخذ يداخل أمراء الأندلس، من مسلمين ومسيحيين، فكان يقول لهذا الفريق: إنه إنما يريد ليحررهم من طاعة أمير قرطبة ويساعدهم على استقلالهم ويخفض جناح الرحمة لهم، ولذلك الفريق أنه هو حامي النصرانية الطبيعي الناصر للنصرانية الحافظ للكنيسة الأصلية القامع للبدع ... إلخ.

وكان العرب عندما فتحوا الأندلس أبقوا للمسيحيين حريتهم الدينية، فكان يوجد أساقفة في قرطبة وطليطلة والمدن التي من الدرجة الأولى[١٢] وكان لهم قسيسون في كل مكان وجدوا فيه، إلا أنه لا يظهر أنه كان يوجد في المدن الثغرية التي كانت مترددة بين حكم المسلمين وحكم النصارى أساقفة ينظرون في شؤون المسيحيين الروحية وكان المسلمون في إحدى الحروب هدموا مدينة طرَّ كونة[١٣] فلم يبقَ فيها مركز أسقفي فصارت أمور بلاد كتالونيا الروحية مربوطة برئيس أساقفة أربونة في فرنسة، وقد كان أيضًا رئيس أساقفة أوش من مقاطعة جيرس Gers في فرنسة ينظر في شؤون مملكة أراغون الروحية، وكان شارلمان يفصل خصومات المسيحيين الإسبانيين فيما بينهم، وكان يتوسط لهم عند الباب فيما إذا كانت لهم رغائب إليه أو قضايا عنده.

وسنة ٧٧٧ ثار أميران من أمراء المسلمين في مقاطعات نهر إيرة، وخرجا من طاعة السلطان في قرطبة، فاجتازا البيرانه قاصدين شارلمان في وستفاليا Westphalie[١٤] حيث كان منعقدًا مجلس حافل، وكان أحد هذين الأميرين وهو المسمى سليمان، في أثناء وجوده أميرًا على سرقسطة، قد قاتل عساكر أمير قرطبة وأخذ قائدها أسيرًا وجاء به وقدمه كهدية إلى شارلمان، ويزعم مؤرخونا أن هذا الأمير دخل في طاعة الإمبراطور الإفرنسي.[١٥]

وكان شارلمان مترصدًا فرصة كهذه حتى ينقض على إسبانية ويملك ولو جانبًا منها، فأمر بالنفير العام وتوافت إليه المقاتلة من ألمانية وفرنسة ولمبارديه، وزحف بهم قاصدًا البيرانه، وكان ذلك سنة ٧٧٨ ولم يكن يشك في كون الأهلين سيهرعون من كل ناحية إليه، يجتمعون تحت لوائه، ولكن أخطأ حدسه هذا؛ لأن المسلمين عندما جاء بنفسه قاوموه بالسيف وظهر أنه لم يكن مقصد بعض أمرائهم من خطبة وده إلا الاستعانة به على استقلالهم، وأما المسيحيون في الجبال فقد آلوا هم أنفسهم أيضًا أن لا يخضعوا لحكم الأجنبي أيًّا كان، فما وصل شارلمان إلى البيرانه حتى وجد نفسه محاطًا بالأعداء فضيق الحصار على بنبلونه[١٦] ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد، وكذلك قاومته مدينة سرقسطة، ويقول المؤرخون المسيحيون: إنه استولى عليها ذلك اليوم وأنه أخذ أميرها أسيرًا وأرسله مكبلًا إلى فرنسة، وأما مؤرخو العرب فينكرون ذلك، ويقولون: إنه فشل في هجومه على سرقسطة فشلًا تامًّا، ولكن بعد ذلك جرى أن قتل أمير سرقسطة غيلة فالتجأ ابنه إلى فرنسة.[١٧] أما أمراء برشلونة وجيرونة ووشقة فقد أرسلوا رهائن من قبلهم إلى شارلمان.

وبينما شارلمان يحارب في شمالي إسبانية إذ جاءه الصريخ بأن أمة الصكصون أبت بأن تترك ديانتها الوثنية وبأنها زحفت للقتال، فاضطر شارلمان إلى مغادرة إسبانية عائدًا إلى فرنسة، وبينما هو في طريق رجوعه وعند وصوله إلى وادي «رونسفو Roncevaux» انقض عليه المسيحيون الجبليون، وساعدهم في ذلك المسلمون، فأوقعوا بساقة جيشه واستأصلوها، وهلك ذلك اليوم كثير من أبطال الفرنسيس بينهم فيما يقال «رولان Roland» الفارس الشهير.

وبالاختصار كانت الجهات الشمالية من إسبانية أشبه بالثغور لفرنسة كما كانت بلادًا ثغرية للعرب، وكان العرب يسمونها إفرنجة لكونها طالما ألحقت بمملكة أكيتانيا، وكان شارلمان قد جعل أكيتانيا لابنه لويس الذي جعل كرسي ملكه طلوزة أو طولوز.

فبعد أن قفل شارلمان من إسبانية عادت فعصت عليه المدن التي كانت أطاعته قبلًا، وحنق المسلمون على المسيحيين وجعلوا ينتقمون منهم، بحجة أنهم كانوا السبب في مجيء الفرنسيس، فلجأ عدد من المسيحيين إلى الجبال وكانوا يتحملون شظف العيش ويلبسون جلود السباع، ولا يبالون بسكنى البراري، ولكن المترفين من المسيحيين الذين لم يكونوا يستطيعون السكنى في الأوعار، التجأوا إلى شارلمان، ووزع هذا عليهم أراضي في بسائط أربونة، ولم يُفرض عليهم من الضرائب شيئًا إلا الخدمة العسكرية،

وقيل: إنه كان بين هؤلاء المهاجرين أناس مسلمون ارتدوا إلى النصرانية كما يظهر من أسمائهم[١٨] وقد اشتهر أناس من هؤلاء المهاجرين ولا يزال من بقاياهم عائلات نبيلة ينتسبون إليهم مثل عائلة فلنوف Villeneuve.

ثم إن عبد الرحمن الأول أمير قرطبة توفي سنة ٧٨٨ وقد وصفه المؤرخون الفرنسيون بالقسوة، وقالوا: إنه كان سفاكًا للدماء جبارًا عاتيًا وأنه أوقع بكثير من رعيته العرب والبربر، وزعم الدون بوكيه أن النصارى واليهود قاسوا العذاب ألوانًا في أيامه، وأنهم اضطروا إلى بيع أولادهم ليتمكنوا من المعيشة، وأما نحن فنعتقد أن هذا الأمير الذي فتح بلاده فتحًا بقوة ساعده وبمجرد حسن تدبيره، وكان في جدال وجلاد دائمين لأجل توطيد سلطانه، لم يكن ليستغنى أحيانًا عن الإتيان بمثلات من الشدة يرهب بها أعداءه، والحقيقة أنه كان في نفسه حليمًا عاقلًا محبًّا للعلوم والصنائع، وأنه هو أول مؤسس للمدنية العربية الزاهرة في الأندلس، ولا يظهر أنه كانت له علاقات رأسًا مع شارلمان، وإن كان المقري يذكر ذلك ويقول: إنه أراد أن يخطب إحدى بناته[١٩] والأرجح أنه لم يكن عبد الرحمن الأول هو الذي دخل في علاقات كهذه مع قارله، بل عبد الرحمن الثاني الذي كانت له علاقات مع شارل الأصلع، والذي كان عائشًا في عصر لم تكن فيه هذه المصاهرات وأمثالها مستنكرة. أ.هـ.

وقبل إكمال حديث «رينو» عن عبد الرحمن الأول وعبد الرحمن الثاني رأينا مناسبًا أن نذكر خلاصة تاريخ عبد الرحمن الثاني نقلًا عن نفح الطيب.

قال المقري: غزا عبد الرحمن بن الحكم لأول ولايته إلى جليقية وأبعد وأطال المغيب وأثخن في أمم النصرانية هنالك، ورجع، وفي سنة ٢٠٨ أغزى حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع، فخرب كثيرًا من البلاد وانتسفها، وفتح كثيرًا من حصونهم وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين، وانصرف ظافرًا، وفي سنة ٢٤ بعث قريبه عبيد الله بن البلنسي في العساكر، لغزو ألبة والقلاع، فسار ولقي العدو فهزمهم وأكثر القتل والسبي، ثم خرج لذريق ملك الجلالقة وأغار على مدينة سالم بالثغر، فسار إليه فرتون بن موسى وقاتله فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدو، ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه، ثم سار عبد الرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها وجال في أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم، وفي سنة ٢٦ بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة وانتهوا إلى أرض برطانية[٢٠] وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل

طليطلة[٢١] ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه. وكان لموسى في هذه الغزوة مقام محمود، وفي سنة ٢٩ بعث ابنه محمدًا بالعساكر، فتقدم إلى بنبلونة، فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى.

إلى أن يقول: وفي سنة إحدى وثلاثين بعث العساكر إلى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون[٢٢] ورموها بالمجانيق وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه؛ لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعًا، فثلموا فيه ثلمة ورجعوا، ثم أغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم في العساكر إلى بلاد برشلونة فعاث في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى «البرت» إلى بلاد الفرنجة، فدوخها قتلًا وأسرًا وسبيًا، وحاصر مدينتها العظمى «جيروندة»[٢٣] وعاث في نواحيها وقفل، وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم «توفيلس»[٢٤] بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة ٢٥ بهدية يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به عليه المأمون والمعتصم، حتى أنه ذكرهما له في كتابه إليه، وعبر عنهما بابني مراجل وماردة[٢٥] فكافأه الأمير عبد الرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغزال من كبار أهل الدولة، وكان مشهورًا في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوصلة وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند مناغيه من بني العباس، ويعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط؛ لأن الأول عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر، ثم توفي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين بربيع الآخر لإحدى وثلاثين سنة من إمارته، ومولده بطليطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة.

وكان عالمًا بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون، وكثرت الأموال عنده، واتخذ القصور والمتنزهات وجلب إليها المياه من الجبال، وجعل لفضلها مصنعًا اتخذه الناس شريعة وأقام الجسور، وبُنيت في أيامه الجوامع بكور الأندلس، وزاد في جامع قرطبة رواقين، ومات قبل أن يستتمه، فأتمه ابنه محمد بعده، وبنى بالأندلس جوامع كثيرة، ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة. قال: وكان كثير الميل للنساء، وولع بجاريته «طروب» وكلف بها كلفًا شديدًا وهي التي بنى عليها الباب ببدر المال حين تجنت عليه وأعطاها حليًّا قيمته مائة ألف دينار. أ.هـ.

وجاء في النفح كلام طويل عن محبة هذا الأمير لطروب ولغيرها من الجواري، ولم يقل: إنه خطب ابنة شارل الأصلع ملك فرنسة، ولم أذكر أن «دوزي» الذي استقصى في الكلام عن عبد الرحمن الثاني وسيرته الشخصية ذكر شيئًا من هذا.

ونعود إلى سياق حديث «رينو» عن أمراء بني أمية ومغازيهم في إفرنجة، فهو يقول: إن عبد الرحمن الداخل كان استخلف ابنه هشامًا من بعده، وأن هشامًا لأول حكمه وجد الفتن مشتعلة في أكثر البلاد، فأراد أن يشغل الأمة عن الفتن الداخلية بجهاد العدو الخارجي؛ لأنه أجمع شيء للكلمة، وكان يريد أن يتلافى ما نقص من المملكة بغارات ببين وشارلمان الأخيرة ويخضد شوكة مسيحيي بلاد استوريش وشمالي الأندلس فأجمع على قتال المسيحيين في كل مكان، وفي أيامه كثرت القالة بأن المسلمين لا يقدرون إلا على قتال بعضهم بعضًا، وأفتى بعض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج لأمراء لا يعرفون أن يقاتلوا إلا أمة محمد وحدها، وكانوا يضربون الأمثال في خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين كانوا يواصلون غزو مملكة القسطنطينية.

فبناء على هذا كله تحمس هشام وأعلن الجهاد، وأمر الناس كافة بأن ينفروا قاصدين جبال البيرانه، فمن لم يقدر على الجهاد بنفسه وجب أن يجاهد بماله، وقُرئ منشور الأمير في الجوامع، وفيه الآي القرآنية التي تحض على الجهاد[٢٦] فلما تلى هذا المنشور نفر الناس للجهاد من كل فج، وانثالوا على الأمير من كل حدب، ولكن برغم هذا كله لم يكن المجاهدون بالأعداد التي كانت تجتمع في الغزوات الأولى لأول الفتح عندما كان المجاهدون كحصي الدهناء، ينفرون للجهاد في سبيل الله من إفريقية والشام وجزيرة العرب وغيرها، فإن هذه البلدان كلها كانت في أيام هشام موصدة الأبواب على من أراد الجهاد في الأندلس، فأصبح الغزو في الأندلس منحصرًا في أهلها، ولذلك لم يجتمع في هذا النفير سنة ٧٩٢ غير مائة ألف مقاتل، انقسمت إلى شطرين: زحف منها شطرٌ إلى قتال مسيحيي أشتوريش، فلم يظفروا بطائل يذكر، وزحف الشطر الآخر تحت قيادة الوزير عبد الملك[٢٧] إلى كتالونيا، ومنها تأهب لاجتياح فرنسة.

وكان دخولهم إلى فرنسة سنة ٧٩٣ وشارلمان يومئذ مشغول على ضفاف الدانوب بحرب الآفاريين، ونخبة جنود مملكة أكيتانيا غائبة في إيطالية بصحبة لويس بن شارلمان، فنهد المسلمون من فورهم إلى أربونة، ولما وجدوها محصنة بادروا بإحراق أرباضها، وزحفوا إلى قرقشونة[٢٨] وكان لويس ملك أكيتانيا قد عهد بالوكالة في غيابه إلى غليوم كونت طلوزة، فاستنفر غليوم أمراء المملكة ورجالاتها، وأقبل المسيحيون تحت السلاح من كل جانب، وتلاقوا مع المسلمين على ضفاف نهر «أوربيو»[٢٩] في المكان المسمى «فيلدانيا»[٣٠] بين قرقشونة وأربونة، وكانت المعركة من أحمى المعارك وطيسًا، وقاتل الكونت غليوم قتال الضواري، ولكن المسلمين ثبتوا كالأوتاد والفرنسيس انهزموا

ذلك النهار وولوا الأكتاد وأصيبوا بخسائر فادحة، وغنم المسلمون غنائم فوق الإحصاء، غير أنه لم يكمل سرورهم وقُتل أحد كبار قوادهم، فلم يتعقبوا المسيحيين في هزيمتهم، واكتفوا بما أصابوه من السبي والمغنم، وقفلوا إلى الأندلس ظافرين، وكان لهذه الطائلة للمسلمين على المسيحيين، فرح عظيم عند المسلمين؛ لأنه كان قد طال عهدهم بالظفر[٣١] وأصاب الأمير خمس الغنائم فبلغ خمسة وأربعين ألف مثقال من الذهب، فإذا حسبنا قيمة الذهب يومئذ بالنسبة إلى قيمته الحاضرة وجب أن نضرب هذا العدد بتسعة فيجتمع لنا سبعمائة ألف فرنك من معاملتنا الحاضرة[٣٢] فبنى هشام بهذا المال في جامع قرطبة الذي كان أبوه لم يتمه[٣٣] وكان عبد الرحمن الأول بدأ جامع قرطبة من غنائم الحرب، فزاد ذلك في حرمة الجامع في نظر المسلمين، فلما باشر ابنه هشام بناء القسم الجديد من الجامع وجد المسلمين ملتزمين الصلاة في القسم القديم، فسأل عن سبب ذلك، فقيل له: إن هذا من أجل كون هذا القسم بُني من غنائم الجهاد، فأجابهم هشام بأن القسم الجديد أيضًا بُني من غنائم الجهاد، واستدعى القاضي ونفرًا من كبار القوم فأيدوا كلامه.[٣٤] وقال بعضهم: إن أسس هذا الشطر الجديد من الجامع وضعت على تراب مجلوب من جليقية ومن جنوبي فرنسة، أي من مسافة مائتي مرحلة، حمله أسرى المسيحيين على ظهورهم، وقد تقدم هذا الخبر في الكلام على مدينة أربونة.

ولم يثبت أن المسلمين تمكنوا من أربونة في تلك الغزاة، ولو كانوا فتحوها لكان مؤرخو المسيحيين أشاروا إلى ذلك الحادث، واشتهر في تلك الحرب غليوم كونت طلوزة، من أمراء البلاد ومن أفرس فوارسها وأشدهم تحمسًا بالدين المسيحي؛ لأنه بعد أن قضى حياته في الحروب، وكان من جملة غزاة الفرنسيس الذين فتحوا برشلونة، أنهى حياته في دير جلون (Gellone) الذي بناه هو بنفسه في لوديف (Lodéve) ومات بذلك الدير منقطعًا للعبادة، وصار معدودًا في مصاف القديسين، ترجمه أحد معاصريه فقال: إنهم في القرن العاشر كانوا في الكنائس يرتلون دائمًا الأناشيد بذكر أعماله المجيدة ومواقفه في جهاد المسلمين، ولما أخذ شعراء الفرنسيس ينظمون القصائد على شارلمان ومشاهير رجاله ويترنمون بذكر وقائع، فيها ما هو صحيح وفيها ما هو خيال، كانوا يجعلون من ذلك قسطًا كبيرًا لغليوم ذي الأنف القصير، وكانوا يصورون مدينة نيم ومدينتي أورنج وآرل كأنها قد وقعت في أيدي المسلمين ولم يتم استخلاصها إلا على يد ذلك البطل الذي لا يغالب ... وكذلك وجدت كتابة لاتينية بقيت محفوظة إلى زمان الثورة الفرنسوية في دير «مون ماجور» "Mont-Major" تفيد أن شارلمان جاء بنفسه إلى آرل لطرد المسلمين منها.

ومن المعلوم أن الشعراء لم يكن همهم التدقيق في المسائل التاريخية إذا أرادوا التغني بأحاديث أبطالهم وهاموا في أودية خيالهم، فأما الكتابة التي في دير «مون ماجور» فهي غير صحيحة؛ لأنها تتضمن أن شارلمان بنى ذلك الدير تمجيدًا لواقعة طرد المسلمين من آرل، والحال أن الدير قد بُني بعد ذلك بمئة وخمسين سنة.

وكان هشام ملك قرطبة قد توفي سنة ٧٩٦ وخلفه ابنه الحكم، فثار بعد عماه[٣٥] فاضطر أن يقضي أوائل أيامه في قمع الثورة، وفي السنة التالية بينما كان شارلمان في مدينة أكسلاشابل Aix-la-chapelle جاء مستنجدًا به أمير برشلونة المسلم وعم الحكم أمير قرطبة.[٣٦] وفي تلك السنة نفسها بينما كان لويس بن شارلمان ملك أكيتانيا عاقدًا مجمعًا في طلوزة، جاءه رسول من الأذفونش ملك جليقية وأشتورية، يلتمس حشد جميع القوات المسيحية وتجريدها لقتال العدو العام، ثم وفد أيضًا على هذا المجمع رسول من قِبل أمير مسلم في ناحية وشقة (Huesca) يقال له: «باهالوك» يريد أن يسالم المسيحيين.[٣٧]

فظهر أن الغرة كانت لائحة لأخذ الثأر من المسلمين وللدخول إلى إسبانية، وكان لويس ملك أكيتانيا وأخوه شارل (أو كارل) قد شنَّا الغارات في أطراف المقاطعات التي تشرب من نهر إيرة، ثم عاد لويس فأجاز البيرانه من جهة آراغون، وحاصر وشقة التي كان أميرها قد أرسل بمفاتيحها إلى شارلمان، ولكن لما جاء الفرنسيس لتسلم بلدته امتنع عليهم ولبس لهم جلد النمر، وفي ذلك الوقت كان عبد الله عم الحكم أمير قرطبة قد استولى على طليطلة، وعمه الآخر سليمان استقر في بلنسية، فسرح جيشًا لقتال عمه عبد الله في طليطلة، وسار هو بنفسه مع جيش من الفرسان قاصدًا البيرانه، فأدخل في الطاعة برشلونة وغيرها من المدن التي كانت أشربت نفسها للعصيان، ومن هناك قصد الجبال وأوقع بالمسيحيين وسبى منهم كثيرًا نساء ورجالًا، واتخذ الحكم من أسراه حرسًا خاصًّا وهو أول أمراء قرطبة الذين اتخذوا حرسًا خاصًّا من الأسرى والأجانب، وقد رجع الحكم من تلك الغزاة مظفرًا منصورًا،[٣٨] كما أن عمه سليمان قُتل في إحدى المعارك التي دارت بينهما، وعمه عبد الله فر إلى إفريقية وعادت طليطلة إلى الطاعة، ثم إن الأذفونش صاحب جليقية أغار في تلك الأيام على المسلمين في إشبونة، ووقع في يديه بعض أسرى منهم، فأرسلهم راكبين على البغال إلى شارلمان اعتزازًا بالنصر، ثم إن لويس ملك أكيتانيا الذي هو ابن شارلمان اكتسح نواحي وشقة[٣٩] ولم يكن شيء من هذه الغارات، سواء من هذه الجهة أو من تلك الجهة، ليؤدي إلى نتيجة

حاسمة يستفص منها أحد الفريقين ملكًا، بل كانت النتيجة الوحيدة هي خراب تلك النواحي، وكان أهم ما لقيه الفرنسيس في هذه الحرب هو أن أمراء المسلمين الذين كانوا أظهروا الطاعة لشارلمان، عندما جاءت جيوشه إلى بلادهم، أبوا أن يقبلوها وأصلوها نارًا حامية، وكان المسلمون لا يزالون أصحاب المدن الكبرى والمعاقل المنيعة مثل برشلونة وطرطوشة وسرقسطة، وكانت برشلونة بنوع خاص بحصانة موقعها وبقربها من فرنسة ووجودها على سيف البحر، من أشد البلاد نكاية بالفرنسيس، وكان الأمير الذي فيها والذي يسميه مؤرخونا «زاتون»[٤٠] قد أوهم شارلمان أنه يريد الدخول في طاعته، ولكن عندما حضر الفرنسيس أمام بلدته امتنع من قبولهم وقلب ظهر المجنِّ فأجمع لويس ملك أكيتانيا بالاتفاق مع غليوم كونت طلوزة، وبرأي مجمع مؤلف من أمراء تلك البلاد أن يستولى على برشلونة في أول فرصة، وكان شارلمان يومئذ في رومة مشغولًا بقضية تتويجه إمبراطورًا على الغرب.

وكانت برشلونة كما قال الشاعر «أرلمولدوس نيجلوس»: قد أصبحت للمسلمين معقلًا متينًا، وكانت تصدر عنها فرسان تلك الخيل المشهورة بخفة الحركات، فتبث الغارات في بلاد النصارى وتعود أيديها ملأى بالغنائم، وكانت من المنعة بحيث إن الفرنسيس لبثوا سنتين يحصرونها ويضيقون عليها، ويكتسحون نواحيها، ولكنهم لم يقدروا على دخولها، وقد قسم الفرنج جيشهم إلى ثلاثة أقسام: قسم منهم كان يهاجم برشلونة، وقسم ثانٍ يقوده غليوم كونت طلوزة كان يرابط في الممر الذي تفيض منه جيوش المسلمين الآتية من قرطبة لنجدة برشلونة، وقسم ثالثٌ كان يقوده الملك لويس نفسه، وكان في أعالي جبال البيرانه، يحمل على المسلمين حيث وجد الفرصة ملائمة.

وكان الإفرنج قد تقاسموا أعمال الحصار، فمنهم من كان مشغولًا بوضع السلالم ومنهم من كان يجلب الميرة والعدة، ومنهم من كان موكولًا إليه الحفر والنقب، ومنهم من كان موكولًا إليه غير ذلك، فاشتد الحصار شدة غير معهودة، وجاءت جيوش المسلمين فلم تقدر على النفوذ إلى برشلونة فتحولت إلى بلاد أشتورية، وهزمت أهلها، فبقي أمير برشلونة منفردًا بقوته، وخرج في إحدى المعارك لقتال الإفرنج المحاصرين، فأخذ أسيرًا ثم حمل الإفرنج على البلدة الحملة الأخيرة وفتحوها.[٤١]

وكان فتح الإفرنج لبرشلونة سنة ٨٠١ مسيحية بعد أن بقيت تسعين سنة في أيدي المسلمين، فلما دخلوها حولوا جوامعها كنائس، وأرسل الملك لويس إلى أبيه شارلمان جانبًا من الغنائم، فيها دروع وخوذ، ومنها خيول مسرجة بأفخر السروج، وبعد ذلك

أصبح لفرنسة منطقتان في شمالي إسبانية إحداهما كتالونيا وقاعدتها برشلونة، والثانية غشقونية ومن جملتها ناباره وأراغون.

وفي تلك السنة جاء وفد من قبل هارون الرشيد إلى شارلمان، وكان شارلمان قبل ذلك قد أرسل رسولًا يهوديًّا اسمه إسحق مصحوبًا باثنين من الفرنسيس لأجل السلام من قبله على الخليفة العباسي، وقد أمر شارلمان هذا الوفد بأن يمر بالقدس قبل ذهابه إلى بغداد، وأن يتعهد أحوال زوار المسيحيين لبيت المقدس، ويتوسط لدى الخليفة في تسهيل هذه الزيارة حتى يزداد عدد الزوار والتجار القاصدين إلى البقاع المقدسة، وكان الفرنسيس من عهد أنيبال لم يروا في بلادهم فيلًا، فكان من جملة مهمة هذا الوفد أن يأتوا من الشرق بفيل يبتهج برؤيته أهل فرنسة، فلما وصل الوفد إلى بغداد استقبلهم الخليفة برًّا وترحيبًا ووعد بتسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس وترفيه مقامهم عندما يردون إليه، ولم يكن في دار الوحوش التي عند الخليفة عندئذ سوى فيل واحد فبعث به هارون الرشيد إلى شارلمان ومعه هدايا أُخَر من منسوجات حريرية وقطنية لم يكن يوجد منها في فرنسة، ومن طيوب ومعطرات وأشياء أخر، وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر، عظيم الحجم، وساعة من نحاس أصفر أيضًا تتحرك بالماء وتدق اثنتي عشرة مرة بعدد ساعات النهار.

ونزل الوفد في قدمته من الشرق، في مدينة بيزة، وحُملت الهدايا بابتهاج عظيم إلى «أكس لاشابل» مركز الإمبراطور شارلمان، ولما وصل الوفد قدَّموا للإمبراطور تحايا الخليفة، وأبلغوه ما قاله لهم من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك[٤٢] وكان هذا الوفد قد صدر له الأمر من شارلمان بأن يتوجه إلى قرطجنة، في إفريقية، ويلتمس من إبراهيم الأغلبي (عامل الخليفة) الإذن بنقل رفات القديس فبريانس المدفون في قرطجنة وغيره من القديسين المدفونين هناك، فأذن لهم إبراهيم فيما طلبوه وبعث أيضًا رسولًا وراءهم إلى الإمبراطور يتودد إليه، وقد كان لذلك في هاتيك الأيام وقع عظيم، نظرًا لانقطاع العلاقات تقريبًا بين الأقطار المتباعدة، وكانت الناس تستدل به على عظمة شارلمان[٤٣] وأن الله أعطاه في ذلك العصر صورة ترى كل ملك دونها يتذبذب، وفي تلك الأيام لم تكن الحرب تسكن بين المسلمين والإفرنج في بلاد أراغون وكتلونية وناباره، وكانت سجالًا بين الفريقين.

ولم يكن شارلمان ليقدر على النظر في جميع شؤون مملكته الواسعة، ففي سنة ٨٠٩ مسيحية مات الكنت أوريول "Aureole" قائد الجيوش الإفرنسية في أراغون،

فجاء أمير سرقسطة المسلم، وكان يقال له: عمروس، واستولى على الأماكن التي كانت في حوزة الكنت زاعمًا أنه عندما يأتي شارلمان بنفسه يسلمها إليه، ولكن لما جاءت العساكر الفرنسية أَبَى إنزالهم فيها، فبقيت في يد المسلمين. هكذا روى مؤرخو الفرنسيس. وقد روى بعض مؤرخي العرب أن عمروس هذا كان أميرًا في وشقة، وكان أبوه مسلمًا وأمه مسيحية، وكان مثل هذا الزواج كثير الوقوع في إسبانية لذلك العهد، لا سيما في الأصقاع الشمالية، وكان يقال لهؤلاء الذين هم من أبٍ مسلم وأمٍّ مسيحية المولَّدون، وكان هذا الصنف من الناس لا يرجعون إلى مبدأ، ولا يتقيدون بذمام، وإنما يتبعون مصالحهم الخاصة، وكانوا كثيرين في مدينة طليطلة فثاروا على أمير قرطبة فرماهم برجل يقال له: عمروس، وكان داهية من الدواهي، فجاءهم عمروس وتظاهر لهم بالإخلاص لقضيتهم، وأوهمهم أنه في نفسه ممالئ لهم ينتظر أول فرصة للانتقاض معهم على السلطان، وأقنعهم بذلك بمكره وحيلته وصدقوا كلامه، واتفق معهم على بناء قلعة في أعلى البلدة تكون المعقل الأمين بزعمه لهم، بحيث لا تنالهم جيوش السلطان بسوء، فلما أكمل بناء هذه القلعة دعاهم فيها إلى وليمة، فكان كلما دخل منهم واحد قطع الجند رأسه، فقيل: إنه قطع رؤوس أربعمائة من أعيانهم، وقيل: إنه بلغ عدد القتلى خمسة آلاف، وهكذا تمكن عمروس من إدخال طليطلة في الطاعة. انتهى.

وقد ذكر دوزي الهولندي في «تاريخ الإسلام في إسبانية»: إن عمروس هذا كان من الإسبانيول الذين اتخذوا الإسلام دينًا، والحقيقة أنه لم يكن يهمه لا مذهب ولا مشرب، وإنما كانت تهمه مطامعه الدنيوية، فكاشفه الأمير الحكم بما في نفسه من أمر طليطلة التي كانت لا تنتهي من ثورة إلَّا إلى ثورة، وكانت تأبى الخضوع لوالٍ عربي، وقد أعيى الحكم أمرها، فدبر عمروس هذه المكيدة على أهالي طليطلة بالاتفاق مع الحكم، وكتب الحكم قبل ذلك إليهم قائلًا لهم: إن أعظم دليل على اعتنائنا بشأنكم أننا مرسلون إليكم الآن واليًا من أبناء جنسكم، وقد كان هذا القول صحيحًا لأن عمروس كان إسبانيوليًّا، مهتديًا للإسلام، وذهب عمروس فخدع أهالي طليطلة وتودد إليهم وزعم أنه كاشفهم سرًّا بما في نفسه من الحمية على جنسه، والاستعداد لخلع طاعة السلطان عندما تلوح أول بارقة أمل، وقال لهم: إن أكثر أسباب النزاع بينكم وبين السلطان كانت من قبل الولاة الذين كانوا يتولون طليطلة، فكانوا يضعون الجند في بيوتكم فيسلبون راحتكم، فلو بنينا في طرف من المدينة حصنًا تتخذه ثكنة للعساكر لانحسمت أسباب النزاع بينكم وبين السلطان، فوثق الأهالي بكلام عمروس، وبنوا الحصن واستقر به عمروس.

وبعد ذلك أكمل عمروس المكيدة بأنه تواطأ مع السلطان على أن يرسل جيشًا إلى طليطلة بحجة أن العدو تحرك في الثغر فأرسل الحكم جيشًا تحت قيادة ولده عبد الرحمن — وكان في الرابعة عشرة من عمره — فلما وصل الجيش إلى طليطلة أشاعوا أن العدو انقبض إلى بلاده، وأن الجيش سيعود أدراجه إلى قرطبة، ولكن عمروس أشار على أعيان طليطلة بأن يأتوا للسلام على الأمير عبد الرحمن، قيامًا بواجب الحرمة للسلطان، فجاء منهم جمهور وسلموا عليه، واستقبلهم الأمير بالحفاوة والإكرام، وهم دعوه أن يطيل الإقامة عندهم، وتظاهر الأمير بادئ ذي بدء بأنه مضطر لسرعة الأوبة، ولكن أعيان البلدة ألحوا عليه بالتريث عندهم، وأمَّلوا فيه خيرًا كثيرًا، وكانوا مسرورين بكون واليهم الجديد إسبانيوليًّا من جنسهم، وبعد ذلك تقرر إعداد وليمة لأعيان طليطلة وجوارها ولكنها لم تكن مريئة المأكلة، وفي اليوم التالي جاء المدعوون أفواجًا أفواجًا ونزلوا عن ركائبهم وربطوها خارج الحصن، وصاروا يدخلون زرافات، وكان في ساحة الحصن خندق وقف بجانبه جماعة من الجلادين، فكانوا كلما أقبل جماعة يقطعون رؤوسهم ويرمون بها في الخندق، وتم كل هذا وأهل البلدة لا يعلمون بشيء مما جرى داخل الحصن.

وكان هناك طبيب من أهل طليطلة، عظيم الفراسة، لحظ عدم خروج أحد من المدعوين، فسأل الأهالي: هل رأيتم أحدًا من المدعوين إلى الحصن خرج منه؟ فأجابوه: يجوز أن يكونوا دخلوا من هذا الباب وخرجوا من الباب الآخر. فقال لهم الطبيب: بل أظن أنهم لن يخرجوا أبدًا وأنه أتى عليهم القتل. وقال ابن عذارى: إن عدد القتلى يوم الخندق هذا بلغ سبعمائة. وقال النويري وابن القوطية: إنهم أكثر من خمسة آلاف، ولكن من بعد هذه الواقعة سكنت الثورة في طليطلة مدة طويلة. انتهى كلام دوزي.

فهذه كانت عقبى غرام أهل طليطلة بالانتقاض، وعمروس الإسبانيولي هذا الذي دبر هذه المكايد هو الذي خدع أيضًا قواد الفرنسيس وتسلم منهم المواقع التي كانوا فيها، ولا يبعد على رجل كهذا، غدر ذلك الغدر بأهل وطنه، أن يغدر بالفرنسيس.

ولننظر الآن إلى رواية المؤرخ كوندى الإسبانيولي، قال: إن الحكم لم يتمتع طويلًا بالراحة التي كان وطد أطنابها بتعبه وجهاده، ففي سنة ٨٠١ مسيحية وفق ١٨٥ هجرية تحرك ملك أشتورية وأراد التجاوز على المسلمين، ولما كان يعلم نفسه أضعف من أن يقدر عليهم استنجد بشارلمان، وهذا أسرع لنجدته مؤملًا بذلك الاستيلاء على ولايات إسبانية الشمالية وضمها إلى مملكته، فجعلت أمداد شارلمان تثوب إلى الإسبانيول

تحت قيادة ولده لويس ملك أكيتانية، فزحف لويس واستولى على مدينة جيرونة، وجاء فحاصر برشلونة، وانضم إليه بهلول بن مخلوق من عمال أمير قرطبة، وسار بالفرنسيس إلى طرطوشة، فزحف الحكم بنفسه ومعه عمروس ومحمد بن مفرج قائد الخيالة الذي كان عظيم الاعتماد عليه نظرًا لدهائه وإقدامه.

ولما وصل إلى سرقسطة ثارت الثورة في طليطلة بما أحرج الأهالي من عسف يوسف بن عمروس الذي كان قبض عليه الأهالي لسوء ملكته فيهم، فاستدعى السلطان والده عمروس، وعهد إليه نظرًا لدربته ودهائه بولاية طليطلة، وأرسل ولده يوسف قائدًا على تطيلة.

ثم أغار الحاكم على نابارة وبنبلونة ودخل وشقة، فخشي الأذفونش على بلاده وحشد عساكره، وزحف إليه يوسف بن عمروس فأوقعه الأذفونش في كمين وأخذه أسيرًا، فدفع عليه أبوه فدية جسيمة حتى أنقذه، وأما الحكم فكان يتوقد صدره إحنة على بهلول عامله الذي انحاز إلى الفرنسيس ومشى بين يديهم، ولما عرف أنه في جوار طركونة عمد إليه من فوره، ولم يزل في أثره حتى ثقفه في طرطوشة بعد أن هزمه، واحتزَّ رأسه، ورجع الحكم إلى قرطبة بدون أن يتعرض لبرشلونة، وذلك خوفًا من الفشل في حصارها.

أما حصار الإفرنج برشلونة فقد أجمع المؤرخون أنه كان من أندر ما عرف التاريخ شدة وصبرًا، وأن مسلمي برشلونة صبروا في هذا الحصار إلى الحد الذي تتحير فيه العقول، ولكن الخلاف وقع بين المؤرخين في الأطوار التي دخلت فيها تلك الحرب، فبعضهم قالوا، كما في تاريخ متس وتاريخ ريجينون وغيرهما: إنه في سنة ٧٩٧ قدم أمير برشلونة العربي على شارلمان، وبعد ذلك في سنة ٨٠١ أراد خلع طاعته، فأخذ أسيرًا ونفي. وهؤلاء المؤرخون يسمونه تارة «زاتون» Zaton وطورًا «زادو» Zaddo وأحيانًا «زاد» Zaad، ولعل اسمه سعدون أو سعد، وفي تاريخ الملك لويس الحليم ورد أن سعدون هذا وقع أسيرًا في سربونة، وأنه بعد أسره تولى إمارة برشلونة ابن عم له، اسمه عامر، فدافع عن البلدة دفاعًا يتقاصر عنه كل وصف مدة سنتين، تحمل في أثنائها مسلمو برشلونة من ضيق الحصار ما يعجز أي قبيلٍ عن تحمله.

وذهب مؤرخون منهم مارمول Marmol إلى أن الرواية الصحيحة هي أن سعدون أو سعدًا كان تابعًا لملك قرطبة فانتقض على سلطانه فأرسل إلى شارلمان يعده بالدخول في طاعته، وفي سنة ٧٩٧ و٧٩٨ دخل فعلًا في طاعة شارلمان، ولكن شارلمان بعد سنتين

من هذا العهد شعر بأن أمير برشلونة نقض طاعته، فسرح إليه جيشًا تحت قيادة ولده لويس فحاصر برشلونة واستفتحها ثم انصرف عنها، فجاء أمير سرقسطة واستردها، ولكن لويس عاد ثانية سنة ٨٠٦ فاستولى عليها وعلى أعمالها، فالروايات تختلف في كيفية استيلاء الفرنسيس على برشلونة، ولكن خلاصتها واحدة وهي أن العرب خسروا بلاد كتلونية مذ ذلك الوقت، وأنه تولى عليها في البداية أمراء تابعون لفرنسة ثم لم يبرحوا حتى استقلوا عنها وعن العرب معًا.

وقد ذكر كوندي الإسبانيولي واقعة عمروس في طليطلة، وكيف غدر بأعيان تلك البلدة وكيف دعاهم إلى وليمة في القصر وقطع رؤوسهم غدرًا، ولكن رواية كوندي تختلف عن رواية دوزي بكون دوزي يوهم أن تلك المكيدة وقعت بتواطؤ عمروس مع سيده الحكم ومع ابنه الأمير عبد الرحمن الذي كان في الخامسة عشرة من عمره، وبأن كوندي يقول: إن صاحب ذلك الرأي إنما كان عمروس، وأن الأمير عبد الرحمن مع صغر سنِّه أوضح له فظاعة ذلك العمل وما يبقى بعده على الأعقاب من قبيح الذكر ولكنه تغلب عليه لحداثة سنِّه، وراجعه الأمير كثيرًا وأبدى وأعاد فلم يقنع عمروس إلا بتنفيذ ما بيته لأهل طليطلة، قائلًا للأمير: إن طليطلة قد ألفت العصيان من زمن طويل حتى صار لها خلقًا ملازمًا وأنه لا بد لسكونها من قطف عدة مئات من رؤوس أعيانها، ثم ذكر كوندي زحف ملك أكيتانية وحصاره لطرطوشة سنة ٨٠٧ وأن الأمير عبد الرحمن كان في سرقسطة فزحف لإنجاد طرطوشة ووافاه إليها وإلى بلنسية فطردوا الفرنسيس عنها، ثم يقول: إن عبد الرحمن عاد فاستولى سنة ٨١٢ على جيرونية من كتلونية، وأنه وصل بجيشه إلى أربونة وعاد بغنائم وافرة، ثم إن الفرنسيس استولوا على طرطوشة بعد حصار شديد وسار ملكهم لويس منها قاصدًا أخذ وشقة[٤٤] فما كاد ينصرف عن طرطوشة حتى رجعت هذه البلدة إلى حكم العرب.

وقد علق «دومارليس» على روايات كوندي عن هذه الحرب حاشية معناها: أن مؤرخي الفرنسيس يزعمون أن ملك قرطبة بعث إلى شارلمان وفدًا بطلب الصلح، وأنهم وصلوا إلى «أكسلاشابل» وتقرر الصلح على أن ينزل العرب لشارلمان عن جميع البلاد الواقعة بين نهر إيرة والبيرانه، وإن هذه المعاهدة انعقدت سنة ٨١٠.

فدومارليس يستبعد وقوع هذه المعاهدة بكون العرب لم يذكروا عنها شيئًا في تواريخهم ثم بكون لويس بن شارلمان زحف إلى كتلونية عدة مرات من بعد هذا التاريخ، فيرى دومارليس أنه يجوز أن تكون حصلت مهادنة بين الفريقين إلى حد

سنة٨٢٠ أو إلى ما بعد ذلك، وأما العرب الذين شوهدوا في أكسلاشابل فربما كانوا من بعض أولئك الولاة المسلمين الذين كانوا ينقضون على ملك قرطبة ويستعينون عليه بالأجانب من قبيل بهلول بن مخلوق الذي تلقى جزاء خيانته من يد الحكم نفسه.

أساطيل الإسلام في الأندلس وإفريقية

قال رينو: وفي تلك الأيام أخذت قوة الإسلام البحرية تزداد وتنبسط في البحر المتوسط بسبب رغبة المسلمين بإنشاء الأساطيل في مرافئ الأندلس وإفريقية، وقد كان لذلك تأثير عظيم في اجتياح المسلمين لجنوبي فرنسة، ولما اقتطع عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس عن خلافة بني العباس وأرسل هؤلاء جيشًا في البحر، أجاز إلى الأندلس لمطاردته، علم عبد الرحمن بأنه لا بد له من قوة بحرية في وجه قوتهم البحرية.

ففي سنة ٧٩٣ اتخذ عبد الرحمن الأول دور الصناعة[٤٥] في مراسي طرَّكونة وطرطوشة وقرطجنة وأشبيلية والمرية وغيرها، وقبل ذلك كانت جزر الباليار — أي: ميورقة ومينورقة ويابسة وجزيرتا سردانية وكورسيكة — عرضة لغزوات المسلمين، بحيث إن أهالي هذه الجزائر وضعوا أنفسهم تحت حماية شارلمان، وورد في مجموعة الدون بوكيه أن هؤلاء كانوا تغلبوا على المسلمين في بعض الوقائع وأخذوا منهم بضع رايات، فأرسلوا بها إليه، وعلى أثر ذلك ازداد غزو المسلمين لهذه الجزائر، فكانوا يغادونها القتال ويراوحونها، ويسبون من أهلها النساء والأطفال ويقتلون المقاتلين ولم يكونوا يعفون إلا عن الشيوخ العاجزين والمرضى والمقعدين.

وسنة ٨٠٦ اكتسح المسلمون جزيرة كورسيكة[٤٦] وكان ببين بن شارلمان ملكًا على إيطالية، فأرسل أسطولًا لمطاردتهم، فلما شعر المسلمون بدنو أسطول النصارى انسحبوا إلى الوراء، فطمع فيهم آدمر Admer كونت جنوة وتعقبهم بأسطول فرجعوا إليه وقتلوه وهزموا أسطوله وأسروا ستين راهبًا وباعوهم في الأندلس، وبلغ ذلك شارلمان ففكهم من الأسر بفدية أداها عنهم.[٤٧]

وسنة ٨٠٨ جاء قرصان من الأندلس، فنزلوا بسردانية فاجتمع أهلها ودحروهم فنزلوا بكورسيكة (أو قرسقة) فصادمهم القائد بورشارد Burchard فخسروا ثلاثة عشر مركبًا وانهزموا، ولكن المسلمين في السنة التالية جاءوا من إفريقية ونزلوا في سردانية، كما أن غزاة مسلمين آخرين جاءوا يوم عيد الفصح ونزلوا في كورسيكة وعاثوا فيها. وجاء في تاريخ كورسيكة لجاكوبي أن المسلمين خيموا في الجهة الشرقية

من الجزيرة بين أطلال مدينة «آليرية Aleria» ولم يتمكن الفرنسيس من طردهم إلا بشق الأنفس، ثم في سنة ٨١٣ رجعوا إلى كورسيكة وأسروا وغنموا، وبينما هم راجعون أكمن لهم كونت أمبورياس Amporias بقرب مدينة برينيان قوة بحرية غنمت منهم ثمانية مراكب كان فيها أكثر من خمسمائة أسير، فانتقم المسلمون عن ذلك باجتياح سواحل نيقه Nice وبروفنس وسيفيتة فكشيا Civita-Vecchia بقرب رومة.[٤٨]

ورأى الإمبراطور شارلمان أن الخطر قد ازداد على بلاده، وأن لا بد له من تدابير بالغة في الشدة لرد غارات المسلمين البحرية، وقد كانت إمارة الأغالبة في إفريقية تابعة للخلافة العباسية في بغداد، فكان أمير القيروان مدة خلافة هارون الرشيد يتحامى سواحل مملكة شارلمان حرمة للعهد الذي كان بين هارون والإمبراطور، ولكن عندما مات الرشيد سنة ٨٠٩ ووقعت الحرب بين ولديه الأمين والمأمون تفصى الأمير الأغلبي من ذلك العهد، وصارت مراسي تونس وسوسة بؤرة قرصان تنبث منها الغارات البحرية. وقيل: إن أمير صقلية كان يشكو إلى رسول قادم من عند الأغالبة عيث القرصان في سواحله، فأجابه الرسول: نعم منذ مات أمير المؤمنين صار الذين كانوا عبيدًا يريدون أن يكونوا أحرارًا، والذين كانوا أحرارًا ولكنهم فقراء يريدون أن يكونوا أحرارًا أغنياء.

وكان القرصان أكثر ما يتعرضون للسفن التي تتردد بالبضائع بين فرنسة وإيطالية من جهة، ومصر والشام وآسيا الصغرى من أخرى، وكان قد انضم إلى قرصان المسلمين قرصان النورمانديين وأخذوا جميعًا يعيثون في السواحل الجنوبية، فأمر شارلمان ببناء الأبراج والحصون في السواحل وعند مَصَابِّ الأنهار، وأنشأ الأساطيل لدفع عوادي القرصان، وجميع هذه الروايات جاءت في مجموعة الدون بوكيه.

ولما طالت هذه المساجلات البحرية وتعب منها الفريقان داخل بعضهم بعضًا في عقد معاهدة سلم تأمن بها السفن البحرية غوائل متلصصة البحر، ففي سنة ٨١٠ انعقدت أول متاركة، ثم تجددت بعد سنتين، وجاء رسول من الأندلس يرجح أنه يحيى بن حكم أمير الماء[٤٩] في الأندلس قاصدًا أكسلاشابل وعقد مهادنة مع شارلمان لثلاث سنوات، ولكن المسلمين نقضوها هذه المرة؛ لأنهم سنة ٨١٣ نزلوا في جزيرة كورسيكة وتقدم عبد الرحمن ابن أمير قرطبة إلى حدود فرنسة بجيشه، وفي تلك الواقعة قُتل القديس آفانتين "Saint Aventin" من أهالي بانيبر دولوشون Bagneres-De-Luchon في مقاطعة غارون العليا.

ومات شارلمان سنة ٨١٤ وخلفه ابنه لويس الحليم، وسار على أثره في السياسة، ولكن في أيامه استفحلت غزوات المسلمين البحرية، وجرت لذلك العهد حادثة في قرطبة تفاقم بسببها هذا الأمر، وذلك أن أهالي ربض قرطبة ثاروا على الحكم أميرهم فسار إليهم الحكم برجاله وحرسه وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ونفى بقية السيف، وكانوا زهاء خمسة عشر ألفًا فأركبهم طبقًا عن طبق وأجازهم البحر إلى إسكندرية، وهناك خاف عاديتهم والي الإسكندرية فأدى إليهم مبلغًا من المال وأركبهم إلى جزيرة أقريطش التي يقال لها اليوم: كريت.[٥٠]

وفي سنة ٨١٦ توجه رسل من قِبل الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي كان بدأ يباشر الأشغال في حياة أبيه، وذلك إلى مدينة كومبيان Compiegne حيث كان يقيم الإمبراطور، ثم ذهبوا إلى أكسلا شابل حيث كان سينعقد مجلس شورى، وكان مراد رسل أمير الأندلس عقد متاركة، وانعقدت إلا أنها لم تطل، وفي سنة ٨٢٠ سار أسطول إسلامي من تركونة وغزا جزيرة سردانية فجاء أسطول مسيحي لأجل الدفاع عنها، فتغلب الأسطول الإسلامي وأغرق المسلمون ثمانية مراكب للمسيحيين وأحرقوا أيضًا مراكب كثيرة.

وفي تلك السنة مات الحكم، وتولى ابنه عبد الرحمن، وكان الحكم موصوفًا بالقسوة جبارًا وكان يلقب بأبي العاصي ومن هنا لقبه الإفرنج بلفظة أبولاز Abulaz فلما مات الحكم جاء عمه عبد الله يطالب بالإمارة كعادته، وهو الذي كان داخل شارلمان لأجل أن يساعده على ابن أخيه، فلما جاء هذه المرة وأهرج الأندلس وأمرجها اهتبل الفرنسيس الغرة ليزحفوا مجددًا إلى كتلونية وآرغون فعاثوا ودمروا وأحرقوا.

وفي سنة ٨٢٠ اتهم بيره Bera أمير برشلونة من قبل فرنسة بممالأة المسلمين سرًّا، وكان الواشي به أحد القوط، وكان بيره نفسه قوطيًّا أيضًا، وكان من عادة القوط أنه إذا تخاصم اثنان ولم يقدر أحدهما أن يثبت دعواه بالبينة تبارزا بالسلاح فالمغلوب منهما يعد مذنبًا، وفي ذلك اليوم كان المغلوب «بيره» فتقرر حينئذ أنه كان خائنًا للفرنسيس، وفي ذلك الوقت ثار نصارى نابارّاه على الفرنسيس من شدة عسفهم وظلمهم، واتفقوا مع المسلمين، وسلموهم مدينة بنبلونة، فأرسل الإمبراطور الكنت أزنار Asnar والكنت أبل Eble لأجل تسكين الثورة، فانقض عليهما نصارى الجبال وثقفوهما، فأما أزنار فعفوا عنه لأنه كان من أصل غشقوني أي من أقارب الإسبانيول فأطَّت بهم رحم القرابة نحوه، وأما الكنت إبل فلكونه إفرنسيًّا صريحًا أرسلوه إلى الأمير في قرطبة، روى ذلك الدون بوكيه.

وفي سنة ٨٢٦ ثارت مدينة ماردة على عبد الرحمن، فكتب إليهم لويس بن شارلمان الكتاب الآتي نصه:

> باسم ربنا الإله وباسم مخلصنا يسوع المسيح، من لويس الإمبراطور السعيد بالنعمة الإلهية إلى الأساقفة والشعب في ماردة، قد اتصل بنا ما تقاسونه من العذاب من جهة الملك عبد الرحمن الذي لا يزال يرهقكم عسرًا متبعًا في ذلك طريقة أبيه أبولاز الذي كان يبتزكم أموالكم والذي كان جعل أصدقاءه أعداء وجعل الطائع عاصيًا، فاليوم يريدون أن يحرموكم حريتكم وأن يثقلوا كواهلكم بالضرائب وأن يمسوا كرامتكم ويهينوكم، وقد علمنا أنكم أبيتم تحمل الإهانة ودفعتم عنكم ظلم ملوككم ووقفتم في وجه طمعهم وغدرهم، وقد جاءنا هذا الخبر من مصادر عدة، فرأينا أن نكتب هذا الكتاب لتعزيتكم على ما أنتم فيه ولتحريضكم على الثبات في خطتكم هذه، ولما كان هذا الملك البربري عدوًّا لنا، كما هو عدو لكم، فإننا حاضرون للاشتراك معكم في قتاله. ومرادنا في هذا الصيف بعون الله تعالى أن نرسل جيشًا يجتاز البيرانه ويكون حاضرًا للعمل بإشارتكم، فإن كان عبد الرحمن سيزحف إليكم فيكون جيشنا بالمرصاد له، وترانا نعلمكم من الآن أنكم إن كنتم تخلعون طاعة عبد الرحمن وتصيرون من رعايانا فنحن حاضرون أن نعيد إليكم حريتكم الأولى، بدون مساس بها وبدون أن نطالبكم بأدنى مال تؤدونه لنا، وأنتم تختارون القانون الذي تريدون أن تسيروا عليه، ونحن نعاملكم كأصدقاء يريدون أن يشتركوا في الدفاع عن سلطتنا ونسأل الله أن يسبغ عليكم أثواب العافية. انتهى.

وفي ذلك الوقت عقد الإمبراطور لويس ندوة عامة في أكسلاشابل، حضرها ابنه ببين وسائر أمراء البلاد المجاورة لإسبانية، وأعلن الإمبراطور عزمه على غزو الأندلس للأخذ بالثأر. وكان في أكسلاشابل قائد قوطي اسمه عيسون Aizon التجأ بزعمه إلى الإمبراطور، فما شعروا به إلّا وقد انسلّ من هناك خفية، وجاء وأثار الأهالي في كتلونية وآراغون، واستولى على مدينة أشونة Assuna واجتاح البلاد التي كانت تحت احتلال الفرنسيس، وأرسل يستنجد أمير قرطبة، ولما أبطأ عليه الإمداد ذهب بنفسه إلى قرطبة لأجل الاستعجال في التعبئة والنجدة فسرح عبد الرحمن جيشًا بقيادة عبيد الله أحد

أبناء عمه، وسار هذا الجيش ومعه عيسون، وأغذّوا السير، بينما الجيش الإفرنسي يسير بطيئًا، فوصلوا إلى برشلونة وجيرونة واجتاحوهما، وتقدموا إلى سردانة وملأوا البلاد عيثًا وتدميرًا كما جاء في مجموعة بوكيه، وكان أهالي ماردة قد أعلنوا الحرب على عبد الرحمن، وانتظروا نجدة الفرنسيس لهم، ولكن عبد الرحمن ضيق عليهم الحصار وجرَّعهم أمرَّ كؤوسه ثلاث سنوات حتى دخلوا في طاعته صاغرين ورجعوا داخرين بعد أن كانوا فاخرين، وفي تلك الأيام ازداد عيث قرصان النرمندانيين في سواحل فرنسة وألمانية وإنكلترة وإسبانية، بينما قرصان إفريقية والأندلس تجعل في سواحل فرنسة وإيطالية غدوَّها ورواحها، فعيل صبر بونيفاس أمير كورسيكة وأرسل مراكب إلى إفريقية فاجتاحت ساحل قرطجنة للأخذ بالثأر.

وقد ذكروا أنه كان للمسلمين لذلك العهد بارجة متناهية في الكبر يظنها الرائي من بعيد سورًا عاليًا سائرًا في البحر غزت مرة جزيرة أوي Oye في بريطانية عند مصب نهر لوار ولكن لم نعلم من آثارها شيئًا غير هذا.

ولا يخفى أن هذه الوقائع كانت تتراكم كلها في أيام الإمبراطور لويس الحليم الذي كان هو بنفسه قائل الرأي ضعيف العزيمة سيئ الإدارة فاقد الإرادة، قسم مملكته بين أولاده الثلاثة، وسلم إلى كل حصته، ثم بدا له أن يعيد القسمة وأن يجعل نصيبًا لولده الرابع، فثار أولاده عليه وقاتلوه وخلعوه، ورجع إلى العرش، ولكن لم ترجع مهابته وامتلأت أيامه بالفتوق والآفات بحيث إنه أصدر سنة ٨٢٨ منشورًا يقول فيه: إن المجاعة والطاعون وسائر أصناف الآفات السماوية انقضَّت على شعوب سلطنتنا مما يدل على غضب الله تعالى من أعمالنا غير المستقيمة، ثم أمر الإمبراطور بصيام عام وباجتماع الأساقفة في أربع حواضر، منها مدينة طلوزة، وذلك لأجل المذاكرة في التدابير اللازمة لمعالجة هذه الحال.

أما العلاقات التجارية، بين مملكة شرلمان وبين مصر والشام، فلم تنقطع في وقت من الأوقات، وفي سنة ٨٣١ تجددت المواصلات بين الخلافة العباسية والسلطنة الغربية، وقد تقدم وفد من قِبل الخليفة المأمون إلى فرنسة مؤلَّف من ثلاثة، اثنان منهما مسلمان والثالث مسيحي، وجاءوا إلى الإمبراطور بهدايا منها منسوجات فاخرة ومنها أفاويه عاطرة.

وكانت الحرب لا تزال مشتعلة في جبال البيرانه، بين جيوش أمير الأندلس وجيوش فرنسة، فاجتاح الأمير عبيد الله ابن عم الأمير عبد الرحمن في سنة ٨٣٨ البلاد التي كانت

تحتلها جيوش الفرنسيس، كما أن هؤلاء اجتاحوا من بلاد قشتالة ما كان تابعًا لملوك قرطبة، وسار أسطول للمسلمين من تركونة ومعه أسطول آخر من جزيرتي ميورقة ويابسة، وهاجم المسلمون مرسيلية وأنزلوا العساكر في نواحيها واستولوا على ضواحيها وساقوا جميع الرجال حتى الرهبان أسرى، والمظنون أنه في تلك الغزوة حصلت الحادثة المنسوبة إلى القديسة أوزيبيا Cusebia رئيسة دير الراهبات في مرسيلية والأربعين راهبة اللائي كنَّ في ذلك الدير، وذلك أنهنَّ خشين من أن الغزاة يتجاوزون على أعراضهن ويلحقون بهن المعرات فشوهن خلقة أنفسهم بجدع أنوفهن حتى يكن بمأمن من تجاوز غزاة العرب.

ومات الإمبراطور لويس سنة ٨٤٠ فوقع الخلف بين أولاده، واغتنم المسلمون هذه الفرصة فدخلوا من مصب نهر الرون، كما جاء في مجموعة مؤرخي فرنسة للدون بوكيه، وعاثوا في مدينة آرل ونواحيها، وفي الوقت نفسه أغار موسى أمير تطيلة في بلاد نابار وأوغل حتى بلغ أرض سردانة، واكتسح تلك البلاد.[٥١]

وكانت في تلك الأيام قد ساءت الأحوال في فرنسة إلى الدرجة القصوى بسبب الحروب الداخلية، وأصبحت قد انتثر سلكها وتعطلت حلاها وتقاسم جنوبي فرنسة ثلاثة ملوك: الإمبراطور لوطير Lothaire والملك شارل الأصلع والملك الشاب ببين بن ببين الذي كان ملكًا على أكيتانية، ثم ثار أمير اسمه فولكراد Folcrade على الإمبراطور وسمى نفسه كنت آرل وبروفنس، وقد بلغ حب الشقاق وفساد الأخلاق أن الكثيرين من سلالة شارل مارتل وببين القصير وشارلمان كانوا يستنجدون بالأعداء الأجانب بعضهم على بعض.

ولم تكن إيطالية بأحسن حالًا من فرنسة؛ لأن المسلمين كانوا استولوا على جزيرة صقلية، وكان اثنان من أمراء المسيحيين يتنازعان الإمارة في بلاد بينيفنتي بقرب نابولي، فاستنجد كل منهما بالمسلمين الذين كانوا في صقلية، فدخل المسلمون إلى الأرض الكبيرة واستولوا على قسم كبير منها.[٥٢]

وفي سنة ٨٤٦ جاء غزاة العرب إلى رومة وصعدوا في نهر الطير ونهبوا كنائس القديسين بطرس وبولس وغزوا أيضًا جنوة وعطلوا سدود نهرها، فنفر الأهالي وقاتلوهم وحمل الرهبان والقسيسون السلاح.[٥٣]

ولم تكن الأندلس بأسعد حالًا في تلك الأيام؛ لأن الفتن كانت تصطلمها، والآفات تنيخ عليها بكلكلها فانضم إلى الفتن المجاعة والقحط والجراد وغزو النورمنديين الذين أخذوا ينزلون في أشبونة وأشبيلية ويفسدون في أرضهما.

وفي سنة ٨٤٨ عاد المسلمون فغزوا مرسيلية وجميع الساحل إلى جنوة، كما جاء في مجموعة الدون بوكيه، وكان الملك ببين شابًّا، وكان في حرب مع عمه شارل الأصلع، فطلب ببين مساعدة المسلمين له وأرسل إلى قرطبة غليوم كونت طلوزة حفيد البطل غليوم الذي اشتهر في حروب المسلمين وتلقب بالقديس، كما سبق الكلام عليه، فنال غليوم ما أراده وأصحبوه بعساكر تمكن بها ببين من إخراج عمال شارل الأصلع من برشلونة ومن مدن أخرى من كتلونية، وكان قرصان المسلمين قد نزلوا في سواحل آرل، واضطروا لمعاكسة الريح أن يتأخروا في الساحل، فحمل الأهالي السلاح من كل جهة وذبحوهم، ولكن في تلك المدة زحف جيش من المسلمين يقوده موسى عامل سرقسطة وتقدم من جهة أورجل Urgel وريباغورسة Ribagorsa ولم يزل يثخن في أرض الفرنسيس ويقتل ويسبي إلى أن اضطر الملك شارل الأصلع أن يطلب من المسلمين الصلح ولم ينله إلا بتقديم هدايا ثمينة كما جاء في مجموعة الدون بوكيه.

وفي سنة ٨٥٠ وقعت نكبة على مسيحيي الأندلس، وحصلت حوادث في قرطبة وصل خبرها إلى فرنسة، وتحرير الخبر أن الشرع الإسلامي يطلق لأهل الذمة الحرية الدينية ولا يجبرهم إلا على أداء الجزية، ولكن إذا تزوج مسلم بمسيحية فالأولاد يجب أن ينشأوا على دين الأب، كذلك إذا أسلم مسيحي أو مسيحية فأولاده معدودون من المسلمين إذا كانوا قاصرين، فإذا بلغوا سن الرشد وأرادوا الرجوع عن الإسلام فلا يحق لهم، وكذلك إذا قذف أحد المسيحيين نبي الإسلام فليس أمامه سوى الإسلام أو الموت.

وقد كان الزواج المختلط كثير الوقوع في الأندلس، فطالما تزوج مسلمون بمسيحيات وقد كانت المرأة المسيحية المتزوجة بمسلم كثيرًا ما تلقن بناتها قواعد النصرانية فيحصل بسبب ذلك نزاع شديد في العائلات، وفي ذلك الوقت كان في قرطبة قسيس متضلع في اللغة العربية اسمه بهارفكتس، وكان قد شاع أن بهارفكتس في إحدى المرار تلفظ بالشهادتين وأسلم، فصادفه بعد ذلك أناس من المسلمين وسألوه عن رأيه في نبي الإسلام ﷺ فامتنع أولًا عن الجواب فألحوا عليه في تبيين رأيه، فأجاب بجواب نال فيه من الرسول، وقيل: إن المسلمين ذلك اليوم لم يتعرضوا له بسوء، ولكنه بينما كان مارًّا فيما بعد في أحد الشوارع جاء أحد المسلمين وأغرى العامة بالهجوم على القسيس قائلًا لهم: إن هذا هو الذي قذف بالنبي، فهجمت العامة عليه، وذهبوا به إلى القاضي، فسأله عما عُزي إليه من القذف، فلم ينكر كلامه، بل أيده أمام القاضي فاضطر القاضي أن يحكم عليه بالقتل، وكان ذلك في شهر رمضان فلم ينفذ فيه الحكم إلى أن انسلخ الشهر وجاء العيد فقطعوا رأسه بمحضر من جم لا يحصى من الأهالي.[٥٤]

فكان لهذه الحادثة صدى بعيد وثارت من أجلها الخواطر، وكان المسيحيون كثيري العدد في الأندلس وفي نفس قرطبة مركز السلطنة وكان المسلمون تركوا لهم كثيرًا من كنائسهم وأديارهم، وكانت لهم أديار للرهبان وأخرى للراهبات، وكان من المسيحيين كثير من المستخدمين في القصر الملكي لا سيما أن القصر كان يحتوي عددًا عظيمًا من الصقالبة، فكثرت من أجل ذلك المنازعات الدينية وصارت تتقدم الشكايات على بعض المسيحيين بأنهم قذفوا بالرسول فيؤتى بهم إلى القاضي فيسألهم فلا ينكرون، فيحكم القاضي عليهم بالقتل، ولأجل أن لا يأخذ المسيحيون أجسادهم ويحنطوها ذخائر كان الحكام يحرقون أجساد المحكوم عليهم بالقتل ويرمون رمادها في النهر، وقيل: إنهم كانوا يطرحون بعضها للكلاب.

وقد كان تأثير هذه الشدة بعكس ما أمل رجال الحكم، فإنه وجد من المسيحيين من كان يتهافت على القذف بالرسول ﷺ ليقتلوه ويصير شهيدًا، وقتل بهذا الشكل أناس كثيرون، ومن جملتهم رجل اسمه «سانشو» من فرنسة كان مستخدَمًا في القصر، واثنان من الخصيان في القصر أيضًا، وأكثر من تهافت على القذف بالرسول لنيل الشهادة المتحمسات من النساء المسيحيات.[٥٥]

وأخيرًا عقد أساقفة المسيحيين مجمعًا قرروا فيه أن التحرش بهذا الموضوع أي القذف بنبي الإسلام عمدًا، حبًّا بالقتل ونيل الشهادة، هو مخالف لروح الإنجيل، ثم إن الملك شارل الأصلع تدخل في هذه المسألة، بناء على التماس المسيحيين منه؛ لأنه قد أصابهم في البلدان الشمالية من إسبانية ما أصابهم في قرطبة.

ولما تفاقم هذا الأمر اشتد غضب عبد الرحمن الثاني على المسيحيين، وطرد من قصره جميع الذين كانوا مستخدمين فيه منهم، ثم مات عبد الرحمن سنة ٨٥٨ وخلفه ابنه محمد، وفي أولى أمره شدد أيضًا في معاملة المسيحيين حتى فكر في إخراجهم جميعًا من مملكته، ولكنه عاد فعدل عن فكره بسبب توالي الثورات وعدم مؤاتاة الوقت له، وكانت الحرب لا تزال مشتعلة في كتلونية، وكان موسى أمير سرقسطة قد ظفر بالمسيحيين في بعض الوقائع إلا أنه انكسر في آخر الأمر وتغلب عليه ملك أشتورية فعزله الأمير محمد من إمارة سرقسطة، فاستشاط غضبًا وانحاز إلى المسيحيين، وزوج ابنته بغرسية ملك ناباره، وثارت في أثناء ذلك مدينة طليطلة.

ثم إن المسلمين غزوا أيضًا جزيرتي سردانية وكورسيكة، واشتدت الفوضى وانتشر الحبل في بلاد فرنسة، فكنت ترى الكنائس مهدمة والمدن خرابًا واللصوص أسرابًا

والناس يتركون ديارهم ويضربون في الأرض طلبًا للأمان، ومنهم من فضل الموت على ترك أرضه، ومن الأهالي من كان ينضم إلى الغزاة طمعًا في السلب.

وبينما الحال هكذا في فرنسة لم تكن الأندلس بأسعد منها، إذ ثار فيها رجل يقال له: عمر بن حفصون — كان مسيحيًّا فأظهر الإسلام — وأعصوصب حوله جيش من اللصوص وقطَّاع الطرق، فثار على الأمير محمد وجاذبه الحبل وصارت الأندلس في أمر مريج، واضطر الأمير إلى مسالمة ملك فرنسة شارل الأصلع ليتفرغ لأمر ابن حفصون، وجاءت رسل شارل إلى قرطبة وكان ذلك سنة ٨٦٦ وتقرر أن تبقى كتلونية بيد الفرنسيس، وعاد رسل شارل بهدايا ثمينة من قرطبة ومعهم إبل بحدائج مزينة، وهكذا تقضي حوادث الزمن على الملوك بمصافاة ذوي الشحناء ومهاداة الأعداء.

وفي سنة ٨٦٩ جاء غزاة العرب فنزلوا في بروفانس في محل يقال له كامرغ Camargua وهو جزيرة مشكلة من نهر الرون، وفيها أملاك للمطران رولان رئيس أساقفة آرل، فلما نزل المسلمون في هذه الجزيرة صادفوا المطران هناك يتعهد مزارعه فقبضوا عليه وقتلوا ثلاثمائة من رجاله وساقوه إلى أحد مراكبهم، فجاء المسيحيون لأجل أن يفكوه بفدية، فطلب المسلمون به مائة وخمسين ذهبًا و١٥٠ ثوبًا و١٥٠ سيفًا و١٥٠ عبدًا، فرضي المسيحيون بتقديم هذه الفدية، فجمعوها وقدموها لأجل إنقاذ المطران، وكان هذا في أثناء جمعها قد فارق الحياة بما أصابه من الرعب فكتم المسلمون موته حتى يقبضوا المال، ولما تسلموا جميع الأشياء التي اشترطوها أخرجوا جثة المطران إلى البر، وألبسوها الثياب التي كانت عليه عندما كان حيًّا، وانصرفوا وكان المسيحيون قد جاءوا جمعًا عظيمًا لتهنئة المطران بالخلاص، فلم يجدوا سوى جثة هامدة، وتحول فرحهم مأتمًا.

ومات شارل الأصلع سنة ٨٧٦ وكان ناويًا أن يذهب بجيش إلى إيطالية التي كان المسلمون قد استولوا على نواحيها الجنوبية وأصبح بسبب ذلك البابا في رومة تحت الخطر، وبرغم توالي غزوات المسلمين والنرمنديين كان الشقاق بين أمراء فرنسة لا يزال قائمًا قاعدًا، حتى نهكت قوى البلاد بأجمعها، ولم يبقَ إلا أمل ضعيف يمسك بحشاشتها، وبلغ اختلاف الكلمة وتشظى العصا أقصى ما يتصور العقل.

هوامش

(١) قد ظهر من هنا أن سقوط الدولة الأموية في المشرق وصدع الوحدة العربية بانسلاخ الأندلس عن دولة الخلافة هما العاملان في تأخر العرب في قارة أوربة، ومما لا نزاع فيه أن القوة المتحدة التي كان وراءها الأندلس وإفريقية ومصر والشام والعراق وجزيرة العرب وفارس وخراسان كانت أقوى على تجريد الجيوش وتسريب الأموال من القوة التي لم تكن تتجاوز جزيرة الأندلس وحدها.

(٢) Ebre هو النهر الذي يمر بسرقسطة، والإسبانيول والعرب يقولون له: أيبره.

(٣) نقل «رينو» هذا الخبر عن ترجمة حياة القديس «جيبو» Jubeau في مجموعة البولنديين، أي: تاريخ القديسين Recueil des Ballandistes.

(٤) هو سليمان الأعرابي الكلبي أمير برشلونة، وكانت بينه وبين شارلمان علاقات مذ كان أميرًا بسرقسطة. انظر إلى ما يقوله صاحب أخبار مجموعة: ثم ثار سليمان الأعرابي بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيى الأنصاري، من ولد سعد بن عبادة، فبعث إليه الأمير (يعني: عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد في جيش، فنازل أهل المدينة وقاتلهم أيامًا، ثم أن الأعرابي طلب الفرصة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب وقالوا: قد أمسك عن الحرب وأغلق أبواب المدينة، أعدَّ خيلًا، ثم لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه في المظلة فصار عنده أسيرًا وانهزم بجيش، فبعث به الأعرابي إلى قارله فلما صار عنده طمع قارله في مدينة سرقسطة من أجل ذلك فخرج حتى حل بها، فقاتله أهلها ودفعوهم أشد الدفع فرجع إلى بلده. انتهى.

قلت: إن العرب يسمون شارلمان قارله كما كانوا يسمون جده شارل مارتل وسيأتي ذكر قصة الأمير سليمان هذا — الذي ملأ شارلمان على قومه — وكيف انتهى أمره.

(٥) نقل «رينو» هذا الخبر عن مجموعة «الدون بوكيه».

(٦) يكثر في تواريخ العرب ذكر غزوات الجيوش الإسلامية لبلاد ألبا والقلاع Le Pays D'alaba et des Chateaux ويقال أحيانًا: «ألفا» ولكن تلفظ الإسبانيول للفاء هو كلفظ العرب للباء.

(٧) Perpignan قاعدة ولاية روسيون أو البيرانه الشرقية.

(٨) Cerdagna.

(٩) Saint-Jean-Pied-de-Port.

(١٠) Tolosa a Bayonne وطلوزة هذه هي غير طلوزة الإفرنسية، والفرق بينهما أن طلوزة الإسبانية تكتب بحرف O فقط وأن طلوزة الإفرنسية تكتب بحرفين OU.

(١١) قال ابن خلدون: وفي سنة ست وأربعين ومائة سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى الأندلس، ونزل بباجة الأندلس، داعيًا لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خلق، فسار عبد الرحمن إليه ولقيه بنواحي أشبيلية، فقاتله أيامًا ثم انهزم العلاء وقتل بسبعة آلاف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثيرٍ منهم إلى القيروان ومكة، فألقيت في أسواقهما سرًّا ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء، فارتاع المنصور لذلك، وقال: ما هذا إلا شيطان والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر. أو كلامًا هذا معناه. انتهى

وجاء في كتاب «أخبار مجموعة» الذي تقدم ذكره في أخبار عبد الرحمن الداخل: ثار عليه العلاء بن مغيث اليحصبي، ويقال حضرمي وسود (يعني دعا لبني العباس الذين كان شعارهم السواد) ودعا إلى طاعة أبي جعفر، وكان قد بعث إليه بلواء أسود في سن قناة، قد أدخله في أهليجة وطبع عليه، فأخرجه العلاء فجعله في رمحه وقام به في جند مضر وساعده على غيه واسط بن مغيث الطائي وأمية بن قطن الفهري فأقبلت اليمانية حتى صاروا بأشبيلية فاتهموا أمية بن قطن فأخذوه وكبلوه، وخرج الأمير إليهم، واجتمعت إليه الحشود، وأقبل حتى نزل بقرية القوم بقلعة رعواق وأقبل غياث بن علقمة اللخمي من شذونة ممدًا لهم، فلما سمع بخبره الأمير بعث إليه بدرًا مولاه في قطيع من عسكره فقطع به فنزل في الولجة التي بين وادي إيره والنهر الأعظم، ونازله بدر فتراسلا حتى انعقد بينهما صلح، ورجع غياث بن علقة اللخمي إلى بلده، ورجع بدر إلى الأمير، فلما بلغ القوم الخبر قالوا: ليس لنا إلا مدينة قرمونة فعبوا على الخروج إليها ليلًا، وجاء الخبر إلى الأمير فبعث بدرًا، وقال له: ابتدر إلى المدينة، وارفع رأس قبتك على باب قرمونة واجمع إليك أهل الطاعة إلى أن نوافيك غدوة، وركب الأمير من سحر طويل فأصبح على ظهر وتباطأ القوم فأصبح القوم في الشعراء تحت قرمونة، فلما نظر إلى القبة مضروبة على باب المدينة علم أنهم قد بدروا إليها، فماجوا وتطلعت عليهم خيل العسكر، فانهزموا وقتلوا قتلا ذريعًا، وأصيب أمية بن قطن مكبلًا فمنَّ عليه الأمير وأطلقه وقطف من رؤوسهم سبعة آلاف رأس فميز رؤوس المعروفين ورأس العلاء ومثله، ثم كتب باسم كل واحد بطاقة ثم علقت من أذنه، ثم أجزل العطية لمن انتدب لحمل تلك الرؤوس إلى إفريقية فجمعها في أخرجة وركب فيها البحر حتى انتهى

إلى القيروان، فطرحها ليلًا في السوق، فلما أصبح الناس وجدوها ووجدوا كتابًا مكتوبًا بالخبر في الخرج، فانتشر ذلك حتى بلغ أبا جعفر. انتهى

(١٢) جاء في نفح الطيب عند ترجمة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثالث ذكر وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة. وجاء فيه عند ترجمة الناصر ذكر ربيع الأسقف الذي أرسله الخليفة إلى ملك الصقالبة رسولًا يرد بذلك زيارة رسول هذا الملك لبابه، ومن هذه الأسماء يعرف القارئ أن أهل الذمة في الأندلس كانوا قد استعربوا وتسموا بأسماء العرب، وإن كانوا بقوا على النصرانية، وكانوا في هذا أشبه بالمسيحيين من عرب الشرق.

(١٣) Tarragone مدينة في كتالونية على البحر المتوسط، قال ياقوت في معجم البلدان: بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة، وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر منها نهر علان يصب مشرقًا إلى نهر إيرة وهو نهر طرطوشة، وهي بين طرطوشة وبرشلونة، بينها وبين كل واحدة منهما سبعة عشر فرسخًا. قال: وطرقونة موضع آخر بالأندلس من أعمال لبلة.

(١٤) وستفاليا هي اليوم من مقاطعات بروسية.

(١٥) استشهد «رينو» على ذلك بمجموعة الدون بوكيه وكذلك بتاريخ ابن القوطية، وأما مؤرخو العرب فلم يتفقوا على اسم هذا الأمير؛ لأن بعضهم يسميه سليمان بن قحطان العربي والآخرين يسمونه مطرف بن العربي، وقد تقدم أن هذا الأمير هو سليمان الأعرابي الكلبي، وأما أسيره الذي أرسله إلى شارلمان فهو ثعلبة بن عبد الذي أسره بحيلة كما تقدم.

(١٦) من مملكة نابار وهي قلعة حصينة.

(١٧) جاء في أخبار مجموعة: إن حسين بن يحيى الأنصاري رفيق سليمان الكلبي، الذي ثار بسرقسطة على الأمير عبد الرحمن الداخل، كان قد عدا على سليمان يوم جمعة فقتله في المسجد الجامع وصار الأمر لحسين وحده فنزل به الأمير عبد الرحمن، وكان عيسون بن سليمان الأعرابي قد هرب إلى أربونة فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر، فنظر يومًا إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة وصار على جرف الوادي فأقحم عيسون فرسًا له كان يسميه الناهد فقتله، ثم رجع إلى أصحابه فسمى ذلك الموضع إلى اليوم «مخاضة عيسون» ثم استدعاه الأمير حتى صار في عسكره وحارب سرقسطة معه.

(١٨) نقل «رينو» هذا الخبر عن «الدون بوكيه» ولم نعلم شيئًا من هذا القبيل، أي: من تنصر جماعة من المسلمين في أوائل الفتح الإسلامي للأندلس سوى ما ذكره المؤرخون من العرب، وهو أنه عندما اشتدت الفتنة بين القيسية واليمانية اغتنم الفرصة أهالي شمالي إسبانية وأخرجوا المسلمين من بلادهم وبقي من هؤلاء بينهم بقايا تنصروا.

قال صاحب أخبار مجموعة: فثأر أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علج يقال له: بلاي قد ذكرناه في أول كتابنا فخرج من الصخرة، وغلب على كورة وستورس ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل أستورقة زمانًا طويلًا حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابة فلما كان في سنة ١٣٣ هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخروج وقتل من قتل ... إلخ، ولا مانع من أن يكون في الذين هاجروا من شمالي إسبانية إلى فرنسة أناس أصلهم من المسلمين.

(١٩) جاء في نفح الطيب (الجزء الأول صفحة ١٥٥) ما يلي: وخاطب عبد الرحمن قارله ملك الإفرنج وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المكر تام الرجولية فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة. أ.هـ.

قلت: وأما كون عبد الرحمن فتح البلاد بنفسه ودوخها بصرامته، ولم يستغن في ذلك كما قال «رينو» عن إرهاف الحد، فلننقل في هذا الموضوع ما جاء في النفح عن ابن حيان: ولما ألفى الداخل الأندلس ثغرًا قاصيًا غفلًا عن حلية الملك عاطلًا أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالآداب فأكسبهم عما قليل المروءة، وأقامهم على الطريقة، وبدأ فدون الدواوين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجند الأجناد ورفع العماد وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته.

ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس واستقل له الأمر فيها، فلذلك ظل عدوه أبو جعفر المنصور بصدق حسه وبُعد غوره وسعة إحاطته، يسترجح عبد الرحمن كثيرًا ويعد له بنفسه ويكثر ذكره ويقول: لا تعجبوا لامتداد أمره مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شؤونه وعدمه لأهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيتها

بقضية سياسته حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم فاستولى فيها على أريكته ملكًا على قطيعته قاهرًا لأعدائه حاميًا لذماره مانعًا لحوزته خالطًا الرغبة إليه بالرهبة منه، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه. انتهى.

قلت: وكان المنصور يلقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش وسنذكر في الجزء التالي كلامًا آخر للمنصور عنه في هذا المعنى.

(٢٠) برطانية هنا لا يظهر أنها التي يقال لها: بريطانية Bretagne من شمالي فرنسة إلى الغرب بل هي مقاطعة من كتالونية يقال لها اليوم: أمبردانية Ampurdania وكان أهل البلاد يقولون لها: «إمبروطانية» وهي لفظة مشتقة من «أمبورياس» اسم مدينة فينيقية قديمة ثم يونانية عمَّرها أهل صور وصيدا في أرض كتالونية.

(٢١) Tudela من مدن شمالي الأندلس.

(٢٢) Leon يريد بها مدينة ليون الإسبانية في شمالي إسبانية لا مدينة ليون الإفرنسية التي يكتب اسمها هكذا: Lyon.

(٢٣) Jironde يريد بمدينة جيروندة بوردو وكان العرب يقولون لها أيضًا: بورديل وهي مدينة بلاد جيرندة الإفرنسية.

(٢٤) هذا هو إمبراطور بيزانطية الذي قاتله المعتصم العباسي وفتح من بلاده عمورية، وورد ذكره في قصيدة أبي تمام الطائي التي يذكر بها وقعة عمورية والتي مطلعها.

السيف أصدق إنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

فإنه يقول فيها:

لما رأى الحرب رأي العين توفلس ... والحرب مشتقة معنى من الحرب

إلخ.

(٢٥) كانت أم الخليفة المأمون أم ولد، اسمها مراجل ماتت في نفاسها به، وكانت أم المعتصم اسمها ماردة، وكانت أحظى النساء عند هارون الرشيد، ويظهر أن توفلوس إمبراطور الروم قصد أن يغري بني أمية أمراء الأندلس بغزو الشرق ليشغل بني العباس عن قتاله ويوهن قوتهم.

(٢٦) نقل «رينو» صورة هذا المنشور، وقال: إنه وجد في مجموعة مطبوعة في القاهرة قال: وليس بأكيد أن يكون هو نفس المنشور الذي تلي باسم الأمير هشام، ولكنه على كل حال لا يختلف عنه في المعنى.

(٢٧) عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث.

(٢٨) نقل «رينو» هذا عن تاريخ «موساك» في مجموعة «الدون بوكيه».

(٢٩) Orbieux.

(٣٠) Villedaigne.

(٣١) نقل «رينو» ذلك عن مجموعة مؤرخي فرنسة وعن النويري.

(٣٢) يعنى بالمعاملة التي كانت سنة ١٨٣٦ أي: منذ قرن تقريبًا.

(٣٣) ورد في نفح الطيب أن مِن محاسن الأمير هشام إكمال بناء الجامع بقرطبة وكان أبوه شرع فيه، وأما الغزاة التي ذكرها «رينو» فهي التي يقول عنها في النفح: إن هشامًا بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث في العساكر سنة ١٧٧ إلى أربونة وجيروندة فأثخن فيها ووطئ أرض برطانية، وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم.

(٣٤) استشهد «رينو» هنا بتاريخ للعرب في إسبانية ملحق بجغرافية أبي الفداء التي طبعها «رينك» في «لايبسيك».

(٣٥) جاء في نفح الطيب: أنه تولى بعد هشام ابنه الحكم بعهد منه إليه، فاستكثر من المماليك وارتبط الخيل واستفحل ملكه وباشر الأمور بنفسه، وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتنم العدو الكافر الفرصة في بلاد المسلمين وقصد برشلونة فملكوها سنة خمس وثمانين ومائة وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها، وقال أبو الفداء: ولما اشتغل الحكم بقتال عميه اغتنمت الفرنج الفرصة فقصدوا بلاد الإسلام وأخذوا مدينة برشلونة في سنة ١٨٥.

(٣٦) نقل رينو هذا الخبر عن الدون بوكيه.

(٣٧) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخي بلاد الغال، ولم نعلم أصل الأمير المسلم الذي ذكره وهم يحرفون الأسماء العربية تحريفًا يبعد بها عن الأصل بعدًا كبيرًا بحيث تتنكر على الباحث تمامًا.

(٣٨) جاء في نفح الطيب: وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة جمع لذريق بن قارله ملك الفرنج جموعه وسار لحصار تراكونه فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فهزمه ففتح الله على المسلمين وعاد ظافرًا، ولما كثر عيث الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحي وأثخن في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظاهرًا. انتهى.

قلت: لعل المقري يعني بلذريق بن قارله لويس بن شارلمان.

(٣٩) جاء في معجم البلدان لياقوت: وشقة بُليدة في الأندلس يُنسب إليها طائفة من أهل العلم منهم حديدة بن الغمر له رحلة وإبراهيم بن عجيس بن أسباط بن أسعد بن عدي الزيادي الوشقي كان حافظًا للفقه واختصر المدونة، له رحلة سمع فيها يونس بن عبد الأعلى ومات سنة ٢٧٥ وابنه أحمد سمع من أبيه وتوفي سنة ٣٢٢.

(٤٠) Zaton وهو من جملة تحريف الإفرنج للأعلام العربية، ولا يدرى ما أصل هذا الاسم.

(٤١) مؤرخو الإسلام ينسبون سقوط برشلونة إلى تأثير الفتنة التي أثارها سليمان وعبد الله عمَّا الحكم وشغلته عن إنجاد تلك المدينة كما تقدم من كلام المقري في النفح وكلام أبي الفداء.

(٤٢) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة الدون بوكيه من رواية «أجينار» Eginard.

(٤٣) ذكر رينو هذه الجملة نقلًا عن الدون بوكيه وقال: إن مؤرخي العرب لم يذكروا شيئًا من أخبار هذه العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان، وإنما ذكروا تبادل رسائل بين ببين القصير والمنصور العباسي، وبين لويس الحليم Le Debomiaire وبين المأمون، وأما المسيو بوكڤيل "Pouquevelle" فقد ذهب إلى كون هذه الأخبار كلها غير صحيحة.

(٤٤) Huesca وابن جوقل في المسالك والممالك يسميها وسكة.

(٤٥) سمى العرب المعامل التي كانت تُبنى فيها المراكب البحرية بدور الصناعة، وربما قالوا: الصنعة ومشى كتابهم على هذا الاصطلاح، فترى مؤرخينا يقولون: كانت الصنعة في صور أو أسس الأمير فلان دار الصنعة في تونس، أو كانت صنعة الأندلس بالمرية وما أشبه ذلك، وأخذ الإفرنج جملة «دار صنعة» فلفظوها «دارسنا» بحسب صعوبة إخراجهم لحرف العين كما لا يخفى، ثم قلبوها إلى «آرسنا» وأضافوا إليها حرف اللام المستعمل عندهم في النسبة والمقامات الظرفية فصارت «آرسنال» ثم جاء الترك فحرفوا «دار صناعة» أو «دار صنعة» إلى «ترسانة» فقالوا عن دار الصناعة التي في خليج إستانبول: «ترسانة عامرة».

(٤٦) أو قورسقة.

(٤٧) وقرأت في مدينة جنوة في تاريخ جمهورية جنوة لمؤلفه فريدريشي دونافار أنه في سنة ٩٣٤ جاءت قوة بحرية إسلامية من إفريقية فحصرت جنوة حصارًا شديدًا، لكن الجنويين تمكنوا من دفعها عنهم، فرجعت أدراجها وأصابها ضرر من زوبعة

بحرية، ثم بعد سنتين من تلك الواقعة جاء أسطول إسلامي آخر وهاجم جنوة واشتد القتال فتغلب المسلمون ودخلوا البلدة وأصابوا مغانم كثيرة وأخذوا أسرى كثيرين وقفلوا، وكان أسطول جنوة في كورسيكا فلما جاء ورأى ما حصل بجنوة سار في أثر الأسطول اِلإسلامي فهزمه وفك الأسرى واسترجع الغنائم، وصار الجنويون من ذلك الحين يحصنون بلدتهم.

(٤٨) الذي عرفته في رومة من روايات بعض أدباء الطليان والمطلعين منهم على التواريخ أنه يوجد على مسافة ٤٠ كيلو مترًا من رومة قرية يقال لها: «سراسينشكو» Sarracinesco أصل أهلها من المسلمين كان سلفهم غزاة، وقعوا إلى تلك الأرض وأحاط بهم الأهالي فقتلوا جانبًا واستسلم لهم الباقي وتنصروا وعمروا تلك القرية، ويقال: إن سحنهم لا تزال تدل على أصلهم العربي وأن مآكلهم ومشاربهم وصنعة الغناء عندهم تدل على عروبتهم، وحتى هذا اليوم تراني أترقب الفرصة لمشاهدة تلك القرية والتنقيب عن صحة ما سمعته، وقيل لي: إنه يوجد في ولاية «غالياري» Gagliari من سردانية قرى أصل سكانها من العرب وأنه يوجد آثار عربية في «لوشيرة» بقرب نابلي، ولا يخفى أن الإمبراطور فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا وملك صقلية الذي عاش في أوائل القرن الثالث عشر المسيحي كان عنده جيش من العرب هم عمدة قوته، وكان متقنًا للغة العربية.

(٤٩) نقل رينو ذلك عن مجموعة مؤرخي فرنسة وعن تاريخ كوندي وحتى الآن لم أظفر بهذا الخبر في كتب العرب.

(٥٠) جاء في نفح الطيب في ترجمة الحكم: وكانت له الوقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة؛ لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه، وطالوت الفقيه وغيرهما، فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته، وكانوا بالربض الغربي من قرطبة وكان محلهم متصلًا بقصره، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدوة وبالإسكندرية من أرض المشرق، ونزل بها جمع منهم، ثم ثاروا بها فزحف إليهم عبد الله بن طلحة صاحب مصر للمأمون بن الرشيد وغلبهم وأجازهم إلى جزيرة أقريطش فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة. انتهى.

وقال كوندي عن هذه الواقعة: إن الحكم سار إلى العصاة بنفسه برغم رجاء ابنه

وكبار قواده أن لا يغامر بنفسه وأوقع بالثائرين حتى امتلأت الشوارع بجثث القتلى، ولكن الذين لبثوا داخل البيوت لم يصبهم شيء، وقبض الحكم على ثلاثمائة من الثوار وصلبهم على النهر، ثم أمر بدك حارة الربض كلها بعد أن أمر بنهبها ولكنه أمر بعدم التعرض للنساء، وما زال السيف عاملًا في الثوار إلى اليوم الثالث فعفا عمن بقي منهم في الحياة بشرط أن يخرجوا من قرطبة مع عائلاتهم، فرحل جانب من هؤلاء المساكين إلى طليطلة، وأجاز نحو من ثمانية آلاف إلى بر العدوة حيث تقبلهم إدريس بن إدريس في فاس وبنوا حارة فيها هي مبدأ سكنى الأندلسيين بفاس، وسار منهم خمسة عشر ألفًا إلى الإسكندرية ودخلوا البلدة واستولوا عليها، فلجأ عامل الخليفة المأمون على مصر إلى مصالحتهم وأدى لهم جانبًا من المال على أن يذهبوا ويستعمروا إحدى جزر بحر يونان، فاختاروا أقريطش، وكان المعمور منها قليلًا فنزلوا بها وكان زعيمهم منذ برحوا قرطبة أبو حفص عمر بن شعيب فجعلوه أميرًا عليهم ثم انضم إليهم كثير من المصريين والشاميين والعراقيين، وأخذوا يغزون في البحر ويغنمون ثم كان بناؤهم مدينة «قنديا».

وروى المسيو شينيه chenier أن الذي بنى قنديا هو أحد قواد الأمير عبد الله بن عبد الرحمن وكان اسمه «كندش» Candax.

فإنه بعد موت سيده فارق الأندلس خشية انتقام الحكم منه وقد ذكر كوندي رواة هذه الحادثة الحميدي ومحمد بن هشام وغيرهما، وأما دوزي فقال: إن عدد الذين نزلوا من الربضيين بالإسكندرية كان ١٥ ألفا عدا النساء والأولاد، وكانت أمور مصر يومئذ مختلة فلم يقدر العامل على منعهم من النزول، واتفقوا أولًا مع قبيلة من عرب الضواحي إلى أن تمكنوا، فاقتتلوا مع هؤلاء العرب وهزموهم واستولوا على الإسكندرية، فأرسل الخليفة المأمون جيشًا قاتلهم فقاتلوه وثبتوا إلى سنة ٨٢٦ مسيحية إلا أن عمال الخليفة تغلبوا أخيرًا عليهم فخرجوا إلى جزيرة أقريطش التي كان منها جانبًا تابعًا للقسطنطينية فاستولوا عليها وأسس قائدهم أبو حفص البلوطي — من فحص البلوط — دولة استمرت في أقريطش (أو كريت) إلى سنة ٩٦١ إذ عاد الروم فافتتحوا الجزيرة. أ.هـ

وجاء في الأنسيكلوبيديا الإسلامية باللغة الإفرنسية أن المسلمين احتلوا جزيرة أقريطش سنة ٦٧٣ مسيحية، ولكن المعلومات قليلة عن هذا الدور الأول من احتلالهم، ثم إنه في سنة ٨٢٥ استولى على هذه الجزيرة أبو حفص عمر بن شعيب البلوطي

وذلك على أثر وقعة الربض في قرطبة وإجلاء الحكم الأموي أهل الربض ومجيئهم إلى الإسكندرية، فجاءوا إلى جزيرة أقريطش فافتتحوها كلها ما عدا أرض سفاكيا، وأرسل ملوك بيزنطية مرارًا بالجيوش لطرد المسلمين من هناك فلم يتمكنوا من ذلك وبقيت هذه الإمارة الإسلامية في كريت ١٣٥ سنة ثم بنى المسلمون عند رأس «شاراكس» عاصمة لهم سموها قانديا وصار هذا الاسم عامًّا لأقريطش.

وسنة ٩٦١ جاء القائد البيزنطي نيقوفور فوكاس وحاصر قانديا واستفتحها بعد حصار عدة أشهر واستصفى الجزيرة وأخذ آخر أمراء المسلمين على الجزيرة عبد العزيز أسيرًا، ومات في القسطنطينية، ودخل في خدمة ملك الروم انبه أنماس وفارق الإسلام هذه الجزيرة إذ جلا المسلمون عنها، ومن اختار البقاء تنصر.

أما استيلاء الأتراك العثمانيين على كريت فبدأ سنة ١٦٤٥ وانتهى سنة ١٦٦٧ وبقيت للبنادقة بعض مدن فسقطت في أيدي الترك سنة ١٧١٥. أ.هـ.

وقال ياقوت في معجم البلدان: أقريطش بفتح الهمزة وتكسر، والقاف ساكنة والراء مكسورة وياء ساكنة وطاء مكسورة وشين معجمة اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر إفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى وينسب إليها جماعة من العلماء، قال أحمد بن يحيى بن جابر (يعني البلاذري): غزا جنادة بن أبي أمية الأزدي جزيرة أرواد في سنة ٥٤ في أيام معاوية ثم غزا أقريطش فلما كان في أيام الوليد فتح بعضها ثم أغلق، وغزاها حميد بن معيوف الهمداني في خلافة الرشيد ففتح بعضها، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي فافتتح منها حصنًا واحدًا ونزله ثم لم يزل يفتح شيئًا بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحدًا وخرب حصونهم، وذلك في سنة ٢١٠ في أيام المأمون (هذه رواية البلاذري في «فتوح البلدان» عند ذكر فتح الجزائر البحرية).

وقال غير البلاذري: فُتحت أقريطش في أول أيام المأمون، وقيل فُتحت بعد ٢٥٠ على يد عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ، وكان من أهل قرية بوطروح من عمل فحص البلوط من الأندلس وتوارثها عقبة سنين كثيرة، وقال ابن يونس: كان أول من افتتحها شعيب بن عمر بن عيسى، وكان سمع يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر، ثم ندب لفتحها فسار إليها حتى افتتحها، وكانت من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم إلى أن أناخ عليها نقفور بن الفقاس الدمستق في خلافة المطيع، وتملك أرمانوس بن قسطنطين في آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩ في اثنين وسبعين ألفًا منهم خمسة آلاف

فارس، ولم يزل محاصرًا لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠ فقتل ونهب وسبى، وأخذ صاحبها عبد العزيز بن شعيب من ولد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسي وأمواله وبني عمه، وحمل ذلك كله إلى القسطنطينية، وقيل: إنه حمل إلى القسطنطينية من أموالها وسبى أهلها نحوًا من ثلاثمائة مركب وهدموا حجارة المدينة وألقوها في المينا الذي دخلت مراكبهم فيه، لئلا يدخل فيه بعدهم عدو، وهي إلى الآن بيد الإفرنج، ونسب إليها بعض الرواة منهم محمد بن عيسى أبو بكر الأقريطشي حدَّث بدمشق عن محمد بن قاسم المالكي روى عنه عبد الله بن محمد النسائي المؤدب. قاله أبو القاسم. انتهى

وقال ابن عميرة في بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس: عمر بن شعيب، أبو حفص، المعروف بالغليظ البلوطي من أعمال فحص البلوط المجاور لقرطبة، ذكره أبو محمد بن حزم وقال: إنه كان من عمل الربضيين وأنه الذي غزا أقريطش وافتتحها بعد الثلاثين ومائتين وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ وكان أكثر المفتتحين لها معه أهل الأندلس. هكذا قال. وذكره سعيد بن يونس فقال: شعيب بن عمر بن عيسى أبو عمر صاحب جزيرة أقريطش كان تولى فتحها بعد سنة ٢٢٠، وقد كان كتب شعيب هذا بالعراق، وكتب عن جده يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر أيضًا. هذا آخر كلام ابن يونس، فقد اختلفا في اسمه أولًا فقال أحدهما: عمر بن شعيب. وقال الآخر شعيب بن عمر، ووصفاه بالفتح، ولولا ذلك لقلنا: إن أحدهما ابن الآخر، ويحتمل أن يكونا حضرا الفتح. انتهى.

وجاء في صبح الأعشى أن عبد الله بن أبي سرح أمير مصر كان افتتح أقريطش وبقيت بأيدي المسلمين حتى تغلب عليها النصارى في سنة ٣٤٥.

وقال ابن حوقل: وكانت أقريطش وقبرص للمسلمين وأبناء المجاهدين، فداخل أهلها من الحسد والنكد ما داخل أهل الثغور الجزرية والشامية وأهل ذلك البلد من الفسق والفساد والشح والعناد والغيلة والسفاد فجعلوا عبرة للمعتبرين وموعظة للناظرين، ولا يصلح الله عمل المفسدين ولا يضيع أجر المحسنين.

وقال في محل آخر: وكان للمسلمين في بحر الروم غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة فاستولى العدو عليها مثل قبرس وأقريطش، وكانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمسير والتجارة الوارد منها والصادر عنها، وكانوا يغزون بلاد النصرانية وينكون

فيها النكاية الظاهرة يوجلها لهم قربهم من مطالبهم ومجاورتهم بمساكنهم فصمدت النصارى صمدها ووكدت وكدها إلى أن ملكتها جميعًا، وكانت قبرص على غير ما كانت عليه أقريطش من موافقة كانت بينهم وبين المسلمين فيها، وذلك أنها قسمان، فكانت نصفًا للمسلمين ونصفًا للنصرانية، وكان للمسلمين بها أمير وحاكم، وجزيرة أقريطش حرة مذ كانت فتحت، لم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج إلا على طريق الجهاد أو في حين الهدنة والمسالمة يدخلونها على شرائط بينهم. انتهى

ثم إنه قد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن الخليفة المستعين بالله نفى أحمد بن الخصيب إلى أقريطش سنة ٢٤٨.

ومما يتعلق بجزيرة أقريطش عبارة لابن جبير الأندلسي في كلامه على جزيرة صقلية فقد ذكر أنه صادف رجلًا مسلمًا في مدينة أطرابونش كان قد تحول إلى النصرانية وذكر أنه قد يعرض للمسلمين هناك من الفتنة في دينهم ومن أسباب النكال ما يدعوهم إلى فراق الإسلام، قال: فمنها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء المدينة التي هي حضرة الطاغية، ويُعرف بابن زرعة، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الإسلام والانغماس في دين النصرانية، ومهر في حفظ الإنجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية، وربما طرأ حكم إسلامي فيستفتى أيضًا فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية، وكان له مسجد بإزاء داره أعاده كنيسة نعوذ بالله. ومع ذلك فأعلمنا أنه يكتم إيمانه فلعله داخل تحت الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

قال ابن جبير: ووصل هذه الأيام إلى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين القائد أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر، وهذا الرجل من أهل بيت توارثوا السيادة كابرًا عن كابر، وهو مع ذلك من أهل العمل الصالح كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الأسرى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج فارتجت هذه المدينة لوصوله، وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه أحاديث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين — أيدهم الله — فكادت تقضي عليه لولا حارس المدة، وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفًا على الثلاثين ألف دينار مؤمنية ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي بدون مال، فاتفق في هذه الأيام رضى الطاغية عنه وأمره

إياه بالنفوذ لمهم من أشغاله السلطانية، فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وصدرت عند وصوله إلى هذه البلدة رغبة منه في الاجتماع بنا فاجتمعنا به فأظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة ما يبكي العيون دمًا، فمن ذلك أنه قال كنت أورد لو أُباع أنا وأهل بيتي لعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ويؤدي بنا إلى الحصون في بلاد المسلمين، فتأمل حالًا يؤدي بهذا الرجل مع جلالة قدره إلى أن يتمنى مثل هذا التمني مع كونه مثقلًا عيالًا بنين وبنات، فسألنا الله عز وجل له حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة وفارقناه باكيًا مبكيًا، واستمال نفوسنا لشرف منزعه وخصوصية شمائله وكنا أبصرنا له ولأخوته بالمدينة ديارًا كأنها القصور المشيدة، وشأنهم بالجملة كبير، وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعه بها ويجازيه الجزاء الأوفى.

قال ابن جبير: ومن أعظم ما مني به أهل هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه إلى التطارح في الكنيسة، فينتصر ويتعمد، فلا يجد الأب للابن سبيلًا ولا الأم للبنت سبيلًا، فتخيل حال من مني بمثل هذا في أهله وولده يقطع عمره متوقعًا لوقوع هذه الفتنة فيهم وأهل النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة أقريطش في المدة السالفة، فإنه لم تزل بهم الملكة الطاغية بالاستدراج الشيء بعد الشيء، حالًا بعد حال حتى اضطروا إلى التنصر عن آخرهم، وفر منهم من قضى الله بنجاته.

قال: ومن عظم هذا الرجل الحمودي المذكور، في نفوس النصارى، أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقي في صقلية مسلم. قال: ومن أعجب ما شهدناه من أحوالهم التي تذيب القلوب رأفة وحنانًا أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه إلى أحد أصحابنا الحجاج راغبًا في أن يقبل منه بنتا بكرًا صغيرة السن قد راهقت الإدراك فإن رضيها تزوجها وإن لم يرضها زوجها ممن يرضاه من أهل بلده؛ وذلك طمعًا في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين، وطال عجبنا من حال تؤدي السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة وإسلامها إلى يد من يغربها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق إليها، كما أنا استغربنا حال الصبية ورضاها بفراق أهلها رغبة في الإسلام واستمساكًا بعروته الوثقى، وكان استشارها الأب في ما همَّ به فقالت: إن أمسكتني فأنت مسؤول

عني. انتى باختصار.

وقد أوردنا هذه الأماثيل ليعلم القارئي كيفية تلاشي الإسلام من أقريطش وصقلية وغيرهما من جزائر البحر المتوسط وبعد ذلك من الأندلس، وذلك بعد فقد المسلمين استقلالهم وسلطانهم السياسي، والدين لا يمكن حفظه بلا دنيا كما قلنا ذلك مرارًا.

(٥١) أشار رينو إلى هذا الخبر نقلًا عن المقري، وقد راجعنا كلام المقري في النفح، فرأيناه يقول: إنه في سنة سبع وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة وانتهوا إلى أرض برطانية، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه، وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود.

(٥٢) جاء في فتوح البلدان للبلاذري تحت عنوان «فتح جزائر في البحر» ما يلي:

قالوا: غزا معاوية بن حديج الكندي أيام معاوية بن أبي سفيان صقلية، وكان أول من غزاها، ولم تزل تغزى بعد ذلك فقد فتح آل الأغلب بن سالم الإغريقي منها نيفًا وعشرين مدينة، وهي في أيدي المسلمين (أي في القرن الثالث للهجرة) وفتح أحمد بن محمد بن الأغلب منها في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله قصريانة وحصن غليانة. وقال الواقدي: سبى عبد الله بن قيس بن مخلد الدرقي صقلية فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجوهر فبعث بها إلى معاوية فوجه بها معاوية إلى البصرة لتحمل إلى الهند فتباع هناك ليثمن بها. قالوا: وكان معاوية بن أبي سفيان يغزي برًّا وبحرًا فبعث جنادة بن أبي أمية الأزدي إلى رودس، وجنادة أحد من روي عنه الحديث، ولقي أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ومات في سنة ٨٠ ففتح رودس عنوة وكانت غيضة في البحر وأمره معاوية فأنزلها قومًا من المسلمين وكان ذلك في سنة ٥٢.

قالوا: ورودس من أخصب الجزائر وهي نحو من ستين ميلًا فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة. قال البلاذري: وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي وغيره قالوا: أقام المسلمون برودس سبع سنين في حصن اتخذ لهم، فلما مات معاوية كتب يزيد إلى جنادة يأمره بهدم الحصن وبالقفل، وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها وكان مجاهد بن جبر مقيمًا بها يُقرئ الناس القرآن، وفتح جنادة بن أبي أمية في سنة ٥٤ أرواد وأسكنها معاوية المسلمين وكان ممن فتحها مجاهد، وتبيع ابن امرأة كعب الأحبار وبها أقرأ مجاهد تبيعًا القرآن. ويقال: إنه أقرأه القرآن برودس. وأرواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية (إن جزيرة أرواد هي قبالة طرطوس بالقرب من طرابلس الشام فإما أن

يكون وقع خطأ من البلاذري في تعيين موقع أرواد وإما أن يكون المقصود بأرواد هذه جزيرة أخرى في الأرخبيل الرومي كان العرب يسمونها أرواد) وغزا جنادة أقريطش فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق وغزاها حميد بن معيوف الهمداني في خلافة الرشيد ففتح بعضها، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي وافتتح منها حصنًا واحدًا ونزله ثم لم يزل يفتح شيئًا بعد شيء حتى لم يبقَ فيها من الروم أحد وأخرب حصونهم. انتهى. وهذه الرواية قد تقدمت بحرفها.

ثم قال البلادزي: وبالمغرب أرض تُعرف بالأرض الكبيرة وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يومًا أو أقل من ذلك قليلًا أو أكثر قليلًا، وبها مدينة على شاطئ البحر تدعى باره، وكان أهلها نصارى وليس بروم غزاها جبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها ثم غزاها خلفون البربري، ويقال: إنه مولى لربيعة ففتحها في أول خلافة المتوكل على الله وقام بعده رجل يقال له: المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصنًا واستولى عليها وكتب إلى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وأنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام على ناحيته ويوليه إياها ليخرج من حد المتغلبين وبنى مسجدًا جامعًا، ثم إن أصحابه شغبوا عليه فقتلوه، وقام بعده سوران فوجه رسوله إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقدًا وكتاب ولاية، فتوفي قبل أن ينصرف رسوله إليه، وتوفي المنتصر بالله وكانت خلافته ستة أشهر، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب، وهو (أوتامش) مولى أمير المؤمنين، بأن يعقد له على ناحيته فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولي الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين، فعقد له وأنفذه. انتهى.

قلت: إن الأرض الكبيرة هذه هي أرض إيطالية التي تقابل صقلية، ومدينة باره التي ذكرها البلاذري هي قاعدة مقاطعة اسمها باره وهي على بحر الأدرياتيك والطليان يقولون لها: باري Bari.

وجاء في تاريخ ابن الأثير في الجزء السابع في حوادث سنة ٢٢٨ ما ملخصه: أن الفضل بن جعفر الهمداني سار في البحر فنزل مرسى مسيني وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن إليه أهل نابل وسنة ٢٢٩ خرج أبو الأغلب العباس بن الفضل في سرية فبلغ مدينة «شره» فقاتله أهلها قتالًا شديدًا، ولكنهم انهزموا وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف، وفي سنة ٢٣٢ ضيق الفضل بن جعفر الهمداني على مدينة مسيني

وأكمن لهم في بعض الوقائع، فوقعوا في الكمين ولم ينجُ منهم إلا القليل، فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وسلموا المدينة إلى المسلمين، وفي تلك السنة أقام المسلمون بمدينة طارنط من أرض أنكبردة وسكنوها وسنة ٢٣٤ استولى المسلمون على مدينة راغوس وهدموها وأخذوا منها ما أمكن حمله وسنة ٢٣٥ غزا المسلمون مدينة قصريانة.

وكان الأمير على صقلية محمد بن عبد الله بن أغلب وكان مقيمًا بمدينة بلارم لا يخرج منها إلا للغزو وتوفي سنة ٢٣٦، وكانت إمارته تسع عشرة سنة، ثم ذكر ابن الأثير فتح قصريانة بعد ذلك، وقال: إنه سنة ٢٤٤ فتح المسلمون قصريانة على يد العباس بن الفضل بن يعقوب الذي تولى إمارة صقلية بعد محمد بن عبد الله بن الأغلب المتوفى سنة ٢٣٦، وأن العباس هذا كان غزا نواحي قصريانة ونهب وأحرق ليخرج إليه البطريق فلم يفعل، وأنه سنة ٢٣٨ خرج العباس في جمع عظيم وأتى قطانية وسرقوسة ونويطس وراغوس فغنم من جميع هذه البلاد وفي سنة ٢٤٢ سار العباس في جيش كثيف ففتح حصونًا جمة، وسنة ثلاث وأربعين نزل على القصر الجديد وحصره وما زال يضيق عليه حتى تسلمه وأنه في سنة ٢٤٤ أرسل جيشًا في البحر فلقيهم أربعون شلنديًا للروم فاقتتلوا أشد قتال فانهزم الروم وأخذ منهم المسلمون عشرة شلنديات برجالها ثم غزا العباس قصريانة ووقع في يده رجل من هناك دله على أماكن من سور المدينة دخل منها ووضع السيف في الروم ففتحوا الأبواب وتسلم البلدة، وغنم منها ما يفوق الوصف وكان ملك القسطنطينية أرسل ثلاثمائة شلندي ملأى بالعساكر فوصلت إلى سرقوسة (سيراكوزا Syracusa) فخرج إليهم العباس وقاتلهم فهزمهم وغنم منهم مائة شلندي.

قال: وفي سنة ٢٤٦ نكث كثير من قلاع صقلية وهي سطروابلة وأبلاطونو وقلعة عبد المؤمن وقلعة البلوط وقلعة أبي ثور فخرج العباس إليهم فاقتتل مع الروم فانهزم الروم ثم سار إلى قلعة عبد المؤمن، وقلعة بلاطونو فحصرهما فجاءه الخبر بأن كثيرًا من عساكر الروم قد وصلت فزحف إليهم، فتلاقوا بجفلودي، وجرى بين الفريقين قتال شديد فانهزمت الروم وعادوا إلى سرقوسة، وسنة ٢٤٧ سار العباس إلى سرقوسة، ثم إلى غيران قرقنة، فاعتل ذلك اليوم، ومات بعد ثلاثة أيام ثالث جمادى الآخرة فدُفن هناك فنبشه الروم وأحرقوا جسده وكانت ولايته إحدى عشرة سنة، وأدام الجهاد شتاء وصيفًا وغزا أرض قلورية وانكبردة وأسكنها المسلمين. انتهى.

قلت: إن مدينة طارنت التي مر ذكرها هي في الأرض الكبيرة في مقاطعة أوثرانتة

وأن أرض قلورية التي يشير إليها ابن الأثير وانكبردة هما الآن كالبرة Calabra وقد جاء ذكرها في معجم البلدان لياقوت قال: قلورية بكسر أوله وتشديد اللام وفتحه وسكون الواو وكسر الراء والياء مفتوحة خفيفة وهي جزيرة في شرقي صقلية (العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة) وأهلها إفرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة ينسب إليها فيما أحسب أبو العباس الفلوري روى عن أبي إسحاق الحضرمي وغيره وحدث عنه أبو داود في سننه، ومن مدن هذه الجزيرة قبوة ثم بيش ثم تامل ثم ملف ثم سلورى، قال ابن حوقل: وهي جزيرة داخلة في البحر مستطيلة أولها طرف جبل الجلالقة وبلادها التي على الساحل قسانة وستانة وقطرونية وسبرسة واسلوحراحة وبطرقوقة وبوه، ثم بعد ذلك على الساحل جون البنادقيين وفيه جزائر كثيرة مسكونة وأمم كالشاغرة وألسنة مختلفة بين إفرنجيين وألمانيين وصقالبة وبرجان وغير ذلك، ثم أرض بلبونس واغلة في البحر شكلها شكل قرعة مستطيلة (قلت: يريد بلبونس Péloponése وهي شبه جزيرة المورة، وكان العرب يقولون لكلانرة قلفرة أيضًا).

قال المسعودي في مروج الذهب عند ذكرامة النوبرد ويريد بهم اللومبرديين: إن المسلمين ممن جاورهم كانوا غلبوهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة باره وطارينتو ثم قال: إن مدينة طارينتو ومدينة سيرين وغيرهما من مدنهم الكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان، ثم إن النوبرد أنابوا ورجعوا على من كان في تلك المدن من المسلمين فأخرجوهم عنها بعد حرب طويل، وما ذكرنا من المدن في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة في أيدي النوبرد. انتهى.

ومن هذا كله يُعرف أن المسلمين لم يقتصروا على فتح جزيرة صقلية، بل تجاوزوها إلى الأرض الكبيرة ولبثوا فيها زمنًا طويلًا إلى أيام فريدريك الثاني إمبراطور ألمانية وملك صقلية الذي عاش في أوائل القرن الثالث عشر للمسيح، وكان قد اتخذ جيشًا من المسلمين وكان يعرف العربية معرفة جيدة. انتهى.

وقال الأستاذ الشيخ محمد الخانجي البوسنوي من مدرسي المعهد العلمي الخسروي في مدينة سراي بوسنة في مقدمة كتابه «الجوهر الأسنى في تراجم علماء بوسنة» فُتحت جزيرة صقلية بتمامها سنة ٢١٣ على يد قاضي القيروان عالم زمانه أسد بن الفرات صاحب المدونة الأسدية وكان رجلًا صالحًا فقيها أدرك مالك بن أنس ورحل إليه، فبقيت صقلية بأيدي المسلمين مدة واهتدى أهلها فصاروا مسلمين وبنوا بها الجوامع حتى أنه كان في مدينة واحدة من مدنها وهي «بلرم» نيف وثلاثمائة مسجد، قال ابن

حوقل: رأيت في بعض الشوارع من بلرم على مقدار رمية سهم عشرة مساجد، ودام مُلك المسلمين لصقلية إلى سنة ٤٦٤، وبعد زوال ملكهم منها بقي فيها الإسلام مدة مديدة، وقد ظهر من صقلية من أهل العلم عدد كثير تراجمهم موجودة، وكان الإسلام جاوز البحر من صقلية إلى أرض قلورية من بلاد إيتاليا واستولى المسلمون على عدة بلاد منها كريو وباره وطارنت وكانوا قرعوا أبواب رومية مقر البابا رئيس النصرانية، وبنى بمدينة «ريو» أبو الغنائم الحسن بن علي بن الحسين الكلبي مسجدًا كبيرًا في وسطها وذلك سنة ٣٤٠ وكل هذه البلاد التي ذكرناها خلت بمرور الزمان من الإسلام والمسلمين وعفت فيها آثارهم واندرست معالمهم ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾. انتهى.

وقد مر ابن جبير الأندلسي بجزيرة صقلية وهو قافل من الحج سنة ٥٦٠، وكانت خرجت من ملك الإسلام، ولكن كان المسلمون لا يزالون يسكنون فيها، قال ابن جبير: خصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفه مشحونة بالأرزاق على اختلافها مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها، لكنها معمورة بعبدة الصلبان يمشون في مناكبها ويرتعون في أكنافها والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم قد أحسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم ضربوا عليهم إتاوة في فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها والله عز وجل يصلح أحوالهم ويجعل العقبى الجميلة مآلهم. قال: وليس في مسيني إلا نفر يسير من ذوي المهن وذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب، وأحسن مدتها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلرمة وفيها سكن الحضرميين من المسلمين ولهم فيها المساجد وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها لكن المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفلها.

وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وكلهم أو أكثرهم متمسك بشريعة الإسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله حتى أن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم، ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته (الحمد لله حق حمده) وكانت علامة أبيه (الحمد لله شكرًا لأنعمه).

وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن، ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى بن فتيان الطرَّاز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الإفرنجية من

النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجواري المذكورات، وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك، فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكرًا لله ولرسوله من نسائه وفتياته وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكر كل أحد منكم معبوده.

وأما فتيانه الذين هم عيون دولته فهم مسلون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعًا ويتصدق تقربًا إلى الله ويفتك الأسرى ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم، وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم بعد تقدمة رغبة منه إلينا في ذلك فاحتفل في كرامتنا وبرنا وأخرج إلينا عن سره المكنون بعد مراقبة منه في مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقًا واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة، وقال لنا: أنتم مدلون بإظهار الإسلام فائزون بما قصدتم له ونحن كاتمون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرًّا فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج والاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لنتخذها عدة للإيمان وذخيرة للأكفان فتعطرت قلوبنا له إشفاقًا ودعونا له بحسن الخاتمة.

(٥٣) جاء ذلك في مجموعة البولنديين، وفي تاريخ مدينة نيس للمسيو لويس دورنت، وفي مخطوط لمؤلف اسمه أغيو فريدو محفوظ في مكتبة تورينو.

(٥٤) إن الكنيسة جعلت بهارفكتس هذا قديسًا وله عيد كل سنة في ١٨ أبريل.

(٥٥) سنذكر هذه الحوادث ونستوفي هذا الموضوع في الأجزاء التالية؛ إذ ليس له تعلق بما نحن بصدده الآن، وإنما ذكرنا ما قاله رينو بطريق الاستطراد؛ لأن فيه شيئًا مما يتعلق بملك فرنسة في علاقاته مع ملك الأندلس.

الفصل الثالث

نزول العرب في بروفانس وغاراتهم من هناك على سافواي وبييمونت وسويسرة إلى دور إجلائهم عن فرنسة

قال رينو: إن الدور الأخير الذي سنتكلم عنه يشابه الدور الذي نقدمه في شدة المهاجمات وفي آثار السلب والعيث، جد المشابهة، وإنما الفرق هو في كون الحوادث السابقة لم تصب إلا سواحل فرنسة خاصة، على حين أن الحوادث التي نحن بسبيلها الآن ستمتد إلى بلاد دوفيني، إلى حدود ألمانية، وأن الحوادث السابقة كانت عبور سبيل، على حين أن هذه كانت راجعة إلى مركز ثابت مستقر، وكانت تُنذر بأن تستمر.

وقد بدأ هذا الدور في سنة ٨٨٩ إذ كان متوليًا على بروفنس ودوفيني رجل يقال له بوزون Boson وقد سمي نفسه ملك أرل، ولما كان بوزون المذكور غير منتسب إلى بيت شارلمان الإمبراطوري ثقلت إمارته على الناس، وشملهم القنوط، فكان المكان والزمان مساعدين على نزول غزاة العرب في تلك الديار.

وإليك تحرير خبر نزولهم واستقرارهم في بروفنس بحسب تاريخ ليوتبراند Liutprand في مجموعة موراتوري وبحسب تاريخ دير نوفاليز Novalese وبحسب مجموعة الدون بوكيه وتاريخ بروفنس تأليف بوش Bouche قالوا:

إن عشرين ملَّاحًا عربيًّا ركبوا مركبًا خفيف القلع من سواحل إسبانية، قاصدين سواحل بروفنس، فأخذتهم الريح العاصفة وألقت بهم في خليج غريمو Grimad الذي يقال له أيضًا: خليج سانتروبيز Sant-Tropes فصعدوا إلى البر، لم يبصرهم أحد، وكان حول هذا الخليج أجمة أشبة بلغ من اشتباك سرحها أن الإنسان لم يكن يجرؤ أن يدخل فيها، وإلى الشمال من الخليج كانت سلسلة جبال، بعضها أعلى من بعض،

فإذا وصل الإنسان إلى قمتها أشرف على قسم كبير من بروفنس السفلي، فأغار العرب على أقرب قرية من البحر وذبحوا أهلها، وأخذوا يرودون في الجوار، ولما وصلوا إلى القمم التي كانت تشرف من جهة على البحر وتناوح من جهة أخرى جبال الألب، فهموا حالًا ملاءمة هذا المكان لاستقرارهم فيه، بصورة دائمة، فالبحر كان لهم بابًا لتلقي الإمدادات التي قد يحتاجون إليها في بعض الأحيان، والبر كان لهم منفذًا إلى النواحي التي يرومون الغارة عليها، والغابة المشتبكة التي ذكرناها تصلح لهم معقلًا يلجأون إليه عند الاضطرار.

فلم يطأ هؤلاء القرصان تلك الأرض حتى أرسلوا إلى إسبانية وإفريقية، يستمدون من إخوانهم الانضمام إليهم، وبدأوا هم بالعمل في مكانهم، فما مضت عدة سنوات حتى امتلأت تلك الأرض بالحصون والمعاقل، وكان أهم تلك الحصون المسمى فركسيناتوم Fraxinetum[1] الذي يشتق من اسم شجر الدردار الكثير في تلك الجهات. والمظنون أن فركسيناتوم كانت في القرية الحاضرة التي يقال لها: غاردفرينه Garde-Frainet الواقعة في ذيل الجبل إلى جهة الألب، ومما لا جدال فيه أن مركز هذه القرية كان بغاية الأهمية؛ لأنها الطريق الوحيد من الخليج إلى الشمال، وإلى الآن يجد الناس في أعلى الجبل آثار خراب وبقايا عمران: جدرانًا متهدمة، وبنيانًا منحوتًا في الصخر وبئرًا منحوتة في الصخر أيضًا.

ولم يبقَ شيء من شجر الدردار إلى هذا الوقت، ولكن المسيو جرمون Germond كاتب العدل الحالي في سانتروبيز الذي بحث بحثًا دقيقًا في هذه المسألة يظن أنه كان توجد غابة دردار في قعر الخليج على شاطئ البحر، وأنه كان توجد قرية رومانية اسمها فركسينيتو احتلها العرب ثم هدموها، واختاروا قمة من الجبل لإنشاء معقل لهم سموه فركسينيت Fraxinet ومن رأي المسيو جرمون أن ذلك المعقل كان أشبه بمخفر يقصدون منه الإشراف على سهول بروفنس السفلى، وذلك لأن المكان لا يزيد محيطه على ثلاثمائة قدم ولا يتسع لأكثر من مائة رجل لا غير. ويظن المسيو جرمون أن المعقل الأصلي الذي كان العرب يعولون عليه هو على نصف فرسخ من هناك، بقرب البحر، فوق جبل يقال له اليوم: «سيدة ميرمار» Notre Dame de Miremar حيث توجد آثار مهمة وخنادق عميقة. وأما المسيو بوش صاحب تاريخ بروفنس فيظن أن العرب قد أطلقوا اسم فركسينيت على حصون كثيرة شادوها في دوفيني وسافواي وبييمونت، وإننا نرى رأي بوش هذا صوابًا لكثرة وجود هذا الاسم في هذه النواحي.

ولما انتهى العرب من بناء حصنهم بدأوا بشن الغارات في النواحي القريبة منهم وصادف ذلك تلك المحاربات الداخلية التي كان حاميًا وطيسها بين زعماء البلاد فصارت كل فئة تجتهد أن تجذبهم إلى نفسها، ثم عندما نمت شوكتهم عدُّوا أنفسهم سادة لتلك الأرض واستولى الرعب على قلوب الجميع من عاديتهم وأصبح لا يرتفع في وجههم رأس ولا ترتقي إلى مصارعتهم همة، ومن جملة الأدلة على ذلك أنه وجدت في قبر القديسة مادلينه في فيزلاي Vezelay من بورغونية كتابة تفيد أن جسد القديسة نُقِل من مدينة إكس في بروفنس إلى هناك، خوفًا من العرب. وكان وجود هذه الكتابة قد انكشف سنة ١٢٧٩. راجع في ذلك تاريخ هينو Hainut تأليف جاك دوغويز DeGuyse وتاريخ بروفنس تأليف بوش.

وكان العرب يتقدمون يومًا فيومًا نحو جبال الألب تعلقًا وتسلقًا حتى وقفوا في أعلاها، وكانت مملكة آرل خاضعة للويس بن بوزون المتقدم الذكر، وكان لويس هذا سار بجيش إلى إيطالية لمقاتلة بيرانجة ملك لونباردية فترك بلاده بدون حامية تقريبًا وصارت ثغوره عورة وكان النرمنديون يعيثون في قلب فرنسة وكادوا إحدى المرار يستولون على باريز، وجاءت فرقة من البرابرة الوثنيين من الشرق وهم المجر فعاثت وخربت جانبًا من ألمانية ثم من إيطالية وأوشكت أن تدخل إلى فرنسة.

وفي سنة ٩٠٦ اجتاز العرب مضايق دوفيني Dauphiné وقطعوا جبل سنيس Mont Cenis حتى انتهوا إلى دير نوفاليز على حدود بييمونت، في وادي سوزة. وكان رهبان الدير قد تمكنوا من الفرار إلى مدينة توزينو ومعهم ذخائر القديسين وما في الدير من أشياء ثمينة، ومن جملتها خزانة كتب نفيسة، فلما وصل العرب لم يجدوا في الدير إلا راهبين بقيا كحراس فيه، فنهب العرب الدير والقرية، وأحرقوا الكنائس.

جاء ذلك في تاريخ دير نوفاليز الوارد في مجموعة موراثوري: وفيه أنه كانت هناك كنيسة صغيرة باسم القديس هلدراد Heldrad من رجال أوائل القرن التاسع فأحرقوها وفر كثير من الأهالي إلى الجبال بين سوزة وبريانسون Briançon واعتصموا بدير أولكس Oulx فاقتص العرب آثارهم وقتلوا منهم عددًا كبيرًا حتى سمي ذلك المكان بساحة الشهداء (راجع مجموعة دير أولكس التي نشرها ريفانتلا في تورينو سنة ٧٥٣) وكان الأهالي قد اجتمعوا وثاروا بالعرب، وقبضوا على أناس منهم وساقوهم إلى تورينو، واعتقلوهم في دير القديس أندراوس. ولكن هؤلاء الأسرى حطموا الأصفاد التي كانوا مقيدين بها وأحرقوا الدير وأفلتوا وكادوا يحرقون جانبًا من المدينة، ثم

إن العرب قطعوا المواصلات بين فرنسة وإيطالية، واحتلوا جميع مضايق جبال الألب، فصار مرور الناس عائدًا إلى أذنهم. وسنة ٩١١ كان رئيس أساقفة أربونة يريد السفر إلى رومة لمهم مستعجل فلم يقدر على السفر خوفًا من العرب، وكانوا لا يسمحون لأحد أن يمر بدون أن يأخذوا منه رسمًا معلومًا، ثم شرعوا يشنون الغارات على سهول بييمونت ومونفرات Montferrat. وفي سنة ٩٠٨ نزل بعض قرصان العرب في سواحل لنغدوق بقرب أيغمورط ونهبوا دير الترتيل الذي كانوا هدموه في زمان شارل مارتل ثم أعيد بناؤه.

وكان صعد على عرش قرطبة سنة ٩١٢ عبد الرحمن الثالث الملقب بالكبير والذى تولى الملك خمسين سنة وجمع تحت حكمه بلاد الأندلس قاطبة، وكان من أيمن ملوك الدهر نقية. أوصل الأندلس إلى أعلى ذرى الهناء والسعادة والمجد، وهو أول من تلقب من أمرائها بالخليفة أمير المؤمنين.

وكان حنشو غرسية ملك نابار وأوردونة ملك ليون تحالفا مع ابن حفصون الثائر على المسلمين، وبالاتحاد مع مقاتلة الفرنسيس وقفوا في وجه جيوش عبد الرحمن، إلا أن عبد الرحمن سنة ٩٢٠ أرسل عمه المسمى أيضًا عبد الرحمن، والملقب بالمظفر، فهزم جيوش الأعداء وقطع جبال البيرانه واكتسح جانبًا عظيمًا من غشقونية ووصل إلى أبواب مدينة طلوزة ثم أصيب في رجوعه بفشل؛ إذ هجم عليه غرسية بن حنشو أو سانجه كما يقول العرب واسترجع منه جميع الغنائم التي غنمها.[٢]

فامتد الصريخ في بروفنس ودوفيني وبلاد الألب، من أعمال غزاة العرب، وحاول بعضهم أن يقاوموهم بالسلاح فهلكوا لعدم اجتماع كلمتهم، وكانت مرسيلية أيضًا قد نالها عيثهم، وخرب العرب كنيستها العظمى، وكذلك أغاروا على إكس، وروى بوش في تاريخ بروفنس وغويز في تاريخ هيبو أن العرب سلخوا جلود بعض من وقعوا في أيديهم أحياء،[٣] وفر مطران اسمه «أودول ريكوس» إلى مدينة «رنس» في الشمال، وكان العرب يسبون نساء البلاد ويبنون بهن بما نشر سلالتهم فيها، ولا شك أنه قد انضم إليهم أناس من أبناء البلاد ممن لا يبالون على أي جنبيه وقع الأمر.

وبلغ من شدة الذعر أن الأغنياء صاروا يجلون إلى جهة الشمال فرارًا من بطش العرب وجاء في سيرة القديس ميول Mayeul في مجموعة البولنديين أن القديس الذي كان أهله أغنياء من أبنيون فر من وجه العرب إلى برغونية، وأحرق العرب كنائس سيسترون Sisteron وغاب Gap وقتلوا في أنبرون Enbrun القديس بنديكتوس رئيس

الأساقفة ومطرانًا آخر معه، وجاء في تاريخ خطط الألب العليا تأليف المسيو لادوسيت Ladoucete خبر ثلاثة أبراج محصنة في أنبرون كان العرب نزلوا بها وبواسطتها ملأوا تلك الناحية خوفًا، وكان القديس ليبرال قد انتخب خلفًا للقديس بندكتس فأراد أن يدخل أنبرون ولكنه لم يجرؤ على ذلك بسبب وجود العرب هناك ورجع من حيث أتى.

وكان من عادة أهالي فرنسة وإسبانية وإنكلترا أن يذهبوا إلى رومة، ولو مرة في العمر، لزيارة قبور الرسل، ولم يكن بد من علاقات الأساقفة والقسيسين برومة كما لا يخفى، ولكن معابر الألب صارت كلها إلى أيدي العرب، وصار هؤلاء يعتدون على السابلين، وبرغم أن الناس كانت تجتمع قوافل وتسير بالأسلحة لم تكن تمضي سنة بدون أن تحصل في تلك المعابر وقائع دموية حسبما جاء في مجموعة مؤرخي فرنسة.

وفي تلك الأيام وصل المجار إلى فرنسة، وملأوا البلاد عيثًا وتدميرًا، ورأى الأهالي فيهم تصديق نبوة حزقيال عن يأجوج ومأجوج، ولما كانت سنة الألف للمسيح ظن الناس أنها قد أزفت الساعة، وسأل مطران فردن Verdin أحد القسيسين عن صحة هذه المسألة وهل المجار هم يأجوج ومأجوج أم لا؟ فطمأن القسيس خاطر المطران قائلًا له: إن من أشراط الساعة أن يأتي يأجوج ومأجوج ومعهم شعوب أخرى، والحال أن المجار جاءوا وحدهم، فلا تنطبق هذه النبوة عليهم، على أنه من المحقق أنهم في العيث والتدمير بذوا الأولين والآخرين.

ثم إن بلاد بييمونت ومونفرات كانت ميدانًا لغارات العرب، روى مؤرخ دير نوفاليزه أن أحد أعمامه، وكان من قواد الجند، ذهب من «موين» إلى «فارسل» فداهمته عصابة عربية في إحدى الحراج بقرب البلدة فتقاتل الفريقان وجُرح عدد منهما ووقع بعض المسيحيين أسرى فأخلى العرب سبيل بعضهم واستبقوا القادرين منهم على الفدية، وبقي عم الراوي وخادمه في أيديهم، وكان والد الأسير المذكور مارًّا من هناك فعلم بالخبر والتزم أن يجول في المدينة وأن يقترض مبلغًا من المال ليفك به ابنه مع خادمه، وروى هذا المؤرخ أن العرب كانوا وصلوا إلى حدود ليغورية (على خليج جنوة) وذكر المؤرخ الشهير ليوتبراند[٤] الذي عاش في الثلث الأول من القرن العاشر أن العرب أغاروا على مدينة آكي Aqui إحدى مدن مونتفرات المشهورة بحماماتها المدنية ولكنهم انهزموا في تلك الواقعة، ويقول المؤرخ نفسه: إن بعض قرصان العرب دخلوا مدينة جنوة وقتلوا ونهبوا وسبوا كثيرًا من النساء والأولاد.

وكان الأساقفة الذين فروا من وجه العرب في بروفنس والرهبان وغيرهم قد لجأوا إلى بلاد فاليه Valais من سويسرا فجاء العرب ودخلوا هذا الوادي واكتسحوه.

وكان هناك دير على اسم الشهيد القديس موريس[٥] كان الإمبراطور شارلمان وغيره من الملوك أولوه مزيد العناية فجعله العرب دكًّا، على ما في تاريخ غالية كرستيانية Gallia Christiana وذهب بعض المؤرخين إلى أن المسلمين كانوا هدموا هذا الدير سنة ٩٠٠.

وجاء في مجموعة الدون بوكيه أن العرب استولوا على ناحية تارنتيس وأن قافلة كانت ذاهبة من فرنسة إلى إيطالية، فوقعت في يدهم واضطرت إلى الرجوع بعد أن قُتل عدد منها.

ولما استولى العرب على فاليه تقدموا إلى أواسط كورة غريزون[٦] وكان هناك دير شهير اسمه دير دي زانتيس Disentis بناه أحد تلاميذ القديس كولومبان فنهبه العرب وجردوه من كل حلاه، وكذلك فعلوا بكنيسة «كوار». روى ذلك المؤرخ أشبريخر Sprecher. وقيل: إن المطران فالدو Wualdo شكا سنة ٩٤٠ من غارات العرب المتواصلة وأن آثار تلك الغارات كانت باقية إلى سنة ٩٥٢ وأن الإمبراطور أوتون أقطع المطران المذكور أملاكًا على سبيل التعويض بموجب مرسوم مؤرخ في سنة ٩٥٦، ورد ذلك في مجموعة تاريخية ألمانية طُبعت في كوار، وكانت سويسرة يومئذ تابعة لمملكة بورغونية.

وكانت الحرب في تلك الأيام مشتعلة بين ملوك أشتورية ونابارة من جهة، وخليفة قرطبة من جهة أخرى، وتواقف الفريقان عند زمورة، فانهزم المسلمون في تلك الواقعة وقُتل منهم نحو من مائة ألف[٧] ولكن عبد الرحمن الناصر كان يقدر أن يجمع جميع قوى المسلمين في الأندلس فلم تكن هزيمة كهذه لتكسر من شوكته، وكان في استطاعته وقتئذ أن يفحش النكاية بالمسيحيين لولا اشتغاله بالفتوحات في إفريقية ولولا ظهور الدولة الفاطمية التي أخذت تجاذب الدولة الأموية الحبل، فكان هذا من حسن حظ المسيحيين.

وكانت مدينة فريجوس في مقاطعة الفار بلدة عامرة ومرسى عظيمًا للسفن، فأغار عليها العرب واجتاحوها اجتياحًا شديدًا حتى لاذ أهلها بالفرار وتركها كجوف حمار، وأخذ المسيحيون الذين في السواحل كلها ينسحبون إلى الجبال، وكان في ذلك الوقت الكنت هوغ Hugues ملكًا على بروفنس، فأعلن عزمه على طرد المسلمين من تلك الأطراف، ولما كان أهم معقل لهم هناك هو حصن فراسينت الذي منه كانت تنبعث غاراتهم إلى داخل البلاد، أجمع هوغ أن يهاجم هذا الحصن، ولما كان مصاهرًا

لإمبراطور القسطنطينية أرسل إليه يطلب منه إنجاده بأسطوله، وكان الروم يملكون نفاطات يقال لها: النار الإغريقية، فكانت تحرق المراكب بمجرد ما تصيبها، ففي سنة ٩٤٢ زحف هوغ على حصن فركسينت بجيش جرار من البر. وجاء الأسطول الرومي من البحر فأحرق مراكب العرب التي في الخليج، كما أن جيش هوغ تمكن من الحصن والتجأ العرب إلى الجبال المجاورة، ولكن جاء الخبر إلى هوغ وهو في هذه الحرب مع العرب بأن بيرانجة Berenger الذي كان ينازعه مملكة إيطالية، وكان قد فر إلى ألمانية، رجع إلى إيطالية يحاول أن يتنسم ريح الدولة ثانية فنسي هوغ الخطر الواقع على بلاده من العرب وأسرع إلى مهادنتهم بشرط أن يقطعوا الطريق في معبر سان برنار وسائر معابر الألب على بيرانجة. روى ذلك المؤرخ ليوتبراند الذي بهذه المناسبة أفحش الطعن في هوغ وقال: إنه جاء بها صلعاء لا سبيل للعذر فيها، وبلغ من حدته أنه أخذ يخاطب معبر سان برنار فيقول له شعرًا معناه: إنك تسهل هلاك الأتقياء وتجعل نفسك حصنًا واقيًا للطغاة الذين يقال لهم المورو أفلا تخجل أيها التعس من أن تبسط ظلك على أناس يسفكون الدم البشري ويعيشون من قطع الطريق؟ وماذا أقول لك، لعمري جدير بك أن تنقض عليك صاعقة أو أن تكسر تكسيرًا أو أن تفنى فناء أبديًّا ... إلخ.

ومن بعد هذه الحادثة ازدادت جرأة العرب ونفحوا عرفهم واستقرت قدمهم في البلاد وأصبحوا كأنهم سيلبثون أبديًّا في قلب أوربة فأخذوا يتزوجون من أنفس الأهالي ويحرثون ويزرعون كسائر الفلاحين، وكان أمراء النواحي يكتفون بأن يأخذوا منهم إتاوة خفيفة، وربما اعتضدوا بهم في بعض الأحايين، أما الذين كانوا في أعالي الجبال فقد كانوا يتقاضون المارين الأموال الفادحة، ويقتلون من يمتنع عن دفع ما يُطلب منه، وأما معبر سان برنار الكبير الذي كان يسمى من قبل بجبل المشترى فقد كان من قديم الدهر بموقعه بين فاله Valais ووادي أوسط Aoste هو واسطة الاتصال بين سويسرة وإيطالية، ولما استولى عليه العرب وعلى غيره من المعابر تمكنوا من سائر النواحي المجاورة.

وكانت مدينة نيس (أونيقة) تابعة لملكة آرل وكانت أيضًا تحت طائلة العرب ويظهر أن جماعة من المسلمين كانوا يسكنون في نيس؛ لأن دورانت يذكر في تاريخ نيس أنه كان فيها ناحية للمسلمين Canton Des Sarrazins.

وقد احتل العرب أيضًا مدينة غرانوبل Grenoble مع الوادي المريع المسمى وادي غرازيفودان Graisivaudan وذهب مطران غرانوبل ومعه ذخائر القديسين وكنوز

الكنيسة والتجأ إلى دير دونات Donat في فلانس إلى الشمال، ولا يعلم تمامًا في أية سنة دخلوا غرانوبل وإنما من المحقق أن العرب في سنة ٩٥٤ كانوا استولوا على هذه البلدة، لأنه وجدت كتابة منقوشة على حجر تاريخها سنة ٩٥٤ تدل على وجود المسلمين في غرانوبل، والغالب على الظن أن مسلمي بيمونت كانوا قد اتخذوا لأنفسهم عدة معاقل كانوا يعتصمون بها عند الحاجة، وقد ذكر مؤرخ دير نوفاليزة حصنًا من هذا النمط كان يحتله العرب باسم فراسنيدلوم Frascenedellum وهو مكان بقرب كازال على نهر البو Po وكان هذا المحل يسمى أيضًا فركسيناتوم، وقيل: بل هذا الحصن هو الذي يسمى الآن فنسترال Fenestralle.

وعلى كل حال فلينظر القارئ إلى مؤرخ معاصر شاهد الحوادث بعينه وهو مؤرخ دير نوفاليزة، فقد قال: إن العرب كانوا يسبون النساء والأولاد والخيل وغير ذلك، وكان قد دخل معهم أفَّاق من أهل البلاد اسمه أيمون Aymon طمعًا في الغنائم فوقعت في أيديهم مرة امرأة بارعة في الجمال فاستأثر بها أيمون لنفسه فجاء أحد زعماء العصابة العربية وانتزع تلك الحسناء من يد أيمون بالقوة فغلت مراجل الغضب في صدر أيمون وثار للانتقام فذهب إلى الكنت روتبلدس[٨] الذي كان صاحب السيادة في بروفنس العليا وكالمه بالسر الخفي في قضية طرد العرب من البلاد، وكان للعرب سعاة وجواسيس في كل محل فاجتهد أيمون أن يكتم مسعاه بكل ما أمكنه حتى تمكنوا من استنفار الناس بدون أن يشعر العرب، واجتمع الأمراء والزعماء وقادوا الأهالي وهاجموا العرب وأخمدوا جمرتهم ورفعوا نيرهم عن أعناق الأهلين. قال هذا المؤرخ: وإن عائلة أيمون هذا كان لا يزال منها بقايا إلى زمانه.

وفي سنة ٩٥٢ كان المجار قد اكتسحوا الإلزاس، وصارت جميع بلاد جبل جوراه Jura تحت خطر احتلالهم، ففكر كونراد الذي كان أميرًا على بورغونية وسويسرة وفرنشكونتي ودوفيني في تدبير حيلة للتخلص من المجار والعرب معًا، فكتب إلى العرب كتابًا يقول لهم فيه: إن لصوص المجار قد سمعوا بخصب الأراضي التي في أيديكم وهم عامدون إلى انتزاعها منكم، فتعالوا إليّ لنزحف إليهم معًا ونبيدهم، وفي الوقت نفسه كتب إلى المجار قائلًا لهم: لماذا ينازع بعضنا بعضًا؟ إن المسلمين هم الذين بأيديهم أخصب البقاع، فتعالوا إليّ لنزحف إليهم ونطردهم وحينئذ أنا أجعلكم في مكانهم. قال: هذا وعين للفريقين مكانًا للقاء، فحضر الفريقان والتحمت الحرب بينهما من نفسها، وكان الكنت قد حشد عساكره وكمن لهم جميعًا، فلما اشتبكوا في الملحمة انقض عليهم

بجيشه فذبحهم ولم ينجُ منهم إلا القليل فأرسل بقية السيف إلى آرل وبيعوا في أسواقها أرقاء.

جاء هذا الخبر في مجموعة الدون بوكيه ولم نعلم تمامًا في أي مكان حصلت هذه المعركة، وكان مركز العرب الأصلي في بروفنس وكان المجار في الألزاس وفرنشكونتي فالمظنون أن هذه الوقعة حصلت في نقطة متوسطة كأن تكون مثلًا في السفواي وقد ثبت أن العرب أقاموا طويلًا في السفواي وكانت تسمى موريين Maurienne حتى ذهب بعضهم إلى أن هذه اللفظة مشتقة من لفظة المورو التي تطلق على المسلمين المغاربة، ولكن هذا الزعم هو خطأ؛ لأن هذه اللفظة معروفة منذ القرن السادس للمسيح، وكيف كان الحال فقد أقام العرب طويلًا بسفواي، وقد علمنا أن المطران بيلية Billiet أسقف سان جان دومورين قام بمباحث دقيقة فيما يتعلق بتاريخ بلاد سفواي، فعثر على أسماء كثيرة تدل على وجود العرب هناك لا سيما في جوار مودان Modane إذ يوجد واد يقال له: وادي السرازين وقرية اسمها فريناي Freney وقد ذكر بوش مؤرخ بروفنس ما يؤيد هذا القول.

وكان المسلمون يجولون في جميع أنحاء سويسرة بلا معارض كأنهم في دياراتهم وقد تقدموا إلى أن صاروا على أبواب مدينة سانغال وعلى ضفاف بحيرة كونستنز، وكانوا يعتدون على الرهبان الذين كانوا هناك فلا يخرج منهم أحد إلا رشقوه بسهم، وكانوا قد ألفوا سكنى الجبال والسير في الأوعار، حتى قال أحد الكتاب المعاصرين: إنهم صاروا أشبه بالمعزى في خفة أقدامهم وسهولة سيرهم في حروف الجبال، وكانوا قد بنوا أبراجًا في أماكن متعددة يقال: إن آثارها لا تزال موجودة. وكانوا قد ألحقوا أضرارًا لا تحصى بالمسيحيين. وذكر مؤرخ دير سان غال Saint-Gall في كتاب داخل في مجموعة برتز أنه كان يوجد رئيس للدير المذكور اسمه «فالتون» قد جمع عصابة من الرجال الأشداء وسلحهم بالحراب والفؤوس وهاجم هؤلاء البرابرة بغتة، فقتل أكثرهم ومن نجا منهم قبض عليه، وساقوا الأسرى إلى الدير، فأبى هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا، فماتوا جوعًا!

وفي أثناء ذلك تغلب الألمان على المجار، وكسروا شرتهم، فنشقت سويسرة نسيم الفرج، ولكن البروفانس والدوفيني وجانبًا من جبال الألب بقيت تحت طائلة العرب الذين كانت ترد إليهم الإمدادات من البحر، وكانت هذه البلدان لا تستريح ما داموا فيها، وكان الرجل العامل المدبر إذ ذاك بين ملوك أوربة، أوتون ملك جرمانية الذي لقب

فيما بعد بالإمبراطور والذي استحقت له خلاله المجيدة لقب «الكبير» فدخل أوتون في علاقات مع خليفة قرطبة الذي كان أشبه بالحامي لمستعمرة فراكسينية العربية، فعزم أوتون لأجل الدفاع عن حقوق النصرانية أن يبعث بسفارة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكان قد جاء إلى أوتون كتاب من عبد الرحمن لا يخلو من عبارات فيها غض من الدين المسيحي، بحيث اعتمد أوتون بخاصة أن يجعل في سفارته إلى قرطبة عالمًا لهوتيًّا يمكنه الاعتماد عليه في الأخذ والرد مع علماء المسلمين، فوقع الاختيار على راهب من دير غورز Gorse بقرب متس كان يقال له: جان وكان بلغ من تضلعه في علم اللاهوت أن حاول إقناع الخليفة عبد الرحمن بالتنصر.

وقد كانت هذه السفارة في سنة ٩٥٦ والمؤرخون من المسلمين ومن النصارى متفقون على ما بلغته قرطبة لذلك العهد من العظمة والمجد فقد كانت فيها العلوم والمعارف والصنائع والفنون والسياسة، والكياسة قد أدركت الأمد الأقصى في وقتها، وكانت أوربة المسيحية مدهوشة بعظمة قرطبة وكان عبد الرحمن مقصدًا لجميع ملوك العصر، وكان يراسله البابا وإمبراطور القسطنطينية وملوك إسبانية وفرنسة وألمانية وبلاد الصقالبة، وكان ملوك المسيحيين — بحسب قول مؤرخي العرب — يبسطون أيدي الخضوع للخليفة، ويعدون شرفًا عظيمًا لهم أن يرسل الخليفة يده لسفرائهم ليقبلوها؛ وذلك لجلالة قدره في أعينهم ولطف منزلته في أنفسهم، وكان عبد الرحمن الناصر عندما تقدم عليه وفود هؤلاء الملوك لا سيما وفد ملك الروم، يبالغ في الاحتفال ويتكلف الكلف الثقال ويأمر باستقبالهم بالعساكر والأعوان وبإظهار جميع عظمة الخلافة، فكانوا يفرشون لهم الشوارع التي يمرون بها بفاخر البسط والديباج، وكانت الألوف من حرس الخليفة الخاص وأمامهم الأمراء وعظماء الدولة يصطفون على الجانبين؛ ومنهم بطانة تحيط بعرش الخليفة وبعد ذلك يقوم الأئمة ويخطبون في هذا الحفل بما يناسب المقام من وصف عز الإسلام وإظهار مناقب الإمام ثم يتلوهم الشعراء بالقصائد الطنانة التي تزيد من ابتهاج الحاضرين وحماسة السامعين.[٩]

أما سفارة الراهب غورز من قبل ملك فرنسة، فإنها وإن لم تكن محفوفة بجميع تلك الأهمية فلم تكن خالية من الاحتفاء والاحتفال، ولقد بقي لنا عنها رحلة بقلم أحد تلاميذ الراهب المذكور يمكننا أن نلخص منها ما يلي:

سافر الراهب جان ومعه راهب ثان لا غير، وكانت الهدايا التي لا بد من استصحابها هي من مال الدير الذي ينتسب إليه الراهب، فسار الراهب ماشيًا على

قدميه إلى «فيين» Vienne على نهر الرون، ومنها ركب في النهر إلى البحر، وركب فيه إلى برشلونة التي كانت إذ ذاك تابعة لمملكة فرنسة، وإنما كانت أول مدينة تخص الخليفة من الثغور هي طرطوشة[١٠] فلما وصل سفراء ملك إفرنجة إلى طرطوشة وأذن لهم عاملها بالمسير إلى قرطبة تقدموا في البلاد، وقطعوا جانبًا عظيمًا من جزيرة الأندلس، وهم في ضيافة العرب بالمعهود من كرمهم، فوصلوا إلى قرطبة لم يتكلفوا إنفاق درهم واحد، وهناك استقبلوا برًّا وترحيبًا وأنزلوا في محل على مسافة ميلين من قصر الخلافة.

ثم إن الخليفة علم بمهمة الراهب، وما هو مكلف تبليغه من قِبل ملك فرنسة، فأراد أن يتجنب المباحثات الدينية، وقال: إنه لم يكن لائقًا بمقام اثنين مثل الخليفة والملك أن يدخلا في مجادلات كهذه وأنه لا يسع الخليفة أن يسمع كلامًا فيه نيل من الرسول ﷺ ولا يجوز له ذلك بحسب الشريعة[١١] واقترح الخليفة أن يعد كتابه إلى الملك أوتون كأنه لم يكن، ولكن جميع هذه الملاحظات لم يقبلها ذلك الراهب، وأصر على رأيه، وجاء مطران قرطبة ينصحه بترك هذا العناد، فأخشن له الجواب وأخذ يقرعه على هوادته وتساهله وتساهل جماعته في أمر الدين المسيحي، وكيف أنهم قد رضوا بختان أولادهم وبالامتناع عن أكل الخنزير مسايرة للمسلمين. ولما علم الخليفة بتصلب هذا الراهب وأنه راكب رأسه لا ينثني عن عزمه أَبَى أن يقبله وأرسل إليه قائلًا إنه كان قد بعث إلى الملك أوتون أحد الأساقفة سفيرًا عنه فانظره ثلاث سنوات ولذلك هو يريد أن يمسك سفير أوتون لديه لا ثلاث سنوات فقط بل تسع سنوات؛ لأنه يرى نفسه أكبر من أوتون بثلاث مرات، فأجاب الراهب بأنه لا يقدر أن يخرج عن الأوامر التي في يده من أوتون وتقرر عند ذلك أن يرسل الخليفة رسولًا آخر يسأله عما إذا كان لا يزال مصممًا على رأيه في كيفية سفارة الراهب وأخذ الخليفة ينتدب للرسالة إلى أوتون من عنده ممن يصلح لذلك، فكان المسلمون يستعفون من تلك السفارة؛ لأنه من المعلوم أن على المسلمين واجبات دينية يصعب عليهم القيام بها في بلاد النصارى، ومن أجل ذلك كان أكثر سفراء ملوك الإسلام إلى ملوك النصارى مسيحيين، وكثيرًا ما كانوا أساقفة أو قسيسين، ففي تلك النوبة انتدب لهذه السفارة رجل مسيحي اسمه «رسيموندس» كوفئ فيما بعد على المهمة التي قام بها بجعله أسقفًا وكان يحسن اللاتينية والعربية معًا، ويظن بعضهم أن الأسقف رسيموندس هذا هو نفس رمندس الذي كان مطرانًا إسبانيوليًّا وكانت بينه وبين المؤرخ ليوتبرند علاقة ومودة وقد جعل هذا تاريخه باسمه.

وفي تلك المدة كان أوتون مشغولًا بإطفاء فتنة أثارها عليه ابنه وصهره فلما وصل السفير الإسبانيولي من قبل الخليفة أجابه الملك إلى كل ما اقترحه، وقفل الرسول إلى

قرطبة وقد دبر الأمور كما شاء الخليفة، ورضي الخليفة من بعدها أن يستقبل الراهب، وكان الخليفة يعلم تقشف الراهب ومذهبه في لبس الخشن وبُعده عن مظاهر الأبهة، فبعث إليه بأنه يريد أن يستقبله كسفير من قبل الملك، وأنه لا بد له إجلالًا لقدر مرسله من قبول حالة السفارة وأنه ينبغي له أن يدخل على الخليفة بملابس لائقة، فأجابه الراهب بأنه لا يجد لبسًا أبهى ولا أفخر من ثوب رهبانيته، فظن الخليفة أنه قد يكون الراهب عاجزًا عن شراء الملابس اللازمة، فبعث إليه بعشر أقات فضة، وكانت الأقة اثنتي عشر أوقية، ولكن الراهب تصدق بهذه الفضة على الفقراء. فأرسل الخليفة إليه قائلًا إنه يقبله ويحتفل به ولو جاءه في كيس خيش.

وفي اليوم المعين للاستقبال اصطفَّت العساكر على الجانبين، ووقف العبيد الصقالبة قابضين على الحراب، ووقف آخرون بالقسي، وكانت هناك الفرسان تلعب في الميدان وفي هذه الحالة دخل الراهب السفير، وقد فُرشت أمامه مداخل القصر بالبسط والديباج، فما زال يتقدم إلى أن وصل إلى البهو الذي فيه الخليفة، فوجد الخليفة جالسًا على سرير الخلافة متربعًا على عادة الشرقيين، فعند وصوله إليه أعطاه باطن يده تمييزًا له عن غيره فقبلها الراهب، ثم أمر له بالجلوس وبعد المراسم المعتادة في المجاملة شرع الخليفة يتكلم عن الملك آتون وما بلغه من المقام السامي بين الملوك وأثنى عليه مزيد الثناء.

ثم إنه لما كان عبد الرحمن قد بلغه كون ابن الملك أوتون ثار على أبيه أنحى بشيء من اللائمة على الملك قائلًا: إنه لا ينبغي للملوك أن تقبل أقل انتقاص من سلطتها ولا ترعى في ذلك عاطفة إشارة إلى شيء كان وقع مع عبد الرحمن نفسه، فإنه عصى عليه أحد أولاده فانتهى الأمر بأن أمر بقتله.

ثم دار الكلام على موضوع الرسالة التي جاء بها الراهب سفيرًا؛ فمؤرخو العرب أو بالأقل المؤرخون الذين عرفناهم، لم يكونوا يذكرون شيئًا عن قضية احتلال العرب لسواحل بروفنس وبثهم الغارات إلى الداخل، مما يدل على أنهم لم يكونوا يأبهون لهذه الحادثة[١٢] على أن المؤرخ ليوتبرند الذي عاش في ذلك العصر يؤكد أن تلك المستعمرة العربية في جبال الألب كانت تحت حماية الخليفة نفسه، وصاحب الرسالة التي نحن بصددها عن رحلة الراهب سفيرًا من قبل الملك أوتون إلى الخليفة عبد الرحمن هو نفسه يقول: إن موضوع تلك السفارة لم يكن سوى التوسط لدى الخليفة لوضع حد لغارات العرب في فرنسة وإيطالية. ومن المؤسف أن الرسالة ناقصة والكلام منقطع في أهم نقطة من الموضوع ولم يُعثر إلى الآن على نسخة تامة لتلك الرسالة.

هذا وفي سنة ٩٦٠ تم طرد العرب من جبل سانبرنار وليس عندنا معلومات عن تفاصيل الوقعة، ويظهر أن القديس برنار دومنتون Dementhone الذي بنى ملجأ في أعلى هذا الجبل، حتى نُسبت إلى اسمه سلسلة تلك الجبال كلها، كان هو نفسه في هذه المعركة.

ومات عبد الرحمن الثالث (أي الناصر) سنة ٩٦١ فخلفه ابنه الحكم الثاني، وكان ملكًا محبًّا للعلوم والمعارف جانحًا إلى السلم، ففي أيامه ازداد عكوف الناس في الأندلس على العلوم والصناعات وبلغوا منها شأوًا مدهشًا وغلبت الكياسة والرقة ودماثة المدنية على أولئك الأقوام الذين كانوا في مبدأ أمرهم على جانب عظيم من الخشونة والجفاء، فأما في زمن الحكم فقد صارت الدولة للعلم وترقى به حتى النساء، اللائي كان منهن العالمات والفاضلات وصاحبات المكانة في دار الخلافة، وكان الحكم في أوائل أيامه، استجلابًا لثقة المسلمين به، قد غزا جليقية وأشتورية وكتلونية ودوخها ولكن المسيحيين طلبوا منه الصلح فأجابهم إليه، ولما أخذ وزراؤه وقواده يحثونه على نقض هذا الصلح لما عند المسلمين من حب الجهاد، أجابهم بهذه الآية البديعة من القرآن: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ نعم إنه اشترط على كنت برشلونة وسائر أمراء الكتلان دكَّ حصونهم القريبة من ثغوره وأخذ منهم موثقًا بأنهم لن يمالئوا أحدًا من ملوك المسيحيين الذين يدخلون معه في حرب.[١٣]

وكان العرب لا يزال منهم جماعات محتلة لبروفنس ودوفيني ولا تزال الناس هناك تخشى عاديتهم، وكان الملوك في منازعاتهم يستعينون بهم فيكون الترجيح بواسطتهم، وكان أوتون ملك الألمان بعد أن قهر المجار واستصفى جميع ألمانيا أجبر البابا على تتويجه بتاج الإمبراطورية وتغلب على برانجة ملك لونباردية، وخرج هذا من مملكته شريدًا فقام ابنه أدالبرت للمطالبة بملك أبيه، وروى بعض المؤرخين مثل البريك المنقول تاريخه في مجموعة لاينبتز أن أدالبرت استعان بمسلمي فركسينت.

وفي سنة ٩٥٦ تم إجلاء العرب عن غرينوبل، وقد تقدم أن أساقفة هذه المدينة كانوا هجروها إلى ساندوناث من جهة فالانس، فقام أحدهم إيزاردن وجمع أكابر البلاد وقوادها واستنفرهم لقتال المسلمين، وكان هؤلاء يملكون أخصب النواحي وأجود الأراضي فتقرر أن كل إنسان يكون نصيبه من هذه الأراضي بقدر بسالته وإقدامه، فلما تمكن الأهالي من إجلاء العرب عن غرينوبل ووادي غرازيفودان تقاسم المقاتلون للعرب تلك البقاع التي كانت بيدهم بحسب درجة انغماسهم في الحرب، ومن ذلك جاءت ثروة

بعض العائلات القديمة في مقاطعة دوفيني ومن جملتها عائلة إينارد Aynard التي يقال: إن أصل ثروتها من تلك الحرب الصليبية، وبعد أن استصفى الأسقف إيزورن تلك البلاد ومحا آثار العرب فيها أعلن عن نفسه أميرًا على غرينوبل وعلى الوادي، وحفظ خلفاؤه تلك الإمارة مدة طويلة وبقي جانب من امتيازاتهم إلى زمن الثورة الإفرنسية.

فالقارئ يرى أن أمور المسلمين في تلك الأصقاع كانت قد أخذت تتراجع إلى الوراء، وأن ذلك التقهقر كان يزيد طمع الأهالي في التخلص منهم تمامًا، ففي سنة ٩٦٨ نادى الإمبراطور أوتون بهذه العزيمة وأجمع أن يستأصل شأفتهم من هذه النواحي، إلا أنه مات قبل أن يحقق وعده. وكان في ذلك العصر رجل لا يذكر اسمه إلا مقرونًا بالتجلة والإكرام سواء عند الملوك أو بين الشعوب وهو القديس مايول Mayeul الذي كان قسيسًا في بلدة كلوني Cluny في بورغونية، وكان قد بلغ من شهرته بالفضائل أن تحدث الناس بانتخابه لمقام البابوية، وكان هذا القديس ذهب إلى رومة لزيارة كنائسها وفي إيابه من رومة جاءت طريقه على بلاد البييمونت قاصدًا الرجوع إلى ديره من جهة جبل جنيفر Genevre وأودية دوفيني، وكان المسلمون إذ ذاك محتلين البلاد الواقعة بين غاب Gap وإمبرون Embrun ومركزهم في الأعالي المشرفة على وادي دراك Drac بإزاء جسر أورسيير (ولا يزال هذا المكان معروفًا إلى اليوم).

فلما وصل القديس مايول إلى ذيل الألب وجد هناك عددًا كبيرًا من الزوار القافلين من رومة والمسافرين قد علموا بمجيئه فانتظروه ليسيروا معه؛ إذ لم يكونوا يرجون أن تنتدح لهم فرصة خير من هذه لاجتياز جبال الألب، فتقدمت قافلة القديس وفيها هذا الجم الغفير، وما وصلوا إلى ضفاف الوادي سائرين في طريق منحصرة بين الجبل والنهر، حتى انهال عليهم العرب برشق من السهام من عل، وكان العرب نحوًّا من ألف مقاتل ولم يكن للمسيحيين مفر، فأحيط بهم ووقع أكثرهم في الأسر، وكان من جملة الأسرى القديس مايول، وقد جُرح في يده وهو يذب عن أحد رفاقه؛ فسيق الأسرى إلى مكان على حدة، وكان أكثرهم فقراء لا يطمع الإنسان من ورائهم في مغنم فدنا العرب من القديس وسألوه عن درجة يساره، فأجابهم القديس بأنه من قوم أغنياء ولكنه خرج من جميع أملاكه ووقف نفسه على عبادة ربه وهو الآن راهب في دير ذي أملاك وأراضٍ واسعة فتساوموا معه على فدية تبلغ ما يساوي ألف ليبرة من الفضة أو ثمانين ألف فرنك من المعاملة الحاضرة، وطلب العرب من القديس أن ينفذ رفيقه إلى دير كلوني ليحمل إليهم المال وضربوا له موعدًا قالوا له: إن فات هذا الموعد ولم

يروا المال فإنهم يقتلون القديس وسائر الأسرى فكتب القديس إلى الدير قائلًا: إلى آباء كلوني والإخوان الذين فيه مايول المسكين أسير مكبل بالقيود ... إلخ. فلما وصل هذا الكتاب ارتفع البكاء والعويل من كل جانب وأسرعوا بجمع الأموال واستجادوا أكف ذوي الحمية وجردوا الكنيسة من زخرفها، وأرسلوا كل ما وقع في أيديهم من المال لفكاك القديس ومن معه من الأسرى، فوصل المال قبل انقضاء الأجل وأطلق المسلمون سراحهم.

وكان القديس في أثناء وقوعه في الأسر قد حاول أن يرشد المسلمين قائلًا لهم: إن الذي يعتقدون به لا يقدر أن يخلصهم من العذاب ولا ينفعهم بشيء، فعندما سمعوا منه هذا الكلام هاجت حفيظتهم وشدوا وثاقه وصاروا به إلى أحد الكهوف وحبسوه فيه ثم إنهم عادوا فسكنوا ورجعوا إلى معاملته بالحسنى، وكان إذا اشتهى الطعام جاء أحدهم وغسل يديه وأصلح له طعامًا شهيًّا ووضعه بين يديه بكل أدب، وكان مع القديس نسخة من التوراة، فجاء أحد المسلمين ومد يده إليها بدون احترام، فلامه رفاقه وقالوا له: إن هذا كتاب مقدس ونحن معاشر المسلمين نقدس جميع الكتب السماوية، وبهذه المناسبة قال أحد كتاب ذلك العصر: إن المسلمين يحترمون مثلنا أنبياء العهد القديم ويرون المسيح نبيًّا كبيرًا وإنما يجعلونه على كل حال أصغر من محمد بقولهم: إن محمدًا كان خاتم الرسل وهم يقولون: إن محمدًا هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم.

وقد وقعت حادثة القديس مايول هذه في سنة ٩٧٢ فصار لها دوي عظيم في الأقطار وضج لها المسيحيون الصغار والكبار وهبوا طالبين الأخذ بالثأر وكان في نواحي سيسترون Sisteron في قرية يقال لها نويه Noyers رجل نبيل يقال له: بوبون Bebon كان قد استنفر الناس مرارًا لتخليص هذه البلاد من العرب فانتهز هذه الفرصة التي كان فيها الناس غضابًا من أجل حادثة مايول فجمع كلمة الفلاحين والأعيان وسكان البوادي والحواضر ممن يغضبون للدين والوطن ثم بنى حصنًا في نواحي سيسترون بإزاء حصن كان ينزله المسلمون يريد بذلك مراقبة حركاتهم حتى ينقض عليهم في أول غرة ويقتحم أول ثلمة. وحاول المسلمون أن يعرقلوا مساعي بوبون هذا فلم يفلحوا وكان الحصن الذي فيه المسلمون على رأس جبل يقال له: «بيترة انبيه» Petra-Empia وبينما الفريقان يداور كل منهما الآخر إذ اغتصب قائد حصن العرب امرأة الحرسي الموكول إليه باب الحصن فانتقم البواب المذكور عن هذه الفعلة

بأن عرض على بوبون أن يفتح له الباب على حين غرة فيدخل إلى الحصن ويفتك بمن فيه، وهكذا تم وجاء بوبون ومعه رجاله فوجدوا الباب مفتوحًا فدخلوا وذبحوا المسلمين وهم غارون ومنهم من عرض على المسيحيين أن يتنصر فهؤلاء عفوا عنهم واستحيوهم ومن جملتهم القائد، وقد جعلت الكنيسة بوبون هذا في مصاف القديسين كما يستفاد من المجموعة البولندية.[١٤]

وفي الوقت نفسه كان أهالي غاب[١٥] قد ثاروا بالعرب ووثبوا عليهم واستأصلوهم.

وجاء في كتاب قديم يتعلق بهذه البلدة أن الذي جمع كلمة الأهلين وثار بهم على العرب هو رجل يقال له: غليوم فكبسوا العرب بياتًا في جميع المواقع التي كانوا يحتلونها، واستأصلوا عرقاتهم وكانت مكافأة الذين قاموا بهذه الحرب أن أخذوا نصف البلدة ونصف الأراضي وتركوا النصف الآخر للمطران والكنائس، وهكذا تحررت بلاد الدوفيني وأصبح خلاص مملكة بروفنس بعد ذلك قريبًا.

وإن من المؤسف أن لا تكون لدينا على هذا الحادث المهم معلومات مفصلة، وغاية ما علمناه أن غليوم كونت بروفنس هو الذي تولى كبر تلك الحرب، ومن يدري فقد يكون هو نفسه غليوم الذي عفى آثار العرب في «غاب» فإن غاب كانت من توابع بروفنس، وكان غليوم كونت بروفنس محبًّا للعدل محافظًا على الديانة بِرًّا برعيته فأحبه رعاياه حبًّا جمًّا، ولما استنفر أهالي بروفنس ودوفيني السفلى ونيس لقتال العرب لبُّوا نداءه، فلما اجتمع إليه الجم الغفير منهم قصد أن ينهد إلى العرب في فركسينت، وعندما علم العرب أن أهالي البلاد ضيقوا عليهم من كل جانب نزلوا من جبالهم مجتمعين ودافعوا عن أنفسهم صفًّا، وأول معركة وقعت معهم وقعت في نواحي دراغينمان Dragengman في مكان يقال له: تورتور Tourtour حيث يوجد إلى الآن برج مبني منذ ذلك اليوم، تذكارًا لتلك المعركة، فانهزم المسلمون والتجأوا إلى حصن منيع، ولكن المسيحيين أخذوا بمخنقهم حتى اضطروهم أن يغادروا الحصن ليلًا ويلجأوا إلى الحراج المجاورة، فتأثرهم أهالي البلاد وتغلبوا عليهم، فقتل أكثرهم، وأخذ الباقون أسرى[١٦] وجميع من وقع في الأسر أو استسلم من المسلمين عفوا عنه كما أنهم لم يقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين وادعين في القرى المجاورة، ومن هؤلاء من تنصر واندمج في الأهالي، ومنهم من بقي مسلمًا ولكنه أصبح رقيقًا مستخدمًا إما في أراضي الأديار أو في أراضي الزعماء، وقد بقيت لهذه الأمة بقايا معروفة مدة طويلة كما سيأتي الكلام عليه.

أما سقوط حصن فركسينت فقد وقع في سنة ٩٧٥ وكانت مدة بقاء هذا الحصن في أيدي المسلمين أكثر من ثمانين سنة، ولما كان هو المركز الأصلي لجميع العرب المنتشرين

في داخل فرنسة وشمالي إيطالية وفي سويسرة، فلابد من أن ذلك الحصن كان ملآن بالأموال والنفائس، فوزع الكونت غليوم صاحب بروفنس تلك الأموال على الذين امتازوا بقتال العرب، وأشهرهم «جيبلين غريما لدي» الذي كان من أهل جنوة فإنه كوفئ على إقدامه بالأراضي التي كانت في منتهى خليج سان تروبيز، وممن يذكر بين المشاهير الذين جالدوا حق الجلاد بهذه الحرب مسيحي آلت إليه السيادة على مدينة كاستلان Castallane في مقاطعة الألب السفلى، وربما كانت ثروة آل كاستلان الحاضرة راشحة عن تلك الفتوحات، ولا ينبغي أن ننسى أن العرب كانوا أيضًا قد أجلوا عن مدينة رييز في (الألب السفلى) فإنه في كل سنة يحتفل أهالي هذه البلدة بعيد خلاصهم منهم الذي يصادف يوم العنصرة.

وقد استولت الكنيسة أيضًا على كثير من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين، وذلك لأن رجال الدين المسيحي كانوا قد أصيبوا أكثر من سواهم بهذه الغارات العربية وتهدم كثير من أديارهم فلذلك كانوا هم دائمًا في طليعة الحركة لإجلاء العرب، فنال أساقفة فريجس ونيس نصيبًا كبيرًا من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين، وفي طولون وقع نزاع بين الأهالي على الأراضي التي كانت للمسلمين؛ لأنه كان قد طال حكم العرب لتلك البلدة فدثرت آثار التملك القديم وأصبحت الحدود مجهولة، فجاء الكونت غليوم من آرل وأجري التقسيم بين الأديار والأهالي والأمراء، وأَرْضَى الجميع، ولذلك بقي لغليوم هذا اسم كبير في التاريخ، وأطلقوا عليه لقب أبي الوطن.

فقد تقرر إذًا أن سقوط حصن فركسينت في أيدي المسيحيين وقع في سنة ٩٧٥ وأنه من ذلك الوقت لم يبقَ للمسلمين شيء في أرض فرنسة، نعم إن بعض المؤرخين ومنهم دالبين المار الذكر يزعم بقاء المسلمين في جبال الألب مستمرًا إلى ما بعد سنة ٩٨٠ بل إلى ما بعد سنة الألف، ولكننا لا نثق بهذه الرواية، ونظن أنه إن كانت قد بقيت عصابات عربية في جبال الألب من بعد تاريخ سقوط فركسينت فلا تكون عصائب محاربة بل تكون عصائب مستسلمة وقد ارتدت عن الإسلام إلى النصرانية أو صار رجالها في حكم الرقيق، وبالاختصار فمن بعد ذلك العهد لم يبقَ على أتباع الإنجيل خطر من أتباع القرآن إلا إن كان من قبيل وقائع قرصانية كان لا بد لأجل التخلص منها من مطاردة البرابرة إلى نفس بلادهم.

وفي سنة ٩٧٦ مات الخليفة الحكم الثاني في قرطبة وكان ابنه بليدًا فتقلد الأمور الحاجب الملقب بالمنصور وكان آية باهرة في البسالة والإقدام وحسن التدبير بُلِي منه

النصارى بباقعة لا نظير لها فأعاد للإسلام رونقه الأول وبث الغارات في أطراف بلاد النصرانية حتى أوقع الذعر في جميعها وعادت النصرانية على شفا خطر عظيم، وكان المنصور عندما تسلم الزمام قد بدأ بترتيب أمور الولايات الإفريقية، حيث أدخل في الطاعة جميع أهلها وجنَّد منهم الجيوش الجرارة، واستنفر أيضًا أهل الأندلس منتخبًا منهم أشجع الشبان وأخذ يشوقهم إلى القتال ويمرنهم عليه، وكانت غزوات المنصور كلها في فصل الصيف، ما عدا غزاة واحدة، وذلك لأن رجال إفريقية كانوا لا يتحملون برد الأصقاع الشمالية، وبلغ عدد غزواته في مدة سبع وعشرين سنة ستًّا وخمسين غزوة، لم تنهزم له فيها راية ولا ولَّى جيشُه مدبرًا.[١٧]

وكان المسلمون في الغالب فرسانًا فإذا قصدوا إلى بلاد النصارى وهزموا لهم جيشًا ذبحوا الرجال وسبوا النساء والأولاد وباعوهم رقيقًا، فكنت ترى بعد كل غزاة من غزوات المنصور أسواق قرطبة وأشبيلية وأشبونة وغرناطة مكتظة بالرقيق من ذكور وإناث، وكان تجار الرقيق يأتون بهذه الخلائق إلى إفريقية ومصر وسائر بلاد الإسلام فتنتشر فيها، وكان المنصور يرى جهاده في بلاد النصرانية أفضل قرباته إلى الله تعالى، وكان يستصحب في جميع أسفاره التابوت الذي يريد أن يوضع فيه عند موته، وكان من عادته أن ينفض الغبار الذي يعلق بثيابه في أثناء غزواته ويجعله في ذلك التابوت، ليصنع منه لبنة يضعها تحت رأسه عند الموت، فجال غزاة المسلمين تحت راياته المنصورة في قشتالة وليون ونابارِه وآراغون وكتلونية إلى أن وصلوا إلى غاشقونية وجنوبي فرنسة.

وجاست خيل المنصور في أماكن لم يكن خفق فيها علم إسلامي من قبل، وسقطت مدينة شانتياقب من جليقية وهي أقدس معهد مسيحي في إسبانية في أيدي المسلمين، وأحرقت تلك المدينة، وأخذت أجراس الكنيسة الكبرى المعروفة بكنيسة القديس يعقوب إلى قرطبة حيث عمل منها قناديل وعلقت في الجامع الأعظم، ولأجل أن يزيد المنصور من إذلال المسيحيين أجبرهم على حمل الأجراس المذكورة على ظهورهم من شانتياقب إلى قرطبة، وهي مسافة ثمانمائة كيلو متر، ولا ينكر أن المسيحيين عادوا عندما دخلوا قرطبة فاسترجعوا هذه الأجراس وحملوها على ظهورهم من قرطبة إلى شانتياقب، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

وفي أيام المنصور[١٨] كاد الأمل ينقطع من بقاء النصرانية في إسبانية، فاتحد ملوك النصارى بأجمعهم أصحاب ليون ونابار وقشتالة وسائر المقاطعات المسيحية، ونبذوا

كل ما كان بينهم من خلاف، وصاروا عصبة واحدة، وتسلح الأساقفة والقسيسون وساروا في مقدمة الجيوش بحسب رواية مؤرخي النصارى على ما في مجموعة الدون بوكيه، واجتمعت جيوش جرارة من المسيحيين على حدود قشتالة القديمة، وحشد المنصور جميع ما عنده من قوة وكانت الوقعة هي التي ستكون الفاصلة بين الفريقين، وتلاقى الجمعان على نهر دويره فكانت المعركة من أهول ما يتصور العقل وبقيت طول النهار وسالت الدماء كالأنهار ولم ترجح فئة على الأخرى، ولكن المسيحيين كان أكثرهم في زرد الحديد فكان التلف منهم أقل، ولما خيم الظلام رجعت كل فئة إلى مخيمها وانتظر المنصور مجيء قواده وأعوانه للتشاور معهم فلم يحضر منهم أحد فسأل عن سبب تأخرهم فقيل له: إنهم سقطوا صرعى في المصاف، فعلم المنصور أن العاقبة وبيلة والتاث جسمه وامتنع عن أخذ أي علاج، ومات بعد أيام قلائل، فدفنوه في الثياب التي كانت عليه يوم المعركة وفي التابوت الذي كان يحمله معه ليُدفن فيه، ولا يزال قبره معروفًا في مدينة سالم.[١٩]

وكان المنصور طول استيلائه على الدولة جامعًا بين مجد السيف ومجد القلم، فازدهرت في أيامه العلوم والصنائع وتقدمت الزراعة وازداد العمران وبلغت الأندلس لعهده من السعادة مبلغًا لم تعرفه من قبل، وفي أيام المنصور انتشرت مبادئ الفروسية "Chevallerie" والمبالغة في حفظ الشرف والرفق بالمرأة وبأي ضعيف ونجدة الملهوف أيًّا كان، وهذا أمر لا نزاع فيه إلا أن المسيو فياردو Veiredot في كتابه المسمى «مشاهد الأخلاق العربية في إسبانية في القرن العاشر» قد تجاوز الحد في زعمه أن العرب لعهد المنصور، هم الذين قرروا نظام الفروسية كما كان معروفًا عند فرسان المسيحيين فيما بعد، وقد كان واجبًا على المسيو فياردو أن يأتي بالبرهان على ما قاله لأن الذي بأيدينا من تواريخ الذين عاشوا في ذلك العصر ليس فيه شيء مما قرره المسيو فياردو.[٢٠]

وكانت وفاة المنصور سنة ١٠٠٢ فقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك ولكنه مات سنة ١٠٠٨ وبموته انقضت أيام الإسلام الزاهرة في إسبانية.[٢١]

ثم نشبت الحرب الداخلية في قرطبة وأخذت الحكومات تهدم بعضها بعضًا وفترت الحمية الأولى وبدأ الإسلام يتقهقر ويستسرَّ بدره منذ ذلك الوقت، وقد كان في استطاعة المسيحيين من شمالي الأندلس أن يسترجعوا بلاد آبائهم وأجدادهم من ذلك الحين إلا أنهم هم أنفسهم أيضًا كانوا منقسمين وكانت العداوة بين نابار وغاليسية كما كانت بينهم وبين المسلمين، وكان المسيحيون يدخلون في حروب المسلمين بعضهم مع بعض

منحازين إلى إحدى الفئتين المتقاتلتين حسبما تقتضي مصلحتهم، وربما كان مع كل من الفئتين فئة من المسيحيين؛ وكان الأساقفة بأنفسهم يخوضون غمرات هذه الحروب، وفي سنة ١٠٠٩ انضم المسيحيون في الفتنة التي وقعت في قرطبة إلى إحدى الفئتين ونصروها على الفئة الأخرى فاستعانت الفئة التي دارت عليها الدائرة بمسيحيي كتلونية الذين زحفوا إلى قلب الأندلس، ولكنهم فقدوا في أثناء الحرب ثلاثة من أساقفتهم ورجلًا من أبطالهم اسمه أرمانجو كونت إيرجل.[٢٢]

والحاصل أن مسلمي إسبانية كانوا قد أخذوا ينكصون وتنحصُّ أجنحتهم ولم يبقَ أدنى خطر منهم على فرنسة، وأخذت هذه المملكة تتقوى وتتقدم إلى الأمام، وسنة ٩٨٧ انتقل الملك إلى آل كابت Cabet فكانوا أجدر به من المتأخرين من سلالة شارلمان، ثم تنصر النورمنديون وصاروا عاملًا عظيمًا من عوامل القوة النصرانية وسكنوا وركنوا وتركوا العيث والدعارة، وكذلك تنصر المجار وأصبحت أوربة كلها مسيحية، وفي ذلك الوقت بدأت الناس تطالب الملوك بحقوقها وتنبهت الجماعات وناقشت السلطة الحساب وتأسس ما يسمى بالحرية البلدية مما أدى في آخر الأمر تدريجًا إلى الحالة الاجتماعية التي جعلت أوربة في مقدمة العالم المتمدن، وأورق من ذلك الوقت غصنها واخضر رعيها وأفلح سعيها، على أن سواحل فرنسة لم تسلم من غارات المسلمين إلى ما بعد ذلك بمدة طويلة ففي سنة ١٠٠٣ نزل مسلمون أندلسيون في أرض أنطيب أو عين الطيب Antibes وأخذوا بعض رهبان أسرى وفي سنة ١٠١٩ غزا منهم أناس مدينة أربونة فاجتمع عليهم الأهالي وكشفوهم ثم قتلوهم وأسروا منهم عشرين رجلًا كانوا في غاية الطول والعظم، فأرسلوهم إلى دير سان مارسيان في ليموج، فاستخدم منهم رئيس الدير اثنين وفرق الباقين على أصحابه، وجاء في مجموعة الدون بوكيه خبر يفيد أن هؤلاء لم تكن لغتهم عربية.

وفي سنة ١٠٤٧ نزل مسلمون أندلسيون في جزيرة لارين Lerins[٢٣] واستاقوا عددًا من الرهبان أسرى فذهب رئيس دير سان فكتور في مرسيلية إلى الأندلس لافتكاكهم، وكان بعض أمراء الأندلس شرعوا يشنون الغارات البحرية على بلدان المسيحيين، وأشهر هؤلاء مجاهد العامري الذي استولى على دانية وجزر الباليار والإفرنج يسمونه موجيت Mujet أو موزكتوس Musectus وكان اسمه يلقي الرعب في سكان كورسكة وسردانية وبيزة وجنوة، وبقيت غارات المسلمين على سواحل فرنسة تتوالى ولا تغيب طويلًا إلى أن اشتدت قوة فرنسة البحرية ولم تنته تمامًا إلا بفتح فرنسة لجزائر الغرب،[٢٤]

وكانت مدينة ماغلون مقصدًا لغزاة المسلمين حتى أطلق عليها لقب بورسارازين port-Sarrazin ومن هذا القبيل مدينة مارتيخ عند مصاب نهر الرون التي فيها أبنية يقال: إنها من أيام العرب ومثلها جزر هييار Hyeres التي قبالة ساحل الفار وقد جاء في إحصاء لمقاطعة مصاب الرون — بقلم المسيو تولوزان — أنه وُجدت أوراق قديمة في مارتيخ تتعلق بإقامة المسلمين في تلك البلاد، وكذلك وجدت أوراق قديمة في فوس يظهر منها أن المسلمين سكنوا في جزائر هييار المارة الذكر، على أن المسلمين بدأوا بالتقهقر البحري في أواسط القرن الحادي عشر، ففي سنة ٩٦١ كان الروم استردوا جزيرة أقريطش، وفي سنة ١٠٥٠ أجلي المسلمون عن جنوبي إيطالية وفقدوا ملكهم في صقلية، وتجاوز المسيحيون البحر ونزلوا في بعض سواحل إفريقية حيث خفقت لهم أعلام مدة طويلة، ثم لم يلبث الإسبانيول أن استرجعوا طليطلة وقرطبة وأشبيلية وغيرها، ثم زحف من أوربة إلى آسيا الصليبيون بجيوش لا تحصى فوقفوا المسلمين عند حدودهم بل غزوهم في عقر دارهم وفقد المسلمون كل أمل في التجاوز على فرنسة والجنوب الغربي من أوربة، وفي سنة ٩٦٠ كان الكاتب العربي ابن حوقل يصف مسلمي الأندلس بالجبن والطيش وفقد الصلابة والحزم، وكذلك ابن سعيد الذي كان يكتب في القرن الثاني عشر قد تعجب كيف أن المسيحيين لم يطردوا مسلمي الأندلس تمامًا في ذلك الوقت.[٢٥]

ومما يدلك على ما وقع في نفوس المسلمين من هذه الجهة الشاهدان الآتيان: روى مؤرخو العرب أنه لما قفل موسى بن نصير إلى الشام بعد فتحه الأندلس، سأله الخليفة عن الشعوب المختلفة التي مارسها، فأجابه، أن الإفرنج فيهم العدد والشدة والإقدام والثبات، ويستغرب أن يكون موسى بن نصير وصف الإفرنج بهذا الوصف وهو لم يباشر معهم حربًا، وعلى فرض أنه وصل إلى جنوبي فرنسة كما يزعم مؤرخو العرب، فإنه لم يكن قد لقي الإفرنج بل لقي القوط الذين كانوا أصحاب الحكم في البلاد الجنوبية من فرنسة ولكن مسلمي الأندلس عندما تلاقوا مع رجال شارل مارتل وشارلمان علموا من هم الإفرنج في صلابة العود وعلموا من هم الفرنسيس في حب المجد والإقدام على الأخطار، وقد روى المؤرخ الإسبانيولي كوندي كلام موسى بن نصير هذا وأضاف إليه بزعمه قول موسى: إن الإفرنج إذا انهزموا فليسوا بشيء.[٢٦]

والشاهد الآخر هو ما يرويه العرب من وجود كتابة منقوشة على تمثال في مدينة أربونة معناها: يا أولاد إسماعيل لا تتجاوزوا هذا المكان فإنكم إن تجاوزتموه ولم

ترجعوا على أعقابكم هلكتم. هكذا روى المقري في نفح الطيب في النسخة الخطية التي في المكتبة الملوكية.[٢٧]

هوامش

(١) اختلف المؤرخون في موقع فركسيناتوم التي شغلها المسلمون مدة طويلة، فمؤرخو الفرنسيس يضعون فركسيناتوم في خليج سانتروبيز Saint-Troppez وهو مكان فيه معبر بين فرنسة وإيطاليا وبقربه جبل يقال له: جبل المورو. ومؤرخو الطليان يخالفونهم في تعيين هذا الموقع، فالمؤرخ بونينو Bonino يضع فركسيناتوم في بروفنس بقرب آرل وهناك مؤرخ آخر اسمه مونبريزيو Monbrizio يضع فركسينا توم وراء جبال الألب البحرية، ومنهم من جعل هذا المكان بقرب آرل وقالوا: إن العرب نزلوا هناك وفي فريجوس وأنطيب (التي جعلها العرب عين الطيب) وامتدوا إلى قصر نيسة (التي يقول لها العرب نيقة والفرنسيس يسمونها نيس) إلى مدينة سانريمو التي قرأت في دليلها منذ بضع سنوات أن العرب احتلوها، ومن هناك امتدوا إلى مدينة البنغة Albenga.

هذه كانت رحلتهم الأولى، وأما الثانية فهي أنهم ذهبوا من أنبرون إلى جيوفني ديمورتانة Jiovanni Di Mortana ومنها تقدموا إلى الداخل ونهبوا وأحرقوا دير نوفاليز Novalesa ودير سانموريس في ڤاليزية.

والمؤرخون الطليان الذين تكلموا عن نزول العرب في تلك السواحل وهم: بينغوني Pingone و دي بيني Debene ودلا شيزا Dellachiesa ودورندي Durandi وسيغبرتو Sigeberto يقولون في أصل مجيء المسلمين إلى هناك: إنه سنة ٨٩١ جاء قرصان من إسبانية فساقتهم زوبعة إلى سواحل بروفنس فنزلوا إلى البر ووجدوا غابة اسمها فراسينيتو وهو اسم مشتق من أسماء النبات الغالب على تلك الأرض، ثم قاموا هناك وتحصنوا في جبل تَسَمَّى باسمهم فيقال له اليوم: جبل «مورو» ثم التحق بهم آخرون وتكاثروا وصاروا قوة مذكورة وصار أمراء البلاد يستعينون بهم في قتال بعضهم بعضًا، وانتشر المسلمون في السڤواي ودالڤينيتيو وڤاليزيا وليغورية إلى جنوة، ومن حكام الطليان الذين دعوا المسلمين لمساعدتهم ووعدوهم بالمغانم لمبرتوديسنو ليتو وادالبرتو مركيز طوسكانة. اطلعت على ذلك في خزانة كتب عمومية بمدينة جنوة.

ومن أغرب الأمور أن جميع المؤرخين تكلموا عن نزول العرب في فركسينيت عدا مؤرخي العرب أنفسهم، فتوجد عن هذه الحادثة تواريخ بالإفرنسية والألمانية والإيطالية ولكنه لا يوجد تقريبًا شيء بالعربية، وإنما جاء في المسالك والممالك لأبي القاسم بن حوقل الذي كتب رحلته على أثر سفره من بغداد سنة ٣٣١ للهجرة وذلك قوله: وجبل القلال جبل قديم على مر الزمان فيه مياه وأراض وعمارة وحرث يقوت من نجا إليه فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه، وصاروا في وجوه الإفرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول نحو ميلين.

ذكر ابن حوقل هذا في كلامه على بحر الروم، وذكر في محل آخر جزيرة ميورقة، وقال: وميورقة جزيرة لصاحب الأندلس وكذلك جبل القلال يضاف إلى ذلك العمل.

وورد ذكر جبل القلال في معجم البلدان لياقوت في أثناء كلامه على انكبردة قال: بلاد واسعة من بلاد الإفرنج بين القسطنطينية والأندلس تأخذ على طرف بحر الخليج من محاذاة جبل القلال، وتمر على محاذاة ساحل المغرب مشرقًا إلى أن تتصل ببلاد قلورية.

قلت: يعني بها بلاد إيطاليا اليوم التي تبتدئ من محاذاة جبال الألب وتنتهي بشبه جزيرة كلابرة.

وفي صبح الأعشى يقول: قلفرية نقلًا عن تقويم البلدان قال: ويقال لها قلورية بإبدال الفاء واوًا.

قلت: وكنت أفكر أن جبل القلال هذا بالأوصاف التي وصفه بها ابن حوقل وياقوت لا تنطبق إلا على الجبل المشرف في سواحل فرنسة على حدود إيطالية، ولكني لم أكن أرضى بمجرد التخمين وكنت أود لو وقفت على كلام لمستشرقي الإفرنج في هذا الموضوع وكنت تحدثت في هذه المسألة مع الشاب الأجلِّ الفاضل المدقق السيد محمد الفاسي من آل الجد الفهريين بفاس ومن جالية الأندلس، وتقدمت إليه في أن يبحث لي في المكتبة الوطنية في باريز لعله يهتدي إلى نص أو نصوص تكشف لنا الغامض ونقدر أن نعين بها ما يريده كتاب العرب بقولهم: جبل القلال فأجابني حفظه الله بالكتاب الآتي نصه بتاريخ ٩ ذي الحجة سنة ١٣٥٠ قال: أخذت كتاب الخزانة العربية الصقلية تأليف آماري Amari وهي كما لا يخفى مجموعة نصوص تتعلق بصقلية منقولة عما يقرب من مائة كتاب عربي فوجدته ينقل كلام ابن حوقل الوارد في جبل القلال فأخذت ترجمة الخزانة الصقلية إلى الإيطالية وهي مفيدة جدًّا بالتعاليق التي

جعلها عليها آماري، ويوجد فيها طبعتان كلتاهما في سنة ١٨٨٠ واحدة في جزئين من الحجم الصغير والأخرى في جزء واحد من الحجم الكبير، وجبل القلال ورد في الصفحة السابعة من الطبعة الكبيرة أما في الترجمة فإن آماري اكتفى بكتابة جبل القلال بالحروف اللاتينية، وجعل بين هلالين ترجمة للفظة قلال بمعنى رؤوس الجبال جمع قلة وذكرها بالإفرنسية هكذا Cimes وجعل على هذا تعليقًا مضمونه تلخيص كلام المستشرق رينو الذي سأنقله لك بالحرف، وأحال عليه: نشر المستشرق جوين بول كتاب مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع في ثلاثة أجزاء مع أجزاء ثلاثة أخرى للتعاليق باللاتينية، وقد ورد فيه جبل القلال في صفحة ٢٣٩ من الجزء الأول وعلق جوين بول في صفحة ٢٥ من الجزء الخامس قائلًا: إنه كتب إلى رينو الشهير في هذا الباب فأجابه بما يلي سامحًا له بنشره. وقد نقل لي ولدنا السيد محمد الفاسي كتابة رينو بنصها الإفرنسي فآثرت ترجمتها بالعربي وهي هذه:

«في تأليف نشرته سنة ألف وثمانمائة وستة وثلاثين تحت عنوان غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سفواي وبييمونت وسويسرة في القرون الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحي قد ذكرت أنه في سنة ٨٨٩ دخل بعض قرصان من الأندلس في أرض فرنسة في خليج غريمنو الذي يقال له: سانتروبيز وأنشأوا لأنفسهم في آخر الخليج على قلة جبل معقلًا هائلًا وهذا المعقل يسميه المعاصرون لذلك الوقت فركسيناتوم، والآن تسمى القرية المبنية على سفح الجبل غاردفرينه Garde-Frainet، والغابة التي تحيط بالجبل اسمها الآن غابة الموراي العرب. كلما استقر هؤلاء القرصان في ذلك الموقع المتناهي في المناعة استدعوا إليهم أفاقين آخرين جاءوهم من سواحل الأندلس وإفريقية ثم انضم إليهم بعض الجياع من أهل البلاد، وساعدتهم الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها فيها فتقدموا في البلاد وقطعوا جبال الألب وانتشروا في السڨواي وشمالي إيطالية وسويسرة، وعندما نشرت هذا الكتاب لم تكن النسخة المخطوطة من كتاب الاصطخري قد نُشرت، وكنت أظن أن وجود هذا المعقل الإسلامي في قلب النصرانية كان لم يزل مجهولًا عند كتَّاب المسلمين في الأندلس وإفريقية وآسية فأما الآن فقد تحقق عندي أن الاصطخري وابن حوقل قد سمعا في أثناء أسفارهما بخبر فركسيناتوم من سواحل بروفنس وأن كلًّا منهما لم يهمل ذكر ذلك في كتابه.

وأعظم من هذا أن خبر هذا المعقل الإسلامي في قلب أوربة وصل إلى أقاصي بلاد العجم.

فالاصطخري في صفحة ٣٩ من طبعة كتابه المخطوط يذكر بعض الجزائر مثل صقلية وأقريطش وقبرص ثم يذكر جبل القلال، فقد يظن القارئ أن مراده به إحدى الجزر التي يحيط بها البحر، وفي الأطلس الذي تحت نمرة ١١ مذكور هذا الجبل وموضوع في وسط البحر إلى الغرب من صيقيلية يقابله المهدية وتونس من جهة وطرطوشة من الأخرى، وكذلك الحال في الخارطة التي تحت نمرة ٥ ولا فرق بينهما سوى أن الجبل في الخارطة الثانية موضوع على مسافة أبعد إلى الغرب على علو مالقة والجزائر، ومن المعلوم أن الخرائط الملحقة بكتاب الاصطخري هي ناقصة جدًّا وفيها خطأ كثير نظير الأطالس العربية على وجه الإجمال.

ولا يجوز أن ننسى أن اسم جزيرة وشبه جزيرة هو واحد عند العرب كما عند اليونان وترى الاصطخري يقول عن جبل القلال ما يطابق موقع فركسيناتوم وإليك كلامه: وأما جبل القلال فإنه كان جبلًا خرابًا وفيه ماء وأرض فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه وثاروا في وجوه الإفرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول يومان. ثم أتى على ترجمة هذا الفصل بالفارسية: جبل القلال كوهى بوده است خراب ودر انجا اب وزمين بسيار قومي از مسلمانان انجا مقام كرفتند وآبادان كردنك وثغر فرنك است وفرنك برايشان دست نيايدودرازي اين كوه دو روزه راه باشد.

ومن عادة ابن حوقل في رحلته أن يعلق بعض الشرح على كلام الاصطخري إلا أنه في هذا المقام كانت عبارته مختصرة جدًّا، والملاحظة المهمة التي يلاحظها القارئ في كلامه أن جبل القلال هذا تابع للأندلس، وذلك أن علماء العرب يطلقون لفظة الأندلس على جميع بلدان الجنوب الغربي من أوربة التي دخلت في طاعة المسلمين (انظر إلى ترجمتنا لجغرافية أبي الفداء صفحة ٢٣٤ وصفحة ٣٠٨)، وهكذا كانت بلاد بروفنس في القرن الثامن وفيما بعده في القرن الذي نحن الآن بصدده معدودة من الأندلس.

وهكذا أمكنهم أن يجعلوا جبل القلال من الأندلس وفيه كان المسلمون واقفين في وجه الإفرنج، فالمكان الذي وصفوه لا ينطبق إلا على فركسيناتوم؛ إذ لو أردنا أن نقول: إن ابن حوقل والاصطخري أرادا بجبل القلال جزيرة صغيرة غفلًا من الاسم واقعة بإزاء سواحل تونس أو سواحل طرابلس لكان الوصف الذي وصفه هذان الرحالتان لهذا المكان خاليًا من كل معنى (ثم ذكر رينو كلام ابن حوقل بنصه).

بقي علينا أن نفسر كلمة قلال التي أضيف لها ذلك الجبل فهذه اللفظة تحتمل تأويلات مختلفة ففي الأطالس التي وجدناها في مخطوط الخزانة الإمبراطورية الحاوي

للرواية الفارسية من كتاب الاصطخري نجد لهذا الجبل شكلًا هرميًّا وأما في الأطالس التي في المخطوط العربي فإننا نجد هذا الجبل يرتفع تدريجًا فيكون اسم جبل القلال مطابقًا له.

أقول: إن أخبار وقائع العرب الذين احتلوا هذا الجبل قد رأت في أقاصي آسية، فكتاب العجم سموه كولاقلال كلمة تفيد معنى جبل القلال، وإننا نجد تحت نمرة ٣٨٤ من المخطوطات الفارسية من الخزانة الإمبراطورية هذه الكلمات:

> كولا قلال جزيرة است ودر كوهي است ودر روزكار قديم خراب بوده است ونامسكون جون إسلام قوت كرفت ازن مسلمانان انجا افادندانجا مقام ساختند وساكن شدند واكنون در روي فرنك باشند ومياه ايشان وكافران پيوسته جنك باشند.

ومعناه جبل القلال جزيرة أو شبه جزيرة واقعة في وسط سلسلة جبال كان هذا الجبل في الماضي مهملًا غير مسكون فلما انتشر الإسلام جاء بعض المسلمين إلى هذا المحل واستوطنوه وهم الآن هناك واقفون في وجه الإفرنجة الذين يحيطون بهم ولا يزالون معهم في جلاد مستمر.

ثم قد وجد في كتاب فارسي من قبل عجائب المخلوقات للقزويني واسمه وكاسمه وموضوعه كموضوعه الجملة الآتية: قلال كوهي است ميان دريان روم خراب بودا بادان كردند ودر وجه مصالح افرنجه نهادند واكراين كولا نبودي إسلام برنج امدي.

أي جبل القلال جبل واقع في وسط بجر الروم وكان خرابًا، ولقد سكن فيه أناس وأووا إلى هذا الجبل في جهادهم للإفرنج ولولا هذا الجبل لكان على الإسلام خطر عظيم.

هذا كلام رينو بنصه ويتلخص منه أن جبل القلال ليس بجزيرة بل شبه جزيرة، وإذا رجعنا إلى جزيرة مقاطعة الفار Le Var على حدود إيطالية وجدنا أن المحل الذي يجعل فيه هذا العالم جبل القلال شبه جزيرة، ثم إني قد راجعت ما قاله رينو في كتابه فتوح المسلمين بفرنسة من صفحة ١٥٧ إلى صفحة ٢١٠ فرأيت أن وصف جبل القلال في كتاب ابن حوقل من حيث امتناعه ينطبق تمامًا على فركسيناتوم وأما قوله: إن العرب يجعلون هذا الجبل من ضمن الأندلس؛ لأنهم يسمون بهذا الاسم كل البلاد الواقعة في جنوبي أوربة إلى الغرب، فأظن أنه غير مصيب بل السبب في ذلك هو أن جبل القلال كان تحت حماية خلفاء قرطبة وقد ذكر هذا رينو نفسه في كتابه

الآنف الذكر صفحة ١٨٧ فقال: إن أوتون كان أنشأ علاقات مع أعظم ملوك عصره لا سيما خليفة قرطبة الذي كان هو الحامي للمستعمرة العربية في فركسيناتوم، ويظهر من كتاب رينو أن فركسينة كانت عاصمة الممتلكات الإسلامية في فرنسة وسويسرة وإيطالية الشمالية، وهذه الأهمية التي أشار إليها ابن حوقل والاصطخري لم تكن لجزيرة سردانة، وعلى كل حال فإني أظن الآن أن جبل القلال هو فركسيناتوم ويبقى مع هذا مجال للبحث للوصول إلى الاقتناع العلمي المبني على الحجج القاطعة. انتهى كتاب محمد الفاسي رئيس جمعية طلبة شمالي إفريقية في باريز.

(٢) جاء في نفح الطيب: وأخبار الناصر طويلة جدًّا وقد منح الظفر على الثوار واستنزلهم من معاقلهم حتى صفا له الوقت وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء، فمن غزواته أن غزا سنة ثمان وثلاثمائة إلى جليقية وملكها أوردون ابن أذفونش فاستنجد بالبشكنس فهزمهم ووطئ بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم، ثم غزا بنبلونة سنة اثنتي عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وخرب الحصون وأفسد العمائر وجال فيها وتوغل في قاصيتها والعدو يحاذيه في الجبال والأوعار ولم يظفر منه بشيء ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوار عليه وكان استمد بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبة وفتح ثلاثين من حصونهم.

وبلغه انتفاض طوطة (ملكة الباشكنس) فغزاها في بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع إلى قرطبة، ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين إلى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون، وقعد بعدها عن الغزو بنفسه، وصار يردد البعوث والطوائف إلى الجهاد، وبعث جيوشه إلى المغرب، فملك سبتة وفاسًا وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره.

ولما هلك سانجة بن فرويلة ملك الباشكنس قامت بأمرهم بعده أمه «طوطة» كفلت ولده، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحي بنبلونة ورد عليها الغزوات وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين غزا إلى خشتمة ثم رحل إلى بنبلونة، فجاءته طوطة بطاعتها، وعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل إلى ألبة وبسائطها فدوخها وخرب حصونها ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ ردمير بن أردون فتحامى عن لقائه ودخل خشتمة فنازله الناصر فيها وهدم برغش وكثيرا من معاقلهم وهزمهم مرارًا ورجع ... إلخ.

وجاء في كتاب أخبار مجموعة: وأما عبد الرحمن بن محمد الأمير فإنه وُلي الخلافة والفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف فاشٍ في كل ناحية منها، فاستقبل الملك بسعد، لم يقابل به أحدًا ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه، واستولى على ما في يديه، فافتتح الأندلس مدينة مدينة، وقتل حملتها واستذل رجالها وهدم معاقلها، وضرب المغارم الثقيلة على من استبقى من أهلها، وأذلهم بعسف العمال غاية الإذلال، حتى دانت له البلاد وانقاد له أهل العناد، فمات ابن حفصون في حصاره، وقتل سليمان ابنه محاربًا له، واستنزل سائر بنيه وأهله وأمنهم، وساروا في جنده.

وملك «ببشتر» وبناها، وحصنها، وهدم كل حصن غيرها، وذكر أنه إنما استبقاها عدة لنفسه ولولده، ليلج إليها، لما كانوا يحدثون في الآثار من أن فتنًا تهيج في الأندلس بخوارج يخرجون على أهلها يخربون البلاد ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأولاد حتى يعم الفساد جميع أقطارها فلا يبقى فيها إلا من اعتصم بالمعاقل أو لجأ إلى البحور، وهو عندهم الفساد المتصل بالبلاء الأعظم الذي لا صلاح بعده ولا بقاء معه والله أعلم. وهو المستعان. واتصل ملك عبد الرحمن خمسين سنة في عز منيع وسلطان قاهر. وافتتاح البلدان شرقًا وغربًا إلخ.

قلت: وسنأتي بخبر الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي على أتم وجه إن شاء الله في الأجزاء التالية التي فيها الكلام عن نفس الأندلس.

(٣) نحن ننقل روايات مؤرخي الإفرنج في القرون الوسطى على علاتها وإن كنا نعلم ما فيها من المبالغات ولا سيما ما كان منها مكتوبًا بأقلام القسيسين الذين يخلطون التاريخ بالدعاية.

(٤) ليوتبراند Liutprand مؤرخ ألماني من أشهر المؤرخين وُلد سنة ٩٢٢ وهو من أسرة شريفة في لونباردية، نشأ في معية الملك هوغ في بافية وسنة ٩٤٥ بعد خلع الملك هوغ دخل في خدمة خلفه برنغار، وتوفي سنة ٩٧٠، وكتب كتابين باللاتينية أولهما يسمى معالي الإمبراطور أوثون الكبير.

(٥) سان موريس بلدة في وادي الفالة على السكة الحديدية المؤدية إلى نفق السيملون إلى إيطالية تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية نحوًا من ساعتين تُنسب هذه القصبة إلى دير القديس موريس الذي فيها وهذا الدير قد بناه سجيسموند دوق بورغونية في القرن السادس للمسيح حسبما روى لي القسيس القيم على مكتبة الدير وذلك عندما زرت هذا الدير مؤخرًا منقبًا عن آثار العرب هناك كما سيأتي الكلام عليه.

(٦) Grisons من مقاطعات سويسرة مركزها كوار.

(٧) هذه الوقعة شهيرة ويقول ابن خلدون: إن عبد الرحمن الناصر كان كثير الجهاد بنفسه والغزو إلى دار الحرب إلى أن هُزم عام الخندق سنة ٣٢٣ وأما ابن الأثير فيجعل هذه الواقعة سنة ٣٢٧ ويقول: إنه في تلك السنة عصى أمية بن إسحق بمدينة شنتري على عبد الرحمن الأموي؛ لأنه قتل أخاه فالتجأ إلى رودمير ملك الجلالقة وغزا عبد الرحمن بلاد الجلالقة فانهزمت الجلالقة وقتل منهم خلق كثير ثم خرج الجلالقة وظفروا بالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأراد رودمير اتباعهم فمنعه أمية وخوفه ورغبه في الغنيمة وعاد عبد الرحمن فجهز الجيوش إلى بلاد الجلالقة فألحوا عليهم بالغارات وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين. انتهى.

أما في أخبار مجموعة فإنه يقول: إن عبد الرحمن الناصر في آخر أمره مال إلى اللهو واستولى عليه العجب واستمد بغير الكفاة وغاظ الأحرار بإقامة الأنذال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره وفوض إليه جليل أموره وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وثلاثمائة وسماها غزاة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها فهزم فيها أقبح هزيمة واتبعهم العدو أيامًا يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة فلم يكد ينجو منهم إلا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتخلصوا إلى بلدانهم فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه. أ.هـ. وذكر المسعودي في مروج الذهب هذه الغزاة فقال: وكان عبد الرحمن في مائة ألف أو يزيدون فكانت وقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالقة في شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر وكانت للمسلمين عليهم ثم أنابوا بعد أن حوصروا وأولجوا إلى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين ألفًا وقيل: إن الذي منع رودمير من طلب نجا من المسلمين أمية بن إسحق فقد خوفه الكمين ورغبه في ما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين، ثم إن أمية بعد ذلك استأمن إلى عبد الرحمن وتخلص من رودمير فقبله عبد الرحمن أحسن قبول وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكر مع عدة من قواده إلى الجلالقة، وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية ورودمير

ملك الجلالقة إلى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة انتهى كلام المسعودي المعاصر لتلك الوقائع.

(٨) Rotbaldus يقول رينو: إنه قد يكون روتبلدس الثاني كونت فوركالكية الذي كان يعيش في نواحي سنة ٩٤٥ على ما في تاريخ بروفنس للمسيو بوش.

(٩) وصف ابن خلدون كيفية استقبال عبد الرحمن لرسل صاحب القسطنطينية، قال: ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكة، وزين القصر بأنواع الزينة وأصناف الستور، وحمل سرير الخلافة بين مقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة، ورتب الوزراء والخدمة في مواقفهم، ودخل الرسل فهالهم ما رأوه وقربوا حتى أدوا رسالتهم، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك المحفل ويعظموا من أمر الإسلام والخلافة ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه وذلة عدوه، فاستعدوا لذلك، ثم بهرهم هول المجلس فوجموا وشرعوا في القول فارتج عليهم، وكان فيهم أبو علي الفالي وافد العراق كان في جملة الحكم ولي العهد وندبه لذلك استئثارًا فعجز.

فلما وجموا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطي، من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد بشيء من ذلك فخطب واستحضر وجلَّى في ذلك القصد، وأنشد شعرًا طويلًا ارتجله في الغرض، ففاز بفخر ذلك المجلس، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع، وأعجب به الناصر، وولاه القضاء بعدها وأصبح من رجالات المعالم، وأخباره مشهورة، وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره.

ثم انصرف هؤلاء الرسل، وبعث الناصر معهم هشام بن هديل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الإجابة، ورجع بعد سنتين، وقد أحكم من ذلك ما شاء، وجاءت معه رسل قسطنطين، ثم جاء رسول من ملك الصقالبة، وهو يومئذ دفوه، ورسول آخر من ملك الألمان ورسول آخر من ملك الإفرنجة وراء ألبرت، وهو يومئذ أوفوه، ورسول آخر من ملك الإفرنجة بقاصية المشرق، وهو يومئذ كلدة، واحتفل الناصر بقدومهم وبعث مع رسول الصقالبة ربيعًا الأسقف إلى ملكهم دوفوه، ورجع بعد سنتين.

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة جاء رسول أوردون، بطلب السلم، فعقد له، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب إدخال فردالند قومس قشتيلة في عهده فأذن له في ذلك، وأدخل في عهده. وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة، ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيلة فردلند المذكور ومال إلى أوردون بن رودمير، وكان غرسية بن شانجة حافدًا لطوطة ملكة

البشكينس، فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رودمير الملك وإعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه، وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدومهم وعقد الصلح لشانجة وأمه، وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه، وخلع الجلالقة طاعة أوردون، وبعث إلى الناصر شكره على فعلته وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فردلند (قومس قشتيلة) في نكثه ووثوبه ويعيره بذلك عند الأمم، ولم يزل الناصر على موالاته وإعانته إلى أن هلك، ولما وصل رسول كلده ملك الإفرنجة بالشرق — كما تقدم — وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغبًا في الصلح فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب. انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار، وسنستوفي إن شاء الله وصف الناصر وأبهة خلافته وعظمة قرطبة في أيامه في الأجزاء التالية المتعلقة بالأندلس فإن محل ذلك هناك لا هنا وإنما نقلنا هذا الفصل عن ابن خلدون تأييدًا لما ذكره المستشرق رينو من هذا الباب.

(١٠) وهكذا ذكر المسعودي في مروج الذهب، وكان المسعودي من معاصري أيام الناصر عبد الرحمن.

(١١) قال رينو تحت هذه الجملة: إنه ورد في قانون الدولة العثمانية أن كل من يقذف بالله وصفاته أو بنبيه الكريم أو بكتابه العزيز يعاقب بالقتل ولا يستتاب ولا يمهل.

(١٢) قد تقدم لنا في حواشي هذا الكتاب ترجمة رسالة من قلم رينو يقول فيها: إنه لما حرر هذا التأليف لم يكن اطلع على رحلتي الاصطخري وابن حوقل فلما اطلع عليهما علم أن العرب لم يغفلوا هذه الحادثة بل كانت عندهم ذات بال.

(١٣) قال ابن خلدون: ولأول وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور فغزا الحكم المستنصر بنفسه واقتحم بلد فردنرد بن غنتشاب فنازل شنت اشتايين San Estevan وفتحها عنوة واستباحها وقفل فبادروا إلى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه، ثم أغزى غالبًا مولاه بلاد جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب، فجمع له الجلالقة، ولقيهم فهزمهم واستباحهم، وأوطأ العساكر بلد فردلند ودوخها، وكان شانجة بن رومير ملك البشكنس قد انتقض فأغزاه الحكم التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر، وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم، وامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها، وقفل. ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي إلى بلاد برشلونة،

فعاثت العساكر في نواحيها. وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالبًا إلى بلاد القومس فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فتح قلموية من بلاد البشكنس، على يد غالب، فعمرها الحكم واعتنى بها، ثم فتح قطوبية على يد قائد وشتة وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث وفي بسيطها من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبي ما لا يحصى.

قال: وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألبه، ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون، فابتنى حصن، عرماج ودوخ بلادهم وانصرف، وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير وأفسدوا بسائط أشبونة، وناشبهم الناس القتال، فرجعوا إلى مراكبهم، وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن رماحس بتعجيل حركة الأسطول، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل، ثم كانت وفادة أردون بن أذفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير، وهو ابن عمه، وهو الملك من قبل أردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر أردون بصهره فردلند قومس قشتيلة توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر، فبادر إلى الوفادة على الحكم مستجيرًا به فاحتفل لقدومه وعى العساكر ليوم وفادته وكان يومًا مشهودًا، وصفه ابن حيان كما وصف أيام الوفادات قبله، ووصل إلى الحكم وأجلسه ووعده بالنصر من عدوه، وخلع عليه، وكتب بوصوله ملقيًا بنفسه وعاقده على موالاة الإسلام ومقاطعة فردلند القومس، وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده غرسية، ودفعت الصلات والحملات له ولأصحابه وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقبضوا رهنه، وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن ردمير ببيعته وطاعته مع قوامس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم، يرغب في قبوله، ويمت بما فعل أبوه الناصر معه، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين.

ثم بعث ملكا برشلونة وطوكونية وغيرهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه وبعثا بهدية وهي عشرون صبيًّا من الخصيان الصقالبة، وعشرون قنطارًا من صوف السمور، وخمسة قناطير من القصدير، وعشرة أذرع صقلبية ومائتا سيف فرنجية، فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التي تضر بالثغور، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم، وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الأجلاب على المسلمين.

ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة ملك البشكنس في جماعة من الأساقفة والقوامس يسألون الصلح، بعد أن كان توقف وأظهر المكر، فعقد لهم الحكم، فاغتبطوا ورجعوا.

ثم وفدت على الحكم أم لذريق القومس بالقرب من جليقية، وهو القومس الأكبر فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته واحتفل لقدومها في يوم مشهود مشهور، فوصلت وأسعفت، وعقد السلم لابنها كما رغبت، ودفع لها ما لا تقسمه بين وفدها دون ما وصلت به هي وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلات لسفرها وانطلقت.

ثم أوطأ عساكره أرض العدوة، من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة فبثوها في أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم، ووفد عليه من بني الحرز وبني أبي العافعية، فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بني إدريس من ملكهم بالعدوة في ناحية الريف وأجازهم البحر إلى قرطبة ثم جلاهم إلى الإسكندرية.

وكان محبًّا للعلوم مكرمًا لأهلها جامعًا للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، قال أبو محمد بن حزم: أخبرنى تليد الخصي، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان، أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة، وفي كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير، وأقام للعلم والعلماء سوقًا نافقًا جُلبت إليه بضائعه من كل قطر.

قال أبو محمد بن خلدون: ولما وفد على أبيه أبو علي الفالي، صاحب كتاب الأمالي، من بغداد أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس علمه، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه، وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالًا من التجار ويرسل إليهم الأموال بشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك.

وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلا ما يُذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء، ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من

موالي المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوة.

انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار.

(١٤) هي مجموعة حياة القديسين منسوبة إلى راهب يسوعي اسمه بولاند، وقد بدأ هو بها وأكملها غيره فصارت تسمى مجموعة البولنديين.

(١٥) قصبة هي مركز مقاطعة الألب العليا كان العرب استولوا عليها طويلًا.

(١٦) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخي فرنسة وقال: من الجائز أن يكون بعض المسلمين فروا إلى البحر وذهبوا إلى الأندلس أو إلى صقلية أو إلى سواحل إفريقية، وقد قال: دربلو D'Herbelot في «المكتبة الشرقية» تحت اسم المعز وكذلك كاردون Cardonne في تاريخ مغاربة إفريقية أنه في ذلك الوقت أي نواحي سنة ٩٧٠ كان المسلمون مالكين لجزيرة سردانية وأن الخليفة المعز قبل أن فتح مصر كان أقام بسردانية مدة سنة وقد وافق على هذه الرواية ميمو Mimaut صاحب تاريخ سردانية وزعم «دلبين» Delbene أن المسلمين كانوا استولوا على كورسكة أيضًا وهي التي يقول لها العرب: قوسقة.

ويقول دلبين إنه كان لهم أمير يقال له: «موجه» Mugat جرد عليه كونت بروڤنس جيشًا انضم إليه الجنويون، ولا شك أن دلبين يريد أن يتكلم عن الأمير مجاهد الذي كان أغار على سرادنية وكان البيزانيون أو البيازنة (كما يقول العرب) ولكن قصة مجاهد هذا وغارته على سردانية متأخرة عن هذا التاريخ بنحو من ثلاثين سنة. انتهى كلام رينو.

قلت مجاهد العامري من مماليك الملك الغازي الشهير المنصور بن أبي عامر، كان بعد ذهاب دولة المنصور قد تقلبت به الأحوال، فاستولى على دانية وشن الغارة على سردانية. ترجمه ابن عميرة في بغية الملتمس فقال: مجاهد بن عبد الله العامري. أبو الجيش الموفق، مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد. كان من أهل الأدب والشجاعة والعلوم وأهلها، نشأ بقرطبة وكانت له همة وجلادة وجرأة، فلما جاءت أيام الفتنة وتغلبت العساكر على النواحي بذهاب دولة ابن أبي عامر قصد هو في من تبعه الجزائر التي في شرقي الأندلس، وهي جزائر خصب واسعة، فغلب عليها وحماها (يريد بهذه الجزائر ميورقة ومينورقة ويابسة)، ثم قصد منها في المراكب إلى سردانية (جزيرة من جزائر الروم كبيرة) في سنة ست أو سبع وأربعمائة فغلب على أكثرها وافتتح معاقلها.

ثم اختلفت عليه أهواء الجند وجاءت أمداد الروم، وقد عزم على الخروج منها طمعًا في تفرق من يشغب عليه، فعالجته الروم وغلبت على أكثر مراكبه، فأخبرني أبو الحسن نجبة بن يحيى قال: أنبأنا شريح بن محمد عن أبي محمد بن حزم قال: إن أبا الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني قال: كنت مع أبي الجيش مجاهد في سردانية فدخل بالمراكب في المرسى نهاه عنه أبو خروب رئيس البحريين، فلم يسمع كلامه، فهبت ريح فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركبًا مركبًا إلى الريف، والروم وقوف لا شغل لهم إلا القتل والأسر للمسلمين، فكلما سقط مركب بين أيديهم جعل مجاهدًا يبكي بأعلى صوته، لا يقدر هو ولا غيره على أكثر من ذلك، لارتجاج البحر وزيادة الريح.

إلى أن يقول: قد كنت حذرته من الدخول ههنا فلم يقبل، قال فبجريعة الذقن ما تخلصنا في يسير من المراكب، هذا آخر خبر ثابت بن محمد.

ثم عاد مجاهد إلى الجزائر الأندلسية التي كانت في طاعته واختلفت به الأحوال حتى غلب على دانية وما يليها، واستقرت إقامته فيها، وكان من الكرماء على العلماء، باذلًا للرغائب في استمالة الأدباء، وهو الذي بذل لأبي غالب اللغوي تمام بن غالب ألف دينار على أن يزيد في ترجمة الكتاب الذي ألفه في اللغة مما ألفه لأبي الجيش مجاهد على ما ذكرنا في باب التاء، وفيه يقول أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي وقد استماله على البعد بخريطة مال ومركب أهداهما إليه قصيدة أولها:

أتتني الخريطة والمركب ... كما اقترن السعد والكوكب

وسط بمينائه قلعة ... كما وضعت حملها المقرب

على ساعة قام فيها الثناء ... على هامة المشترى يخطب

إلى أن قال:

مجاهد رضت إباء الشموس ... فأصحب ما لم يكن يصحب

فقل واحتكم فسمع الزمان ... مصيخ إليك بما ترغب

وقد ألف في العَروض كتابًا يدل على قوته فيه، ومن أعظم فضائله تقديمه للوزير الكاتب أبي العباس أحمد بن رشيق وتعويله عليه، وبسط يده في العدل وحسن السياسة، وكان موته بدانية في سنة ٤٣٦.

وجاء في معجم البلدان لياقوت: أن المسلمين غزوا سردانية في سنة ٩٢ في عسكر موسى بن نصير والذي قرأته في التواريخ أن عبد الله بن موسى بن نصير هو الذي فتح

ميورقة وأخواتها ولعله غزا سردانية.

وجاء في تاريخ ابن عذارى المراكشي المسمى بالبيان المغرب، أن المسلمين غزوا سردانية في سنة ٢٠٦ وعليهم محمد بن عبد الله التميمي فأصابوا وأصيب منهم ثم قفلوا.

وقد اطلعت في مدينة جنوة على تاريخ بالطلياني لجمهورية جنوة لمؤلف يقال له: «فريدريسي دونافر» De Naver جاء فيه: إنه في سنة ١٠١٦ ذهب أسطول جنوي إلى سردانية وتقلب على قوة مجاهد الأمير العربي الذي كان استولى عليها، وأنه في سنة ١٠٣٤ وصل الأسطول الجنوي إلى إفريقية واحتل الجنوية عنابة، وأنه في سنة ١٠٨٧ ذهبت الأساطيل الجنوية والبيزانية، ومعها أسطول امالفي (بقرب نابولي) بأمر البابا فكتور الثالث، واجتاحت سواحل تونس وطرابلس واضطر أمير إفريقية أن يدفعهم عنها بفدية تبلغ نصف مليون بحسب المعاملة في زمن صاحب التاريخ وسلم إليهم الأسرى المسيحيين الذين كانوا عنده.

ومما جاء في تاريخ جنوة هذا أنه في مدة ١٣ سنة غزا الجنوية ثماني غزوات في بلاد الإسلام، وإن فتح الصلبيين لطرابلس الشام كان على أيدي الجنوية في ١٣ تموز سنة ١١٠٩ وأن أمير ياتشي قائد الجنوية تولى مدينة جبيل، ثم إنه في سنة ١١١٠ كانت له اليد الطولى في حصار بيروت وفتح الصليبيين لها. قال: واشترك الجنويون مع غودفروا دو بويون في فتح القدس وفتحوا صور وقيسارية.

هذا وجاء في تاريخ الخلفاء للإمام السيوطي أن الوليد بن عبد الملك تولى الخلافة في شوال سنة ست وثمانين وأنه في سنة ٨٧ فتح سردانية من جملة فتوحات عدها وأنه في سنة ٨٩ فتح جزيرتي ميورقة ومينورقة.

(١٧) لي من قصيدتي الأندلسية التي نظمتها بعد وصولي إلى قرطبة:

وسائل عن المنصور نجل ابن عامر ... يجاوبك عنه كل قوس موتر
غزا في العدى ستًّا وخمسين غزوة ... فآب بها طرا بنصر مؤزر

(١٨) سنأتي في الأجزاء التالية على كل ما يتصل بنا من أخبار المنصور بن أبي عامر الذي يقدر أن يضعه المؤرخون في الصف الأول من رجال العالم، لأن محل هذه الترجمة هو في تاريخ الأندلس لا في تاريخ فرنسة، ولكن من حيث إن المستشرق رينو أشار إلى غزوات المنصور الشهيرة لم نشأ أن نخلي هذا الجزء أيضًا من شيء من ترجمته، فنقول:

جاء في نفح الطيب ما يلي: ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا — وللكعبة المثل الأعلى — فبها يحلفون وإليها يجمعون من أقصى بلاد رومة وما وراءها، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب أحد الحواريين الاثنى عشر وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه وياقب بلسانهم يعقوب، وكان أسقفًا ببيت المقدس فجعل يستقري الأرضين داعيًا لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها، وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها ولا الوصول إليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبُعد شقتها، فخرج المنصور إليها من قرطبة غازيًا بالصائفة يوم السبت لستٍّ بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وهي غزوته الثامنة والأربعون، ودخل على مدينة قورية، فلما وصل إلى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة، في رجالهم وعلى أتم احتفالهم، فصاروا في عسكر المسلمين وركبوا في المغاورة سبيلهم، وكان المنصور تقدم في إنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي وانس من ساحل غرب الأندلس وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين وحمل الأقوات والأطعمة والعدة والأسلحة استظهارًا على نفوذ العزيمة، إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويرة فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه، فعقد هنالك من هذه الأسطول جسرًا بقرب الحصن الذي هنالك، ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند فتوسعوا في التزود منه إلى أرض العدو، ثم نهض منه يريد شانت ياقب فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طريق لم يهتد الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر وعبروا بعده وادي منية وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين، وانتهت مغيرتهم إلى دير قشان وبسيط يلنبو على البحر المحيط، وفتحوا حصن شنت بلايه وغنموه وعبروا بساحته إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل النواحي، فسبوا من فيها ممن لجأ إليها، وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتصل من

أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجًا في معبرين أرشد الأدلاء إليهما ثم نهر أبلة ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصد نساكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما، فغادره المسلمون قاعا، وكان النزول بعد على مدينة شانت ياقب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان، فوجدها المسلمون خالية من أهلها فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيمًا كأن لم تغن بالأمس وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط، وانتهت الجيوش إلى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم، فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله، فجعل في طريقه القصد على عمل برمند بن أردون يستقريه عائثًا ومفسدًا حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره، فأمر بالكف عنها ومر مجتازًا حتى خرج على حصن بليقية من افتتاحه، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم، وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم إلى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية.

وكان مبلغ ما كساه في غزاته هذه لملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسًا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي وواحدًا وعشرين كساء من صوف البحر وكسائين عنبريين وأحد عشر سقلاطونًا وخمسة عشر مريشًا وسبعة أنماط ديباج وثوبي ديباج رومي وفروى فنك، ووافى جميع العسكر قرطبة غانمًا وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ولم يجد بشنت ياقب إلا شيخًا من الرهبان جالسًا على القبر فسأله عن مقامه، فقال: أونس يعقوب. فأمر بالكف عنه. قال: وحدث شعلة قال: قلت للمنصور ليلة أطال سهره فيها: قد أفرط مولانا في السهر وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب، فقال: يا شعلة الملك لا ينام إذا نامت الرعية ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة. انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور.

(١٩) جاء في نفح الطيب نقلًا عن ابن سعيد أن المنصور رحمه الله توفي في غزاته للإفرنج سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وحُمل في سريره على أعناق الرجال وعسكره

يحف به وبين يديه إلى أن وصل إلى مدينة سالم. انتهى.

وجاء في النفح من جملة مناقبه أنه خط بيده مصحفًا كان يحمله معه في أسفاره وغزواته يدرس فيه ويتبرك به، ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصييرها في حنوطه، وكان يحملها حيث صار مع أكفانه، توقعًا لحلول منيته، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته، وكان يسأل الله أن يتوفاه في طريق الجهاد فكان كذلك. انتهى.

قلت: وقبره معروف في مدينة سالم والإسبانيول يلفظونها مدينة سالي أو ثالي بالثاء.

(٢٠) ذهب كثير من المؤرخين إلى أن نظام الفروسية الذي كان معروفًا في أوربة في القرون الوسطى رشح إلى الأوربيين من عرب الأندلس ولنجيب بك غالي من أفاضل المصريين الأقباط كتاب نفيس في هذا الموضوع معزز بالأدلة والشواهد.

(٢١) جاء في النفح: ولما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان، فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعيادًا دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع تشبيهًا بسابع العروس ولم يزل مثل اسمه مظفرًا إلى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في المحرم وثارت الطوائف في ممالكهم وتحركت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم. انتهى.

(٢٢) بعد وفاة عبد الملك المظفر بن المنصور قام بالأمر أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنن أبيه وأخيه، في الحجر على الخليفة هشام الأموي والاستبداد والاستقلال بالملك دونه، ثم بدا له الاستئثار بما يفي من رسوم الخلافة فطلب من هشام أن يوليه عهده، ولما لم يكن لهشام أدنى إرادة معه أجابه إلى ما طلب، وأحضروا لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد، فكان يومًا مشهودًا، فكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن برد، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم، وتسمى عبد الرحمن بن المنصور بولي العهد.

وكانت هذه هي الغلطة الكبرى التي بدأ بها انقراض دولة المنصور ودولة بني أمية ودولة الإسلام كلها في الأندلس لأن هذا الاعتداء أغضب الكثيرين، وبدأت به الحرب

الأهلية التي شغلت المسلمين بعضهم ببعض وتركت الثغور عورة، وأوجدت ملوك الطوائف يقتتلون ليلًا ونهارًا بمشهد من عدو الأمة.

وجاء في النفح أن أهل الدولة نقموا على عبد الرحمن (ولي العهد) ما فعله مما كان فيه حتفه وانقراض دولته ودولة قومه وكان أسرع الناس كراهة لذلك الأمويون والقرشيون، فغصوا بأمره وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضرية إلى اليمنية، فاجتمعوا لشأنهم وتمشت من بعض إلى بعض رجالاتهم وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور، في غزاة من صوائفه ببلاد الجلالقة، ووثبوا بصاحب الشرطة بقرطبة فقتلوه بمقعد من باب قصر الخلافة، وخلعوا هشامًا المؤيد الذي ولي عهده عبد الرحمن بن المنصور، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدي بالله، وطار الخبر إلى عبد الرحمن بمكانه من الثغر فانفض جمعه وقفل إلى الحضرة، وقد تسلل عنه جنده ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي وأغروه بعبد الرحمن لسوء سيرته، فاعترضه من قبض عليه واحتز رأسه وحمله إلى المهدي، وذهبت دولة العامريين كأن لم تكن.

قال: وكان رؤساء البربر وزناتة قد لحقوا بالمهدي الخليفة الجديد لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن، إلا أن الأمويين كانوا حاقدين عليهم لما كان من مظاهرتهم للعامريين، فلم يلبثوا أن سخطتهم القلوب وخزرتهم العيون ونهبت العامة دورهم وشكوا أمرهم إلى المهدي فلم تنفع شكواهم فتمشت رجالاتهم وأسروا نجواهم، وبايعوا هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر، فعوجلوا عن مرامهم ذلك وثار بهم السواد الأعظم وأزعجوهم عن المدينة، وتقبضوا على هشام وأخيه أبي بكر وأحضروهما بين يدي المهدي، وضربت أعناقهما.

وفر سليمان ابن أخيهما واجتمع في البربر في ظاهر قرطبة، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ونهضوا به إلى طليطلة فاستجاشوا بالنصارى، وزحف ابن أذفونش في جيش انضم إلى البربر ووصلوا إلى قرطبة وهزموا المهدي ومن معه، وقتل في ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفًا، ودخل المستعين قرطبة ختام سنة أربعمائة، ولحق المهدي بطليطلة واستجاش هو أيضًا بابن أذفونش فزحف معه إلى قرطبة وهزموا المستعين والبربر أصحابهم، ودخل المهدي قرطبة وملكها ثانية.

وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يبقون على أحد، ثم ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء، فخرج المهدي ومعه ابن أذفونش لقتالهم فكرُّوا عليهم

وانهزم المهدي وابن أذفونش ومن معهما من المسلمين والنصارى، ودخل المستعين قرطبة ثاني مرة، ولكنه لم يدخلها هذه المرة خليفة بل أخرج هشامًا الخليفة القديم وبايع له وقام بأمر حجابته، ظنًّا منه أن ذلك يحسم الفتنة، وقام أهل قرطبة وأغروا أهل القصر بالمهدي وقتلوه، ظنًّا بأن قتله يحسم النزاع، وصار هشامًا هو الخليفة، وقام واضح العامري بحجابته، فعند ذلك بعث المستعين إلى النصارى يستعديهم لمظاهرته فبعث إليهم الخليفة هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك بأن يسلموا إليهم الحصون والقلاع التي كان المنصور قد افتتحها من بلادهم وهكذا وقف الأذفونش عن مساعدة المستعين، ولكن المستعين والبربر تغلبوا على أهل قرطبة ودخلوها عنوة ونهبوها وأنزلوا المعرات في أهلها، وتولى البربر الأعمال واستقلوا بالبلاد مثل باديس بن حيوس في غرناطة، والبرزالي في قرمونة والغرني في روندة، وهزرون في شريش.

وافترق شمل الجماعة بالأندلس وسقطت هيبة الخلافة وبدأ دور الانحطاط بخمس دولة صغيرة كبني عباد بأشبيلية، وبني الأفطس ببطليوس، وبني ذي النون بطليطلة، وبني هود بسرقسطة، وابن أبي عامر ببلنسية، ومجاهد العامري بدانية والجزائر. انتهى نقلًا عن نفح الطيب.

وقال ابن عذارى في كتابه «البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب»: إن عبد الملك المظفر بن المنصور عند وفاة أبيه كتب إلى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة، فاستوثق له الأمر ولم يرد أحد طاعته، واجتمع الناس على حبه، وكان مع غلبة النبيذ عليه واستغراقه في لذاته مراقبًا لربه باكيًا على ذنبه، وكان من فرط الحياء مع الشجاعة في غاية بعيدة، وله في بلاد الروم آثار عظيمة، غزا سبع غزوات في مدته وفي السابعة توفي، قيل مات مسمومًا وقيل مات من علة الذبحة، وكان موته بمنزل أم هانئ بمقربة من أرملاط لأربع خلون من صفر سنة ٣٩٩ فكانت مدته في الملك ست سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام، وكانت أول غزواته إلى بلاد الإفرنج سنة ٣٩٣ ودوخ بسائط برشلونة وفتح حصن ممقصر عنوة وأسكنه المسلمين.

وقال ابن عذارى: إنه لما ذهب عبد الملك إلى مدينة سالم واقاه هنالك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم، أرسل بهم ملك القوط يومئذ أذفونش بن أردن المعروف بابن البربرية، ومعهم آخرون ممن أرسل بهم خاله شانجة بن غرسية زعيم الجلالقة وصاحب قشتيلة وألبة، وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدي عبد الملك على ما تضمنه شرط سلمهم المنعقد صدر هذه الدولة، وافين بالعهد حافظين للحرمة، فأحسن عبد

الملك قبولهم وأصعد عن مدينة سالم نحو الشفير الأعلى، قال نقلًا عن حيان بن خلف: إنه في غزاته لأرض برشلونة افتتح ستة حصون، ولكن الحصون التي دمرها للعدو خمسة وثمانون حصنًا.

قال: وفي سنة ٣٩٥ غزا جليقية، وكان مظفرًا، وسنة ٣٩٦ غزا بنبلونة وسار إلى سرقسطة ثم إلى وشقة ثم إلى بربشتر، ومنها دخل أرض العدو ودمرها تدميرًا، وسنة ٣٩٧ غزا بلاد قشتيلة من عمل الطاغية شانجة بن غرسية بن فرلند، وهي غزاة قلونية الخامسة من غزواته المعروفة بغزاة النصر التي لقي فيها شانجة بجميع النصرانية على اختلافها، فهزمه عبد الملك هزيمة عظيمة، رزق الله المسلمين فيها النصر المبين، وعلى أثرها تسمى عبد الملك بالمظفر، وصدر له بذلك منشور من الخليفة هشام، وأضاف إلى لقب المظفر لقب سيف الدولة، وسنة ٣٩٨ غزا عبد الملك بالشاتية، وهي السادسة من غزواته، واحتل شنت مرتين، ثم غزا غزاته السابعة سنة ٣٩٨ وقال فيها نقلا عن ابن حيان: ومن كبار علل عبد الملك ومنكراتها على الإسلام ومؤذناتها بما جرى عليه بعد من الانثلام، علته الشديدة بمدينة سالم، مخرجه إليها سنة ثمان وتسعين، محتفلًا لقصد عدو الله شانجة بن غرسية بن فرلند، فصدته عن الدخول إليه بجموع المسلمين واشتدت به مدة تفرق عنه فيها أكثر المطوعة، وصارت على الإسلام مصيبة بما أوهنت من بطش عضده ونقصت من حفيل عدده، ورام مع ذلك كله الاقتحام على أعداء الله في حال تفوهه طمعًا في إتمام غزوه فكانت آخر صائفة نفذت من الحضرة، إذ هلك عبد الملك وألقت بركها الفتنة.

قال: لما دفن المظفر رحمه الله تأهب أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول (اسم غلب عليه من قبل أمه بنت شانجة النصراني الملك تذكرًا منها لاسم أبيها فكانت تدعوه في صغره بشنجول وكان أشبه الناس بجده شانجة) فنظر في الأمور نظرًا غير سديد وأنفق الأموال في غير وجهها، ثم لما مضى لوقته شهر ونصف تصنع للخليفة هشام بن الحكم، وطلب منه أن يوليه العهد من بعده، وأن يتسمى بولي عهد المسلمين، ففعل ذلك هشام لضعفه وسوء نظره ونقصان فطرته، فولاه عهده، فكان ذلك سبب انحراف أكابر الأندلس عن عبد الرحمن، لما تبين لهم من سخف عقله وسرعته إلى نقل المملكة عن خلفائها إليه دون غزاة ولا نصرة في حرب.

وقد شرح ابن عذارى فتنة قرطبة التي أدت إلى انهيار الإسلام في الأندلس مع أسبابها وتفاصيلها بما لم يشرحه مؤرخ قبله ولا بعده، وسنأتي على ذلك في الأجزاء

التالية، وقد ذكر في عرض كلامه على استجاشة مسلمي قرطبة بالإسبانيول بعضهم على بعض أن رجلًا نصرانيًّا وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال قولًا نال منه ﷺ، فلم يكلمه أحد بكلمة، فقال رجل من المسلمين غيرة للنبي: ألا تنكرون ما تسمعون؟ أما أنتم مسلمون؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة: امض لشغلك، وكان الإفرنج إذا سمعوا الأذان للصلاة قالوا قولًا لا يذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء. انتهى.

(٢٣) أمام سواحل فرنسة الجنوبية عدة جزر بهذا الاسم أشهرها سانت مارغريت وسان أونورا.

(٢٤) إن هذا الفتح وقع قبل نشر رينو كتابه بخمس سنوات.

(٢٥) قال ابن حوقل في المسالك والممالك: وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر، وطولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة، وتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر، إلى أسباب التملك الفاشية في أكثرهم ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم، ويسار ملكهم بقلة شغله وسقوط تكلفه بشيء يحذره وحال يخافه، إذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله، ومما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها في كل سنة مائتا ألف دينار، يكون عن صرف سبعة عشر بدينار ثلاثة آلاف ألف درهم وأربعمائة ألف درهم، هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالي والرسوم على بيوع الأسواق.

ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال. انتهى.

وجاء في المسالك والممالك لابن حوقل عند الكلام على بحر الروم ما يؤيد قول رينو من إدبار أمر المسلمين منذ أوائل القرن الرابع للهجرة، وذهاب ما كان فيهم من حماسة في القرون الثلاثة الأولى، واستيلاء الرخاوة عليهم حتى أصبحوا لا يمنعون ذمارهم ولا يقدرون أن يحملوا جارهم.

قال ابن حوقل: وليس في البحار أعمر حاشية من هذا البحر؛ لأن العمارات في الجانبين ممتدة غير منقطعة ولا ممتنعة وسائر البحار تعترض في شطوطها المفاوز

والمقاطع، وقد ألح الروم فقي وقتنا هذا على المسلمين الذين على سواحله بالغارات واختطاف مراكبهم من كل جهة ولا غياث لهم ولا ناصر، والملك فيهم حقير ذليل وهو جامع مانع والعالم يسرق ولا يشبع، ويفتي بالتأويل على ما يختار ولا يخاف معادًا ولا مرجعًا، والتاجر فاجر لا يعاف حرامًا ولا مطعمًا، والزاهد ذئب أدرع في كل بلية يشرع وبكل ريح يقلع، فالثغور والجزائر إلى الأعداء مسلمة، والأرض إلى الله من أربابها متظلمة. انتهى

قلت: كان هذا كلام ابن حوقل في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة مما يدل على أن المرض قديم، وإنه لا عجب إذا آلت الحال إلى ما آلت إليه فيما بعد، لكن المسلمين هبت لهم ريح في القرن التاسع للهجرة وعاد بحر الروم كما بدا تحت سلطتهم وذلك في أيام السلطان سليمان العثماني وخير الدين بربروس وعمال السلطان على جزائر الغرب، وبقيت لهم تلك الصولة مدة طويلة إلى ان انتكث حبلها في القرون الأخيرة، وما زالت الأيام مدًّا وجزرًا مذ خلق الله العالم.

(٢٦) قلت: إن كلام مؤرخي العرب عن الإفرنج هو أنهم مع شجاعتهم أقل صبرًا في الحروب من الجلالقة، أي من الإسبانيول سكان شمالي إسبانية، قال ابن حوقل: وثغور الجلالقة ماردة ونفزه ووادي الحجارة وطليطلة ومدينة الجلالقة مما يلي ثغور الأندلس يقال لها: سمورة وعظيم الجلالقة بمدينة يقال لها: ليون فيها سلطانهم وعدتهم بعد سمورة، ومدينة لهم يقال لها: أوبيط (Oviedo) وهي بعيدة عن بلد الإسلام وليس في أصناف الكفر الذين يلون الأندلس أكثر عددًا من الإفرنج، غير أن الذين يلون المسلمين منهم فئة ضعيفة شوكتهم قليلة، وفيهم إذا ملكوا طاعة وحسن نصيحة ومحاسن كثيرة، وإليهم يرغب أهل الأندلس عن الجلالقة، والجلالقة أصدق محاسن وأقل طاعة وأشد قوة وأكثر بأسًا وبسالة، وفيهم غدر، وهم في عرض طريق الإفرنجة. انتهى.

وجاء في صبح الأعشى عن الجلالقة أنهم أمة يغلب عليهم الجهل والجفاء، ومن زيهم أنهم لا يغسلون ثيابهم بل يتركونها عليهم إلى أن تبلى، ويدخل أحدهم دار غيره بغير إذن. وهم أشد من الفرنج.

ثم ذكر القلقشندي مدينة سمورة وقال: إنها قاعدة جليقية، وقال: إن المسلمين كانوا ملكوها ثم استرجعها الجلالقة زمن الفتنة، أي زمن فتنة شنجول العامري الذي باعتدائه على الخلافة مع عدم أهليته الشخصية جر على الإسلام من الفرقة ما انتهى أخيرًا بضياع الأندلس.

(٢٧) الذي وجدناه في نفح الطيب للمقرى هو هذا: وقيل: إنه أوغل (يعني موسى بن نصير) في أرض الفرنجة حتى انتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنمًا عظيمًا قائمًا كالسارية مكتوبًا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت، فإذا هي: يا بني إسماعيل انتهيتم فارجعوا. فهاله ذلك، وقال: ما كتب هذا إلا لمعنى كبير فشاور أصحابه في الإعراض عنه، وجوازه إلى ما وراءه، فاختلفوا عليه فأخذ برأي جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصي الغاية. انتهى.

قلت: وقد تقدم هذا الخبر وهو أشبه بالأساطير.

الفصل الرابع

الصفة العامة لغارات العرب هذه والنتائج التي ترتبت عليها

مرادنا أن ننظر إلى هذه الغارات العربية من حيث المجموع وأن نشير إلى بعض حقائق لم يتسنَ لنا حتى الآن أن نتبسط فيها.

وكذلك نريد أن نذكر الشعوب المختلفة التي ضربت بأسهم مذكورة في هذه الغارات، ولا نزاع في أن النهضة الأولى قد كانت للعرب، وأن جميع الغزوات الكبرى كان يرأسها قواد من هذه الأمة، وأن الاسم العربي هو الذي كان غالبًا فيها، وأنه كان بمنزلة القطب من الرحى، وأن المراد بلفظة «سارازين» عند كتَّاب الأوربيين هو العرب لا غير.

فمن أين جاءت لفظة سارازين هذه؟ الجواب جاءت من اللفظة اللاتينية «ساراسنوس» التي أصلها اللفظة اليونانية «سراكنوس» وهذه اللفظة معروفة منذ القرون الأولى من التاريخ المسيحي، والناس تقصد بها العرب الرحل الذين في جزيرة العرب وبين دجلة والفرات وسورية وبلاد العجم، قد ذهب الناس مذاهب شتى في مأخذ هذه اللفظة، وأكثر الآراء اتفقت على أنها مشتقة من «شرقي» لا سيما أن بطليماوس الجغرافي الفلكي اليوناني الذي كان بمصر يتكلم في جغرافيته عن شعب يقطن في بلاد جزائر الغرب يقال له: مغاربة Machurebe فمن هنا ظهر أنه أريد بكلمة «شرقيين» التي جاءت منها كلمة «ساراكينو» العرب الذين بقوا في آسية، كما أن الذين جلوا منهم إلى إفريقية تسموا مغاربة وذلك كما هي الحال اليوم.

وقد ذهب بعض علماء المسيحيين في القرون الوسطى إلى أن «سرازين» مشتقة من «سارة» زوجة إبراهيم الخليل، وهذا غير وارد؛ لأن سارة هي أم إسحق لا أم إسماعيل جد العرب.

ومن الأسماء التي يطلقها المسيحيون على العرب في القرون الوسطى الإسماعيلية،[١] أي أبناء إسماعيل، وهذه هي نسبة موافقة للواقع؛ لأن قسمًا كبيرًا من قبائل العرب متسلسل من إسماعيل، ومحمد من هذه السلالة، ولكن العرب لا يعترفون بأن إسماعيل كان ابن أمة وأن إسحق يمتاز عليه، وهم ينسبون إلى إسماعيل كل ما ورد في التوراة عن إسحق، ومما استعملوه في القرون الوسطى من الأسماء التي كانت تطلق على العرب لفظة «هجارنة» أي سلالة هاجر، وهذا الاصطلاح، أي هجارنة، مجهول عند العرب، ثم إن أعظم شعب اشترك مع العرب في هذه الغزوات هو الشعب الساكن في جبل الأطلس ونواحيه المنتشر من مصر إلى الأوقيانوس الأطلنطيكي، ومن البحر المتوسط إلى السودان، والذي يقال له: البربر. يعرفهم الإنسان بلونهم النحاسي وأنوفهم الحادة وشفاههم الرقيقة ووجوههم المستديرة، والمظنون أن هذه الأقوام التي يقال لها: البرابر قد وجدت في إفريقية قبل أن وجد الفينيقيون في قرطجنة، وهم من قديم الزمان معتصمون بجبالهم لا يخضعون لسلطة أجنبية، وكان اليونان والرومان يقولون عنهم: البرابرة فبقي عليهم اسم بربر إلى الآن. وقد اندمج هؤلاء البربر مع غيرهم من الإفريقيين ومع بقايا الشعب القرطجني وبقايا الرومان والفاندال، وتألف منهم شعب واحد يقال له: الشعب المغربي Maure أو الشعب الإفريقي Afri ou Afrecaia.

وقد كان بين الأقوام الذين اشتركوا مع العرب في غزو فرنسة من هم من سلالة جرمانية أو صقلبية، وذلك أنه في القرنين الرابع والخامس للمسيح تقدم أسلاف الذين كانوا ساكنين في شمالي البحر الأسود ونهر الدانوب، زاحفين إلى قلب أوربة وإلى جنوبيها، بأسماء مختلفة، كصقالبة وخرواطيين وسربيين وموارفيين وبوهيميين وتديروا بولونية وبوهيمية وسربية ودالماسية، وقسمًا من بلاد اليونان، وكانوا في أثناء زحفهم يقتتلون مع الأمم السكسونية والأمم الهونية التي منها المجار، وكان الفريقان في حروب دائمة مع شارل مارتل وأولاده وأحفاده؛ لأن ممالك هؤلاء كانت دائمًا عرضة لغارات هؤلاء البرابرة، ولم تنقطع هذه الحروب المصطلمة إلا بعد أن دخل الجرمانيون والسلاف في النصرانية، وقد كان البرابرة المذكورون يستعملون الأسرى الذين يقعون في أيديهم كالحيوانات بلا فرق، وكان أهالي هولندة يبيعون أسراهم كالعبيد، وانتشرت هذه العادة في فرنسة والبلاد المجاورة لها، ولم تنقطع إلا بعد أن دخل هؤلاء البرابرة في النصرانية[٢] وتهذبوا.

ومن المعلوم أن تجارة الرقيق امتدت جدًّا بعد أن افتتح المسلمون الشام ومصر وإفريقية والأندلس؛ لأن العرب كانوا يعرفون الرق ويحملون عبيدهم على جميع الأشغال

اليدوية وعلى الحرث والزرع، أما في الشرع الإسلامي فالرقيق لا يهان أصلًا، وكل عبد تظهر كفايته في شغل من الأشغال يقدر أن يرقى إلى ما يرقى إليه الحر بدون فرق وكان التجار يذهبون إلى بلاد الجرمانيين والسلاف وأحيانًا إلى نواحي بحر الأدرياتيك والبحر الأسود ويأتون بأصناف الرقيق، ولم يزل أهالي القوقاس يبيعون من أولادهم إلى اليوم، فكانت هذه الشعوب تبيع من أولادها إلى التجار، وكان يأتي منهم قسم إلى فرنسة لا بالبيع والشراء بل بواسطة السبي في الحروب.

ولما كان المسلمون غيرًا في قضية الحريم صاروا يخصون هؤلاء العبيد ليمكنهم استخدامهم في داخل الأحاريم بدون خوف فتنة، وهكذا تولدت في فرنسة مهنة جديدة هي مهنة الخصي، وتأسس لذلك معمل كبير في فاردون Verdun في بلاد اللورين.

وكان الصبيان الذين ينجون من خطر هذه العملية القاسية يباعون في أسواق الأندلس بأثمان عالية، وكانوا يتهادون الخصيان من الصقالبة كما يتهادون الخيل أو الحلي الثمينة.

وقد روى أحد كتَّاب العرب أنه في سنة ٩٦٦ أراد أمراء كتلونية من الإفرنج أن يتزلفوا إلى خليفة قرطبة فقدموا له هدايا من جملتها عشرون خصيًّا صقلبيًّا، والعرب يصفون جميع الرقيق الجرماني والصقلبي والسلافي بلفظة صقلبي Saclabi ونظن أنه من هذه اللفظة جاءت كلمة اسكلاف Esclave بمعنى عبد. وكان أكثر حرس خلفاء قرطبة وأمراء الأندلس من الصقالبة، وكان منهم كثير في صقلية، ولهم في مدينة بلرم حارة منسوبة إليهم، وكان منهم عدد كبير في إفريقية، وقد يصل الصقالبة إلى أعلى المناصب، ولذلك لا يمكنك أن تقرأ تاريخًا لدولة عربية ليس فيه ذكر للصقالبة؛ إذ بدون ذلك يكون التاريخ مغلقًا لا يتحصل فهمه.[٣]

ولم يكن بين العرب والبربر أناس من شمالي أوربة ومن أصل وثني فقط، بل وجد لهم أنصار ويا للخجل قد ولدوا في حجر النصرانية، من أهل إيطالية وأهل فرنسة، وقد كان اليهود يستثمرون بؤس الأهالي ويشترون الأولاد من ذكور وإناث ويأتون بهم إلى مراسي البحر حيث كانت ترد سفن اليونان والبنادقة وتحملهم إلى بلاد الإسلام، وكانت هذه التجارة القبيحة قد وصلت إلى قلب عاصمة النصرانية، وقد جاء في مجموعة موارثوري أنه في سنة ٧٥٠ اضطر البابا زخريًّا أن يشتري بماله من أيدى البنادقة عددًا كبيرًا من الأولاد ذكورًا وإناثًا كانوا يريدون الخروج بهم من رومة ثم إن البابا الذي خلف زخريًّا اضطر أن يحرق مراكب كثيرة لليونان آتية لحمل الرقيق، وقد

جاء في تاريخ الصليبيين للمسيو ميشو أن هذه التجارة كانت جارية في أوربة حتى القرن الثالث عشر، ولكن بشيء من الاحتياط، وكان أسارى المسيحيين والسبي منهم يستخدمون في جيوش المسلمين، وكان السبي من أعظم مقاصد هؤلاء في الغزو، فكلما حصلت معركة رأيت أسواق الأندلس وإفريقية غاصة بالأسرى المسيحيين، فأما الأطفال والأولاد فكانوا يربون في الإسلام وفي اللغة العربية، وكانوا لا يقدرون أن يرتدوا عن الإسلام إذا بلغوا، وأما الأرقاء الذين بلغوا سن الرشد فلم يكونوا يُجبرون على الإسلام لأنه جاء في القرآن ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ على أن كثيرًا من المسيحيين البالغين كانوا يخدمون في جيوش المسلمين عن طيب خاطر.

وأضف إلى هؤلاء قسمًا من أهالي البلاد التي افتتحها المسلمون، فإن العرب والبربر عندما افتتحوا الأندلس وجدوا أعوانًا لا يُحصى عددهم من المسيحيين واليهود، ولما لم يكن جيش العرب كافيًا لحفظ جميع هذه الفتوحات كانوا كلما دخلوا بلدة عهدوا إلى اليهود بحراستها،[٤] ولما دخل العرب إلى أرض فرنسة وما جاورها من البلاد لم يخل الأمر من أنهم وجدوا من أهل البلاد رجالًا ممن لا يعرفون الحمية الدينية ولا الوطنية، وممن دأبهم أن يستفيدوا من المصائب العامة، فمشوا بين أيدي العرب في غزواتهم وفتوحهم وحطبوا في حبالهم، ولقد رأينا كيف أن «مورونت» دوق مرسيلية وغيره من سادة البلاد تمالأوا مع العرب على أبناء بلادهم، فإذا كان هذا شأن الكبار فما ظنك بالصغار؟ ولا شك أن العرب في فتوحاتهم في مقاطعات دوفيني وبييمونت وسفواي وسويسرة كانوا قد وجدوا من الأهالي أعضادًا لهم سرًّا وعلنًا، وكان مؤرخو ذلك العصر لا يصرحون بذلك حياء، ويجتزئون بالإشارة إلى خيانة بعض المسيحيين، ولكن الحقيقة أنه لولا تلك الخيانة لم يكن المسلمون ليستقروا في تلك البلاد القاصية المنقطعة عن أوطانهم الأصلية، وهم في قلة من العدد، في زمن كانت فيه المواصلات غير ما هي الآن.

نعم إن العرب كانوا يجدون من أهالي البلاد ردءًا لهم، وقد رأينا في تاريخ دير نوفاليس كيف أن المسلمين قاتلوا الأهالي بقرب فرسل Verceil وتغلبوا عليهم وساقوا عددًا منهم أسرى ثم دخلوا المدينة وعرضوا الأسرى للبيع، كما تعرض السلع، وصار كل من أراد يدفع في الأسير ثمنًا إلى آخر القصة.

أما من جهة اليهود وسياستهم في جنوبي فرنسة، لذلك العهد، فقد قرأنا في سيرة القديس تيودار Theodard رئيس أساقفة أربونة أنه لما دخل المسلمون بلاد اللانغدوق انحاز اليهود إليهم وفتحوا لهم أبواب مدينة طلوزة، وأن شارلمان — تأديبًا لليهود

على خيانتهم — أمر بأنه كل سنة في الأعياد الكبرى الثلاثة يؤتى بيهودي ويصفع على باب الكنيسة العظمى، وقد بقيت هذه العادة مدة طويلة ثم تبدلوا بها دفع مبلغ من الدراهم. ولنا اعتراض على هذه الرواية من جهة أن العرب لم يدخلوا طلوزة فعلًا فلعل هذه الحادثة وقعت في فتح مدينة أخرى، وإذا تركنا قضية أنساب الغزاة ورجعنا إلى لغاتهم فإننا نجد أنهم لم يكونوا بأجمعهم يتكلمون بالعربية، فقد روى ابن القوطية أن بعضهم كان يتكلم بالبربرية، وأنه سنة ١٠١٩ عندما غزا المسلمون أربونة كان الغزاة ذلك اليوم من الذين لا يعرفون العربية، وكذلك لم يكن جميع الغزاة مسلمين، بل كان فيهم يهود ووثنيون وأحيانًا مسيحيون، وقد كان في البربر عبدة أوثان ومجوس، ولم يدخلوا جميعًا في الإسلام إلا بعد فتح إفريقية بمدة طويلة.[٥] ومن الغريب أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يسمون غزاة العرب بالوثنيين، مع أنه لا يوجد أبعد عن الوثنية من المسلمين، ومن شدة توحيدهم للباري تعالى يكرهون جميع شعائر الوثنية ويحرمون تصوير المخلوقات الحية، نظير اليهود، ولكن شدة حرمة المسلمين لمؤسس ديانتهم جعلت العوام في أوربة يعتقدون أن المسلمين يعبدونه، كما أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يطلقون لقب وثني على كل من ليس مسيحيًّا وقد جاء في التاريخ المنسوب إلى المطران توربين Turbin أنه يوجد في إسبانية على شاطئ البحر تمثال من نحاس صنعه محمد نفسه وأن المسلمين يسجدون له، وكذلك فيلومين Philomane في تاريخه لفتح شارلمان بلاد لانغدوق يتكلم عن تمثال لمحمد من الفضة المذهبة كان المسلمون في أربونة في أثناء استيلائهم عليها يعتقدون أنه ملجأ لهم، وكذلك جاء في رواية تمثيلية اسمها لعب القديس نقولا كان لها شهرة في القرون الوسطى أن أحد أمراء المسلمين في إفريقية كان يعبد صنمًا اسمه ترفاغنت Tervagant وأنه عندما كان يحصل على مراده كان يغطي خدود الوثن بأوراق الذهب، ثم إن في قصيدة إفرنسية تذكر وقائع رولان الشهير أن مسلمي سرقسطة كان عندهم مغارة جعلوها هيكلًا لآلهتهم، وكان فيها تماثيل من ذهب كل تمثال في يده صولجان وعلى رأسه تاج، وأن المسلمين كانوا يجتمعون في تلك المغارة للعبادة.[٦]

وكان اسم «ترفاغنت» ينقلب أحيانًا إلى ترماغنت وكان يرد معه اسم أبولين Apolin وأسماء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان، فتدور في أقاصيصنا القديمة، مثل قصة لافيوكت (البنفسجة) التي نشرها فرنسيسك ميشال، وزعموا أن هذه الأسماء هي أسماء آلهة إسلامية!

وقد بلغ من تعصب أجدادنا وتحاملهم على المسلمين أنه في الرواية المسماة بلعب القديس نيقولا كان يوجد تمثال لذلك القديس كانوا يسمونه محمدًا باعتبار أن لمحمد تمثالًا، وأنهم كانوا يسمون هيكل الأوثان محمدية Mohamarie فانظر إلى غرابة تصاريف الأقدار، وقابل بين هذه الخرافات وبين الحقيقة، وتأمل كيف صنع محمود الغزنوي عندما غزا الهند سنة ١٠٢٥م، واستولى على صنم أصرَّ على كسره، وعرض عليه الهنود مقدار وزنه ذهبًا فأبى إلا أن يكسره وأن يضعه على أسكفة باب المسجد في عاصمته، حتى تدوسه الأقدام.[٧] وليست هذه الحادثة فذة في بابها، فتأمل في كتابنا المسمى «خلاصة التواريخ العربية عن الحروب الصليبية» تجد من أمثالها كثيرًا.

ماذا كان السبب يا ترى في ذهاب آبائنا في الوهم والخطأ إلى هذا الحد؟ الجواب أن بعض العلماء ذهبوا إلى كون أسماء ترفاغنت وأبولين وما أشبه ذلك كانت آتية من بلاد النورمانديين أهالي شمالي أوربة الذين كانوا يعبدون الأصنام، فالعامة في أوربة خلطوهم بالمسلمين بزعمهم أن كل من ليسوا مسيحيين وثنيون! وكذلك كان البربر الذين جاءوا مع العرب متمسكين ببعض شعائر وثنية كانوا يمارسونها ظنت العامة أن هذه الشعائر كان يمارسها العرب أيضًا، ولا يجوز أن ننسى أنه في هذه الكتب التي تتهم المسلمين بالوثنية وتزعم هذا الزعم الغريب أنهم ينحتون تماثيل من حجر أو خشب أو معدن ويعبدونها وقد ورد أن المسلمين إذا وجدوا تلك التماثيل لم تنفعهم انقضوا عليها وحطموها وجعلوها جذاذًا.

على أن الاسم العربي والدين الإسلامي كانا هما السائدين في هذه الفتوحات الإسلامية في أوربة، فليس عندنا شيء من الآثار عن البربر أو الصقالبة الذين كانوا مع العرب في مغازيهم، وكل ما عندنا عن هذه الفتوحات إنما هو من رشحات أقلام العرب المسلمين.

أما أسباب هذه الفتوحات العربية، والعلل الأصلية في اقتحام هذه الغمرات، فهي متعددة، فمنها ما يرجع إلى حب الغنائم وكسب الأموال، ومنها ذوق خاص بالضرب في الآفاق، ومنها ما هو محض تجرد لنشر الدين الإسلامي ورجاء ثواب هذا العمل المبرور عند الله فإن القرآن يحث على الجهاد في سبيل الله ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فالمسلمون الذين كانوا يقدرون على حمل السلاح كانوا يجاهدون بأنفسهم، والذين لم يكونوا قادرين على القتال كانوا يجاهدون بأموالهم وجاء في القرآن: ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ

وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وكل مسلم يموت وهو يقاتل في سبيل الله فإنه يموت شهيدًا ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فالمسلمون يسمون شهيدًا كل من بذل دمه في سبيل الإسلام، كما أن المسيحيين يسمون شهيدًا كل من مات لأجل النصرانية.

ثم إن الشرع الإسلامي يفرض على المسلمين أن يدعوا غير المسلمين إلى الإسلام، أو إلى دفع الجزية، وذلك قبل إعلان الجهاد ومباشرة الحرب ويجوز أن يكون قد حصل هذا الإعلان عند دخول العساكر الإسلامية إلى فرنسة ولكن الأهالي لم يجيبوا دعوة الإسلام فاضطر أمراء المسلمين إلى تجريد الحسام، وكان المسلمون في أوائل الفتح يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ويتنكبون القسي، وكانوا كلهم متعممين، ثم إنهم بتغير الأوقات صاروا يتشبهون بالنصارى في أزيائهم وأسلحتهم، ويلبسون الدروع ويغوصون في الزرد وطالما كانوا يقتنون سيوف مدينة «بوردو» لشهرتها في ذلك الوقت، وتركت عساكرهم العمائم وصاروا يلبسون على رءوسهم الكمة الهندية، وكان أمراء الفرنسيس في كتلونية أهدوا الخليفة عشر أدراع سلافية ومائة سيف إفرنسي، وأنعم الخليفة على حاجبه يوم توليته إياه الوزارة بمائة فارس إفرنجي متقلدين السيوف والحراب غائصين في الحديد على رءوسهم الكمم الهندية، وبالاختصار كان المسلمون قد اقتدوا في شكتهم وأعلامهم وسروج خيولهم بأوربة المسيحية، ولكن بدون شك كانوا يسترجحون في التسلح جانب الخفة، ويتجنبون السلاح الثقيل الذي كان يعول عليه الأوربيون.[٨]

أما الغنائم فكانت عبارة عن الحجارة النفيسة والنقود المضروبة والمنسوجات والأدوات والأسرى والسبي، وكان السبي أفضل جزء من الغنائم، وكان الأمير يستأثر بالخمس بحسب الشريعة، وينفقه في إعانة الفقراء وأبناء السبيل، وكان الباقي يوزع على الجند، وللفارس ضعفا ما للراجل، وكان يوجد دائمًا في ساقة الجيش تجار يشترون كل ما يقع في أيديهم من صامت وناطق.

أما الأسرى فليسوا كأسرى هذه الأيام، فكان المسيحي إذا وقع أسيرًا كبلوه وإذا انتهت قسمة الغنائم عرف الأسير ذلك الرجل المسلم الذي خرج هو في نصيبه فيصير له مملوكًا يتصرف به كيف شاء، ويصير هو وجميع ما يعمله ملكًا لسيده، ويتوارثه الأبناء عن الآباء، ويعود أولاده أيضًا أرقاء نظير والدهم، وإذا كان سيده غيورًا على الإسلام عرض على ذلك الأسير المسيحي اتخاذ الإسلام دينًا فإذا أسلم فقد يعتقه وإن

لم يعتقه افتكه بعض الصالحين ومحبي الخير من المسلمين؛ لأن تحرير الرقاب هو من أفضل القربات عند المسلمين، وهو بعد تحريره يصير في المجتمع الإسلامي نظير سائر الأحرار ويبلغ من درجات العلياء ما يقسم له حظه ونصيبه ويطلق عليه اسم مولى وهو اسم يتضمن معنى السيد ومعنى المملوك معًا، وهناك طبقة أخرى وهي طبقة العبيد الذين يعتقهم سادتهم ولكن على شرط أن يؤدوا إلى سادتهم شيئًا معلومًا كل سنة.[٩]

وإن كان الأسير المستعبد أبى أن يتحول عن دينه إلى الإسلام فقد كانوا يستعملونه في حرث الأرض أو في حمل الأثقال، وقد وجد مسيحيون كثيرون قبلوا الإسلام، وآخرون بقوا متمسكين بنصرانيتهم، وكلهم كانوا يمتازون بالخدمة وكان يعول عليهم في الحروب، وقد كان منهم كثير في الحرس الخاص للخلفاء والملوك لا سيما في قرطبة، ولم يكن أسرى المسيحيين الذين بقوا متمسكين بدينهم ليلبثوا عبيدًا بدون أمل في الحرية، بل كان أمراء المسلمين وأغنياؤهم ممن يصير إليهم بعض هؤلاء الأسرى إذا وقعت لهم حوادث جاء التوفيق فيها لهم رفيقًا أرادوا شكر الله تعالى على نعمته فحرروا من عندهم من الأسرى وسنة ٩٩٧ علم المنصور بن أبي عامر بأن الله كتب لجنوده النصر في واقعة كبيرة في إفريقية فشكرًا لله تعالى أسرع إلى تحرير ألف وثمانمائة أسير مسيحي من ذكور وإناث.[١٠] وكان المسيحيون يجمعون أموالًا ويذهبون إلى إسبانية وإفريقية لافتكاك الأسارى، هذا يفتك أباه وهذا أخاه وهذا صديقه وهلم جرا، ومن هناك تأسست رهبانيات بقيت مدة قرون في أوربة لم يكن لها عمل إلا افتكاك الأسارى من بلاد المسلمين، وقد سجل التاريخ من مآثر هذه الجمعية ما هو فوق الوصف، ومن ذلك عمل إيزان رئيس دير القديس فيكتور في مرسيلية، الذي ذهب في سنة ١٠٤٧ إلى الأندلس برغم ضعف جسمه وكثرة أمراضه، وأفتك عددًا من أسارى المسيحيين وجاء بهم قاصدًا فرنسة، فبينما هم في البحر هاجمهم قرصان فأخذوهم ووقعوا ثانية في الأسر، ورجع إيزان يسعى من جديد سعيًا حثيثًا ويذهب ويجيء حتى افتكهم مرة ثانية، وعندما جاء بهم إلى مرسيلية كان الضنى قد بلغ منه مبلغه فما وطئ أرض مرسيلية حتى مات دنفًا.

وأما الرقيق من النساء فكن يشتغلن في قصور الأمراء وحرم الأغنياء ويساعدن زوجات الرجل الذي يملكهن، وإذا امتازت إحداهن بجمال أو قسام كانت تُعلَّم وتُهذَّب وتُباع بثمن غالٍ أو يتزوج بها مالكها وكثيرًا ما كن يُرسَلن هدايا إلى الخلفاء والكبراء،

وذلك كما حصل للأميرة «لمبيجية» ابنة أود دوق أكيتانية التي صارت إلى الخليفة في دمشق وإذا تزوج المسلم بأمة صارت بذلك حرة وكان أولادها أيضًا أحرارًا، ولم يكن فرق بينها وبين الزوجة التي هي حرة من الأصل، وإن كان وُلد للرجل من جاريته أولاد، ولو لم يكن عقد نكاح، ورضي بأن يعترف بهم فإنهم يصيرون أحرارًا وتصير أمهم حرة أيضًا لكن مع بقائها تحت سلطة زوجها، ومثل هذه الجارية عند وفاة زوجها تتحرر تمامًا ويقال لها عندهم: أم ولد. وكانت قصور خلفاء دمشق وبغداد وقرطبة ملأى بالنساء اللائي يقال لهن: أم ولد. وكان أولاد هارون الرشيد، ما عدا واحدًا فقط، كلهم أبناء جوار يقال للواحدة منهن: أم ولد. أما إذا كان الأب ولد له أولاد من جاريته ولم يرد أن يعترف بهم فإنهم يبقون هم وأمهم عبيدًا.

ولنضرب لك مثلًا على ما كان يعانيه الأسرى المسيحيون، في بلاد الإسلام، بالحادثة الآتية:

في أواخر القرن العاشر وقع رجل من أحلاس الحرب، من بلدة طلوزة، أسيرًا في أثناء ذهابه لزيارة بيت المقدس، فصار إلى بيت رجل من الأغنياء استخدمه في حرث الأرض، فقال لهم: إنه لا يحسن هذا العمل وإنه لا يحسن غير القتال، فجعلوه جنديًّا، وحضر وقائع كثيرة وآل به التقلب في البلاد إلى أن حضر حرب قرطبة الأهلية سنة ١٠٠٩ مسيحية، وهناك امتاز بالبسالة ونبه أمره، ولما كان «شنجو» كونت قشتيلة قد خاض غمرات تلك الحرب وشاهد ما شاهده من إقدام هذا الرجل أمر بإطلاق سبيله.

أما مصير المسلمين الذين كانوا يقعون في أيدي الإفرنج فلم يكن يختلف كثيرًا عن مصير المسيحيين الذين يقعون أسرى في بلاد الإسلام، ولقد كان الرق معروفًا بفرنسة، وكان يأتيها رقيق كثيرون من جرمانيين وسلاف وغيرهم من شمالي أوربة، فإذا كان يُستعبد فيها الأوربيون فبديهي أن يُستعبد فيها الأسرى من المسلمين، ولم يكن فرق بين الأسرى في الإسلام والأسرى في بلاد الإفرنج، سوى أن الرقيق في الإسلام إذا تحرر أصبحت له جميع حقوق الأحرار، بخلاف القاعدة في أوربة فإن طبقة العبيد ولو تحرروا تبقى منحطة عن طبقة النبلاء، وتبقى بينهما فواصل، وكان المسلمون يبذلون أيضًا الأموال في افتكاك أسراهم، فمنهم من يفكه أهله، ومنهم من يفكه أصحابه، ومنهم من يفكه سلطانه، وقد تأسست عند المسلمين جمعيات لفداء الأسرى كما عند المسيحيين، وذلك إن فك العاني معدود من أفضل الأعمال في الإسلام، وقد سأل محمدًا ﷺ سائلٌ عما يجب أن يعمله لينال أفضل الثواب فأوصاه النبي بتحرير الرقاب، وقد

روى النويري ولذريق شيميناس أنه في زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن بلغ من ظفر جيوش الإسلام أنهم بحثوا عن أسرى يفكونهم بالمال المجموع لذلك الغرض فلم يجدوا أسيرًا مسلمًا يفكونه.

وكان يؤتى بأسرى المسلمين إلى آرل ومرسيلية وأربونة، ويباعون فيها، ويأتي أناس من أبناء ملتهم إلى هذه المدن فيفدونهم فأما المسلمون الذين لم يحصل لهم نصيب الافتكاك من الأسر فكانوا يصيرون إلى العبودية، فيشتغل الواحد منهم في خدمة مالكه، وأكثر ما كانوا يستعملونهم في الحرث، وكان يحق لمالك العبد أن يبيعه أو أن يضربه أو أن يعذبه، وكثيرًا ما كانوا يكبلونهم بالحديد لئلا يفروا، ولم يكن للعبيد من المسلمين، كما لم يكن للعبيد من اليهود ومن الوثنيين، حق أن يتزوجوا بالمسيحيات ولو كُنَّ من الخوادم، ومن كانت منهن متزوجة بغير مسيحي كان لا يؤذن بدفنها في مقابر النصارى بل هناك ما هو أكثر من ذلك، وهو أنه لم يكن يؤذن في زواج العبد من الأمة ولو كانا من ملة واحدة، وإنما كان للمالك أن يأذن في مساكنة العبد للأمة في مكان واحد، ولكن على شرط أن الأولاد الذين يولدون لها يكونون ملكًا للمالك المذكور، ولقد تلاشى الرق من أوربة في نواحي القرن الثاني عشر إلا أنه بقي جائزًا بحق غير المسيحيين لا سيما المسلمين، وعلى ذلك شواهد من آثار القرن الثاني عشر والقرون التالية، ومن جملتها نصوص واردة في مجموعة القوانين البحرية القديمة تأليف المسيو بارديسو، غير أن ذوي التقوى كانوا إذا أرادوا أن يشكروا الله تعالى على نعمة أفاءها الله عليهم أعتقوا عبيدهم ثم عمت العادة بأن كل عبد طلب أن يتعمد أي أن يتنصر يصير حرًّا، وهكذا اندمج العبيد في سائر الأمة.

وكان العبيد من المسلمين يشتغلون في المزارع من أملاك المتمولين أو أوقاف الأديار والكنائس، وقد مر بنا أن أسارى المسلمين الذين وقعوا في اليد سنة ١٠١٩ أمام أربونة قد وزعهم المسيحيون على الكنائس وعلى بعض الزعماء، وهكذا وقع للمسلمين الذين كانوا في فرنسة بعد سقوطهم في معركة سنة ٩٧٥ ولجميع عساكر المسلمين الذين انفصلوا عن مجموع جيشهم في أثناء غزواتهم للبلاد الإفرنسية.

وكانت هناك أسباب أخرى لزيادة عدد الرقيق المسلم في فرنسة، منها الحروب الصليبية في الشرق، ومنها الحروب التي كانت تقع بين الإفرنج وبين مسلمي الأندلس، وقد ذكر المسيو بارديسو — في كتابه المار الذكر — أن منها ما كان آتيًا أيضًا بطريق التجارة، ومما لا نزاع فيه أنه قد بقي استعباد أسرى المسلمين في فرنسة عادة متبعة

دهرًا طويلًا، وفي سنة ١١٤٩ أوصى أرنود مطران أربونة بعبيده المسلمين لمطران بيزيه Beziers وفي سنة ١٢٥٠ أوصى روميو فيلنوف Romeo de Villeneuve الذي كان وزيرًا عند كونت بروفنس، قبل موته، ببيع العبيد المسلمين الذين كانوا في أراضيه، وكانوا من الذكور والإناث، ذكر هذا المسيو بوش في تاريخ بروفنس، وبعد ذلك بمئتي سنة ورد ذكر شراء الملك رينه Reué[١١] لثلاثة عبيد من المسلمين، وقد اطلعنا على قرارات لمجمع الأساقفة في طراكونية في إسبانية المنعقد ١٢٣٩ من جملتها أن يُجبَر المسلمون الذين بفرنسة على اتخاذ لبس خاص بهم، وكذلك اليهود، وقد جاء مثل هذا الاقتراح في قانون لأسقف بيزيه سنة ١٨٦٣.

وكان المتحمسون بالنصرانية يغضبون للسماح بزواج الأرقاء في فرنسة بحيث وجد في قانون رهبانية جيتو Jéteau مادة تمنع أديار هذه الرهبانية أن يجتمع فيها مسلمون ومسلمات في محل واحد، بل كان هناك معاهد دينية ترفض استخدام العبيد المسلمين في أشغالها.

لقد مر بنا أن المسلمين الذين كانوا يطلبون المعمودية يصيرون أحرارًا، وكان هذا حقًّا لهم، ولما كان كثير من هذا الطلب لا يقع عن إخلاص أو عقيدة، وكان بعض هؤلاء المتعمدين إذا حصلوا على حريتهم يعودون إلى ضلالهم، فكان لسادة هؤلاء العبيد الحق في امتحانهم مدة من الزمن، وعند ذلك صار كثير من المسيحيين الذين لا وجدان لهم يمتحنون عبيدهم من المسلمين امتحانات يقصدون بها منعهم من الدخول في النصرانية، ومنهم من كانوا وقد تنصر عبيدهم، يرفضون الموافقة على تحريرهم ويستمرون على إرهاقهم بأشد ما يمكن، ولقد أصدر الباب كليمنفوس الرابع سنة ١٢٦٦ منشورًا أنزل به صواعق الغضب على رئيس دير القديس بندكنس في ميرنده، لكونه عذَّب رجلًا مسلمًا غنيًّا كان قد تنصر، وزعم هذا الرئيس أن تنصره كان غير حقيقي وضبط له أملاكه وحرم منها أولاده.

فأنت ترى أنه كان من المسلمين المستعبدين في فرنسة أشخاص ذوو أملاك، وكانوا مثل اليهود يقرضون الأموال بالربا، وكان إذا غضب الشعب على المرابين من اليهود أدخلوا المسلمين أيضًا في دائرة غضبهم، وقد قلنا: إنه لم يكن للمسلمين حق في التزوج بمسيحيات، وإن كل مسيحية كانت ترضى بأن يتزوجها مسلم كانت تُحرم من حق الدفن في المقابر المسيحية، وكان هؤلاء المسلمون يعطلون أشغالهم في الأعياد المسيحية قسرًا.

وبالإجمال فعدد المسلمين الذين تنصروا في فرنسة كان كبيرًا،[١٢] وهذه نتيجة طبيعية للحالة التي كانت يومئذ ولكن الفرنسيس الذين مع الأسف اتخذوا الإسلام دينًا كان عددهم أكبر، فإن الغزوات الإسلامية الأولى لفرنسة وسبي المسلمين للذراري من أهلها وما كان التجار يتجرون به من الرقيق، كل هذا قد أدخل في الإسلام عددًا لا يحصى من الإفرنج، ومن المعلوم أن المسلمين يتلقون المسيحيين الداخلين في دينهم بمزيد التساهل ويعتنون بهم ويوفرون حظوظهم وأرزاقهم وبهذا كثر عدد النصارى الذين صبأوا عن دينهم ودخلوا في الإسلام.

ولنتكلم الآن عن كيفية حكم المسلمين في فرنسة أيام كانوا سائدين فيها وعن طرز معاملتهم لرعاياهم وعن سياستهم المدنية والدينية والخراجية، فإنهم قد استقروا بعد غزواتهم الأولى في بروفنس ودوفيني وبييمونت وسفواي وسويسرة، ولكن استقرارهم الحقيقي لم يكن إلا في بعض المعاقل الحصينة وفي ضواحيها، ولم يتفق لهم أن استولوا في فرنسة على بلاد بأسرها، نعم كانت في أيديهم معابر الجبال والأنهار، فكانوا يأخذون من السابلة رسومًا على المرور، وكان الوادعون منهم يشتغلون بالفلاحة والزراعة، وربما أدوا الضرائب عن محصولاتهم إلى أمير البلاد التي كانوا فيها، أما بلاد بروفنس التي كانت تجاور حصن فركسينت فقد كانت دائمًا عرضة لعبث عصاباتهم، وفي أوائل فتحهم لجنوبي فرنسة أيام شارل مارتل وابنه ببين القصير لم يطل الأمر أن وقعت بينهم الحروب التي أدت إلى التنفيس من خناق المسيحيين، فكان للقوط في اللانغدوق أمراؤهم وقوامسهم يلون أمورهم وإنما لم يكن المسلمون يعطون هؤلاء الأمراء سلطة عسكرية واسعة فكأنهم كانوا يحفظون حق السيطرة لأنفسهم على الحكومات المسيحية المحلية، وقد ذكرا يزيدور الباجي المؤرخ المسيحي الذي عاش في ذلك العصر أن عقبة أمير الأندلس في سنة ٧٣٤ كان يلتزم سياسة ترك الشعوب التي تخضع لحكم المسلمين على قوانينها الأصلية، وقد وقع في يدنا منشور من الوالي المسلم لمدينة قويمرة في البرتغال يظهر منه أنه كانت للمسيحيين إدارة خاصة بهم، ونص هذا المنشور هو ما يلي: يكون على مسيحيي قويمرة كونت يلي أمورهم ويحكم فيهم بالسداد، وكما كانت عادة المسيحيين في الأحكام وله أن يفصل الخصومات التي تقع بينهم، ولكنه لا يقدر أن يحكم على أحد بالقتل إلا بعد موافقة قاضي المسلمين وذلك بأن الجاني يؤتى به أمام القاضي ويقرأ نص الحكم عليه بحسب الشريعة المسيحية، فإذا وافق القاضي أمكن تنفيذ الحكم بالقتل وإلا فلا، ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها

يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات، وإن أهان مسيحيٌّ مسلمًا عومل بشرع المسلمين، وإن سطا مسيحي على عرض مسلمة أجبر على الإسلام وعلى التزوج بالمرأة التي اعتدى على عرضها، وإلا فالقتل، وإن كانت المرأة محصنًا فإن المعتدي على عرضها يُقتل بلا مراجعة.[١٣] وقد وُجد نص هذا المنشور في دير لوربان Lorban وطبع في أشبونة سنة ١٦٠٩.

أما من جهة سياسة المسلمين الدينية في فرنسة فليست عندنا عنها معلومات شافية للغليل، وكل ما نعلم أن المسلمين تركوا للنصارى حريتهم الدينية، وأن السواد الأعظم من أهل أربونة مثلًا بقوا مسيحيين، وكان عددهم كبيرًا، وقد ترك لهم المسلمون كنائسهم وبيعهم مع القسيسين والوفهة الذين يخدمونها، على أنه لم يسمع أن المسلمين في أربونة وما جاورها من فرنسة مثلًا متعوا المسيحيين بالحقوق التي أمتعوهم بها في قرطبة والمدن التي في قلب المملكة، نعم إن المسلمين في قرطبة استولوا على كنائسها الكبرى، ولكنهم أبقوا للمسيحيين سائر كنائسهم وتركوا لهم أديارهم التي للرهبان والتي للراهبات على السواء، وتسامحوا معهم في أمر لم يتسامح فيه المسلمون لا في إفريقية ولا في آسية وهو قرع المسيحيين للأجراس[١٤] في مواعيد صلاتهم، أما في أربونة وما جاورها من المدن فلم يكن للمسيحيين أساقفة كما في قرطبة، ولا كانت لهم أديار ولم يكن السبب في ذلك كله من المسلمين بل كانت هناك فوضى كنسية كما يستدل عليه من كتاب بعث به القديس بونيفاس إلى البابا زخريا سنة ٧٤٢ وهذه الفوضى كانت ناشئة عن الانقلابات التي أحدثتها حروب أولاد كلوفيس فيما بينهم، أما في شمالي إسبانية فقد وقعت الفوضى الكنسية لدى وصول المسلمين إلى البلاد، ففي أراغون مثلًا، عندما جاء المسلمون واستولوا على هذه المملكة، فر الأسقف إلى جبال البيرانه ولم تعد الأسقفية إلى أراغون إلا بعد ذلك بثلاثمائة سنة، أي عندما أُجلي المسلمون عن البلاد، ولا يظهر أنه كان في برشلونة أسقفية لعهد وجود المسلمين فيها، بل يظهر أن أمراء المسلمين تحاشوا قبول الأسقفيات في المدن الواقعة في الثغور، وقد كان المسلمون يتركون للمسيحيين كنائسهم على شريطة أن يكتفوا بالقديم منها، وأن لا يؤسسوا كنائس جديدة، وإن بنوا شيئًا جديدًا منها فلا يكون إلا مكان القديم، وذهب بعض فقهاء الإسلام إلى أنه لا يجوز تجديد الكنيسة الجديدة إلا بأحجار الكنيسة القديمة، ولم يكن للمسيحيين حق في الطواف في الأسواق بالصلبان والأعلام المسيحية ولم يكن أيضًا للمسيحيين أن يعارضوا نصرانيًّا يريد الدخول في الإسلام، وقد تبين من الأمر المتعلق

بنصارى قويمرة في البرتغال أنه كان على كل كنيسة دفع ضريبة لبيت المال، مقدارها خمس وعشرون قطعة فضية، وكان على كل دير دفع خمسين قطعة أما الكنائس العظمى فكانت تدفع مائة قطعة.

وقد تقدم أن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختتنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير، ومع هذا فقد وجدت كتابات للمسيحيين من القرن التاسع تدل على أن مراجل البغضاء كانت تغلي أحيانًا بين الفريقين، وأنه كان محظورًا على المسيحيين إقامة شعائر دينهم علنًا بالاحتفال اللازم، وأن المسلمين كانوا إذا سمعوا قرع النواقيس اشمأزوا ونفروا وربما قذفوا وشتموا، ولكن لا ينكر أن المسيحيين أيضًا كانوا إذا سمعوا الأذان تعوذوا بالله ورسموا إشارة الصليب على صدورهم، وقد أقر بذلك القديس أولوج Euloge الذي كان من المضطهدين سنة ٨٥٠.

أما من جهة الخراج فقد تقدم أن السمح (ابن مالك الخولاني) أمير الأندلس كان هو البادئ بتنظيم الجبايات واستخراج الارتفاعات سواء في إسبانية أو في جنوبي فرنسة، وقبل ذلك كانت أمور الجباية فوضى والحبل منتشرًا، وقد وزع السمح قسمًا من الأراضي المأخوذة من المسيحيين على غزاة المسلمين وعلى العائلات الفقيرة، بعد أن كان بعض ذوي السلطة قد استأثروا بها لأنفسهم من دون الفقراء، وقد ضم السمح بقية الأراضي إلى بيت المال، وكان الخراج المفروض على أراضي المسلمين هو عُشر المحصول بخلاف المسيحيين فقد كانوا يدفعون الخمس، أي ضعف خراج المسلمين، وكان المسيحيون عدا الخمس يدفعون الجزية، وهي إتاوة شخصية كان يتقاضاها المسلمون من المسيحيين في مقابلة محافظتهم على دمائهم وأموالهم وأمتاعهم بحريتهم الدينية، أما من أسلم من المسيحيين فكان معفي من الجزية، وكان ملوك الأندلس يضربون رسمًا على البضائع والسلع، فالمسلم كان يؤدي اثنين ونصفًا في المئة، والمسيحي كان يؤدي خمسة في المئة، وكانوا يسمونها زكاة وكانت تنفق في إعانة الفقراء وافتكاك الأسرى.

وكان المسلمون يسمون المسيحيين الذين خضعوا لهم ودفعوا الجزية المعاهدين أو أهل الذمة، أي الذين لهم على المسلمين ذمة الحماية والمحافظة، أما المسيحيون الذين لم يكونوا خاضعين للإسلام فكانوا يسمونهم أعلاجًا واحدها علج، وكانوا يقولون: عجمي لكل من ليس بعربي، ويسمون مشركًا كل من يقول بأن الله ثلاثة أقانيم لأن المسلمين لا يرون في الثلاثة الأقانيم إلا ثلاثة أشخاص.

ويحق للإنسان أن يسأل: بأي لسان كان العرب يكالمون الأمم التي تغلبوا عليها؟ فإن من عادة العرب أن لا يحفلوا بغير لغتهم كما أن المسيحيين لذلك العهد كانوا من الجهل والبربرية بحيث لم يكونوا يفكرون في تعلم العربية، ولم يذكر التاريخ رجلًا مسيحيًّا لأوائل أيام الفتح الإسلامي أتقن العربية غير هارتموت Hertmote رئيس دير سانغال الذي كان يعرف العربية واليونانية والعبرية، وكان من رجال أواخر القرن التاسع، ولم يبدأ آباؤنا بتعلم العربية إلا في أيام الحروب الصليبية؛ إذ لم يجدوا غنى عن الاطلاع على لغة قوم استولوا على جانب من بلادهم، فكانوا يذهبون إلى إسبانية حيث كانت العربية واللاتينية تُعلَّمان جنبًا إلى جنب ويقرأون العربية على أهلها، وفي سنة ١١٤٢ أكمل بطرس رئيس دير كلوني Cluny أول ترجمة لاتينية للقرآن، وبدأ يكتب الردود على دين الإسلام، وتبعه في ذلك مؤلفون كثيرون من النصارى.

على أننا لا نشك في أنه في أول دخول العرب إلى فرنسة كانت اللغة العربية معروفة فيها، وكان كثير من الإفرنج يحسنون التكلم بها، وذلك لأن العرب كانوا يأخذون أبناء البيوتات النبيلة رهائن على طاعة أهلهم لهم، ويرسلون هذه الرهائن إلى قلب مملكتهم، فكان لابد لهم هنالك من أن يتعلموا العربية، وكذلك كان بديهيًّا أن الأسرى والعبيد من المسيحيين يتعلمون العربية، فإذا عادوا إلى بلادهم كانوا من جملة الإفرنج الذين يعرفون هذه اللغة، وأضف إلى ذلك المسلمين المستعبدين الذين كانوا في أرض فرنسة فقد كانوا كلهم يتكلمون بالعربية، ولا تنس التجار وزوار بيت المقدس الذين برغم جميع تلك الحروب الهائلة لم ينقطعوا عن التجارة ولا عن الزيارة، وكانوا يختلفون إلى مصر والشام وغيرهما من بلاد الإسلام، ومن جملة هؤلاء الإنكليزي القديس غيلبود Geillebaud الذي ذهب إلى الشرق ووصل إلى الشام سنة ٧٣٤ للمسيح، وقيل: إنه عند وصوله إلى دمشق قبض عليه على ظن أنه جاسوس، فلما علموا أنه قادم لزيارة بيت المقدس خلوا سبيله، فطاف في سورية وفلسطين بدون معارضة؛ ولكن لم يقع في أيدينا شيء من المعلومات عما دار من الأحاديث بين الخليفة في دمشق وبين القديس المذكور.

وكان المسيحيون في ذلك العصر مستسلمين للأقدار يعتقدون أن غزوات العرب لبلادهم إنما هي عقاب من الله تعالى للبشر على خطاياهم فكانوا راضين بما قدره الله عليهم لا يحاولون دفع ما نزل بهم ولم ينهضوا في أوربة لاستعمال الوسائل البشرية الكفيلة بدفع الأذى عنهم إلا في أيام الحروب الصليبية.

وكان المسلمون في غاراتهم يستعملون السبي فيربون الصبيان إلى أن يبلغوا رشدهم، ويجعلونهم جنودًا، ويربون الصبيات إلى أن يبلغن رشدهن فيتخذوهن حلائل،

وكانوا في أي مكان شنوا فيه الغارة وضعوا ذلك نصب أعينهم، تأمل في كيفية حلولهم بجزيرة أقريطش، فقد تقدم أن خمسة عشر ألفًا من ربض قرطبة أجلوا عن الأندلس على أثر فتنة الربض المشهورة، فجاءوا إلى الإسكندرية، ومن هناك عزموا على النزول في أقريطش نظرًا لحسن هوائها وجودة تربتها، ولما وصلوا إلى تلك الجزيرة أمرهم قائدهم بأن يبدأوا بالعمارة، وأحرق السفن التي جاءوا بها، فصاح رفاقه به قائلين له: كيف يمكننا بعد الآن أن نراسل نساءلنا وأولادنا؟ فأجابهم: إنني أعطيتكم وطنًا جديدًا وهذا الوطن هو الذي يكفل لكم إيجاد نساء تتزوجون بهن، وبعد ذلك عليكم أنتم أن تنسلوا الأولاد، ولما جاء المسلمون ودخلوا أرض فرنسة فاتحين لم يكن لهم مقصد سوى نشر دين الإسلام وإخضاع فرنسة وكل أوربة لأحكام القرآن، ولكن فيما بعد ذلك دخل في تلك الغزوات مقاصد أخرى، كحب النهب أو الأخذ بالثأر، ومن هذا القبيل نزول العرب في أواخر القرن التاسع في أرض بروفنس.

وقد ذكر المؤرخ ليو تبرند كيفية فتح العرب لصقلية فقال: إن أمير صقلية من قبل إمبراطور القسطنطينية كان قد خرج من طاعته، فأرسل يستنجد أمير العرب في القيروان، فشاور هذا أعوانه فيما يفعل، فأشاروا عليه بإصراخه، ولكن على شرط أن العسكر الإسلامي يأخذ ما يمكنه من الغنائم ويقفل بدون استقرار في تلك الجزيرة، وذلك لأنهم لمعرفتهم بشدة قرب صقلية من الأرض الكبيرة كانوا يعتقدون أن مقام أمة تخالف أهل تلك الديار في اللغة والعقيدة لا يمكن أن يكون هناك لا طويلًا ولا وطيدًا، وأنه لا مناص من أن يكر اليونان والإفرنج فيسترجعوا تلك الجزيرة ولو بعد حين، قيل: إن أحدهم سأل يوم عقد تلك الشورى بشأن غزو صقلية ما مقدار المسافة التي تفصل بين الجزيرة والأرض الكبيرة؟ فأجابوه بأن الإنسان يقدر أن يأتي ويرجع مرتين أو ثلاثًا في النهار، فسأل: وكم المسافة بين صقلية وإفريقية؟ فقيل له: مسافة يوم وليلة. فقال: لو كنت طيرًا ما رضيت أن أجعل مقامي بهذه الجزيرة والحال هي هذه من جهة المسافة. ذكر ذلك النويري. والحقيقة أن المسلمين لم يعولوا على البقاء في صقلية إلا بعد أن رأوا أمورها فوضى، وبعد أن وجدوا أمراء تلك البلاد يستعينون بهم بعضهم على بعض، لا تجمعهم جامعة قومية ولا تضمهم صارخة وطنية.

أما الآثار الحجرية التي تركها المسلمون في فرنسة على أثر غزواتهم فيها فهي قليلة جدًّا ففي أربونة مثلًا حيث بقي العرب نحوًّا من أربعين سنة، لم نجد لهم بناءً خاصًّا بهم، وغاية ما عملوا أنهم زادوا في تحكيم القلاع التي فيها حتى جعلوها في

مناعتها لا تؤخذ، ولكن لم يجد المؤرخون هناك كتابات عربية ولا آثارًا يتحققون كونها عربية. وقد قيل عن بناء في مدينة سردانية التي بجوار جبل لويس: إنه من عمل المسلمين، ولكن ذلك القول لم يثبت لأنه بناء لا يشابه أبنيتهم المعهودة، نعم يوجد في جنوبي فرنسة كثير من المسكوكات العربية وأكثرها ليس عليه ذكر الملوك الذين ضربت في أيامهم، ولا ينكر أنه في أواخر القرن التاسع للميلاد كان المسلمون قد قطعوا مراحل بعيدة في المعارف والفنون وأخذوا يتقدمون يومًا فيومًا في المدنية، وفي ذلك الوقت كان نزولهم في بلاد بروفنس ودوفني وسافواي وسويسرة، ولا نزاع في أن مسلمي إسبانية وصقلية بل مسلمي إفريقية نفسها كانوا في ذلك العصر أرقى من مسيحيي فرنسة والبلاد المجاورة لها التي كانت غائصة في فتن كقطع الليل المظلم ولسنا الآن في صدد المدنية الباهرة التي أثلها العرب في الأندلس فمن ذا الذي لا يسمع بعظمة جامع قرطبة الأعظم، ومن لا يعلم ما شاده العرب من الجسور والمعابر وشقوه من الأنهر والجداول لري الأراضي، وما بنوه من القصور المنيفة الشامخة، ولعمري لم ينحصر فضلهم في الصناعة والفن بل كانت لهم القدم الراسخة في العلوم العقلية والفلسفة وكانوا ترجموا إلى العربية كتب أرسطو وأبيقراط وجالينوس وديسقوريدوس وبطوليماووس وغيرهم، وكشفوا من العلم أسرارًا جديدة أضافوها إلى ما تلقوه عن غيرهم. فكان تفوق العرب على المسيحيين في ذلك العصر حقيقة ثابتة لا مراء فيها وكان المسيحيون يفتقرون إليهم في العلم ويردون حياضهم فيه، وقد روى المؤرخون أن شانجة ملك ليون كان في سنة ٩٦٠ جاء إلى قرطبة ملتمسًا الاستشفاء، لدى أطباء العرب، من مرض كان قد أعياه شفاؤه، فوجد عند أطباء العرب الراحة التي كان ينشدها وبقي طول حياته يذكر الحفاوة التي استُقبل بها والاعتناء الذي رآه في قرطبة بشأنه، وفي تلك الأيام كان راهب اسمه جربرت انتجع إسبانية، طلبًا للعلوم الطبيعية والرياضية، فبلغ من العلم مبلغًا خيل لعامة فرنسة إذ ذاك أنه ساحر.[١٥]

أما العرب الذين جاءت عصائبهم ونزلت في أرض فرنسة وتدرجت إلى جبال الألب فلم يكونوا من النمط الأول؛ أي من الذين يريدون أن ينشروا ثقافة أو يؤثلوا مدنية، وإنما كانت غاراتهم كلها منبعثة عن طمع في النهب وغرام بالكسب. فالنهضة الحقيقية في أوربة لم تبدأ إلا منذ القرن الثاني عشر أي منذ زحف أهل الغرب لقتال أهل الشرق، ووجدت النصرانية والإسلام في الصراع وجهًا لوجه، فوقع الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين، وأفاق الفرنسيس والإنكليز والألمان من رقدتهم ونفضوا عنهم

غبار الخمول، ووجدوا ضرورة المشاطرة في المدنية الإسلامية، وكان علم اللغة اليونانية قد دُرِّسَ، وصار العلم اليوناني غير معروف إلا عند العرب، فأخذ المسيحيون من فرنسة وجوارها يؤمون إسبانية لأجل ترجمة التآليف العربية المنقولة عن اليونان، وذلك إلى اللغة اللاتينية التي كانت يومئذ لغة الكتابة والعلم في أوربة، وقد بقيت هذه التراجم إلى القرن الخامس عشر هي عمدة الجامعات والمدارس في معرفة علوم يونان.

ولا مندوحة لنا عن أن نقول كلمتين عن آثار هؤلاء العرب الذين نزلوا في فركسنيت، فإن الأثر الذي أثروه هناك من الآبار المحفورة والأسراب المكفورة والحجارة المنحوتة والأبنية المحكمة لا تزال بقاياه بارزة للعيان، دالة على صبر عجيب وهمة بعيدة، ولكن لم يوجد على شيء من ذلك الحصن كتابات عربية كما وجد في الحصون التي من بناء العرب في الأندلس.

وقد ذكروا أن حصونًا كثيرة على قنن الجبال هي من بناء العرب المذكورين وأنه كانت لهم أبراج كثيرة منتظمة بلبة الساحل الإفرنسي والإيطالي، اختاروا لها تلال الجبال لتوقد بها النيران ليلًا على حسب عادة العرب الذين كانوا يشبون هذه النيران إيذانًا بوقوع الحرب وطلبًا للمدد وجمعًا للقوة. وقد ذكر ذلك المسيو ألفونس ده نيس Denys في كتابه النزهة البديعة في مقاطعة الفار، وكذلك جاء في كتب العرب كلام على الأربطة والمراقب التي شادها الأمير عقبة بن الحجاج السلولي، أمير الأندلس في جنوبي فرنسة، في نواحي سنة ٧٣٤ وقد ذكر أيزيدور الباجي أن السمح بن مالك الخولاني الذي تولى قبل عقبة إمارة الأندلس، قد بنى هو جانبًا من هذه الأبراج، ولكننا لا نعلم لماذا ينسبون بناء هذه الأبراج كلها إلى العرب، ولماذا لا يجوز أن يكون أهل البلاد أنفسهم هم الذين بنوها، أو بنوا بعضها، احتياطًا لأنفسهم ومراقبة لأعدائهم.[١٦] هذا ومما وجد من آثار العرب في فرنسة الأطالس الحريرية والأسفاط الثمينة من العاج والفضة والكؤوس البلورية والأسلحة النفيسة، ولا يزال منها جانب في خزائن الكنائس وفي مخادع الغواة؛ والناس تقومها بأثمان غالية مما يدل على مكانة الصنعة العربية في الأنفس، ولكن من المحقق أن أكثر هذه المصنوعات العربية هي من عصر متأخر عن القرن الثامن، ولم يكن مقام العرب بفرنسة خاليًا من تأثير في طرق الزراعة فإن هؤلاء القوم لم يحلوا في مكان إلا طبقوا الأراضي بالعمل، وجروا الأقنية، ونسقوا من تحتها الجنان شاهدك على ذلك تلك البساتين المنقطعة النظير، في مرسية وبلنسية وغرناطة، ويقال: إن العرب الذين نزلوا في بروفنس هم الذين بدأوا في استثمار شجر البلوط، ولا

يزال هناك غابة منه يقال لها: غابة المغاربة. وكذلك العرب هم الذين كانوا يستخرجون القطران من أشجار الصنوبر والأرز، ويقلفطون به المراكب، ولهذا تجد أهالي بروفنس لا يقولون للقطران غودرون Goudron كما يقول سائر الفرنسيس، بل يقولون قطران Quitran.[١٧]

وقالوا: إن العرب هم الذين أصلحوا جنس الخيل في فرنسة، وذلك أنهم كانوا يأتون على سفنهم بالجياد العراب ليتسنى لهم عليها بث الغارات في داخل البلاد، فبقي جنسها في فرنسة من ذلك الوقت والآن يوجد صنف من الخيل في مقاطعة كامرغ Camergue متولد من ازدواج الخيل الأندلسية بخيول تلك المقاطعة.

ومما يظنه الناس من بقايا عادات العرب نوع الرقص الذي يطلع عليه الإنسان في جنوبي فرنسة وهو يختلف باختلاف الأماكن، فمنه زفن يقع في الليالي يرقص فيه الشاب بين فتاتين، وفي أثناء رقصه يقدم فاكهة تارة إلى هذه وطورًا إلى تلك، ومنه ما يقف فيه الراقصون خطًّا، بإزاء الراقصات خطًّا، ثم يشتبك الخطان أحدهما بالآخر والشخص الذي يكون على رأس كل من الخطين يعمل إشارات يقتدي بها الآخرون، وهناك رقص عسكري يرقص فيه اثنان كل منهما متقلد سيفًا يحاول أن يصيب به الآخر أشبه بالأقران في ساحة القتال إذا أرادوا أن يهاجموا أو يدافعوا.

أما وجود أناس في فرنسة نقدر أن نحكم عليهم حكمًا باتًّا بأنهم من أصل عربي فغير محقق، قيل لنا: إن قومًا يسكنون على ضفاف نهر الصاوون، بين ماصون وليون، لا سيما على الضفة الشمالية أنهم من بقايا شرذمة من العسكر العربي انقطعت عن مجموع الجيش في أيام شارل مارتل وقالوا: إن لهؤلاء عادات خاصة وألفاظًا خاصة قد تكون باقية من اللغة العربية ولكن شيئًا من هذا لم يتحقق، لا سيما أن تلك الألفاظ هي في الحقيقة مشتقة من اللاتينية، أو باقية من الإفرنسي القديم وأن البلاد الواقعة بقرب ماصون لم ينزل بها عرب بل كانت ملجأ لمن فروا من وجه العرب، وكذلك قيل: إن جماعة من سكان البلاد المجاورة لجبال البيرانه، يقال لهم: كاغوت، هم من أصل عربي. ولكن لم يثبت شيء من هذا، بل الأرجح أن هذا الجيل من الناس هو من جملة الأجيال الغريبة المنتشرة في بريطانية وأوفرنيه باسم كاكو وكابوت وما أشبه ذلك.

ثم إنه كما لا يخفى في زمن الملك هنري الرابع هاجر من إسبانية إلى فرنسة عدد كبير، نحو من مائة وخمسين ألف نسمة من مسلمي الأندلس، فرارًا من تضييق فليب الثالث ملك إسبانية الذي منع أن يجتمع في جزيرة الأندلس دينان، وأجبر بقية المسلمين

فيها على التنصر بالنار والسيف، ولما وجد أن الكثرين منهم لا يزالون مسلمين باطنًا، وأن لهم علاقات بالدولة العثمانية التي كانت في ذلك العصر ذات صولة عظيمة، أجمع أخيرًا على طردهم من بلاده، فجاءوا إلى فرنسة ولكنهم لم يكونوا في فرنسة إلا عابري سبيل؛ لأنهم أبحروا من سواحل فرنسة إلى إفريقية والبلاد العثمانية ومن بقي منهم في فرنسة تنصر واندمج في مجموع الأمة كما أشار إلى ذلك شينيه Chenier في كتابه المباحث التاريخية عن المغاربة.[١٨]

أما تأثير الأدب العربي في آداب لغات الأمم الساكنة في جنوبي أوربة، فقد قيل فيه: إنه وقع في لغة الأوك Oc التي كان يتكلم بها أهالي جنوبي فرنسة وكتلونية، إذ هناك أقام العرب طويلًا، وقد دخل في اللغة الإفرنسية كلمات كثيرة من العربية لا مراء فيها، وهذا الاختلاط في اللغات لم يقع بخاصة أيام وجود العرب بفرنسة، بل قد وقع أكثره بعد جلائهم عنها؛ لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين العرب والفرنسيس في يوم من الأيام، وبالإجمال فتأثير العرب في فرنسة كان أقل مما يتوهم الناس، وإن ما أجروه فيها من العيث والتدمير ليتضاءل في جانب ما خربه النورمانديون والمجار، بل نقدر أن نقول: إنه بقيت للعرب مكانة عظيمة في نفوس الناس، حتى أصبحت لفظة سرازين ولفظة روماني كأنهما واحدة، وحتى تعوَّد العامة أن ينسبوا إلى السرازين أي العرب كل ما يرونه كبارًا أو جبارًا.

ومن الغريب أنه لم يبقَ من غارات النورمنديين والمجار إلا تذكارات في بطون التواريخ، والحال أن تذكار غزو العرب لفرنسة لا يزال في جميع الأذهان كأنه حديث العهد، وقد وقعت غزوات العرب قبل غزوات النورمنديين والمجار، واستمر وجودهم في البلاد إلى ما بعد جلاء المجار واندماج النورمنديين في مجموع الأمة، إلا أن غزوات العرب الأولى كان فيها من العظمة والأبهة ما لا يمكن أن يقرأه الإنسان إلا وتعروه الدهشة والحيرة، وكان العرب يمتازون عن النورمنديين والمجار بكونهم أمة بقيت مدة طويلة تسير على رأس المدنية العامة، وأنهم بعد جلائهم عن فرنسة لم تزل تحت الرعدة من احتمال غاراتهم، ثم إن الحروب العظيمة التي تولوا كبرها، سواء في الأندلس أو في إفريقية أو في آسية في وجه الصليبيين، قد أضافت إلى اسمهم لمعانًا جديدًا فوق اللمعان الذي كان من قبل، وكل هذا لم يكن كافيًا في تفسير مكانة العرب المكينة في الصدور لولا قصص الفرسان والفروسية التي كان يتغنى بها أهل فرنسة وجوارها، خلفًا عن سلف، فقد كانت هذه القصص تكاد تكون الأسمار الوحيدة للأمراء والنبلاء،

بل الأسمار الوحيدة لعامة الشعب، وإنما كان يعجب بتلك القصص وهاتيك الأخبار من سير الأبطال كل من كان يدعى نفسًا عالية وحسًّا نجيبًا، وقد تضاءل كل تاريخ بجانبها وهزل كل أدب ما عداها، وكان أكثرها شعرًا ولهذا الشعر رواة اختصوا به، يذهبون من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية، فينشدونها الجماهير التي تترنح لها أعطافهم، وكان لا يحتفل بعيد ولا بموسم إلا اندفع أولئك الرواة في إنشاد تلك القصائد عن سير أبطال الوطن، وكانت أكثر هذه السير تدور على حروب المسلمين، وعلى ما جالده صناديد الفرنسيس في دفع غاراتهم، ولما كان في هذه القصص وتلك القصائد من المبالغة ما هو جدير بكل القصاص الذين يترنمون بوقائع الأبطال، كانت الواقعة الواحدة تتجسم وتنمو وتصبح أضعاف ما هي تجسيمًا لفضل أولئك الذين تولوا كبر تلك الوقائع، حتى صار في تاريخ كل مدينة وكل بلدة من فرنسة وإيطالية أمير عربي أو بطل عربي يبارزه أمير إفرنسي أو بطل إفرنسي وبعد أن يشتد البِراز ويطول العراك وتظهر فيه خوارق الأقدار، ينتهي بالبداهة بتغلب البطل الفرنسي على البطل العربي.

وبالجملة فقد كان العرب لذلك العهد، هم الأمثلة العليا والأقيسة البعيدة، في الشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الأخلاق والعفو عند المقدرة وقرى الضيف، تشهد بذلك وقائع ونوادر كثيرة، منها ما رواه بعض مؤرخي الإسبانيول من أنه في سنة ٨٩٠ أراد ملك أشتورية، أذفونش الكبير، أن ينتدب مؤدبًا لابنه وولي عهده فاستدعى اثنين من مسلمي قرطبة، حرصًا على تهذيبه؛ إذ لم يجد في المسيحيين إذ ذاك كفؤًا لهذه المهمة.

ومن الغريب أنه في قصة من قصص الفروسية المتعلقة بشارلمان الكبير يروون أنه في صغره ذهب واقتبس من أنوار العرب، وأنه من تأثير ذلك تمكن من إدارة تلك السلطنة العظيمة التي جدد بها مجد العالم الغربي، وقد بقيت هذه الأقاصيص هي المعول عليها في الأندية والمجامع، وهي الفكاهة المستطرفة في المواسم والمحافل إلى عهد غير بعيد، ولم يدخل التمحيص التاريخي عندنا إلا منذ مائة وخمسين سنة؛ إذ أخذ الناس ينبذون ما هو من عمل الخيال إلى ما هو من لباب الوقائع الراهنة.

وختام القول: إنه لو نشر موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر، ورأوا ما هي عليه الحالة في زماننا هذا، لوجدوا اختلافًا كثيرًا في بيئتي المسيحيين والمسلمين، عما كانتا عليه في الأعصر السالفة. ولكن مما لا شك فيه أنهم بعد الوهلة الأولى كانوا يبتهجون بالمكانة العليا التي جعلها القصاص والزجالون

من آبائنا لأعمالهم الكبيرة، وكانت نفوسهم المشغوفة بمعالي الأمور تقابل بمزيد الإكبار ذلك الشعور النبيل الذي كان يختلج عند من نسميهم البرابرة من آبائنا والذي لا يزال يتلاشى يومًا فيومًا.

انتهى كتاب رينو ببعض اختصار وتصرف.

هوامش

(١) من الغريب أن لفظة إسماعيلية لم تتناول العرب وحدهم بل صارت تطلق فيما بعد على جميع المسلمين، وقد كان في بلاد المجار طائفة من المسلمين في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح انقرضت الآن وكان يقال لها: الإسماعيلية، وهذه الطائفة معروفة في تاريخ المجار ويظهر أنه لقلة عددها أخذت تذوب تدريجًا في سواد الأمة المجرية، كما أن بعض ملوك المجار القدماء ضيقوا على هؤلاء المسلمين مرارًا ليحملوهم على النصرانية وهكذا تلاشوا من هناك.

وقد ذكر ياقوت الحموي هذه الطائفة في معجم البلدان تحت لفظة باشغرت فقال: وأما أنا فإني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم: الباشغودرية شقر الشعور والوجوه جدًّا يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، فسألت رجلًا منهم استعقلته، عن بلادهم وحالهم، فقال: أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الفرنج يقال لهم الهنكر، ونحن مسلمون رعية لملكهم في طرف من بلاده نحو ثلاثين قرية، كل واحدة تكون بليدة، إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سورًا خوفًا من أن تعصى عليه، ونحن في وسط بلاد النصرانية، فشمالينا بلاد الصقالبة وقبلينا بلاد البابا وفي غربينا الأندلس وفي شرقينا بلاد الروم قسطنطينية وأعمالها، قال: ولساننا لسان الإفرنج وزينا زيهم ونخدم معهم في الجندية ونغزو معهم كل طائفة؛ لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الإسلام، فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر، فقال: سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار وسكنوا بيننا وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام، فهدانا الله والحمد لله فأسلمنا جميعًا وشرح الله صدورنا للإيمان، ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقه، فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم، فسألته: لم تحلقون لحاكم كما تفعل الإفرنج؟ فقال: يحلقها منا المتجندون ويلبسون لبسة السلاح مثل الإفرنج أما غيرهم فلا. قلت:

فكم مسافة ما بيننا وبين بلادكم؟ فقال: من هنا إلى القسطنطينية نحو شهر ونصف، ومن القسطنطينية إلى بلادنا نحو ذلك. انتهى.

قلت: إن قوله الإفرنج مبني على كون الشرقيين يسمون جميع نصارى أوربة إفرنجة، وإلا فالمجار ليسوا من الإفرنج في شيء، ثم إني قد سألت علماء التاريخ من المجار عن قضية هؤلاء المسلمين الذين وجدوا في بلادهم في القرن السابع للهجرة، فأجابني الجنرال «تيودور كلوك» معلم التاريخ في جامعة بودابست بما خلاصته: إنه كان يوجد مسلمون أصلهم من البلغار في بلاد المجار عاشوا في أيام الملوك المجار من عائلة أربارد من سنة ٨٩٦ للمسيح إلى سنة ١٣٠١ وكان يقال لهم الإسماعيلية، وكانوا في القرن الحادي عشر يعيشون جماعات في جنوبي بلاد المجار، وكان منهم حراس لقلعة بست، وكان منهم في القرن الثالث عشر لا في مدينة بست فقط بل في جميع هكاريا، وكان أكثرهم من طبقة التجار، وفي سنة ١٠٧٧ صدر أمر الملك «لاديسلاوس» بتنصير الإسماعيلية، ولكن بقي منهم كثيرون في الباطن على دين آبائهم، وفي سنة ١٠٩٥ صدر أمر الملك «كولومان» بأن لا يكون في القرية من الإسماعيلية أكثر من النصف، وبأن يزوجوا بناتهم من المسيحيين، وفي أيام الملوك الذين بعده كان الإسماعيلية يؤثرون الخدمة العسكرية، وكان الملك غيزه الرابع أرسل إلى الإمبراطور الألماني «فردريك بربروسة» سنة ١١٦١ جيشًا لمعونته فيه خمسمائة من الإسماعيلية المذكورين. وفي سنة ١٢٢٦ للمسيح كان اجتماع ياقوت الحموي بأناس من هؤلاء الإسماعيلية في مدينة حلب، وفي سنة ١٢٢٢ وقع اضطهاد على الإسماعيلية واليهود، وفي المدة التي بين سنة ١٢٣٥ وسنة ١٢٧٠ كان الإسماعيلية صيارف يقرضون ملك المجار أموالًا، وما زالوا إلى سنة ١٢٤٢ معروفين كمسلمين، ومن ذاك الوقت أخذوا يندمجون في الشعب المجري، وفي سنة ١٢٦٦ كان لا يزال منهم قرية اسمها تمركني Temerkeny وفي زمان لورفيك الكبير كان لا يزال بعض عائلات مسلمة من بقايا الإسماعيلية.

وسنذكر شيئًا أوسع من هذا عن الإسماعيلية (أي مسلمي المجار) في رحلتنا إلى بلاد المجر وبوسنة، وإنما كان مرادنا هنا أن نذكر كون الإفرنج لا يقتصرون على العرب بلقب إسماعيلية بل قد يعنون بذلك كل المسلمين من عرب وعجم فإنه مما لا شك فيه أن المسلمين الذين كانوا في بلاد المجار لم يكونوا عربًا بل كانوا من المجار أو الباشقرد وعلى كل حال من أصل تتاري.

(٢) استشهد رينو على مسألة الرقيق وبيعه في أوربة بمجموعة الدون بوكيه وبجغرافية ابن حوقل وبالمقري، وقد رأينا أن ننقل عبارة ابن حوقل عن «المسالك

والممالك» قال: وبالأندلس سلاع كثيرة ترد إلى مصر والمغرب وأكثر جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان من سبي إفرنجة وجليقية والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس؛ لأنهم بها يخصون، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد، وجميع ما يسبى إلى خراسان من الصقالبة باق على حالته ومقر على صورته، وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتدًا على القسطنطينية وأترا بزوندة يشق بلدهم بالعرض، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وإفرنجة وانكيبردة (لونبارديه وتوابعها) وقلورية (كالابره) وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله. انتهى.

وأما في نفح الطيب فيقول عن الإسبانيول: إنهم يحاربون بالأفق الشرقي أمة يقال لهم الفرنجة، هم أشد عليهم من جميع من يحاربونه، إذ كانوا خلقًا عظيمًا في بلاد واسعة جليلة متصلة العمارة آهلة تدعى الأرض الكبيرة، هم أكثر عددًا من الجليقيين وأشد بأسًا وأعظم إمدادًا يحاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم في الديانة، فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس، فلهم هنالك كثرة وتخصيهم للفرنجة يهود ذمتهم الذين بأرضهم وفي ثغر المسلمين المتصل بهم، فيحمل خصيانهم من هنالك إلى سائر البلاد، وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك فصاروا يخصون ويستحلون المثلة. انتهى.

قلت: والخصاء ممنوع شرعًا.

(٣) لو أردنا التعرض لموضوع الصقالبة ومن نبغ منهم في الإسلام، ومن وصلوا إلى الدرجات العلى لطال الأمر جدًّا وقد يستحق ذلك تاريخًا مستقلًا.

(٤) جاء في نفح الطيب أن مغيثًا مولى الوليد بن عبد الملك جمع يهود قرطبة فضمهم إلى مدينتها استنامة إليهم دون النصارى للعداوة بينهم وقال: إنهم لما فتحوا غرناطة ضموا اليهود إلى قصبتها وصار ذلك لهم شنشنة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ويمضي معظم الناس لغيرها وإذا لم يجدوا يهودًا وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح. انتهى.

(٥) ومن الغريب أنه في أخريات هذه الأيام قام أناس من الفرنسيس يريدون أن يثبتوا كون البربر ليسوا جميعًا بمسلمين، تقصد هذه الفئة أن تأفك البربر عن الإسلام، فالمؤرخ المستشرق رينو يشهد كما ترى بأن البربر أسلموا قاطبة، وإن كانت هذه القضية لا تفتقر إلى شهود.

(٦) بمثل هذه الخرافات خدع رجال الكنيسة أهل أوربة مدة تزيد على ألف سنة، ولم يكن العوام في القرون الوسطى وحدهم يصدقونهم بل كان أسيرًا لهذه الأوهام أو لبعضها كثير من الخواص، ولا تزال إلى ساعتنا هذه في أوربة برغم ترقيتها وانتشار المعارف فيها أوهام وأفكار مخلوطة عن المسلمين تضحك الثكالى نسمع منها ونقرأ كل يوم بل كل ساعة.

وقد نقلنا عن المسيو درمنغهم الإفرنسي في السيرة النبوية في الطبعة الثانية من حاضر العالم الإسلامي هذه الأقوال المضحكة التي يهزأ بها رينو هنا، وقد شدد درمنغهم نفسه عليها النكير ولكن رجال الكنائس لا يزالون إلى يوم الناس هذا ينشئون أبناء مللهم في مثل هذه الترهات البسابس ويقلبون لهم حقائق الإسلام عمدًا تنفيرًا لهم منه كما فعل سلفهم في القرون الوسطى.

(٧) الصنم المذكور هو صنم سومانات وقصته شهيرة.

(٨) جاء في الإحاطة في أخبار غرناطة تأليف لسان الدين بن الخطيب كاتب الأندلس الأكبر في وصف ملابس أهل الأندلس وأسلحتهم ما يلي: وجندهم صنفان؛ أندلسي، وبربري. والأندلسي منهم يقوده رئيس من القرابة (أي قرابة السلطان) أو حصى (الحصى الرجل العاقل) من شيوخ المسالك وزيهم في القديم شبه زي أقيالهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج من إسباغ الدروع وتعليق الترسة واتخاذ عراض الأسنة وقرابيس السروج واستركاب حملة الرايات كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهرة يعرف بها ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا إلى الجواشن المختصرة والبيض المرهفة والدرق العربية والسهام الملطية والأسل العطفية، (ثم قال) والعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة إلا ما شذ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند العربي منهم. انتهى. ولا يخفى أن لسان الدين كان يصف الأزياء في حضرة غرناطة في زمانه وهو القرن الثامن للهجرة.

وجاء في نفح الطيب نقلًا عن ابن سعيد في المغرب: وأما زي أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لا سيما في شرقي الأندلس فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيًا ولا فقيهًا مشارًا إليه إلا وهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان في ذلك الأوان وإليه الإشارة وقد خطب له بالملك في تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره، وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة في شرق منها أو في غرب وابن هود الذي

ملك الأندلس في عصرنا رأيته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة، وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده وكثيرًا ما يتزيى سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم وأقبيتهم كأقبيتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم. انتهى.

(٩) الولاء هو حالة العبد بعد عتقه بالنسبة إلى سيده ومن العبيد من يتفق مع سيده على أنه يعتقه ثم يأخذ العبد بدفع ثمنه تقسيطًا، ويسمى هذا العبد مكاتبًا، قال ابن الأثير: الكتابة أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجمًا فإذا أداه صار حرًّا. قال: وسميت كتابة بمصدر كتب؛ لأنه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ويكتب مولاه له عليه العتق، وقد كاتبه مكاتبة والعبد مكاتب. قال: وإنما خص العبد بالمفعول لأن أصل المكاتبة من المولى وهو الذي يكاتب عبده. قال ابن سيده: كاتبت العبد أعطاني ثمنه على أن أعتقه، وفي التنزيل العزيز ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ معنى الكتاب والمكاتبة أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجِّمه عليه ويكتب عليه أنه إذا أدى نجومه في كل نجم كذا فهو حر، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذي كاتبه.

(١٠) قال الأستاذ العلامة حجة الإسلام، رشيد رضا في كتابه الذي صدر جديدًا باسم «الوحي المحمدي»: إن العلماء اتفقوا على شرعية عتق الكافر وأنه قربة ولكنهم اختلفوا في عتقه في الكفارة.

ولقد رأينا أن ننقل إلى هذا الكتاب خلاصة ما أورده الأستاذ المشار إليه في كتاب «الوحي المحمدي» بشأن الرقيق في الإسلام فإن الناشئة العصرية لا سيما المتخرجين في المدارس الأوربية لا يعلمون عن الرق في الإسلام ما يلزم أن يعلموه وإذا سألوا الفقهاء الجامدين عن هذا الباب زادوهم خبالًا فلهذا اخترنا أن نقفهم على حكم الإسلام في قضية الرقيق محررًا بقلم الأستاذ الحجة. قال لله دره: كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الأعمال، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية وظل الرقيق مشروعًا عند الإفرنج إلى أن حررت الولايات الأميركية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وتلتها إنكلترة باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر، ولم يكن عمل كل منهما خالصًا لمصلحة البشر وجنوحًا للمساواة بينهم، فإن الأولى لا تزال تفضل الجنس الأبيض الأوربي المتغلب على الجنس الأحمر

الوطني الأصلي بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الإفرنج للشعوب، كما أن إنكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلواء الإنكليز، فلما ظهر الإسلام كان مما أصلحه من فساد الأمم إبطال ظلم الرقيق وإرهاقه ووضع الأحكام لإبطال الرق بالتدريج السريع؛ إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذرًا في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين: ناحية مصالح السادة المسترقين، وناحية معيشة الأرقاء. فإن الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الأرض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدها فيحور إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان. وكذلك جرى في السودان المصري فقد جرب الإنكليز أن يجدوا للأرقاء رزقًا بعمل يعملونه مستقلين فيه، فلم يمكن، فاضطروا إلى الإذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة بشرط أن لا يكون مسموحًا للمخدومين ببيع الأرقاء والاتجار بهم. وقد شرع الله تعالى لإبطال الرق طريقتين: عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذي لا ضرر ولا ضرار فيه.

الطريقة الأولى: منع الإسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقوياء للضعفاء إلا استرقاق الأسرى والسبايا في الحرب التي اشترط فيها دفع المفاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة، وهي شروط لم تكن قبل الإسلام مشروعة عند المليين ولا عند أهل الحضارة، فضلًا عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون، ولست أعني بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الأمم تفعله معاملة لهم بالمثل، بل شرع لإولي الأمر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في إمضائه أو إبطاله، بأن خيرهم في أسرى الحرب الشرعية بين المن عليهم بالحرية والفداء بهم. وهو نوعان: فداء المال، وفداء الأنفس إذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم، وذلك قوله تعالى الذي أوردناه في قواعد الحرب ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ ولما كنا مخيرين فيهم، بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم، جاز أن يعد هذا أصلًا شرعيًّا لإبطال استئناف الاسترقاق في الإسلام، فإن ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز لو لم يعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع الأمم، فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن أرحم بهم وأعدل، كما يعلم مما يأتي، ولكن الآية ليست نصًّا في الحصر ولا صريحة في النهي عن الأصل فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقًا غير قطعية، فبقي حكمه محل اجتهاد أولى الأمر، إذا وجدوا المصلحة في إبقائه

أبقوه، وإذا وجدوا المصلحة في ترجيح المن عليهم أو الفداء بهم عملوا به.

وإنما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين أي: المن على الأسرى والفداء بهم — في حالات قليلة لا تدوم كأن يكون المحاربون للمسلمين قومًا قليلي العدد، كبعض قبائل البدو، يقتل رجالهم كلهم أو جلهم فإذا ترك النساء والأطفال والضعفاء من الرجال لأنفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال في حياتهم، فيكون الخير لهم أن يكلفهم الغالبون ويقوموا بشؤونهم المعاشية، ثم تجري عليهم أحكام الطريقة الثانية في تحريرهم، وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أولاد وربات بيوت حرائر أو محصنات من الفواحش مكفيات أمر المعيشة على الأقل، وقد سن النبي ﷺ لأمته ترجيح المن على الأسارى والسبايا بالعتق، قولًا وعملًا، في غزوة بني المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة حنين كما هو مفصل في كتب السيرة النبوية وغيرها؛ إذ لم يكونوا أسروا من المسلمين أحدًا؛ لأن المسلمين قد أثخنوهم وظهروا عليهم، فعلم منها أن روح الشريعة الإسلامية ترجيح جانب الفضل والإحسان عند القدرة، ومنه عتق الأسرى والسبايا والمن عليهم بالجزية بلا مقابل حاضر ولا خوف مستقبل، بل لمحض الإحسان.

الطريقة الثانية: ما شرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوبًا وندبًا وهو أنواع:

النوع الأول: من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازبة وفيه عشر مسائل:

(١) الحرية في الإسلام هي الأصل في الإنسان، كما كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عامله على مصر عمرو بن العاص (وقد اشتكى عليه قبطي): يا عمرو منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ وقد أخذ الفقهاء من هذا الأصل أن الرق لا يثبت بإقرار المرء على نفسه وجعلوا قول منكره راجحًا على قول مدعين فيكلف إثباته.

(٢) أن الإسلام حرم استرقاق الأحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشروطها كما تقدم وجعل ذلك من أعظم الآثام. روى البخاري وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته، رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا ثم أكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره». وفي حديث الثلاثة الذي لا يقبل الله منهم صلاة «ورجل اعتبد محررًا» أي جعله كالعبد في استخدامه كرهًا وأنكر عتقه أو كتمه وهو في سنن أبي داود وابن ماجه.

(٣) شرع الله تعالى للمملوك أن يشتري نفسه من مالكه بمال يدفعه ولو أقساطًا، ويسمى هذا في الشرع الكتاب والمكاتبة، وأصله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّـهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أمر بمكاتبتهم إن علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه، وأنه خير لهم وأمر بإعانة المالك لمكاتبه على أداء ما باعه نفسه به، ويدخل فيه الهبة وحط بعض الأقساط عنه وجعل في مال الزكاة المفروضة سهمًا تدخل فيه هذه الإعانة وندب غير المالك لذلك أيضًا.ذهب بعض العلماء إلى أن الأمرين في الآية للوجوب: الأمر بالمكاتبة والأمر بالإعانة عليها، والأكثرون على أن الأول للندب والثاني للوجوب. وفي صحيح البخاري بعد ذكر الآية: قال روح عن ابن جريج: قلت لعطاء: واجب عليَّ إذا علمت أن له (أي لمملوكه) مالًا أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجبًا. وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنسًا المكاتبة — وكان كثير المال — فأَبَى، فانطلق سيرين إلى عمر، فدعاه عمر فقال له: كاتبه. فأَبَى. فضربه بالدرة وتلا ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه.

(٤) إذا خرج الأرقاء من دار الكفر ودخلوا دار الإسلام يصيرون أحرارًا وعلى الحكومة الإسلامية تنفيذ ذلك ومستنده في السنة معروف.

(٥) إن من أعتق حصة له في عبد عتق كله عليه من ماله، إن كان له مال، وإن كان لغيره حصة فيه فله أحكام، وفي ذلك أحاديث في الصحيحين وغيرهما، منها حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَعْتَقَ نَصِيبًا أو شقيصًا فِي مملوكٍ فخلاصُهُ عليه فِي مالِهِ إنْ كانَ لهُ مالٌ وإلا قُوِّمَ عليْهِ فاستُسْعِيَ بهِ غيرَ مشقوقٍ عليهِ» وحديث ابن عمر مرفوعًا أيضًا: «مَنْ أعتقَ نصيبًا لَهُ فِي مملوكٍ أَوْ شركًا لَهُ فِي عبدٍ فكانَ لَهُ مِنَ المالِ مَا يبلغُ قيمتَهُ بقيمةِ العدلِ فَهُوَ عتيقٌ» والشقيص كالنصيب وزنًا ومعنى.

(٦) من عذب مملوكه أو مثَّل به أو خصاه عتق عليه، فقد روى الإمام أحمد أن زنباعًا أبا روح وجد غلامًا له مع جارية له فجدع أنفه وجبه فشكاه إلى النبي ﷺ، فسأله فاعترف وذكر ذنبه، فقال النبي ﷺ للغلام: «اذهبْ فأنتَ حرٌّ» ويؤخذ منه أن الجب والخصاء حرام وموجب لعتق العبد وينفذه الحاكم، فكل ما كان يتخذ من الخصيان المماليك ففيه مخالفة للشرع الإسلامي بخصائهم وعدم عتقهم.وفي

رواية له (الإمام أحمد) أخرجها أبو داود وابن ماجه جاء رجل إلى النبي ﷺ صارخًا فقال له: مالك؟ قال: سيدي رآني أُقَبِّل جارية له فجب مذاكيري. فقال النبي ﷺ «عليَّ بالرجل» فطلب فلم يقدر عليه، فقال ﷺ للغلام: «اذهب فأنت حر». وفي جامع الأصول من حديث سمرة بن جندب وأبي هريرة أن النبي ﷺ قال «مَنْ مثَّلَ بِعَبْدِهِ عَتَقَ عَلَيْهِ».

(٧) إيذاء المملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام، ولا كفارة لذنبه إلا عتقه، فقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَطَمَ مملوكَه أو ضربَه فكفارتُه أنْ يعتقَهُ». وللشيخين والترمذي عن سويد بن مقرن قال: كنا بني مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا إلا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي فقال: اعتقوها. وقيل له: إنه ليس لبني مقرن خادم غيرها، فرخص لهم باستخدامها ما دامت الحاجة وإطلاقها إذا زالت، وروى مسلم وغيره عن أبي مسعود البدري قال: كنت أضرب غلامًا بالسوط فسمعت صوتًا من خلفي: اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود. فألقيت السوط من يدي، وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيبته، فقال: اعلم أبا مسعود أن الله أقدر منك على هذا الغلام (وفي رواية عليه) فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار.

(٨) التدبير عتق لازم وينعقد بقول السيد لعبده أنت مدبر وأنت حر عن دبر مني أي بعد أن أدبر عن هذه الدنيا، وكذا أنت حر بعد موتي إذا قصد به التدبير فإن أطلق ولا قرينة فبعض العلماء يرجح أنه تدبير تقوية لجانب العتق الذي هو من مقاصد الشرع الأساسية، ومنهم من يرجح جانب الوصية. ومن أحكام التدبير أنه لازم في الحال لا يجوز الرجوع عنه كالوصية وأنه لا يجوز للمدبِر (بالكسر) بيع المدبَر (بالفتح) عند مالك وأبي حنيفة وأن من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق إلى باقيه وقال جمهور العلماء: إن أولاد الجارية المدبرة تابعون لها في العتق والرق فإذا عتقت عُتقوا معها.

(٩) عتق أمهات الأولاد، وهو أن الجارية التي تلد لسيدها ولدًا تصير حرة من رأس ماله بعد موته، فلا تدخل في ملك الورثة ولا يجوز له بيعها في حياته عند جمهور السلف والخلف، وأولهم عمر وعثمان، ففي حديث عمر عند الإمام مالك:

أيما وليدة ولدت من سيدها فإنه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فإذا مات فهي حرة.

(١٠) أن من ملك أحدًا من أولي القربة عتق عليه وأعم ما فيه حديث سمرة بن جندب مرفوعًا: مَنْ ملكَ ذَا رحمٍ محرمٍ فهوَ حرٌ.

النوع الثاني: من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات، والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب، وهي ثلاثة أقسام؛ أحدها: واجب حتمًا على القادر على العتق ككفارة قتل النفس خطأ وكفارة الظهار، وهو تشبيه الرجل زوجه في أمه، وكان طلاقًا في الجاهلية، وكفارة إفساد الصيام عمدًا. ثانيها: واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يمينًا وحنث فيه فكفارته إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة. ثالثها: مندوب، وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها.

النوع الثالث: من وسائل إلغاء الرق الموجود، جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (في الرقاب) بنص القرآن، هو يشمل العتق والإعانة على شراء المملوك نفسه، ومن المعلوم أن زكاة الأمة الإسلامية تبلغ مئات الألوف وألوف الألوف من الدراهم والدنانير فلو نفذت أحكام الإسلام فيها وحدها لأمكن تحرير الرقيق في دار الإسلام.

النوع الرابع: منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى، قد ورد في الكتاب والسنة من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ومما يدل على أنه من أعظم العبادات آية البر من سورة البقرة، ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله ﷺ: أيَّمَا رجلٍ أعتقَ امرءًا مسلمًا استنقذَ للهُ بكلِّ عضوٍ منهُ عضوًا مِنَ النارِ، وحديث أبي ذر قال: سألت رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: إيمانٌ باللهِ وجهادٌ فِي سبيلِهِ. قلت: قلتُ: فأيُّ الرقابِ أفضلَ؟ قالَ: أغلَاهَا ثمنًا وأنفَسَهَا عندَ أهلِهَا، ومن أشهرها حديث أبي موسى الأشعري: أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران.

أضف إلى هذا وصايا الله ورسوله بالمماليك، ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين ونهي النبي ﷺ عن قول السيد: «عبدي أو أمتي» وأمره أن يقول: «فتاي

وفتاتي وغلامي» وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون. انتهى ببعض اختصار، ومنهم تفهم معالي الشرع الإسلامي وما فيه من المبادئ الإنسانية والرحمة بالضعفاء والعمل لتحرير الرقاب بكل وسيلة ممكنة، وتعلم أنه ليس من ضرب تحرير الرق عند الإفرنج الذي فيه من الرياء ومن تسلط الأقوياء على الضعفاء ومن استعباد الشعوب القوية للشعوب المهضومة ومن جعل الأجناس البشرية نازلًا بعضها عن بعض ما كل أحد يحكم به إن كان منصفًا.

(١١) كان يقال له: الملك رينه الصالح وكان من ألقابه دوق أنجو وكان كونتا على بروفنس توفي سنة ١٤٨٠.

(١٢) في فرنسة ولا سيما في المقاطعات الجنوبية منها، عائلات كثيرة معرفوة بأنها من سلالة السرازين، أي المسلمين، ومنها ما تدل سحناؤها إلى اليوم على العروبة، وفي نفس سويسرة عائلات ملقبة بالسرازين، في جنيف وفي بازيل، ومن أشهر من انتسب إلى أصل عربي في جنيف العالم العلامة الفيلسوف «ابن أبي زيد» وكان أهل سويسرة يقولون له: أبو زيت Abou Zit وأصله عربي من سكان طولوز، وكان أهله من العرب الذين تنصروا ثم اتخذوا مذهب البروتستانت، فلما صدر أمر لويس الرابع عشر بإخراج كل البروتستانتيين من فرنسة، خرج أبو زيد هذا مع من خرجوا إلى جنيف، ثم نشأ فيها ونبغ في جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة والتاريخ وغيرها، وكان معاصرًا لفولتير وروسو ونيوطن في إنكلترة، وصديقًا لهم جميعًا، وكانت له عندهم المكانة العليا وربما استفتوه في عويص المسائل العلمية، وقد ذكرت جريدة جورنال ده جنيف إحدى المرار أن فولتير استفتاه في مسائل غاب عنه علمها، ومر بفولتير صاحب له قاصدًا إلى جنيف، فسأله فولتير: ما شغلك في تلك البلدة؟ وكان فولتير ساكنًا في ضواحي جنيف كما لا يخفى بقرية فرناي. فقال له صاحبه: أريد الاجتماع بعالم كبير. فقال له: إذن تريد أن تجتمع بصاحبنا العربي. وأما جان جاك روسو فبينه وبين أبي زيد مراسلات مجموعة في كتاب، وكان هذا العلامة العربي زاهدًا عظيم التواضع معرضًا عن الدنيا، عرضوا عليه في جنيف أعلى المناصب فرفضها، واقتصر على وظيفة قيم لخزانة الكتب العمومية، وفي جنيف اليوم شارع مشهور باسم شارع أبي زيد، وكان سلف أبي زيد هذا أطباء في طولوز، وقد كتب محرر هذه السطور عن أبي زيد العربي الجنيفي منذ بضع سنوات مقالة في الجرائد العربية لخصناها عن الجرائد السويسرية وربما نعود إلى موضوعه بعد التوسع في معرفة حياته.

(١٣) كان يجب على المسيو رينو وهو مستشرق عليم بأمور المسلمين أن ينبه على كون المعتدي على عرض المسلمة المتزوجة يجازى بالقتل بحسب الشرع سواء كان مسيحيًّا أو مسلمًا أي إن هذا الجزاء ليس خاصًّا بالمسيحيين.

(١٤) ذكر رينو في حاشية هذه الجملة أن المسيحيين في جبل لبنان هم وحدهم الذين في الشرق يسمح لهم المسلمون بقرع الأجراس.

(١٥) في موضوع آثار العرب في فرنسة يحسن أن نذكر شهادة طبيب كبير اسمه البروفسور دالماس هو أستاذ الأمراض النسائية بكلية الطب في مدينة مونبيليه في جنوبي فرنسة الذي ألقى في فضل العرب على جامعة مونبيليه محاضرة قيمة حضرها جم من الشبان الشرقيين، من مصريين وعراقيين وسوريين، ونشروا عن ذلك مقالة في جريدة الأهرام. وقد بدأ البروفسور دالماس بذكر فتوحات العرب لعهد الخلفاء الأولين، وقال: إنهم كانوا يحملون مدنيتهم حيثما ذهبوا وأين ما حلوا، وقال: إن مدنية العرب لم تنحصر في فن البناء ونشر الزخرف العربي وتشييد الجوامع فقط بل كانت تتناول الكثير من العلوم والمعارف التي هي أساس العلوم الحديثة، وخص بالذكر علمي النبات والطب، وذكر أنه إلى العرب يعود الفضل في تعريف الغرب بالمدنية اليونانية. ثم قال: إن العرب نزلوا ببلدة ماجلون، ضاحية مونبيليه، وأقاموا بها مدة من الزمن إلى أن أجلاهم عنها شارل مارتل وأحرقها حتى لا يعودوا إليها وكانوا في أثناء وجودهم فيها يبيعون بعض الكتب الطبية، ثم جاء منهم أطباء وصاروا يمارسون حرفة التطبيب، ثم ذكر من الأطباء أسماء بعض اليهود الذين تلقوا الطب العربي مثل صموئيل بن طيبون وناتان بن زكريا، وأسماؤهما منقوشة على لوحة الأستاذية بمدخل كلية الطب، وقال: إن بعض الرهبان الذين ترقوا إلى درجة البابوية كانوا قد طلبوا العلم بجامعة مونبيليه على أساتيذ من العرب، وقال: إن ملك نابار عندما مرض بصدره التجأ إلى أطباء العرب، وقال: إنه يوجد في متحف الجامعة بعض آثار وجدت في ماجلون عليها بعض الآيات القرآنية والأشعار العربية، وكنت سمعت من المرحوم الأخ أحمد بك شوقي أمير الشعراء الذي درس علم الحقوق في جامعة مونبيليه هذا الخبر بعينه رواه لي لأول تعارفنا في باريز سنة ١٨٩٣.

(١٦) نقول: إنه يجوز أن يكون الإفرنج قد بنوا شيئًا من هذه الأبراج في سواحلهم ولكن مما لا مشاحة فيه أن الأبراج التي في جميع سواحل الأندلس مطردة متسقة على طول تلك السواحل كانت من بناء العرب، وأن عادة إيقاد النيران في الأبراج إيذانًا

بالحرب ومدًّا للصريخ إنما هي عادة في الغالب عربية، وكان العرب في أوائل الفتح الإسلامي نشروا هذا النمط من الأبراج النارية من الإسكندرية إلى طنجة، فكانت إذا وقعت واقعة ذات بال أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج إلى برج حتى يبلغ ذلك الإسكندرية، في الليلة الواحدة.

ولما سرتُ من مالقة إلى الجزيرة الخضراء سنة ١٩٣٠ التي ذهبت فيها إلى الأندلس اجتازت بنا السيارة هذه المسافة في ست ساعات، فكنت كذا قطعت مسافة ٣٠٠ أو ٥٠٠ متر حاذيت برجًا مخروطي الشكل شاهقًا في الفضاء، وعلمت أن هذه الأبراج كلها عربية.

(١٧) القطران: عرفه العرب بأنه دهن يخرج من شجر الأبهل والأرز، وهو يلفظ بالفتح و بالكسر. ونحن في سورية نلفظه بالفتح (قطران) ويظهر أن العرب الذين نزلوا سواحل بروفانس كانوا يلفظونه بالكسر (قطران)، ولذلك قال الفرنسيس Quitran.

(١٨) عندما اشتد التضييق إلى الدرجة القصوى على بقايا مسلمي الأندلس، تحريقًا بالنار، وتبليصًا من المال، واستعبادًا للذكور والإناث، وتعذيبًا بمختلف الأشكال، بحجة أنهم وإن كانوا قد تنصروا ظاهرًا فلا يبرحون مسلمين باطنًا أرسل هؤلاء سرًّا يستغيثون بالدولة العثمانية، وذهب منهم خلسة من الأندلس وفد أدرك مدينة بلغراد، حيث كان الصدر الأعظم على رأس العساكر العثمانية الزاحفة يومئذ إلى تلك الأقطار، فبث الوفد إلى الصدر الأعظم كل ما يعانيه المسلمون من العذاب تحت حكم الإسبانيول، وأنهم مع ذلك لا يسمحون لهم بالخروج من البلاد، وأن منهم مائة وخمسين ألفًا خرجوا إلى فرنسة، وهم يلتمسون من الدولة العثمانية أن تتوسط لدى ملك فرنسة وملك إسبانية في أمر السماح لبقايا المسلمين المذكورين بالرحيل إلى بلاد الإسلام، فعرض الصدر الأعظم ما سمعه من الوفد الأندلسي على السلطان أحمد خان الأول — رحمه الله — وفي الحال لبَّى السلطان العثماني نداءهم، وكتب إلى ملك فرنسة هنري الرابع يرغب إليه في تسفير المسلمين الذين التجأوا إلى مملكته على مراكب تبعث بها الدولة العثمانية فتحملهم إلى بلاد الإسلام، أو على مراكب إفرنسية تتعهد الدولة العثمانية بدفع كرائها.

وكان هنري الرابع قد سمح بدخول هؤلاء المسلمين إلى فرنسة على شريطة أن يقبلوا المذهب الكاثوليكي، فلما جاءه هذا الكتاب من السلطان أحمد وكان يهمه عدم إغضابه، أجاب طلبه وأمر بتسفير المسلمين المذكورين إلى إفريقية وغيرها من بلاد

الإسلام، فخرج منهم فئات لحقوا بالمغرب، وآخرون بالجزائر وتونس، وآخرون وصلوا إلى مصر والشام، ومنهم من قصد إلى القسطنطينية، وقد بقيت منهم فئة قليلة في فرنسة انتهى الأمر بأن سلالتها صارت إلى النصرانية واندمجت في الفرنسيس. أما الذين كانوا لا يزالون في إسبانية، فبقي «فليب الثالث» يمنع خروجهم منها، إلى أن بلغه الخبر عما فعله هنري الرابع من النزول على إرادة السلطان العثماني، فحسب لتدخل الدولة العثمانية حسبانًا كبيرًا، وأمر فجمع عظماء مملكته، وتشاوروا في قضية بقايا المسلمين في تلك المملكة، فأشار بعضهم بمنع خروجهم مهما وقع وعول الجمهور ومنهم الملك على إخراجهم جميعًا تخلصًا من غوائل بقائهم في إسبانية، إذ قد ثبت للدولة الإسبانية أنه مع وجود هذه العلاقات السرية بين المسلمين الأندلسيين وبين الدولة العثمانية لم يأت أحد منهم برغم تنصرهم في ظاهر الأمر، ليخبر الحكومة الإسبانيولية بشيء من تلك الحركات، فاستدلوا من هذا على أن هؤلاء لا يزالون مسلمين، وإن أظهروا التنصر، وأنه يكون من الحزم إجلاؤهم أجمعهم عن إسبانية حتى لا تتعرض هذه المملكة بسببهم لحرب مع الدولة العثمانية لا تعلم عاقبتها، فأخرجوهم جميعًا على مراكب الحكومة الإسبانية، وكانوا نحوًا من ستمائة ألف نسمة، فذهب أكثرهم إلى المغرب، وانبثوا في الريف، وعمروا تطوان والرباط وسلا وجانبًا من فاس، وذهب كثيرون فسكنوا تلمسان والجزائر وتونس، ووصل آخرون إلى الشرق. وكان ذلك في سنة ١٦١٢ مسيحية.

وقد استوفينا تاريخ هذا الجلاء الأخير لمسلمي الأندلس في الطبعة الجديدة من «حاضر العالم الإسلامي» واعتمدنا في كثير من المعلومات التي كانت مجهولة عند الجمهور على كتاب ابن عبد الرفيع الأندلسي الذي روى عنه ابن جندار صاحب تاريخ رباط الفتح فمن شاء عن هذه المسألة بحثًا شافيًا للغليل فليراجع تاريخ رباط الفتح أو حاضر العالم الإسلامي الطبعة الجديدة، ولكننا سنخصص بهذا الموضوع إن شاء الله جزءًا بتمامه من أجزاء هذا الكتاب، فيه جميع تاريخ مسلمي الأندلس الذين أجبروا على التنصر بعد سقوط مملكة غرناطة ولبثوا مسلمين في الباطن أكثر من مائة سنة، وكان الإسبان يقولون لهم: «الموريسك» وقد أجمع المنصفون على أنه لم تعذب في الدنيا أمة ما عذبه الموريسك هؤلاء، حتى انفك عقالهم وخرجوا من إسبانية.

كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر

تأليف الدكتور فرديناند كلر

Der einfall der Sarazenenen in die Schweiz.
um die mitte des X Jahremderts.
Von dr Ferdinand Keller.
Mittheilungen der antiquarischen.
Gesellsehaft in Zurich.

وهو كتاب بالألمانية، نشرته شركة «الآثار العتيقة» في زوريخ، في سنة ١٨٥٦ وقد أطلعنا عليه العلامة الأستاذ «البروفسور هس» مدرس التاريخ والألسن الشرقية في جامعة زوريخ من سويسرة، وذلك في سنة ١٩١٩ وهو أول كتاب اطلعنا عليه في هذا الموضوع، فلخصناه يومئذ، ونشرنا خلاصته في مجلة المنار لصاحبها الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا، ثم إننا رأينا نقل هذا الكتاب برمته إلى العربية في كتابنا هذا، ولم نختصر منه إلا في المظان التي ليس فيها طائل.

قال فرديناند كلر في كتابه:

قال ليوبراند (Liuprand): إنه بحسب إرادة الله التي لا يدرك سرها، قد جرى في سنة ٨٩١ أنه جاء عشرون عربيًّا في مركب صغير من سواحل إسبانية،

قذف بهم الريح بالرغم منهم نحو خليج القديس تروبز St Tropez في بروفانس Provence. فنزلوا إلى البر هناك، على عادة لصوص البحر، وكان نزولهم في جوف الليل فتسللوا إلى قرية «تروبز» وفتكوا بأهلها المسيحيين، وملكوا الناحية، ثم اتخذوا معقلًا الجبل المسمى موروس Maurus ليكونوا في حرز حريز من عادية الأمم المجاورة، وكان ذلك الجبل مغطى بالأشجار الشائكة التي كانوا يحتمون بأشواكها وألفافها، ولم يجعلوا فيها سوى شعب واحد لأنفسهم يمرون فيه، وهذا المكان يسمى فراكسينيتوم Fraxinétum[١] يحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة مؤتشبة مشتبكة الأغصان، من نشب فيها نفذت فيه أشواك أحد من الحراب فلا يقدر أن يتقدم ولا أن يعود، فأمنوا في هذا المكان المنيع وصار لهم سربًا وصاروا يجولون في الجهات المجاورة بدون وجل، واثقين بمكمنهم هذا، ثم أنفذوا رسولًا إلى إسبانية لأجل أن يندب الناس من قومهم، ليلتحقوا بهم، فمدح الرسول المكان وأطمع الناس فيه، وقال: إن أهالي تلك البلاد لا يخشى بأسهم وليسوا بجمرة قوية فلم يلبث إلا قليلًا حتى رجع ومعه مائة رجل من العرب، جاءوا ليتحققوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نجعته.

وقد أسعف غارة العرب هذه ما كان بين أهل بلاد بروفانس، من الشقاق البعيد، وقيام بعضهم ضد بعض، فكان بعضهم لأجل أن يستأصل البعض الآخر يستنجد هؤلاء العرب العفارية المكارين، فكان من اختلاف أهالي تلك البلاد، ومن توالي النجدات إلى العرب من إسبانية، أن أصبح هؤلاء آمنين في سربهم، وشرعوا يجولون ويسلبون ويقتلون كيفما شاءوا، وكيفما لاح لهم الصيد، واجتاحوا تلك البلاد الخصيبة اجتياحًا تامًّا وأصابوا فيها مغانم كثيرة.

هذه هي الرواية الحرفية لمؤرخ معاصر[٢] عن نزول المسلمين في سواحل بروفانس وعن طبيعة جبل «فراكسيناتوم» وكيفية تحصينهم له، بحيث بقي مدة سنين طوال مركزًا لقوتهم في هذا الجانب من أوربة وصيصية يمتنعون بها ويبعثون منها شراذم كثيرة أو قليلة إلى الجنوب، وإلى الشرق من جبال الألب البحرية، وما عتموا أن صارت لهم شوكة يتحدث الناس بها، برعب الناس منهم، وباعتمادهم هم على أنفسهم، وكانت لهم غزوات بعيدة المغار، لأجل الغنائم، فإذا لم يجدوا أمامهم من يقرع النبع بالنبع

نهبوا تلك الأديار الغنية والمدن المحصنة والمعاقل التي كان يسكنها أشراف البلاد، وتركوها قاعًا صفصفًا كأن لم تغن بالأمس.

والذى يظهر جليًّا من روايات مؤرخي ذلك العصر أن هذه الغارة لم تكن ذات مغزى سياسي كغيرها من الغارات، ولا كان لها غرض راجع إلى توسيع ممالك الدولة الإسلامية الأندلسية، ولم يكن مقصد هذه العصابة إخضاع أهالي هاتيك البلدان لسلطانها. وذلك لأن عددها لم يكن كافيًا لتحقيق دعوى كهذه، وقصارى ما كانت ترمي إليه أن تحوز الذهب والكنوز التي تعثر عليها، وتعود بها إلى معقلها في جبل فراكسيناتوم، وأنها إذا وجدت طالع الحرب قد خانها تشحنها في السفن الراسية في خليج فركسيناتوم وتطوير بها بجناح الريح قافلة إلى إسبانية، وكذلك يظهر أن خليفة إسبانية لم يكن ذا علاقة بهذه العصابة التي تطوحت في ذلك الفج السحيق ولا أتاها أدنى مدد من جهته.[٣]

وأما السؤال عن الوقت الذي اجتاز فيه المسلمون جبال الألب، وتوغلوا في أرض إيطالية، فإنه لا يجد جوابًا مستندًا على معلومات دقيقة ويجب أن يكون هذا الحادث قد وقع على كل حال في أوائل القرن العاشر، فقد دلنا محرر المذكرات اليومية لدير «نوفاليز» Novalese الذي على مقربة من «سوزا» Susa بحذاء جبل «سنيس» Senis على أن غارة المسلمين كانت في نواحي سنة ٩٠٦، فمنذ تلك السنة كانوا في «بروفانس» و«بورغوند» Burgund و«شيمله» Cimella حول «نيسه» Nizza يجولون ويقتلون ويحرقون، ومن المحقق أنهم في هذه السنة كانوا يتوقلون في جبل سنيس وكانوا قد فتحوا الباب نحو بلاد سافواي وسويسرة، وفي أسفل هذا الجبل كان دير نوفاليزه الذي كان من أعظم الأديار وأغناها، فلما سمع الرهبان بلصوصية هؤلاء القوم وبقسوتهم، وكانوا يعرفون جيدًا ما وراءهم حزموا ما في الدير من الأشياء الثمينة ومن جملتها خزانة النفيسة وذهبوا بها إلى تورين لتكون بمأمن. فما كادوا يفارقون الدير حتى جاء المسلمون واكتسحوا كل شيء وأحرقوا الكنيسة والبناء كله، وكان راهبان طاعنان في السن قد بقيا في الدير لأجل حراسته فقبضوا عليهما وأهانوهما.[٤]

وفي ذلك العهد أصبحت البلاد الواقعة بين نهري «بو» Po و«الرون» مجالًا للغارات والعيث، فالبييمون وبروفانس وبلاد «دوفيني» Dauphiné و«مونتفرات» Montferrat وبلاد «تارنتيزة» Tarentaise كانت كل سنة عرضة للدمار والنار، وقد حدَّث مدونو الوقائع اليومية في ذلك العصر عن حوادث ترعد لها الفرائص، مما فعله هؤلاء العرب

ورووا كيف كانوا يهجمون على التجار والزوار عابري السبيل، ويسلبونهم ما معهم وإذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم يقتلونهم.[٥] وكان أكابر القوم لا سيما الرؤساء الروحيون الذين يؤمون رومة واقعين تحت الخطر الشديد من غارات العرب، بسبب ما يحملون من الذخائر وما يستصحبون من الأعلاق النفيسة، وأما في القرى فلم يكونوا يقتصرون في النهب على الخيل والمواشي، بل كانوا ينهبون كل ما له قيمة، ويقبضون على الرجال والنساء والأطفال ويبيعونهم في سوق الرقيق، وكانوا إذا رأوا مقاومة من بعض البلاد وطاح منهم أناس في المعركة، انتقموا لأنفسهم بإحراق هاتيك المدن حتى يصيروها رمادًا، وكانت تنقطع العلاقات والمواصلات أحيانًا بين البلاد بسبب غارات العرب وكان أهالي الأماكن التي يهاجمها المسلمون يفرون ويلجأون إلى الجبال والغابات، وربما قاوموا العرب وربما كانت لهم الغلبة عليهم، إلا أنهم لم يكونوا يقومون عليهم بصورة نفير عام ولا كان ينتدب لهم يومئذ أدلاء مستبسلون، وأشنع شيء كان هو عدم الوئام بين أهالي البلاد، بسبب عداوة الأمراء بعضهم لبعض، واستنجادهم في حروبهم الداخلية بهؤلاء الأعداء، وكان من الطبيعي أن يوجه العرب كل همتهم إلى الاستيلاء إلى الطرق العامة، وبنوع خاص على معابر جبال الألب، لأنهم كانوا يرون في ذلك أحسن طريقة للكسب والسلب، فكانت المتاجر والبضائع تقع هناك تحت أيديهم على طرف الثمام وكان المسافرون الأغنياء يأخذون معهم في أسفارهم كل ما يلزم لهم، فكان في ذلك مطمع عظيم للمسلمين، وكانوا في تلك الطرق الجبلية يتمكنون من استقبال السابلين بالسهام والحجارة، ومن إلقائهم في الأودية والمهاوي بحيث إنهم بعدد غير كبير كانوا يقدرون على ما لا تقدر عليه الجيوش الكبيرة.

وروى «فلودوارد» Flodoard في تعليقاته السنوية أن المسلمين سنة ٩٢١ أتوا على قافلة من حجاج الإنكليز كانت ذاهبة إلى رومة، فلقوها في بعض أودية الألب، واستأصلوها، وبعد ذلك بسنتين لقوا قافلة إنجليزية أخرى وفتكوا بها، ثم إنهم في سنة ٩٢٩ لقوا قافلة حجاج أخرى أيضًا، فاضطر هؤلاء إلى الرجوع قبل أن يقعوا في أيديهم، ولما كان غير ممكن تعيين أماكن هذه الوقائع فلا نقدر أن نحكم في أي محل حصلت، أفي ضمن حدود إيطالية إلى جهة سويسرة، أما في حدود فرنسة؟ وإذا فكرنا أنه كان من عادة المسافرين الإنكليز الذين يقصدون رومة أن يجتازوا من معبر سان برنار،[٦] لزم أن نرجح كون الوقائع المذكورة جرت في ضمن حدود إيطالية، ولقد اطلعنا على تاريخ يثبت أن كنوت "Knnut" ملك إنكلترة والدانمرك الذي كان يلقب بالكبير كان

قد طلب من رودولف "Rudolf" الثالث ملك برغوند Burgond أن يأمر بالتسهيلات اللازمة سواء من جهة تأمين الطرق أو من جهة الإعفاء من الرسوم للقسوس والتجار والحجاج الذين من ممالكه يؤمون رومة.[٧]

في أي حقبة من القرن العاشر تمكن العرب من معبر سان برنار الذي كان يسمى حينئذ بجبل جوفيس "Mont Jovis" وفي أية سنة بسطوا سيادتهم على تلك البقعة؟

هذا شيء لا نقدر أن نحدده، نعم توجد كتابات، من ذلك الوقت، متعلقة بهذه الحوادث، إلا أنها لا تحتوي على تواريخ يمكن الاعتماد عليها، والذي يظهر من كلام رينو[٨] أنه يميل للقول بأن هذه الحوادث جرت في سنة ٩٣٩ لكننا سنرى فيما يأتي أنها جرت قبل هذا التاريخ.[٩] ومن المحقق أن العرب نزلوا سنة ٩٤٠ من جبال سان برنار العالية إلى وادي الرون الخصيب، حيث كان مبنيًّا دير أغاوونوم "Agaunum" العظيم، المؤسس على اسم سان «موريتيوس Mauritius» وأصحابه، والذي كان فيه ذخائر كثيرة من الذهب والفضة وأصناف الجواهر، المهداة إليه من الملوك الكارلوفنجيين والبورغونيين، وكانت محفوظة ضمن حيطانه، ففي السنة المذكورة هجم العرب على هذا الدير ونهبوه وأحرقوه وتركوه رمادًا، ولم يمضِ إلا قليل حتى جاء القديس «أولريك» Ulrich أسقف «أوغسبورغ» Augsburg في أثناء سفرته إلى برغوند، وزار هذا المكان لأجل نقل عظام الشهداء التي أذن له كونراد ملك بورغوند في دفنها في أوغسبورغ، ولم يكن باقيًا هناك سوى خادم واحد يحرس البناء الذي صار طُعْمَة للنار.[١٠]

ومما جاء في تاريخ «فلودوارد» أنه في سنة ٩٤٠ جاءت قافلة مؤلفة من حجاج إنكليز وغاليين، كانوا قاصدين رومة، فبعد أن فقدت بعض رجالها رجعت من حيث أتت لأن العرب كانوا قد استولوا على القرية والدير المذكور.

وقد ذكر مؤرخو الفرنسيس كتابًا محفوظًا موجهًا من راهب من دير سان «موريس» St-Maurice اسمه رودولف إلى ملك فرنسة لويس الرابع المسمى «أوترمير» Outremer يقول له فيه: كم ألقى الله من سلام على ملوك فرنسة من «كلوفيس» و«داغوبرت» إلى كارل الكبير[١١] لكونهم اعتنوا بهذا المكان وقدسوه، وهو يلتمس منه أن ينفق على هذا المكان لأجل تجديد بناء الدير وترميم قبور القديسين الذين دُفنوا فيه.

وفي ذلك الوقت كانت العصابة من دعار العرب الذين جعلوا مساكنهم في جبال الألب المعروفة بالألب البونينية Pôninische قد بدأت تشن الغارات على بحيرة جنيف

وبلاد «فاد»[١٢] كما ذكر المؤرخون المعاصرون، ويظهر أنها كانت استولت على معابر جبال الألب الشرقية، فإذا كان ينقصنا تواريخ مضبوطة عن دخول العرب إلى جبال الألب الغربية، وجوسهم الأودية التي تتخللها، فإن عندنا قاعدة متينة لتاريخ وجودهم في شرقي سويسرة، بما هو محفوظ من الوثائق التاريخية في سجلات «كور Chur» الأسقفية. فإن فلودوارد يذكر من جملة وقائع سنة ٩٣٦: «أن العرب شنوا الغارة على سويسرة الألمانية وقتلوا كثيرًا من الحجاج الذين كانوا قافلين من رومة».

ومما لا ينقدح فيه أدنى عارض من شك أن جانبًا من سويسرة الألمانية وهو القسم الذي من «كور» إلى وادي «الرين» كان المسلمون قد اكتسحوه. وليس هذا القسم سوى جبال الألب الراتية Ratische العليا فإن ثبت هذا الرأي فقد ترتب عليه إما أن تكون غارة العرب على مقاطعة «فاليس Wallis» قبل سنة ٩٣٩ أو أن يكون احتلالهم لجبال الألب الراتية سبق احتلالهم لجبال الألب البونينية، وليس من المحقق ما ذهب إليه فلودوارد من أن احتلال العرب لمعابر الألب سنة ٩٣٦ أو سنة ٩٣٣ يعني به احتلالهم جبال الألب الراتية، وإنما المحقق كون «كور» ونواحيها قد اجتاحها العرب قبل سنة ٩٤٠ وأنه ليكون ذا بال أن تتمكن من معرفة الطريق التي سلكها العرب عندما تبطنوا أحشاء هذه البلاد، هل جاءوا من البيامون منقسمين شطرين، شطر منهم اتبع جبال الألب الشرقية، والشطر الآخر اتبع جبال الألب الغربية من سويسرة؟ الجواب: ليس بمستحيل أن يكونوا قصدوا ناحية «راتين» وبلغوها برغم قلة عددهم، معتمدين على بسالتهم والرعب الذي وقع في قلوب الناس منهم، ففتحوا طريقًا لأنفسهم على ضفاف بحيرات لانغن "Langen" وكومر "Comer" وعرفوا مسالك الألب.[١٣] إن تاريخ إيطالية العليا لا يذكر هذه الحوادث ولكن قد افترضنا أن العرب تقدموا من مارتيناخ "Martinach" خارجًا عن مجرى نهر الرون وتتبعوا ناحية فوركا "Furka" والألب العليا اللتين يفصل بينهما وادي أورزيرن "Urseren" وساروا على الطرق القديمة المؤدية إلى منابع الرين وأبواب معبر الألب الراتية، وهذا الافتراض لا يستند على رواية مكتوبة وليس فيما وجد في دير ديسنتيس "Dissentis" الواقع أمام وادي الرين ما يؤيد مرور أتباع محمد من هناك، إلا أن المؤرخين لا يزالون يعتقدون أن العرب كما عاثوا بنواحي «كور» ونهبوا ديرها قد اجتاحوا أيضًا دير «ديسنتيس».

وأما السند الذي ثبت به حضور العرب في وادي الرين فهو أن هرمان أمير سويسرة الألمانية قد التمس من أوتو الكبير في المجلس الذي عقده الإمبراطور في كويد

لنبورغ Quedlinburg في شهر أبريل سنة ٩٤٠ أن يهب فالتو "Walto" أسقف كور تعويضًا عما لحقه من اجتياح العرب لديره، وأن الإمبراطور قد أجاب رجاءه فعهد إلى الأسقف المذكور بإدارة كنيستين إحداهما كنيسة «بلودنس» Pludenz في وادي «دروس» Drusthale والثانية كنيسة سان مارتين في وادي شامزر Schamserthale على شرط أن ريع الأولى يعود إلى أساقفة كور وأن ريع الثانية يعود إلى دير الراهبات في «كازيس».

وظاهر أن العيث الذي عاثه العرب قد كان طويل الأمد، وأنه وقع منذ سنة ٩٣٩ وأن احتلالهم للألب الراتية كان في زمن احتلالهم للألب البونينية، وأن هذا الحادث تقدم إحراق العرب لدير سان موريس الذي يذهب رينو إلى أنه وقع عند عبور العرب من سان برنار.

ولكن في قولنا: إنهم عاثوا واكتسحوا تلك البلاد، لا نعني أنهم أقاموا بها مستقرين في مكان، بل كانوا يكمنون في الجبال وينقضون من مكامنهم لدى الفرصة فلم تكن لهم قدم ثابتة في محل، وكانت حياتهم حياة عصابة تنتجع في كل يوم جبلًا متى لاحت أمامها بارقة أمل في الكسب أقدمت، وإلا أحجمت، فكان مطمح نظرهم كله قطع الطرق على التجار وعلى الحجاج الذين كانوا يقصدون رومة ومعهم الأموال والذخائر، ومما لا شك فيه أنهم كانوا قد احتلوا بعض قرى صغيرة، واتخذوها لهم مركزًا، وكانت لهم أنزال يلجأون إليها وأبراج يضعون فيها مغانمهم، وأكثر ما كانوا يهجمون على القوافل في الأودية العميقة وفي المضايق التي لا يمكن فيها الدفاع، وكانوا متى أعوزهم القوت صالوا على الأماكن غير الحصينة وعلى الأديار المملوءة بالأعلاق الكنسية.

وبقيت حالتهم على ما وصفناه مدة مديدة، إلا أنه بعد دخولهم إلى البلاد باثنتي عشرة سنة طرأ حادث فجائي وافق مصلحتهم، ومكنهم من معابر جبال الألب، فازدادت بهم جرأتهم وتضاعف طمعهم.

وهو أن «هوغو» Hugo كونت «بروفانس» كان في سنة ٩٢٦ قد أحرز تاج مملكة «لومبارديا» Lombardie ودخل في حرب عوان مع صهره «البريكوس» Albericus بطريق رومة. فاهتبل العرب من هذه الحرب الغرة، واستفادوا من غياب الأمير المذكور عن بلاده، فتمكنوا من سلسلة جبال الألب، سواء من الشمال أو من الغرب، ونهبوا البلدان التي بحذائها، ولما وصل صريخ رعايا الكونت هوغو مما لقوه من عيث العرب، صحت عزيمته على مصالحة صهره والرجوع إلى إيطالية العليا، ثم على مهاجمة

المسلمين في معقلهم الأول «فراكسينيتوم»، ولأجل أن يستوثق من الانتصار سعى في استمداد سلطنة القسطنطينية، لتنجده بمقدار من النار الإغريقية يحرق بها سفن العرب الراسية في ميناء فراكسينيتوم، ويقطع عن هؤلاء كل مدد من البحر، وكان في نيته مهاجمة العدو من جهة البر بينما يكون أسطول القسطنطينية ممسكًا عليهم البحر، فبعد أن اتفق هوغو مع إمبراطور القسطنطينية وقبل شروطه جاءت السفن البيزنطية إلى مرسى «سان تروبيز» بينما كان الجيش البري يزحف من جهة «بافيا Pavia» فلم يكد الأسطول البيزنطي يصل إلى المرسى حتى أحرق سفن العرب كلها، وتقدم الملك هوغو من جانب البر فضيق عليهم الخناق حتى انهزموا معتصمين بجبل «موروس» وكاد يستأصلهم ويأخذهم جميعًا أسرى، لولا أن حدث حادث غير منتظر وذلك أن «برنغار» Berengar كونت «أيفريا» Ivrea حفيد الإمبراطور «برنغار» المتوفى سنة ٩٢٦ ووارثه كان قد أخذ يسعى سرًّا للحصول على تاج مملكة لومبارديا، فبلغ هوغو خبر هذه المؤامرة فعزم أن يقبض على المتآمرين وأن يقتلهم أو يسمل أعينهم، ولكن برنغار كان على حذر شديد فانسل من لومبارديا بغتة والتجأ إلى هرمان أمير الشفاب Schuvaben وسار إليه عن طريق سان برنار، فتلقاه الأمير هرمان برًّا وترحيبًا، وقدمه للإمبراطور أوتو وهذا أكرمه وخلع عليه، فما كان أسرع هوغو عندما عرف بالقضية إلى إرسال الهدايا من الذهب والفضة إلى أوتو.

وكان هوغو قد خلص ممالكه من العرب، وخضد شوكتهم، وتحول فكره إلى جهة الإمبراطور وأوجس خيفة أن يحشد هذا عليه وينزع منه تاج لومبارديا، فعدل هوغو مع العرب عن العداوة إلى المسالمة، وبعث إليهم في جبل مورو يعرض عليهم السلم على شرط أن يجوسوا خلال ديار برنغار ويمنعوه بجميع الوسائل من أن يجتاز جبال الألب بجيشه.[١٤] فاشترط العرب حينئذ على هوغو أن يعترف لهم بحق احتلالهم معابر الألب الراتية والبونينية، كما أن هوغو اشترط على العرب أن يخلوا المدن والقرى التابعة له، ولكن لم يكن هذا الشرط الأخير مصرحًا به في المعاهدة، فالمسلمون قاموا بأحكام المعاهدة حق القيام واحتلوا جميع معابر الألب المذكورة، يستدل على ذلك من كون برنغار عاد إلى إيطالية مع جند قليل من أصحابه عن طريق جبال التيرول Tyrol.

فأما العرب فقد تلقوا هذا العقد، مع الملك هوغو، بفرح عظيم، وأصبحوا يرون أنفسهم السادة الشرعيين لهذه المعابر، وصاروا يأخذون رسومًا من السابلين، ومن لم يؤد الرسم أخذوه أسيرًا ثم اضطر أن يفك رقبته بمبلغ عظيم من الذهب.[١٥] وتقدم

العرب من سان برنار وجاسوا في بلاد «فاتلاند»[١٦] إلى «أفانشس» Avanchez ونيوشاتل Niochatel في جبال «جورا» Jura وكانوا حيث مروا يعيثون وينهبون، ولقد كانت غاراتهم في شمالي الألب الراتية من «كور»[١٧] إلى بحيرة «كونستانس»[١٨] في وادي الرين هائلة جدًّا، فقد وجد في خزانة كتب دير «كور» كتابة تفيد أن الإمبراطور أوتو الكبير عندما مر في ٢٤ فبراير سنة ٩٥٣ بقصر «إرنشتاين» Ehrenstein ترجاه الأسقف «هارتبرت» مطران «كور» في تعويضهم من الرزايا التي ألحقها بهم العرب، فأقطعهم أوقافًا في «الإلزاس» وأخرى في «كونيغسكهايم» Konigsheim وكنيسة «موخنهايم Mauchenheim وما يتبعها.

وقد وجدت كتابة ثالثة في «دورنبورغ» Dornburg تاريخها ٢٨ ديسمبر سنة ٩٥٥ مآلها أن الإمبراطور «أوتو» كان منصرفًا من إيطالية فشاهد بعينه آثار عيث العرب وبناء على التماس أخيه رئيس أساقفة «برونو» أنعم على دير كور بتلك التعويضات، وقيل: إن جزالة هذا العطاء الذي أعطاه الإمبراطور كان من قبيل نذر نذره لأجل عودته موفقًا من إيطالية على طريق الألب، فإنه أنعم على الأسقف بالدار التي كانت تخصه في «زيزرس» وأمر بإعفاء سفن الأساقفة في بحيرة «فالنزي» من المكوس، وقد اتبع ذلك أعطيات أخرى، مثل إعطائه إياهم كنيسة «ننتسينغن» في وادي «دروس» مع العقارات التابعة لها، وإنعامه بجباية الأملاك التي كانت تخصه في كور، وبمكوسها التي كان يؤديها سابلة الجبال من الألمان، وأخيرًا أعطاهم في سنة ٩٥٨ كنائس عدة مثل «سان لورنز» و«سان هيلاريوس» و«سان مرتينوس» وكنيسة «كاربوفوروس» ومنحهم حق ضرب السكة، وكذلك أعطى دير «ديسنتيس» في سنة ٩٦٥ الدار التي كانت له في «فافيكون» على بحيرة زوريخ، وأقطع فيكتور رئيس رهبان كور سنة ٩٦٧ قطائع في «فينشغاو» و«إنغادين Engadin».

وفي ذلك الوقت أوصل العرب غاراتهم إلى «زارغانس» Sargans و«توغنبورغ» Togenburg وأبنسيل "Appenzell" وصالوا على أهالي تلك الجبال، فقتلوا الرجال ونهبوا المواشي وأحرقوا المساكن. وقد روى الراهب «أيكهارد»[١٩] الذي حرر تاريخ دير «سانت غالن» ما يلي:

«كان العرب يبعدون جدًّا مغارهم في جبال الألب لا سيما في زمان «فالتو» ويفتكون بأهلها بجرأة غريبة، حتى إنهم في ذات يوم رشقوا بالنبال من أعالي جبل واقع شرقي الدير جماعة كانوا قائمين بطواف ديني يتقدمهم الصليب مرفوعًا، ولكن

«فالتو»[٢٠] كان شديد البأس فأمر قومه بأن يتعقبوا العرب إلى مكامنهم، وسلحهم بالحراب والمناجل والفؤوس، وفي الليلة الثانية كبسهم بياتًا، فقتل منهم وأسر بعضهم[٢١] وفر الباقون، ولم يقدروا أن يدركوهم لأنهم كانوا أقدر على التوغل، وأبصر بالتوقل في الجبال، أما الذين وقعوا أسرى فسيقوا إلى الدير في الأغلال، وقد رفضوا رفضًا باتًّا أن يأكلوا ويشربوا، وما زالوا حتى هلكوا جوعًا. وقال «أكهارد» أن الرزيئة التي رزئ بها الدير من عيث العرب كانت من الجسامة بحيث يستلزم وصفها كتابًا.[٢٢]

ولا يقدر أحد أن يعلم بالتمام كم كانت مدة إقامة العرب بشرقي سويسرة، فإن الأوراق والوثائق التي وجدت في دير «كور» ودير «سان غالن» ودير فافرس ”Pfafers“ لم يوجد فيها ما يحدد هذه المدة، ولا يظهر أن رحيلهم من هناك تأخر عن العقد السادس من القرن العاشر.

وفي سنة ٩٥٤ نفسها، وهي التي وصل فيها العرب إلى سان غالن، وقع الحادث المهم الذي هو هزيمة العرب والمجار معًا، فقد تمكن كونراد ملك بورغوند أو البرجان، ببسالته الشخصية وبخدعة حربية دبرها، من استئصال طائفة مهمة من هؤلاء العرب[٢٣] وتطهير أودية بلاده منهم، إلا أنه برغم هذه الهزيمة كان العرب لا يزالون مستولين على معابر الألب الغربية.

وليس بمحقق وجود عرب الألب الغربية في هذه الواقعة، فإن «أكهارد» الرابع، راهب دير سان غالن الذي روى خبر هزيمة العرب في هذه الواقعة يقول: إن العرب كانوا متمكنين جيدًا في قلب الجنوب من أوربة حتى إنهم لم يكونوا يحدثون أنفسهم بإمكان خروجهم منها، وكانوا يتزوجون، بحسب قوله، من بنات أهل البلاد، ويسكنون أودية خصيبة، ويؤدون للملك ضرائب، وعلى كل حال فمما لا شك فيه أن قسمًا من العرب الذين كانوا يصلون هذه الحروب قد أقاموا في الآخر وأوطنوا، ونووا أن يؤسسوا لأنفسهم مستعمرة ويتعاطوا الفلاحة والزراعة، ولكنه غير ممكن تعيين المكان الذي نووا أن يستعمروه، هل هو في «فاله» أو في «سافواي» أم في غيرهما، فإن المؤرخين لم يعينوه، وفي سنة ٩٥٤ التي اشتهرت بغارة العرب من جهة، وغارة المجار من جهة أخرى على سويسرة وقعت حادثة فرار الملكة برتا ”Bertha“ مع عمها المطران «أولريك» أسقف «أوغسبورغ» والتجائهما إلى البرج الذي كانت بنته هي في «نوشاتل» والمظنون أن هذا الحادث كان مبدأ لعمران مقاطعة «فو».[٢٤]

ولم ترد قصة العرب هذه في التواريخ العالية فقط بل جاءت في سيرة بعض القديسين، وبالإجمال قد كانت اشتدت وطأتهم، وعم الرعب منهم، إلى أن أصبح الجميع

في حنق شديد عليهم، ومما زاد حنق الناس عليهم أنهم كانوا تعرضوا لرجل من أكبر رجال عصره، وهو القديس مايولوس "Majolus" راهب دير كلوني "Cluny" قبضوا عليه وهو عائد من «بافيا» إلى بورغوند، وذلك سنة ٩٧٢ وقد روى هذه القصة خلفه في رئاسة دير كلوني كما يأتي:

عبر القديس مايولوس ورفاقه في ٢٢ يوليو سنة ٩٧٣ قنن جبال الألب، ووصلوا إلى قرية واقعة إلى الشمال من معبر سان برنار على ضفة نهر درانس "Drance" كان يقال لها لذلك العهد «بونس أورزاريي Pons Ursarii» وتسمى اليوم «أورزيير»[٢٥]

وقد كان انضم إليه عدد من الحجاج من أقطار مختلفة أملًا بأن يكونوا بمعيته في مأمن، فلما وصلت هذه القافلة إلى هذه القرية ومرت هناك من معبر ضيق، انقضت عليها عصابة من العرب فأوقعت بها، ولم يكن من سبيل في ذلك المكان للدفاع، فأركنت إلى الفرار لا تلوي على شيء، فتأثرها العرب وقبضوا على من أدركوه منها وأوثقوه بالقيود، وكان أحد العرب يحاول طعن أحد خدمة القديس بمزراقه إذ تقدم القديس واتقى الطعنة بكفه، فنفذت الطعنة منها، وكانت جراحة شديدة بقي أثرها في يده طول حياته، وأما الخادم ففر ناجيًا، ثم جردت هذه العصابة العربية الحجاج من كل ما معهم، وساقتهم إلى كهف من الصخر حبستهم فيه، ولم تستثن من الحبس القديس مايولوس، فلحظ العرب رجلًا جالسًا على حجر لا يلوح على وجهه علامة الاهتمام بالخلاص، وبينما كانوا يهينونه كان هو مهتمًا بدعوتهم إلى الديانة المسيحية، فازداد بذلك غضبهم منه، فقيدوا رجليه بالحديد، وأدخلوه الكهف مع الآخرين، وفي الليلة التالية رأى مايولوس رؤيا أنه سيخلص من أيدي العرب، بواسطة الرسل الحواريين، فقد رأى أسقف رومة بالأثواب الحبرية وفي يده المبخرة، ثم رأى رؤيا ثانية أيدت أمله في أنه سيحتفل هو ورفاقه بعيد صعود السيدة مريم، ولما أصبح الصباح وجاء وقت الطعام عرض العرب عليه أن يطعم من طعامهم، وكانوا يأكلون لحمًا وخبزًا يابسًا، فأجابهم مايوليوس أنه ليس بآكل من هذا الطعام الذي لم يألفه فحينئذ عجنوا له بسرعة وخبزوا خبزًا نظيفًا طريًّا، وقدموه له فتناوله منهم وأكل الخبز بعد أن بارك عليه بحسب عادته، وعادت إليه قوته، وكان أحد المسلمين قد أراد قطع عصا من شجرة واحتاج إلى أن يتسلق عليها، فوضع رجله على التوراة التي كان القديس يحملها دائمًا معه في أسفاره، فأخذ القديس يتنفس الصعداء، ولحظ ذلك المسلمون فوبخوا أخاهم على عمله هذا، وقالوا له: لا يليق أن تفعل هذا بكتاب يتضمن كلام الأنبياء، وذلك أن

المسلمين يعظمون الأنبياء ويقولون: إن ما قاله الأنبياء عن عيسى قد تم بشخص محمد ﷺ.

ثم إن العصابة العربية دخلت مع القديس في قضية فدائه وفداء بقية الأسرى، لا سيما بعد أن رأوا منه ما استوجب حرمتهم له، وقد سألوه أهو من ذوي اليسار، أم معدم؟ فأجابهم بأنه لا يملك شيئًا ولكن للدير أصحاب يقدرون أن يفكوا الأسرى بأموالهم، فأرسل مايولوس بالاتفاق مع العرب راهبًا كان معه، وأصحبه بكتاب إلى دير «كلوني» يقول فيه: «إلى السادة والإخوان في دير كلوني، من مايولوس المسكين المقيد بالحديد، إنني محاط بالهلاك من كل ناحية فأسرعوا بإنقاذي وإنقاذ رفاقي وبإرسال المال اللازم للفداء» فلما قرئ هذا الكتاب في مجتمع الرهبان، وكانوا يحبونه جميعًا ويحترمونه احترامًا زائدًا، بلغ منهم الحزن مبلغه وسارعوا إلى جمع المال لساعتهم، ولم يضنوا بشيء ولا ادخروا منفسًا حتى أنهم بذلوا الأشياء الضرورية فضلًا عن الكمالية وعن الذخائر والأعلاق التي كانت عندهم، وفي اليوم المعين كان أحد الرهبان المبجلين في قرية «أورزيير» ومعه جميع المال المطلوب، فتخلص مايولوس هو ومن معه، وتمتعوا بفرح الاحتفال بعيد صعود مريم إلى السماء كما كان رأي القديس في المنام.

ومما يهم الاطلاع عليه هو أن العرب تقاضوا في فداء القديس مايوليوس ألف دينار فضة، ولم يتقاضوا على الآخرين إلا دينارًا واحدًا عن كل رقبة.

ثم إنه من هذه الحالة تتجلى القوة التي تمكن بها العرب في ذلك الوقت من الاستيلاء على جميع معابر الألب، ومن الغريب أنهم لم يكونوا يتقاضون مكوسًا على البضائع التي تُحمل على هذه الطرق كما كانوا يتقاضونها في الأزمنة الأولى، ولم يطلبوا في البداية شيئًا منها من مايولوس نفسه، وذلك حتى يطمعوه في التقدم فيقطع أعالي الجبال ويصير في الجهة الأخرى، فحينئذ ينقضون عليه ويسلبونه على حين يتعذر عليه الفرار. وهكذا حصل.

وكان الملك هوغو قد اشترط عليهم أن لا يتعرضوا للحجاج ولا يأخذوا منهم شيئًا، فرعوا ذلك العهد إلا أنه لما مات هوغو رأوا أنهم أصبحوا غير مقيدين بعهد.

وقد قال «رينو»: إن حادثة مايولوس كان لها صدى عظيم في كل الأقطار، وارتفع الصراخ من كل الجهات لأخذ الثأثر، وفي ذلك الوقت كان في جوار سيسترون "Sisteron" رجل نبيل يقال له: «بونو» أو «بوفو» (Bobo أو Beuoo) مشهور بالحمية والنجدة، عظيم الهم في تحرير وطنه، فاستنهض الناس المعروفين بالحمية على دينهم ووطنهم،

وقرروا بناء قلعة مناوحة لحصن العرب، ليتمكنوا من استئصالهم، فبوبو هذا الذي أصبح فيما بعد معدودًا من القديسين هو الذي بدأ بتخليص نواحي سيسترون من العرب وأخرجهم من جميع بلاد «دوفينه» Dauphiné ثم إنهم أخرجوا من «بروفانس» Provence لأن غيليوم أحد أكناد[٢٦] بروفانس هاجمهم برجال أشداء من صناديد تلك البلاد ومن رجال دوفينه السفلى وإمارة نيقة[٢٧] وذلك في قلعتهم فراكسينيتوم المشهورة، فبعد دفاع شديد استولى الإفرنج على القلعة وفر بعض حماتها العرب إلى الغاب الذي بقربها وطلب آخرون النجاة في الجبال وانتهى الأمر بأن فريقًا منهم هلك وفريقًا تنصر، فاستحياهم الإفرنج واختلطوا بالأهلين.

ولما كانت فراكسينيتوم مستودعًا لجميع كنوز العرب وذخائرهم، سواء الذين منهم كانوا في فرنسة أو عليا إيطالية أو سويسرة، فقد أصابها الغالبون وتقاسموها فيما بينهم.

آثار كتابة في كنيسة القديس بطرس مونتجو

من أهم الآثار التي تركها العرب في بلادنا الكتابة التي في كنيسة القديس بطرس مونتجو[٢٨] في «فاله» Valais فقد كان هذا الوادي مجالًا لغاراتهم ومركزًا لهم في أثناء مقامهم بجبال الألب، وهذه الكتابة هي دليل واضح على أن تذكارهم المخيف لم يكن أمحى من قلوب الأهالي حتى من بعد مائتي سنة من جلائهم فإنها قد كتبت في العقد الثالث أو الرابع من القرن الحادي عشر، أي زمان بناء الكنيسة التي شيدها هوغو أسقف جنيف، وهو الذي كان ولدًا طبيعيًّا للملك البورغوني رودولف الثالث، وتولى كرسي الأسقفية نحوًا من تسع عشرة سنة[٢٩] ودفن في كنيسة لوزان الكاتدرائية بجانب أبيه، ومما يؤسف له أن هذه الكتابة كانت قد ذهبت في أثناء ترميم هذه الكنيسة سنة ١٧٣٩ وجعل الحجر الذي كانت منقوشة عليه من جملة عتبات الباب، ولقد طُمست الآن هذه الكتابة حتى لم يبقَ منها سوى حرف هاء h وحرف ف f وصليب صغير، ولقد ورد نص هذه الكتابة على روايات مختلفة في بعض الكلمات لكنها متفقة في المعنى[٣٠] وهي لاتينية معناها: «إن عصابة إسماعيلية[٣١] انتشرت في وادي الرون وألقت الرعب في البلاد بالنار والحديد ورفعت الهلال في أودية الألب البنينية».[٣٢]

وفي أسفل الكتابة تاريخ بناء الكنيسة حسبما تقدم.

أسماء عربية في البلاد

كان علماء الآثار قد بحثوا عن أسماء بلاد «فاله» ووجدوا ألفاظًا كثيرة لم يعلموا لها أصلًا في اللغات الغالبة على هذا الشطر من أوربة، ولما كانت هذه البلاد واقعة في معابر «الفاله» إلى «البيامون» حيث مر العرب في القرن الحادي عشر فقد ترجح أن هذه الأسماء عربية الأصل ونحن الآن موردون عدة أسماء لا شك في كونها عربية.

«الماجل» في وادي زاس: هذا المكان هو قرية صغيرة في الجنوب من أعالي وادي زاس[٣٣] الذي يمتد منه طريقان إلى البيامون، أحدهما يمر في وادي «فوركا» ويسمى معبر «أنترونا» والآخر هو معبر «مورو» نسبة إلى جبل مورو، وكلا الطريقين معروف منذ سنة ١٤٤٠ بكونه من أقدم المعابر، فأحدهما كانت تمر منه المواشي والحيوانات الموقرة بأموال التجار، والآخر كان يمر منه البريد الطلياني قبل تمهد طريق السمبلون.[٣٤]

ولقد ثبت أن معاهدة الملك هوغو مع العرب لم تضمن لهؤلاء احتلال معبر سان برنار فقط بل حق الاستيلاء على جميع المعابر لمنع مرور الجيوش، فمن البديهي أن يكون العرب قد استولوا على وادي زاس ملتقى هذين الطريقين وجعلوا هناك برجًا فيه خفراء، ومنه يأتي اسم «الماجل» بالتشديد محرفًا عن «محل».[٣٥]

«على العين» في وادي زاس: في القسم الأعلى من وادي زاس مثلجة يقول لها أهالي تلك الجهات «مثلجة على العين» إذ منها تخرج ساقية من سواقي نهر «فيسب» Visp الذي هو وادي زاس فتسمية ذلك المكان «على العين»[٣٦] هي في غاية المطابقة.

«العين» في وادي زاس: إن الجبل الآلي الشرقي الذي هو منبع نهر «فيسب» كان يسميه العرب أيضًا «ألب العين».

«مشابل» في وادي زاس: إن أسماء القسم الغربي من وادي زاس لم تكن معروفة المعاني، إلا أن الأستاذ «هيتزيغ»[٣٧] يذهب إلى أن «مشابل» Mischabel جاءت من الأشبال أي الأسود، ويشرح ذلك بقوله: إن هناك عدة قنن صغيرة تعلوها قنة كبيرة هي بينها أشبه بلبؤة بين أشبالها وأنه لا يبعد مثل هذا التخيل عن أمم الجنوب، ولأجل تأييد هذا الرأي يستشهد بكون القمم التي إلى الشرق من السمبلون تسمى بجبل الأسد.[٣٨]

وأنه يوجد أسماء أخرى يظهر عليها الأصل العربي لكنها محرفة تحريفًا يصعب معه الاهتداء إلى حقيقة أصلها، فلذلك تركناها واكتفينا منها بجبل «مورو».[٣٩]

فأول ما يعرف بجبل «مورو» الجبل الذي إلى الجنوب من حصن «فراكسينيت» والثاني الجبل الذي فيه معبر «مورو» الذي يؤدي من حصن العرب هذا إلى «ماكونياغا» Macugnga في البيامون.

ويوجد أيضًا قمة يقال لها: «قمة المورو»[٤٠] إلى الجنوب من «بانيو» في وادي «انزه»[٤١] ثم قمة أخرى بهذا الاسم بين «أنترونا» ووادي «أنزه» إلى الشمال من «بريبنونة» Prebenone.

وكذلك إلى الشرق من معبر سان برنار قمة اسمها جبل مورو.

فانغلهارد Engelhard المؤرخ يرى في كثرة هذه الأسماء بالجهة الإيطالية من جبال الألب أن العرب كانوا فيها قديمًا.

أسوار وطرق وكهوف وغير ذلك

إن العرب كما هو معروف هم أهل إتقان لصنعة البناء، ولا سيما بناء الأبراج، وطالما أثروا في هذا الباب آثارًا باهرة، فمن الغريب أن لا يكونوا تركوا عند معابر الألب شيئًا من المعاقل والحصون، ولكن من المحتمل أن يكونوا أقاموا بالأبراج التي كانت قبل مجيئهم قائمة عند مضايق الجبال باقية من القرنين الثامن والتاسع، فلم تكن بهم حاجة إلى بناء حصون جديدة، وعلى كل حال ينبغي أن تكون الحوادث التي جاءت بعد خروجهم من البلاد قد أنست الأهالي ذكراهم بالمرة.

وأما في سويسرة فليس الأمر كذلك، ولا سيما في مقاطعة لوزان، فإنك تجد برج العرب La tour Des Sarrazins فوق «شييزاس» عند «فيفاي».[٤٢]

ودهليز العرب وغار الغرب بقرب «لوسنس» Lucens.

وفي «فيفلسبورغ» Viflisburg يوجد حائط يقال له: حائط العرب[٤٣] جاء ذكره في تاريخ سويسرة لــ مولر Muller في الجزء الأول صفحة ٢٥١.

وأن كثيرًا من الأسماء المضافة إلى «سارازين» المراد بهم العرب توجد في مدينة «بازل»[٤٤] ونواحيها حسبما ذكر الأب «سيراسة» Serasset في تاريخه «المباحث التاريخية والأثرية والجغرافية عن أبرشية بازل» في الجزء الثاني صفحة ١٤٩ فهو يقول:

> ويؤكدون أن هذه العصائب الفتاكة، بعد أن أحرقت دير سان موريس تقدمت نحو بحيرة جنيف وزحفت إلى «الجورا» Jura ولم يقل لنا التاريخ شيئًا عن

توغل العرب في بلاد «روراسيا» Rauracia ولكن إن كانت الكتب قد سكتت فقد قامت الأخبار المعنعنة المتواترة مقامها، وأن كثيرًا من أماكن بلادنا بإضافتها إلى أسماء عربية، تشعر بوقوع هذه الغارة المخيفة، فعلى نصف مرحلة من «دفلية» Develier على الجبل، وإلى الشمال الغربي منه، يوجد على مقربة من الطريق السلطاني الروماني فسحة صغيرة بين صخرتين، يقال لها: غار «السارازين» وأهالي هذه النواحي يروون بالتواتر نقلًا عن آبائهم، أن هذا المحل كان قد احتله «السارازين» أي العرب، وأنهم كانوا يذهبون ويوردون جمالهم عند «السورن» Sorne بقرب «كورتيتيل» Courtetelle فهذا هو الاسم الذي يطلقه الأهالي على ذلك الطريق الروماني، وعلى أحد صخور الغار محفور عدد ٢٣ بالأرقام العربية، ولما كان لا يعرف من نقش هذا الرقم في الصخر، وكان قديمًا جدًّا، فيترجح أنه قد نقشه العرب عندما كان لهم محرس في ذلك المحل.

وبقرب من «روسميزون» Rossemaison بحذاء جبل «شايبوت» Cheibut توجد آثار طريق يقال له: طريق السارازين.[٤٥]

المسكوكات

من قديم الزمان يوجد في سويسرة مسكوكات عربية من الفضة، غير قليلة، تستجلب النظر، ولقد تمكن العلماء باللغة العربية من إثبات مكان ضربها وزمانه، ولكن لم يكن عليهم من السهل الجواب على كيفية وجود هذه المسكوكات تحت الأرض نظير ما وجد من المسكوكات الباقية من الدور الروماني، فقبل أن ندخل في بحث تاريخ هذه المسكوكات يجب أن نذكر الأماكن التي عثر عليها فيها وكيفية العثور عليها.

فأول تنقيب جرى بشكل علمي وأدى إلى نتيجة كان سنة ١٨٣٠ وذلك أنه وجد على مائة خطوة من قرية «شتيكبون» Steckbon على الطريق العام ثلاثون قطعة من الفضة، لم يعرف أحد في البداية ما هي، وقد اشترى أكثرها الماجور «شيغ» Schiegg وبعضها دخل في حيازة البرنس لويس نابوليون[٤٦] ثم أهداه البرنس بواسطة الأستاذ «أوكن» Oken إلى مجموعة العاديات في زوريخ، وبعد هذا أهدى الأستاذ «كيرن» Kern والأب «ران» Rahn من شتيكبورن جملة من هذه القطع إلى المجموعة المذكورة، وقد

كان أول من شرح تاريخ هذه القطع، من علماء المسكوكات، الأستاذ «فراين» Fraehn من أعضاء أكاديمية بترسبورغ، فقال: إن هذه الدراهم هي من ضرب عمال الخلفاء على إفريقية في الربع الأخير من القرن الثامن، وكانوا يطلقون لفظة إفريقية على البلاد التي تتركب اليوم من تونس وطرابلس، فأقدم هذه الدراهم مضروبة سنة ١٦٩ للهجرة وأحدثها سنة ١٨٢ أي أقدمها في زمن الخليفة الهادي وأحدثها في زمن هرون الرشيد الشهير، وكلها مضروبة في القيروان عاصمة إفريقية في زمان الأمراء عمال الخلفاء نصر[٤٧] وهرثمة[٤٨] (ابن أعين) ويزيد.[٤٩] وأن قطعة واحدة هي مضروبة في زمان إدريس مؤسس الدولة الإدريسية.[٥٠]

وهذه المسكوكات مغطاة بالكتابة، كاسم الأمير، ومكان الضرب وتاريخه، وبعض آيات من القرآن.

وأكثر الكتابة هي بالخط الكوفي الذي يختلف عن الخط العربي الحاضر.

وأما كيفية دخول هذه المسكوكات الإسلامية إلى سويسرة فيظن الأستاذ فرين أنه كان عن طريق فرنسة؛ لأنها وجدت مع هذه الدراهم مسكوكات مضروبة باسم كارلوس الأصلع ملك فرنسة (٨٤٣–٨٧٧) وأن النورمنديين قد أتوا بها إلى فرنسة في أثناء غارتهم عليها، وكان النورمانديون أتوا بها من شمالي إفريقية، في أثناء غاراتهم على سواحل تلك البلاد، ولقد ظن ذلك بناء على أنه وجد من هذه المسكوكات في الروسية مما كان قد جاء به النورمنديون أيضًا، إلا أنه بعد أن تحقق كون العرب أقاموا زمانًا طويلًا في نفس سويسرة لا يبقى محل لنسبة جلب المسكوكات إلى النورمانديين.

وقد وجدت دفينة أخرى من المسكوكات العربية في «مودون» لكنهم لم يعرضوها على علماء المسكوكات إلا منذ سنة، ولقد اعتنى بهذه المسألة المسيو «سوره» Soret من جنيف ومن أعضاء الأكادمية الذين لهم مباحث جليلة عن مسكوكات سويسرة.

فإحدى هذه القطع مضروبة في إفريقية أيام العباسيين سنة ١٧٠ هجرية (٧٨٦–٧٨٧ للمسيح) والثانية عليها اسم إسماعيل بن أحمد في أيام الخليفة المعتضد، ومكان ضربها الشاش، وزمان ضربها سنة ٢٨٣ للهجرة (٨٩٦) والثالثة مضروبة في بغداد سنة ٣٦١ (٩٧٤).

وقد ترجم الأستاذ «سوره» كتابات الدراهم، فأحدها مكتوب عليه من إحدى الجهتين لا إله إلا الله وحده لا شريك له: عضد الدولة أبو علي بويه. وعلى الدائر باسم الله، ضرب هذا الدرهم في مدينة السلام سنة أربع وستين وثلاثمائة، ومن الجهة الأخرى لله المجد، محمد رسول الله. الطائع لله. الملك العادل عضد الدولة أبو شجاع.

ورأي المسيو «سوره» يوافق رأي الأستاذ «فرين» بشأن المسكوكات العربية التي وجدت في شتكبورن، وهو أنها دخلت سويسرة بواسطة النورمانديين، أما التي وجدت في مودون فإنه يراها دخلت بواسطة العرب الذين أقاموا بسويسرة.

ومن جملة الافتراضات أن تكون هذه المسكوكات قد وصلت إلى سويسرة بطريقة سلمية، أي كثمن بضائع، أو أن تكون وصلت إلى أيدي السويسريين في أيام الحرب الصليبية من جملة ما غنمه الإفرنج من المسلمين، ولا نميل إلى قبول هذين الافتراضين كما نميل إلى رأي «سوره» من كون دفينة مودون هي مما تركه العرب الذين شنوا الغارة على سويسرة.

الملابس العربية

إن في خزانة كنيسة «كور» من بقايا القرون الوسطى أشياء نفيسة إلى الغاية يندر وجود مثلها في البداعة، فمنها حلة من الحرير يلبسها القسيس في القداس، تختلف عن بقية الملابس الكنسية وهي مطرزة بآيات قرآنية مكتوبة بالأحرف العربية، ولا نعلم شيئًا عن كيفية حيازة الكنيسة لهذه الحلل، ولكن يترجح أنها كانت في أيام وجود العرب في سويسرة، وكما أن رينو يقول: إن في كنائس فرنسة كثيرًا من الحلل الدمقسية والآنية الثمينة والأقداح البلورية التي جاءت في زمان وجود العرب بفرنسة، فلا يبعد أن يكون ما في كنيسة كور من هذه الملابس الكهنوتية قد جاء في زمان وجودهم بسويسرة.

وإننا مضطرون للاعتراف بأن العرب كانوا في أيام ازدهار الخلافة في إسبانية، أعلى كعبًا في الصناعات والعلوم من الأوربيين، وأن الثياب التي كانوا ينسجونها للزينة كانت من أفخر ما يوجد، ولقد اتفقت الكلمة على كون الصنائع العربية اليدوية، من الحلي والآنية الفضية والأسلحة، هي من الأشياء التي يتنافس الناس بها، إلا أننا نقول: إن الشيء الذي فاق العرب به الجميع هو صنعة النسيج التي كان أكثر ازدهارها في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر، وكان الخلفاء يهدون منها أمراء أوربة وملوكها، فإنهم كانوا يتحفونهم بنفائس الأسلحة والآنية، وأفخر ما كانت تشتمل عليه هداياهم هو الثياب المطرزة المنسوجة بأنواع التصاوير المزركشة بالذهب والفضة مما كانت تخرجه معامل المسلمين، وكان من اصطلاح العرب في النساجة أن يجعلوا خطوطًا عرض الواحد منها سبعة سنتيمترات، وينسجوا عليها حروف الكتابة التي يريدونها من جهة، والتصاوير من جهة أخرى، ولم تكن هذه الكتابات وهذه التصاوير من صنع

الأيدي، بل كانت من عمل المعامل والأنوال، وكانت مادة النسج من الخز وخيوط الفضة مصنوعة بالتطريق، وكانت تدور بخيطان الفضة بنود من الحرير الأصفر، بحيث لا تزال الفضة تلمع في أثناء النسيج، وتنعكس عليها ألوان الأطلس الأصفر فيخال الرائي تلك الفضة ذهبًا.

وقد ذكر ابن خلدون الكاتب العربي المشهور أن أمراء العرب وملوكها كانت تخلع على من تريد تشريفه أو تكريمه خلعًا من هذا النوع، وكان المعمل الذي يُخرج هذه المنسوجات يسمى بالمطراز، وقد نقل المستشرق الشهير «دساسي» عبارة ابن خلدون في المجلد الثاني صفحة ٧٨٢ من كتابه «المنتخبات العربية» Chrestomatie Arabe كما أنه في صفحة ٣٠٥ من هذا الكتاب ذكر ما يأتي:

> إننا نعرف منسوجات كثيرة من صنع العرب، هي من النوع الذي يسميه ابن خلدون بالطراز، وأول ما أذكره الطيلسان الذي كان يرتديه قياصرة ألمانيا عند تتويجهم، فقد كان هذا الطيلسان يشتمل على كتابة عربية منسوجة من خيطان الذهب، كان قد ترجمها وشرحها المرحوم المسيو «تيخسن» Tychsen وظهر أن هذا الطيلسان صنع في بلرم[٥١] سنة ٥٢٨ للهجرة (١١٣٣ للمسيح) ولا شك في أن ذلك كان في زمن رجار[٥٢] لأنه لا يوجد في تلك الكتابة شيء يتعلق بالديانة الإسلامية.

ثم ذكر دساسي أسماء كتب ألمانية تتكلم عن هذا الطيلسان. ثم قال:

> وأذكر قطعة ثانية من هذا النوع من الحرير والذهب محفوظة في ذخائر كنيسة نوتردام في باريز، وهي من أنفس النسيج وعليها ألقاب الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي المتوفى سنة ٤١١ (١٠٢٠) ثم أذكر قطعة ثالثة من هذا النوع وجدت في أحد قبور دير «سان جرمان دي براي» St-Germain-Des-Près وفيها كلمتان عربيتان مكررتان كثيرًا، وقد ذكر هذه التحف المسيو «فيلمين» Villemin في كتابه عن الآثار المجهولة إلى الآن والتي تنبغي معرفتها خدمة لتاريخ الصناعة، وتكلم أيضًا عن هذه القطعة المسيو «دمارست» Demarest في رسالة مطبوعة سنة ١٨٠٦ ومما يلحق بهذا الباب ما وجد في قبر الإمبراطور فريدريك الثاني[٥٣] المتوفى في ١٣ دسمبر سنة ١٢٥٠ فقد عثروا على قميص على أكمامه كتابة عربية، وذكر ذلك في كتاب إيطالياني

مطبوع سنة ١٨١٤ في نابولي يتضمن كلامًا على قبور بلرم، ولقد نشر المسيو «دمور» Demurr في أحد تآليفه صورة سجادة، عليها كتابة عربية، منسوجة بمصر في زمان المستعلي بالله أي بين سنة ١٠٩٤ وسنة ١١٠١ وهي محفوظة في خزانة الفاتيكان في رومة» انتهى كلام دساسي.

وعاد كيلر إلى ذكر القطعة التي وجدت في دير «كور» بسويسرة، فقال: إن عليها كتابة بالعربية «أطال الله لنا أهله» وقال: إن الأستاذ «هيتزيغ» قد ترجمها، وإذا بالترجمة هي دعاء للمدعو له بإطالة حياة رجال ثقته وقومه، وهو تفسير غريب. والمرجح أن هذا الأستاذ تصحفت عليه كلمة «أجله» فقرأها «أهله» لا سيما أن الكتابة هي الأحرف الكوفية، ولا بد أن تكون العبارة «أطال الله أجله» لأن «أطال الله أهله» ليس لها معنى. انتهى كلام كيلر ببعض اختصار.

هوامش

(١) وفي الحاشية مذكور أنه يقال له أيضًا: Garde-Frainet في خليج سان تروبز.

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية اسم هذا المؤرخ وهو Antapold وأشار إلى أن هذه الرواية جاءت في صفحة ٢٧٥ من كتابه الذي ترجمه البارون فون دراوستن زاكين Von der Osten Sacken.

(٣) على أن رينو ينقل أن أوتون إمبراطور ألمانية كان أرسل وفدًا إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة من جملة مطالبه كف عادية العرب الذين نزلوا في فراكسينيت وتقدموا إلى جبال الألب، وقد تقدم ذلك في ترجمة تاريخ رينو.

(٤) هذه الرواية جاءت في كتاب رينو كما تقدم.

(٥) لا نريد أن ننفي عن هذه الفئة من مغيرة العرب حب النهب والكسب ولكننا نؤكد أن أكثر هذه الروايات هي من وضع أولئك المؤرخين المتعصبين الذين كان جلهم أو كلهم رهبانًا وقسيسين، وناهيك بعداوة الدين وحسبك دليلًا على ذلك أن هذه الفئة من رجال الكنيسة هي التي بقيت مدة قرون في أوربة تؤكد لشعوبها الجاهلة أن المسلمين وثنيون وأنهم يعبدون محمدًا وأن لمحمد ﷺ تماثيل من ذهب وفضة وما أشبه ذلك من الخرافات التي كانت تلك الشعوب تصدقها وتنقلها في كتبها فكيف نقدر بعد هذا أن نتلقى بدون احتياط روايات المؤرخين الكنسيين عن وقائع عصائب العرب؟

(٦) St-Bernard وهو من أشهر معابر جبال الألب.

(٧) ذكر المؤرخ في الحاشية نص الكتابة اللاتينية التي يستفاد منها أن الملك كنوت الكبير طلب إجراء هذه التسهيلات بحق قصاد رومة من رعاياه، ونقل هذا النص من الصفحة ١٦٤ من تاريخ أصل الغويلفيين وهم شعب ألماني كان جارًا للسكسونيين.

(٨) هو المستشرق الإفرنسي رينو Reinaud الذي ترجمنا كتابه.

(٩) يذكر المؤرخ كيلر كتاب رينو الذي لخصناه وهو «غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سافواي والبيامون وسويسرة» المطبوع بباريز سنة ١٨٣٦ وكتابًا آخر عظيم القيمة على مملكة البورغوند تأليف فون غينغينس Von Gingins.

(١٠) نقل المؤرخ كيلر هذا من كتاب غرهاردي Gerhardi المسمى «حياة القديس أولريك» وهذا هو اسم «أولريك» أو «أولريخ» باللاتيني Vita S. Oudalrici كذلك استشهد كيلر بتاريخ مؤرخ آخر اسمه «فلودوارد».

(١١) الفرنسيس يقولون له: كلوڤيس والألمان كلودفيغ وأما كارل الكبير فهو الذي يقول له الفرنسيس شارلمان Charlemagne.

(١٢) الألمان يقولون Waadt والفرنسيس يقولون Vaud وهي البلاد التي قاعدتها لوزان.

(١٣) نقل كيلر في الحاشية عبارة عن الأب «سيراسه» من رهبان دير «جورا» Jura وهي هذه: مما يستجلب النظر أنه في المقاطعات المجاورة لمدينة بازل وفي نواحينا نجد بقايا الأسماء العربية مجاورة للطرق الرومانية، وما ذاك إلا لأن العرب تعقبوا هذه الطرق التي لم يكن غيرها في البلاد منذ سقوط السلطنة الرومانية. أ.هــ.

(١٤) نقل كيلر عن المؤرخ ليود براند نص روايته باللاتينية ومعناها أن هوغو عقد مع المسلمين معاهدة يبيحهم فيها جميع معابر جبال الألب حتى يمنعوا برنغار من المرور بجيوشه إلى إيطالية.

(١٥) نقل كيلر هنا نص رواية فلودوارد باللاتينية وهي التي يقول فيها: إن العرب كانوا يأخذون الرسوم من القوافل القاصدة إلى رومة فإذا أدت الرسم خلوا سبيلها.

(١٦) هي مقاطعة «فو» Vand الحاضرة التي قاعدتها لوزان.

(١٧) تقدم ذكرها وهي التي فيها الدير الشهير Chur.

(١٨) الألمان يقولون لبحيرة كونستانس بحيرة «بودن» Boden-See.

(١٩) Eckehard مؤرخ معروف.

(٢٠) Walto كان رئيسًا للدير في سنة ٩٥٤.

(٢١) سبقت هذه الرواية في كتاب رينو.

(٢٢) وقد أيد كيلر هذه الرواية في الحاشية برواية أخرى لمؤرخ اسمه فون أركس Von Arx كتب تاريخ مقاطعة «سان غالن» وقد نقلها من ٢٢٦ من الجزء الأول من كتابه.

(٢٣) تقدمت هذه الرواية أيضًا في كتاب رينو.

(٢٤) لوزان وتوابعها.

(٢٥) إن المستشرق رينو يذهب إلى أن القديس مايولوس سار من البيامون على طريق جبل جنيف ووادي الدوفيني وأنه قد جرت معه هذه الحادثة في أعالي وادي «دراك» بقرب قرية «بون دوزيير» وأن العرب الذين سطوا عليه كانوا من المتوطنين بين «غاب» و«أمبرون» وأما المؤرخ كيلر فإنه يخطئ رينو في هذا الرأي ويقول: إنه وهم في ظنه وقوع حادثة القديس مايوليوس في الوقت الذي ذكره، فهي متأخرة عن الوقت الذي ظنه رينو؛ لأنها وقعت سنة ٩٧٣ ورينو يحسب أنها وقعت في العقد الخامس من القرن العاشر.

(٢٦) جمع كند وهو ترجمة Conte في اصطلاح العرب، وكان كتاب العرب يجمعون كند على أكناد.

(٢٧) nice بالإفرنسية وnizza بالألمانية والإيطالية.

(٢٨) Saint-Pierre montjoux.

قد خلط رينو بين كنيسة القديس بطرس مونتجو وكنيسة القديس بطرس التي بين مارتيني وسيون.

(٢٩) من سنة ١٠١٩ إلى سنة ١٠٣٨.

(٣٠) أورد كيلر الروايات وعزا كل رواية إلى صاحبها مما لم نجد حاجة لذكره.

(٣١) الإفرنج في القرون الوسطى كانوا يسمون العرب بأبناء إسماعيل وقد تقدم لنا أن المجار كانوا يسمون المسلمين الذين كانوا في بلادهم بالإسماعيلية.

(٣٢) الألب سلسلة جبال تبدأ عند خليج جنوة وتنتهي جنوبي الدانوب، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الألب الغربية وهي الليغورية الممتدة من سواحل البحر المتوسط إلى مضيق «تاند» والبحرية الممتدة من تاند إلى جبل «فيزو» والساحلية الممتدة من جبل

فيزو إلى جبل «سنيس» والغرائية الممتدة من جبل سنيس إلى الجبل الأبيض.

والألب الوسطى، وهي الجبال الهلفتية، أي السويسرية والبنينية، الممتدة من الجبل الأبيض إلى جبل السمبلون، والليبونتية الممتدة من السمبلون إلى بحيرة كوم، والراتية الممتدة من بحيرة كوم إلى بلاد النمسة والألب الشرقية، وهي الجبال الألغافية والبافارية والستيرية في النمسة والكادورية والكارنية واليولية بين النمسة وإيطالية، والدينارية في دالماسية.

وأعلى قنة في الألب قنة الجبل الأبيض علوها ٤٨١٠ أمتار، وهي أعلى قنة في أوربة، وبعدها تأتي قنن روز وسرفين وبلفو وفيزو وجنيف وسمبلون وسان غوتار ... إلخ، ويمرون من فرنسة إلى إيطالية من تاند والأرجنتيين وجبل سنيس وسان برنار الصغير إلخ، ويمرون من سويسرة إلى إيطالية من سان برنار الكبير وسمبلون وسان غوتارو سان برناردينو والبولا وبرنينا إلخ، وقد اخترقت الألب خمسة خطوط حديدية من ليون إلى تورينو، ومن لوزان إلى ميلانو من طريق نفق السمبلون، ومن بازل إلى ميلانو عن طريق نفق سان غوتار، ومن بازل إلى أينسبورغ عن طريق نفق آرلبرغ، ومن أينسبورغ إلى فينا عن طريق بريكسن وبوتزن وترنت.

(٣٣) Almagell في الوادي المسمى Saasthale.

(٣٤) Sinplon وهو الذي فيه النفق الشهير اليوم بين سويسرة وإيطالية.

(٣٥) هذا خطأ من صاحب الكتاب الذي لا يعرف العربية فالماجل ليس محرفًا من محل وإنما الماجل هو الماء في أصل الجبل أو في الوادي أو مستنقع الماء، وهو معروف كثيرًا وكانوا في مكة المكرمة يستعملون هذا اللفظ لبركة الماء، ذكر ذلك أبو الوليد محمد الأزرقي صاحب كتاب «أخبار مكة» وأخبر عن ماجل عند حائط خرمان وماجلين أحدهما بالمعلاة، وقال صاحب القاموس: الماجل موضع بمكة يجتمع فيه ماء يتحلب إليه، وفي حديث أبي واقد: كنا نتماقل في ماجل أو صهريج، قال ابن الأثير: الماجل هو الماء الكثير المجتمع وقيل: هو معرب، والتماقل التغاوص في الماء.

(٣٦) Alalain.

(٣٧) Hitzig وهو من كبار المستشرقين كان يقطن زوريخ.

(٣٨) المشابل: إما أن تكون جمع مشبل بمعنى اللبوة أم الأشبال، أو أن يكون أصلها المشابيل جمع مشبول وهو المكان الذي فيه الأسود.

(٣٩) moro معناه مغربي وهو اسم يجده الإنسان كثيرًا في جنوبي أوربة حيث أقام العرب.

(٤٠) وفي الأصل Pizzo del moro.

(٤١) وفي الأصل الألماني Anzathale ومعناه «وادي أنزه» ويجوز أن تكون «وادي عنزة».

(٤٢) Vevey وهي بلدة من أنزه بلاد سويسرة على شاطئ بحيرة ليمان بين لوزان ومونترو.

(٤٣) في الأصل Sarazins.

(٤٤) مدينة بازل Basel والإفرنسيس يقولون: «بال» وهي من أشهر مدن سويسرة واقعة على حدود ألمانية، وفي هذه المدينة أسرة يقال لها إلى اليوم: أسرة «سارازين» ومنهم أناس في جنيف ومن هؤلاء الكولونل سرازين الذي هو من أمراء الجيش السويسري.

(٤٥) ذكر كيلر في الحاشية نقلًا عن «ادوارد كليرك» مؤرخ بلاد «فرانش كونته» من فرنسة في الجزء الأول الصفحة الثالثة من كتابه أن الأسماء العربية في «فرانش كونته» كثيرة جدًّا، قال: فعندنا خمسة كهوف منسوبة إلى السارازين وجسران منسوبان إلى السارازين، وثلاثة قصور وطريقان وقناة ومطحنة وواد صغير وجندلان من كبار الجنادل ومسلفة حديد، وكلها منسوبة إلى السارازين أي العرب، ويوجد أيضًا حائط يقال له: حائط السارازين ومحل يقال له: مخيم السارازين وقرية يقال لها: «ساراز» والجملة ٢٠ اسمًا.

وكثرة هذه الأسماء المنسوبة إلى العرب معهودة في بلاد «بريس» Bresse ومقاطعة ليون، فمن مدينة ليون إلى آخر حدودنا الجنوبية تجد مذاود ومسالف منسوبة إليهم، وتجد أماكن مثل ساحل السارازين ومثل سارازينه وغيرها. انتهى كلام كليرك.

أما بلاد فرانش كونته فهي من مقاطعات فرنسة، وكانت داخلة فيها بلاد «جورا» من سويسرة.

(٤٦) أخو بونابارت وهو الذي صار ملكًا على هولاندة.

(٤٧) نصر بن حبيب ولاه إفريقية هرونُ الرشيد، وكان في الأصل على شرطة يزيد بن حاتم في إفريقية ومصر كانت ولاية نصر في العشر الأخير من رمضان سنة ١٧٤ فحسنت سيرته وعدل في أحكامه.

(٤٨) هرثمة بن أعين ولاه الرشيد إفريقية سنة ١٧٩ في ربيع الآخر، فسكن الناس، وهزم الثوار وبنى سور طرابلس والقصر الكبير المعروف بالمنستير، قال: الرقيق. لما

رأى هرثمة بن أعين ما رأى من الخلاف في إفريقية وسوء طاعة أهلها طلب الاستعفاء فكتب إليه هرون بالقدوم عليه فرجع إلى المشرق.

(٤٩) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب كان يكنى أبا خالد ولاه أبو جعفر المنصور إفريقية سنة ١٥٥ وكان من عظماء الرجال وفيه قال الشاعر:

حلفت يمينًا غير ذي مثنوية يمين امرئ آلى وليس بآثم
لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

واستمرت ولايته ١٥ سنة و٣ أشهر بحسب رواية ابن عذارى.

(٥٠) دخول إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم إلى المغرب كان سنة ١٧٠ وكان معاصروه من الأمراء هشام بن عبد الرحمن الداخل في الأندلس ويزيد بن حاتم في إفريقية.

(٥١) Palerme عاصمة جزيرة صقلية.

(٥٢) Roger والمراد به رجار الثاني فإن الكونت رجار الأول النورماندي جاء إلى إيطالية سنة ١٠٥٢ وبعد أن فتح قالابرة غزا صقلية ولم يزل مجاهد العرب إلى أن استصفى هذه الجزيرة سنة ١٠٩٠ بعد حروب بينه وبين العرب استمرت ٢٨ سنة وكان العرب قد ملكوا صقلية مدة ٢٠٠ سنة ثم مات رجار سنة ١١٠١ وخلفه ابنه رجار الثاني فتوج ملكًا في بلرم سنة ١١٣٠ باسم ملك الصقليين؛ لأنه كان فتح قالابرة ونابولي وغيرهما وكان ملكًا عظيمًا ومات سنة ١١٥٤.

(٥٣) إمبراطور ألمانيا الشهر، حفيد الإمبراطور فريدريك بربروس الذي اغتسل في نهر طرسوس، ومات وهو ذاهب لمحاربة المسلمين في الصليبية الثالثة، وكان الإمبراطور فريدريك الثاني إمبراطورًا على ألمانيا وملكًا على صقلية، وكانت ولادته سنة ١١٩٤ ومات أبوه هنري السادس، وهو ابن ثلاث سنوات، فكفله البابا أينوشنسيوس الثالث إلى أن بلغ رشده، ولكن البابا غريغوريوس التاسع كان عدوًّا له؛ لأنه كان يرى فيه عدوًّا للبابوية ولاستقلال الأمة الإيطالية، وكان يثقل على الطليان أن يكون فردريك إمبراطورًا على ألمانيا وملكًا على الصقليتين في وقت واحد، فلأجل أن يستجلب إليه ميل النصرانية قام بالحرب الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ واسترجع من المسلمين القدس صلحًا، ورجع إلى إيطالية، وهزم «جان بريان» الذي كان شن الغارة على نابولي، ثم عاد إلى ألمانيا بعد غيبة ١٥ سنة لقتال ابنه هنري الذي كان قد خرج عن طاعته، ثم

تألب عليه أمراء إيطالية فزحف إليهم وهزمهم فأعلن البابا غريغوريوس حرمه، ثم جدد البابا أينوشنسيوس الرابع هذا الحرم، وأعلن إسقاطه من جميع ممالكه، وذلك سنة ١٢٤٥ فثارت به الناس من كل ناحية، وطمع غيليوم ملك هولاندة وغيره في تاج إمبراطورية ألمانيا، وقاتله الطليان من الجهة الأخرى وهزموه، وانتشر عليه الأمر واشتد به الغم، إلى أن مات في «فلورنتينو» سنة ١٢٥٠ وكان أرقى ملوك عصره، متكلمًا بالألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية، وله مؤلف في العربية باحث في عدة من المسائل الفلسفية، وله رسائل باللاتيني وقصائد بالإيطالياني وكانت له علاقات كثيرة مع المسلمين، وكان عنده جيش منهم كثير العدد.

الخاتمة

القصص على آثار العرب في وادي فاليه من سويسرة

قد تقدم في هذا الكتاب بحسب الروايات المتفق عليها والتي يعدها المؤرخون من الحقائق التاريخية أن العرب أغاروا على هذا الوادي واستولوا على معبر سان برنار الكبير، وتغلغلوا في عدة من شعاب الوادي، وأقاموا بها، وكانت لهم وقائع مع الأهلين ومن جملتها إحراقهم دير القديس موريس، ومنذ جئنا إلى سويسرة، وألقينا فيها عصا التسيار، علمنا في أثناء الحديث مع علماء البلاد، ولا سيما الذين يعنون بالآثار التاريخية، أنه يوجد في ذلك الوادي قرى أصل أهلها من العرب أو فيها أناس من سلائل العرب اندمجوا مع سائر الأهالي، وأنهم يعرفون من سحنائهم أنهم عرب، فلما أجمعنا نشر هذا الكتاب، وفيه كل ما تعلق بموضوع إقامة العرب بفرنسة وسويسرة وإيطالية، رأينا حريًا بنا، زيادة في التثبت ونصحًا بالبحث، أن نتوجه بنفسنا إلى هاتيك القرى التي يقال: إن أهلها من أصل عربي، وننقب ما استطعنا عن هذه المسألة بمشافهة أهل الديار ومراجعة ما يمكن العثور عليه من الآثار، وكان طبيبنا في لوزان الدكتور جاك رو[1] قد أشار علينا بزيارة دير سان موريس الذي فيه خزانة كتب قيمة ومخطوطات متناهية في العتق، وكتب كتاب توصية لرئيس الدير حتى يضع بين أيدينا من الكتب والمخطوطات ما يوافق موضوعنا، كما أن صديقنا المحامي الدكتور فريدريش من جنيف، وهو من المتخصصين في العلوم التاريخية والأثرية، قد ذكر أنه من جملة تلك القرى قرية اسمها إيزيرابل Iserables وقرية أخرى اسمها فريتوريس Freytorreus وقال: إن القرية الأولى في مكان حصين، محاط بالأوعار، مما يستدل منه على أن العرب لجأوا إلى ذلك المكان واعتصموا به.

ففي ٢٩ يونيو من هذه السنة قصدت إلى سان موريس وهي تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية ساعتين وربع ساعة، وذهبت إلى الدير الذي تنتسب إليه القصبة، وهو دير عريق في القدم بناه سيجسموند أمير بورغونية في سنة ٥١٥ للمسيح، ولا يزال معمورًا من ذلك الوقت، فعندما دخلت إلى الدير ناولتهم الكتاب الذي معي من صديقهم الدكتور جاك رو، فاستدعوا لي الراهب المتولي حفظ المكتبة واسمه طونولي Tonoli فجاء وجلس إلي، وتجاذبنا أطراف البحث الذي جئت إلى هناك من أجله، فقال لي: إنه لا يعهد في خزانة كتب الدير مخطوطات فيها شيء يتعلق بغارة العرب على وادي فاله، وأنه يمكن الاطلاع على هذه المسألة في الكتاب الذي يقال له Monumanta Germanica Historica أي مجموع التاريخ الجرماني. ثم قال لي: إلا أنه من المتواتر عند الجميع أن العرب مروا من هنا وأحرقوا هذا الدير، ثم أشار عليَّ بالذهاب إلى بلدة مارتيني Martigni وهي على الخط الحديدي تبعد نحوًا من نصف ساعة عن سان موريس إلى الجنوب، وتقع بعد سان موريس بثلاث محاط، وأن هناك رجلًا محاميًّا يقال له: كوكو Coquoz يقدر أن يدلني على القرى التي يقال: إن من أهلها من هو منحدر من دم عربي، ويقفني على معلومات قد يهمني الاطلاع عليها، وكذلك في مدينة سيون Sion قاعدة مقاطعة فاليه رجل يقال له: الأب ليوماير، متخصص في الأمور التاريخية، وله كتاب عن تاريخ مقاطعة فاليه، فهو أيضًا من الأشخاص الذين قد أجد ضالتي عندهم.

وعلى هذا فقد ذهبت إلى مارتيني وبحثت عن المسيو كوكو، وحدثته بالمقصود من زيارتي له، فدلني على رجل يقال له فيليب فاركه Farquet يقيم بدائرة تخص دير سان برنار، وهو معدود من العلماء، فذهبت واجتمعت بهذا الرجل، فقال لي: إنه لا يعلم شيئًا من جهة تاريخ العرب في وادي فاليه غير ما هو شائع على ألسن الجميع، ولكنه أشار إلى ساحة وراء كنيسة مارتيني وقال لي ونحن ننظر من النافذة: إن هذه الساحة التي أمامنا يقال لها ساحة السرازين Place des Sarrazins ومن هنا يعلم أن العرب سكنوا في مدينة مارتيني هذه، وهو أمر معقول جدًّا؛ لأنه قد ثبت في التاريخ كونهم استولوا على معبر سان برنار المشهور، ومن المعلوم أن مارتيني هي البلدة التي يصعد منها الناس إلى جبل سان برنار الذي فيه الدير القديم، وكل يوم تسير السيارات بالمسافرين بين سان برنار ومارتيني.

وكنت علمت من هؤلاء الأشخاص الذين تحادثت معهم في هذا الموضوع أن قرية إيزرابل هي التي يرجح أن فيها من بقايا العرب، وأنه يوجد أيضًا قرية أخرى تابعة

لمدينة سيون يقال لها: إيفولين Evolene هي من هذا القبيل، فسرت بالقطار إلى سيون، واجتمعت بالقسيس الذي يقال له ماير وهو قيم خزانة الكتب التي في مدرسة سيون، فلم أجد هذا الرجل معتقدًا بصحة هذه الروايات، وهو يظن أن العرب مروا ببلاد فاليه غزاة، عابري سبيل، وما عدوا أن أحرقوا دير سان موريس ولا أعلم هل هو معتقد ذلك فعلًا، أم يحاول إنكار وجود آثار للعرب في تلك الديار فقد وجدته من القسيسين المتعصبين في الكثلكة إلى الغاية ولم أجد في كلامه ما ينقض شيئًا من الروايات التي أطبق عليها المؤرخون من كون العرب أوطنوا وادي فاليه وأقاموا بها حقبة وبقيت لهم فيها أعقاب، وهو نفسه أشار عليَّ بمراجعة كتاب بالألماني لمؤلف يقال له فيشر Fischer لكنه يقول: إنه غير واثق برواياته.

فتركت القسيس وركبت سيارة وسرت إلى قرية إيفولان، والمسافة من سيون إليها نحو من ٢٥ كيلو مترًا، وهي في الجبال ليس وراءها عمران، ومنها إلى حدود إيطالية بضع ساعات لا غير، فلما وصلت إلى القرية وجدتها قرية صغيرة ليس فيها أكثر من مائة بيت، أهلها فلاحون، يعيش أكثرهم من الحرث ومن قطع الأخشاب، لكثرة الحراج التي حولهم، فسألت عن شيخ القرية أو عمدتها، كما يقال في مصر، فدلوني على بيت حقير، دخلت إليه فوجدت الرجل، وحادثته في الموضوع فقال لي: إنه يسمع بهذه الروايات كسائر الناس، وأنه ليس عندهم وثائق خطية على شيء من هذا، ثم أشار عليّ بمقابلة القسيس مرشد أهل القرية فسألت عن القسيس فلم أجده، ثم ملت إلى فندق صغير في تلك القرية، يقصد إليه السياح الذين يحبون العزلة في الجبال، فوجدت صاحب الفندق رجلًا على أثارة من علم، وهو من أهل سيون، فقال لي: إن الجميع يسمعون أن أهالي هذه القرية أو بعضهم على الأقل هم من أصل عربي، وأنه في الوادي الآخر الذي وراء وادي إيفولن والذي يقال له أنيفيه Anniviers قرى يقال أيضًا: إن فيها من بقايا العرب الذين أغاروا على وادي فاليه، وسألت هذا الرجل هل يعلم في إيفولين عائلة تعلم نفسها منحدرة من أصل عربي، فأجابني: أما هكذا فلا أعلم وغاية من هناك أنهم يقولون بوجود الدم العربي في هذه القرية، وأن في سحنة بعض أهلها ما يدل على كونهم ليسوا من أصل سويسري.

فغادرت قرية إيفولين، ورجعت إلى سيون، ومنها ركبت القطار وجئت إلى محطة ريد Rid التي منها يمكن الذهاب إلى قرية إيزارابل، فنزلت في ريد، وسألت: هل يوجد طريق معبد إلى إيزارابل؟ فقالوا: لا، ولا سبيل إلى الذهاب إلا على ظهر دابة أو سيرًا على

الأقدام، ولما كان وجود مطية يأخذ وقتًا، وكان من عادتي بحسب إشارة الطبيب أن أمشي كل يوم لا أقل من ساعتين، لأجل الرياضة الجسدية، اخترت أن أذهب إلى إيزارابل ماشيًا، ولكنها كانت مرحلة شاقة لأن الطريق إلى إيزارابل إنما هو تصعيد مستمر في عقبة كؤود، يأخذ اجتيازها ساعتين ونصف ساعة فيصل الإنسان إلى تلك القرية التي يجدها في أوعر محل من ذلك الجبل، لولا ذلك الطريق الذي ينفذ إليها لا يكاد الماعز يجد إليها متسلقًا ولا متعلقًا، ولا شك أن العرب إن كانت بقيت منهم بقايا ولاذت بالجبال، طالبة النجاة من أيدي أهل البلاد، لم يكونوا ليجدوا للامتناع خيرًا من ذلك المحل، والقرية في سفح جبل قائم، تشرف على وادٍ عميق الغور، والغابات تحف بها، فلما وصلت إليها سألت شيخها، ويقال له كازيمير تافر Tavre فسألته عما يعلم من قضية انتساب هذه القرية إلى العرب، فقال لي: إن العرب كانوا شنوا الغارة على وادي فاليه، وأحرقوا دير سان موريس، وانتشروا في هذه الأرض ثم انقرضوا كما جاء في التواريخ، وإن كانت لهم أعقاب في هذه البلاد فليس ذلك خاصًّا بقرية إيزارابل، فربما كانت بقايا العرب في عدة قرى، فسألته هل يعلم عائلات تعلم نفسها من أصل عربي، فقال لي: لا، فسألته: هل يوجد عندهم أوراق عتيقة تدل على صحة تلك الروايات؟ فأجابني أن عندهم في خزانة البلدية أوراقًا مكتوبة باللاتينية ترجع إلى سنة ١٢٠٠ مسيحية فما بعدها، وإن هذه الأوراق كلها صكوك بيع وشراء يراجعونها عند وقوع الخلاف على حدود الأراضي، وليس فيها شيء عائد إلى التاريخ، فتركته وجئت إلى ساحة القرية، فوجدت شبان القرية كلهم مجتمعين في مقهى صغير يشربون فيه المرطبات، فسألت عن سبب هذا الاجتماع فقيل لي: إن لشبان القرية جمعية قد جعلت لنفسها علمًا خاصًّا، وإن ذلك اليوم هو يوم الاحتفال بالعلم، فكان لي اجتماعهم هذا فرصة لأجل التفرس في هيئاتهم وسحنهم، فرأيت فيهم سحنًا لا تفترق عن غيرها من خلقة أهل سويسرة، ورأيت أشخاصًا تغلب عليهم السمرة الشديدة، ولا تشبه خلقة الآخرين، وأما من جهة لغتهم فإنهم يتكلمون الإفرنسية ولغة أخرى عامية مشتقة من اللاتينية، وهذه اللهجة العامية غالبة على جميع قرى ذلك الوادي من أوله إلى آخره، ولا يتكلم الأهالي فيما بينهم إلا بها، وقد تختلف لهجة ناحية عن ناحية، ولم يتسع لي الوقت أن أبحث في عاميتهم هذه، ولا سيما في لهجة إيزارابل وإيفولين، لأعلم هل هناك ألفاظ عربية أم لا؟ فإن بحثًا كهذا ليأخذ وقتًا طويلًا لم أكن أملكه، فتركت إيزارابل مكتفيًا بما رأيته وسمعته، وعلمت أن تاريخ العرب في ذلك الوادي لا يمكن أن يؤخذ إلا من

بطون الكتب، وما عدا ذلك فهو روايات شائعة متواترة لا شك في أن لها أصلًا ولكن هذا الأصل قد اختفى بكرور الأيام.

ثم إن أحد أصحابي ممن يعنون بتاريخ سويسرة نبهني إلى مطالعة القاموس التاريخي السويسري المسمى Dictionnaire historique et biographique de la Suisse إذ فيه تحت لفظة «سرازين» فصل يتعلق بمقام العرب في سويسرة وجبال الألب، فذهبت إلى خزانة كتب الجامعة في جنيف، وطالعت الفصل المذكور، ولخصت منه ما يلي: في القرن التاسع للمسيح استغاث البابا بالسويسريين والفريزوزينين، لوقاية رومة من غارات العرب، وفي سنة ٨٨٨ جاء عرب من إسبانية واحتلوا فركسيناتوم (مقاطعة الفار في فرنسة) وأغاروا من هناك على الشمال والغرب، وسنة ٩٠٦ اجتازوا جبال الألب الغربية واكتسحوا دير نوفاليز بقرب سوز Suze وفي سنة ٩١٣ كانوا في آكي Acque في بيامونت، وفي سنة ٩٢١ وصلوا إلى جبل سان برنار الكبير، حسبما روى فليودار دورنز Fléodard de Reims وهناك رموا بالحجارة قافلة إنكليزية كانت ذاهبة إلى رومة، وفي سنة ٩٣٦ قطع العرب جبال الألب الريتية Alpes Rhétiennes واكتسحوا أسقفية كوار Coire فاضطر الملك أوتون الأول أن يعوض أسقف كوار مما رزأه به العرب، ومن الوقائع التي لا شك فيها أن العرب نزلوا من جبل سان برنار، ونهبوا دير سان موريس في وادي فاليه، وذلك سنة ٩٤٠ كما روى ذلك أولريك مطران أوغسبورغ، ولا تمكن معرفة ما إذا كانت ثمة علاقة بين حوادث سان برنار وحوادث كوار، وفي سنة ٩٤١ كان هوغ ملك إيطالية في حرب الماركيز بيرانجه الإيفري Berenger D'ivrée والملكة برته صاحبة برغونية التي كان طلقها، فاستمال هوغ العرب واستخدمهم وألقى إليهم بحراسة معابر الألب، ففر بيرانجه من وجههم والتجأ إلى الدوق هرمان الشوابي Hermamnn de Soiab وبلغ من قوة العرب أنهم جعلوا رسومًا على المارة الذين كانوا يقطعون جبال الألب، قاصدين رومة، ويقال: إنهم تقدموا من هناك حتى بلغوا مقاطعة فو Void التي قاعدتها لوزان ومقاطعة جوره، التابعة لنيو شاتال، واستطالوا على دير سان غال Saint Gall وكانت توجد كتابة في كنيسة القديس بطرس في بورغ Bourg محفورة بين سنة ١٠١٩ و١٠٣٨ يستدل منها على الغارات العربية إلى جهة الغرب.

وأما غاراتهم إلى جهة الشمال الشرقي فالروايات عنها لم تحقق بصورة قطعية وكذلك لم يتحقق كونهم تديروا جبال الألب، بصورة ثابتة، وإنما تحقق على وجه ليس

فيه مراء أن الملك أوتون مر بكوار سنة ٩٥٢ ومعه «أدليدة» فوجد الدير قد نهبه العرب فعوض الدير مما فقده، وذلك سنة ٩٥٥ وأما في جنوبي الألب فقد طال مقام العرب، ولكن لا نظن صحيحًا أنهم استعمروا وادي ساز Saas سنة ٩٤٠ إلى سنة ٩٦٠ وكذلك ما يقال من احتلالهم بونترازينه Pontresina وأما ما يقال من كون بعض أسماء وادي ساز هي عربية مثل «على العين» Allalin والعين Ein والماجل Almagel ومشابل Mischabel وبالفرين Balfrin ومونتومورو Monto Moro فلم يثبت كون هذه الألفاظ عربية، وفي ٢٣ يوليو سنة ٩٧٣ قبض العرب على الراهب ميول ورفاقه، فثار الناس من أجل هذه الفعلة، واجتمع غليوم كونت آرل، وهاردوين أمير تورينو وربالد كونت بروفانس، وزحفوا إلى العرب من كل جهة واستولوا على فركسينة وانقرض العرب من هناك.

وهذا الفصل من قاموس سويسرة التاريخي عليه إمضاء H. Dübi وهو مأخوذ من بضعة عشر تأليفًا بالإنكليزية والإفرنسية، وأكثرها بالألمانية، وفي رأس هذه التآليف كتاب كيلر Keller الذي ترجمناه وأردفنا به كتاب رينو المستشرق الإفرنسي.

بقي علينا أن نلاحظ على هذا الفصل ارتياب كاتبه في عروبة الألفاظ التي ذكرها فنحن نخالفه في هذا الرأي، ونوافق على رأي كيلر، وهو أن هذه الألفاظ عربية لا ريب فيها وأنه يستحيل أن توجد ثلاثة ألفاظ كهذه مشابهة للألفاظ العربية تصادفًا، وذلك مثل «على العين» و«العين» و«الماجل» فإن هذه كلمات عربية صريحة، وشكل التلفظ بها بحسب رسم حروفها باللغة الإفرنسية يدل على كونها عربية مغربية؛ لأن إخواننا المغاربة والأندلسيين يميلون إلى الكسر في تلفظ الحرف الأول من لفظ عين وما في ضربها من الألفاظ كزيت وجيش وزيد وغيرها، بخلافنا نحن المشارقة فإننا نلفظ كل هذه الألفاظ بفتح أولها، وأما الماجل فقد تقدم أنه حوض الماء، وأن هذه اللفظة كانت تستعمل في مكة لحياض الماء التي فيها، وأما مشابل فيجوز أن تكون من أصل عربي بمعنى مكان الأسود، أو كما قيل من إن هناك جبالًا شبهوها بلبؤة تجر أشبالها كما أنه يجوز أن يكون أصلها لفظة أوربية تشابهت اتفاقًا مع اللفظة العربية، أما الألفاظ الثلاثة الأولى فلا يمكن أن يكون وجودها مجرد اتفاق، لا سيما أنها أسماء لأماكن فيها مياه، وأما بالفرين فقد تكون محرفة عن أصل عربي ويكون أصلها بالفرين تصغير فرن، ويجوز أن تكون لفظة إفرنجية، وأما «مونتومورو» فهو ظاهر ومعناه جبل المغاربة أو العرب، وبالاختصار فرأى كاتب هذا البحث من جهة هذه الألفاظ هو في غير محله.

فهذا ما اخترنا نقله وجمعه من أخبار غارات العرب على فرنسة وإيطالية وسويسرة ممحصًا ممخوضًا معولًا فيه على أوثق المصادر والله تعالى من وراء العلم هو المبدئ المعيد والأول والآخر.

فتح المسلمين لمالطة

قد كان أصل المحور الذي دارت عليه مباحث هذا الكتاب هو غزوات العرب في شمالي جبال البيرانه من فرنسة وإيطالية وسويسرة، ولكن الحديث شجون والتاريخ، إنما هو حديث عن حوادث يثير بعضها بعضًا، وقلما تجد منها حادثة إلا وهي متعلقة بسابقة لها، ولذلك لم يكن حصر الكتاب ضمن الحدود التي ذكرناها، بل تعدى إلى موضوع غزو العرب لجزائر البحر الرومي مثل كورسيكة وسردانية وصقلية والأرض الكبيرة المقابلة لها التي يقال لها كالابرة، وتناول البحث أيضًا جزيرة إقريطش التي يقال لها اليوم: كريد، فأما جزر الباليار فهذه تابعة للأندلس قديمًا وحديثًا، ولذلك أبقينا الكلام عليها إلى الكتاب الذي ننوي وضعه على الأندلس، وقد هيأنا كثيرًا من مواده، وإنما بقيت جزيرة في البحر المتوسط، فاتنا ذكر فتح المسلمين لها، مع كونها ذات ذكر شهير في التاريخ أكبر كثيرًا من جرمها الجغرافي ألا وهي جزيرة مالطة، فأحببنا أن نذكر عنها خلاصة تاريخية في هذا الكتاب، فنقول:

يوجد أرخبيل يقال له: الأرخبيل المالطي مؤلف من جزيرة مالطة وأخواتها غوزو Gozo وكومينو Comino و كومينوتو Cominotto وفلفولا Filfola وصخور أخرى تحاذيها، جاء في الإنسيكلوبيدية الإسلامية المحررة بالإفرنسية أن هذه الجزر كانت في الأعصر القديمة مأهولة بطائفة من طوائف البحر المتوسط، لها آثار تدل عليها، محفوظة في مكان من مالطة يقال له: «الحجر القائم» Hagiar kaim وأول ما عرف التاريخ عنها هو أن الفينيقيين استعمروها قبل القرن العاشر قبل المسيح، واتخذوها قاعدة لسفنهم التجارية، قالت الإنسيكلوبيدية: ولم يتحقق كون اسم مالطة مشتقًا من الفينيقية وإنما تحقق كون جزيرة غوزو أو غولوز Gailos معنى اسمها «سفينة تجارية مستديرة الشكل» وقد استولى القرطاجنيون على مالطة في القرن السابع قبل المسيح، وبقوا فيها أربعة أو خمسة قرون، ثم استولى عليها الرومانيون سنة ٢١٨ قبل الميلاد وبقيت نحوًا من عشرة قرون في أيدي الرومانيين واليونانيين، وفي القرن الأول للمسيح تنصر أهل مالطة عن يد القديس بولس، ولما سقطت السلطنة الرومانية

الغربية استولى عليها البيزنطيون، وكانت لهم مركزًا ضروريًّا بعد استيلائهم على شمالي إفريقية.

وقد استولى المسلمون على مالطة سنة ٢٥٦ للهجرة وفق ٨٦٩ و٨٧٠ مسيحية، ولكن هذا الاستيلاء هو الاستيلاء الثابت؛ لأن ابن الأثير يخبرنا أنه في سنة ٢٢١ أرسل إبراهيم بن الأغلب أسطولًا لغزو الجزائر، والأرجح أن مراده بالجزائر هو الأرخبيل الذي من جملته مالطة، وقد كانت غزوات المسلمين لمالطة وصقلية في القرن الثامن للمسيح، وربما كانت مالطة دخلت في حوزة المسلمين قبل سنة ٨٠٠ وكان مقام المسلمين بمالطة أطول وأثبت من مقامهم بصقلية، بدليل كون لغة مالطة عربية.

وقد اختلف العلماء في أصل اللهجة المالطية، فزعم بعضهم أنها من أصل فينيقي، وذهب آخرون إلى أنها لهجة عربية، وهذا رأي الجمهور، فاللغة المالطية عربية تشابه في كثير من الألفاظ لهجات العرب الشرقيين، وفي كثير منها العرب المغاربة وتكثر في لغة مالطة الإمالة، كما يكثر أيضا قلب الألف ياء، فيقولون: «يينا»، بدلا من أنا، ويقلبون القاف همزة، ويستعملون أحيانًا نون الجمع المتكلم قبل المفرد، فيقولون مثلا: إنا نقول له. بدلا من: نحن نقول له، وهذا على نسق أهل المغرب وتختلف اللهجات في نفس مالطة بين المدينة والقرى، وبين مالطة وغوزو، ولا توجد الخاء والغين في مدينة مالطة المسماة «فاليت» وإنما توجد في جزيرة غوزو، ولم يتم البحث حتى الآن عن اللهجات المالطية حتى يعرف ما هو راجع منها إلى العربية الشرقية وما هو راجع إلى العربية الغربية، وقد أثرت الثقافة اللاتينية الإيطالية في اللغة المالطية، ودخلت ألفاظ كثيرة منها في لغة مالطة، ولم يكن للمالطيين حروف يكتبون بها إلى أن قام في القرن الثامن عشر رجل يقال له: «آجيوس سلدانيس» فاعتنى بالبحث عن لغة بلده، ومن ذاك الوقت أخذوا يكتبون لغتهم، واستعملوا الحروف العربية، ثم نهضت عصبة من المالطيين اسمها «عقدة تالكتيبة تالمطي» أي عصبة الكتّاب المالطية ونشرت كتابًا في نحو اللغة المالطية سمته «تعريف الكتب المالطية» وذلك في سنة ١٩٢٤ وجاء في مقدمة هذا الكتاب ذكر أنواع الكتابة المالطية، ثم إن هذه العصبة نشرت مجلة اسمها المالطي في سنة ١٩٢٥ وكان غرضها الأصلي إحياء اللغة المالطية العربية أو ما تعبر عنه بالمالطي الصافي.

ومنذ سنة ١٨٥٠ أخذت مسألة اللغة المالطية شكلًا سياسيًّا، وذلك لأن الإنكليز أحبوا أن يعززوا اللغة المالطية العربية، لعدم رغبتهم في نشر اللغة الإيطالية التي هي لغة الطبقة المثقفة ولغة رجال الكنيسة في مالطة، ومن شاء الاطلاع على آداب اللهجة المالطية فليراجع كتب بونللي L, Bonelli وشتومة H. Stumme.

وقد ترك المسلمون في مالطة، عدا أسماء البلاد واللغة العربية، قطعًا من المسكوكات وعددًا كبيرًا من الآثار الكتابية لا سيما كتابات القبور، وأشهر هذه الكتابة المسماة «ميمونة» تاريخها يوافق سنة ١١٧٣ مسيحية، وقد نُشرت منذ قرن تام، وبحث فيها المستشرقون مثل إيطالينسكي Italenski ولنسي Lance وآماري Amari وغيرهم، وقد وجدوا كتابة أيضا في جزيرة غوزو، وهي محفوظة في متحف مالطة ثم إنه وجدت كتابات نحو العشرين في أثناء الحفريات التي وقعت بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٥ في محل يقال له: رباطو Rabato بقرب نوتابيل Notabile وهي محفوظة في متحف مربع رومانا Romana على مقربة من مكان الحفريات.

هذا وقد خرجت مالطة من أيدي المسملين سنة ١٠٩٠ مسيحية، فإن النورمنديين استردوها بعد استردادهم لصقلية، ولكن كان المسلمون مأذونًا لهم في الإقامة بهذه الجزيرة إلى سنة ١٢٤٩ ثم إن مالطة من سنة ١٥٣٠ إلى سنة ١٧٩٨ صارت مركزًا لفرسان ماريوحنا أورشليم الذين طردهم الترك من رودس سنة ١٥٢٣ فانتقلوا إلى مالطة وأنشأوا أسطولًا عظيمًا، كانوا يلاقون به أساطيل المسلمين، الترك أو الإفريقيين، وكان يؤتى بألوف من أسارى المسلمين إلى مالطة، ولهذا قصد الأتراك الاستيلاء على مالطة سنة ١٥٦٥، ولكنهم لم يتمكنوا منها، وحاولوا ذلك مرة أخرى في أيام السلطان محمد الرابع، وفي المكتبة العمومية في مالطة وفي متحفها بعض كتابات عربية متعلقة بفن الملاحة، انتهى ما ذكرته الإنسيكلوبيدية الإسلامية عن مالطة، نقلناه باختصار.

ولما كان العلامة الرحلة اللغوي المشهور أحمد فارس الشدياق، صاحب الجوائب قد أقام بمالطة أربع عشرة سنة وكتب عليها كتابًا سماه «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» فقد أردنا أن نأخذ من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بغرضنا من جغرافية مالطة وتاريخها وذكر فتح المسلمين لها، فنقول:

قال أحمد فارس: إن تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة وأربع وأربعين دقيقة من الطول، وفي ٢٥ درجة و٥٤ دقيقة من العرض، أما موقعها في الكرة فإن بعض الجغرافيين ألحقوه بإفريقية، بالنظر إلى المكان، وبعضهم ألحقه بجزائر إيطالية بالنظر إلى عادات أهل مالطة وأحوالهم وديانتهم، فأما عرض مالطة فاثنا عشر ميلًا، وطولها عشرون، ودورتها ستون وقاعدتها الآن هي المدنية المسماة فالته "La Valette" فأما في الأعصر السالفة فكانت نوتابيلي، ويقال لها الآن المدينة، وموقعها في وسط الجزيرة في أرفع موضع منها، وكانت الجزيرة منقسمة إلى شطرين: أحدهما يمتد جهة الشرق،

والآخر جهة الغرب، والذي بنى فالته كان أحد أمراء الإفرنج وسماها باسمه، وذلك سنة ١٥٧٦ وهي على ربوة بقرب البحر يقال لها: شبراس، قلت: زعم بعض المالطيين أن أصل هذه الكلمة «شبرا الراس» وبعضهم أنها «جبل راس» وعندي أنها شعب الراس، قال في الصحاح: شعب الراس شأنه الذي يضم قبائله. أ.هـ.

وهو كناية عن أصل الشيء ومجتمعه، كما أن قبائل الراس مرجعها إلى الشعب، ويحتمل أنها سميت بشيب الراس لأن أهل مالطة كانوا يناصبون المسلمين الحرب وكل فريق ملاق من فريقه ما يشيب الرأس. أ.هـ.

قلت: تأييدًا لما استشهد به أحمد فارس أقول: جاء في لسان العرب «والشعب شعب الراس وهو شأنه الذي يضم قبائله، وفي الرأس أربع قبائل، وأنشد:

فإن أودى معاوية بن صخر فبشر شعب رأسك بانصداع أ.هـ.

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الفرنساوي بوليه أن قاعدة مالطة سميت باسم الأمير لافاليت رئيس طريقة الفرسان، ولد في سنة ١٤٩٤ ومات سنة ١٥٦٨ وكان شهيرًا بالبأس، وأول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج «سانت المو» ثم قوي عليهم وأخرجهم منها أ.هـ. قلت: إن هذه الرواية تخالف ما جاء في الإنسيكلوبيدية الإسلامية من كون مالطة خرجت من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ إذ ينبغي من هذه الرواية أنه كان فيها مسلمون في أواسط القرن السادس عشر للمسيح، وأنه كانت في أيديهم حصون وأبراج، ولولا ذلك ما قيل: إن الأمير لافاليت أخرجهم منها.

وأما اسم مالطة فجاء في كتاب أحمد فارس: إن اليونانيين سموها مليته، واشتهر ذلك سنة ٨٢٨ قبل الميلاد، ومعنى ميليته أو ميليسه في لغة اليونان النحل فحرف المسلمون ذلك وقالوا: مالطة، قال: وزعم قوم أنها سميت باسم ميليته ابنة دوريس، وهو مشتق من ميليت في السريانية، وهو اسم إله، ولا يبعد أن يكون ذلك في اللغة الفينيقية أيضًا، قال: وممن ذكر مالطة من الشعراء الأقدمين أوميروس وأوفيديوس ويفهم من كلام الأول أن القبيلة التي يقال لها: «ألفيا كونس» هم أول من استوطنوا هذه الجزيرة، وكانوا ذوي قوة وبأس، ثم خلفهم الفينيقيون، وهم من جهات صور وصيدا، وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد، فلبثوا فيها نحو أربعمائة وخمسين سنة، حتى تغلب عليهم الإغريقيون ثم سلموها للقرطجنيين، وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد،

ثم جاء من بعدهم الرومانيون سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور، وأعظم ما حدث في أيامهم قدوم ماربولس، وانكسار السفينة به وبمن كان معه، وذلك سنة ٥٨ للميلاد، في موضع يقال له الآن: خليج ماربولس، ومنذ ذلك الوقت تنصر أهل الجزيرة، ثم بعد الرومانيين استولت قبيلة «الفندلس» ثم «القوث» ثم «البليساريون» وألحقوها بحكومة البلاد الشرقية وبقيت كذلك إلى سنة ٧٨٠ فأخذوه في هضم الرعية، فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين. أ.هـ. ملخصًا.

قلت: يريد بالقوث أمة القوط الذين كانوا غلبوا على إسبانية، وبالفاندالس الأمة التي كانت أيضًا غلبت على إسبانية وإفريقية، وأما البليساريون فهم قوم بليسار Belisaire وكان من قواد الإمبراطور يوستنيانوس صاحب بيزنطية، ولد سنة ٤٩٠ وفي سنة ٥٣٣ غزا الفندلس في إفريقية، واستولى على قرطاجنة، ثم غزا أيضًا القوط عندما كانوا في إيطالية واستولى على صقلية ونابولي ورومة، ولعله في هذه الغزاة استولى على مالطة، ثم قال أحمد فارس: ذُكر في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان: إن مالطة فُتحت في أيام أبي الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب، توفي سنة إحدى وستين ومائتين، وإنما لقب بالغرانيق لأنه كان مشغوفًا بالصيد، روي أنه بنى قصرًا في السهلين، لصيد الغرانيق أنفق فيه ثلاثين ألف دينار، فكني بهذه الكنية، فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف (أي المؤلف الذي نقل عنه أحمد فارس): وسلموا الجزيرة للمسلمين. أ.هـ. يريد أحمد فارس أن يقول: إن المسلمين أخذوها فتحًا.

ثم نقل صاحب «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» عن ذلك المؤلف بقية حوادث مالطة، فقال: ثم قام الأمير روجر النورماندي بعدها بمائتي سنة، واسترد الجزيرة وألحقها بصقلية، فبقيت كذلك نحو سبعين سنة، ولما تزوج القيصر هنري السادس قيصر جرمانية ولية عهد صقلية دخلت مالطة في حكومته، وذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة، وفي أثناء ذلك ولي أخو لويس ملك فرنسة حكم صقلية ومالطة معًا، وبعد سنتين تغلب عليه الأمير بطرس الأراغوني، ثم آل أمرها إلى الملك كرلوس ملك صقلية فولى عليه الفرسان من نظام ماريوحنا برضى الأهلين واتفاق دول أوربا، ثم لما نبغ نابليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على أن يرخص للأهلين في التصرف بحقوقهم، إلا أن الفرنسيس لم يلبثوا أن هتكوا بعض السنن القديمة، وانتهكوا حرمة الكنائس، فتحزب عليهم المالطيون تحزبًا لم يخل من سفك دم كثير منهم وتلف أموالهم، إلى أن أتت الإنكليز فسلموها لهم وكان ذلك سنة ١٨٠٠.

قلت (أي قال أحمد فارس): لما دخلها نابليون وجد فيها ألفًا ومائتي مدفع ومائتي ألف رطل من البارود وأربعين ألف بندقية وعدة بوارج و٤٥٠٠ أسير من المسلمين فأطلقهم، وذلك سنة ١٧٩٨.

ثم رجع الشدياق إلى النقل عن المؤلف الذي نقل عنه فقال: إن أخذ المسلمين لمالطة كان من باب المصادفة أولى منه من المغالبة، وعاملوا الأهلين أولًا بالرفق والمياسرة، وقرروا سننهم وأحكامهم، وامتزوجوا بهم للغاية، حتى كأن الجيلين واحد، كما يتبين من بقاء لغتهم فيهم.

قال: أما لغة مالطة فذهب بعضهم إلى أنها عربية فاسدة، وذلك آخرون إلى أنها فينيقية لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يُخرجوا منها الفينيقيين بل ظلوا فيها آمنين محافظين على لغتهم، وما برحت مستقلة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها وأنها لم تتغير في مدة القرطاجنيين لأن لغة هؤلاء كانت أيضا فينيقية، ومع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلق بأخلاقهم والسلوك بسنتهم أينما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم، والدليل على ذلك أن الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس سموا المالطيين بربرًا ولم يكن يطلق هذا الاسم إلا على من جهل اللاتينية واليونانية.

قال: ثم بقيت في دولة المسلمين أيضًا ولم تتغير وإنما دخل فيها بعض ألفاظ أجنبية ويؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض ألفاظ منها للعربية، نحو بير وصيد، فإنهما في الفينيقية بر وصد وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد في كلتا اللغتين، والحاصل أن مأخذ اللغة المالطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية وإن كانت قريبة من هذه أيضًا. أ.هـ.

قال أحمد فارس: قلت: دليله هذا أوهى من بيت العنكبوت فإن البير والصيد ينطق بهما في لغتهم كما في لغتنا سواء ما عدا موافقتهما في تصريف الأفعال والأسماء وفي الضمائر وغير ذلك من أساليب الكلام، ومن الغريب أن المؤلف لا يعرف الفينيقية ولا العربية ولا المالطية، وإن كانت لغته، ويتعرض للحكم والاستدلال، فكيف يحكم على الشيء وهو يجهله وكيف يقول: إن لغة المسلمين بقيت في أهل مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريقين ثم يقول الآن: إنها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها؟ وإنما حمله على هذا بغضه وبغض أهل بلاده للعرب وتبرئة أنفسهم أنهم ليسوا منهم بل من الفينيقيين. أ.هـ.

قلت: لغة مالطة عربية لا شبهة فيها، وإنما ثبتت العربية في مالطة برغم انقراضها من صقلية وسردانية والأندلس وجنوبي فرنسة وجميع البلدان التي احتلها العرب من أوربة، لكون أصل لغة تلك الجزائر والبلدان لاتينيًّا، فلما تقلص ظل العرب عنها رجعت إليها لغتها الأصلية وانقرض العربي منها بالكلية، فأما مالطة فلغتها الأصلية لم تكن لاتينية بل كانت الفينيقية وهي أخت العربية، فلما جاءتهم العربية بعد فتح الإسلام لمالطة كانت كأنها نزلت في وطنها وثبتت فيها ثبوتًا لم يزلزله خروج المسلمين من مالطة كما ذهبت العربية من البلدان الأخرى التي أهلها الأصليون لاتينيون ولغاتها الأصلية لاتينية.

ثم قال أحمد فارس: والظاهر أن المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من أهل العلم والتمدن، كالذين كانوا في صقلية وغيرها، فإني لم أجد قط فيما قرأت من كتب الأدب والتواريخ قال المالطي، والسيوطي رحمه الله لم يغادر في كتاب الأنساب الذي سماه «لب اللباب» أحدًا من أهل العلم إلا ذكره ما خلا المنسوب إلى مالطة. أ.هـ.

قلت: أتذكر أني قرأت في بعض كتب التراجم، من مؤلفات أهل الأندلس، أسماء رجال منسوبين إلى مالطة، وفي معجم ياقوت يذكر نقلًا عن السلفي: سمعت أبا العباس أحمد بن طالوت البلنسي بالشقر يقول: سمعت أبا القاسم بن رمضان المالطي بها يقول: كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها أوقات النهار الصنج، فقلت لعبد الله بن السمطي المالطي أجز هذا المصراع:

جارية ترمي الصنج فقال:	بها النفوس تبتهج
كأن من أحكمها	إلى السماء قد عرج
فطالع الأفلاك عن	سر البروج والدرج

وأما قول ياقوت إنها بلدة بالأندلس فليس بمانع من كونه يريد بها هذه الجزيرة المسماة مالطة الواقعة في بحر الروم، فقد جاء في تاج العروس: ومالطة كصاحبة ووقع في التكملة مضبوطًا بفتح اللام والمشهور على الألسنة سكونها بلدة بالأندلس كما نقله الصاغاني وهي مدينة عظيمة في جزيرة من بحر الروم، شديدة الضرر على المسلمين في البحر، يعظمها النصارى تعظيمًا بالغًا وبها وكلاء عظمائهم من كل الجهات، ولقد حكى لي من أسر بها عن زخارفها ومتانة حصونها وتشييد أبراجها وما بها من عدة

الحرب ما يقضي بالعجب، جعلها الله دار إسلام بحرمة النبي ﷺ، فأنت ترى أن كتَّاب العرب كانوا يجعلون مالطة من الأندلس كما كانوا يجعلون ميورقة ومينورقة وسردانية وغيرها.

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الذي اعتمد عليه كلامًا عن جزيرة «كوتزو» من أخوات مالطة فقال: إن اسمها جزيرة غورش وإنها بالإفرنجية كوتسو وإن هذه اللفظة يونانية ومعناها مركب مستدير وهي كأنها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر ميلًا في عرض ستة، وأهلها نحو خمسة عشر ألفًا، وجملة قراها ست، ومدينتها تسمى الربط (كأنه محرف عن الربض) وفيها آثار قلعة قديمة، وبقول الجزيرة وفاكهتها طيبة جدًّا، وكذا عسلها، وزعم بعضهم أن مالطة وغورش وكمونة كانت في الأصل جزيرة واحدة وحدث من الزلازل ما فرقها. أ.هـ.

وأردف أحمد فارس رحمه الله هذا الكلام بقوله: رأيت جزيرة غورش غير مرة، أما اسمها فأظنه محرفًا عن لفظة الهودج، سماها به المسلمون لشدة شبهها به، كما سموا الجزيرتين الأخريين كمونة وفلفلة لصغرهما، إلا أن أهلها ينطقون بها بالغين المعجمة لا بالمهملة كما ينطق بها أهل مالطة.

ثم ذكر أحمد فارس أن أهل مالطة رغمًا من كون لغتهم فرعًا عن العربية فليس منهم من يحسن قراءتها والتكلم بها، وأن هناك دار كتب موقوفة فيها ثلاثة وثلاثون ألف سفر، وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل، ثم ذكر أن في لغتهم إمالة كثيرة فهم يقولون للتفاح تفيح وللرمان رمين وللبطيخ بتيح بالحاء المهملة وللخيار حيار بالحاء المهملة أيضًا وللإجاص لنجاص وللدلاع دليع وللخبز حبس وللخوخ حوح بالحائين المهملتين، ويقولون: بس بمعنى حسب، ولكن يبدلون سينها زايًا ويكسرون أولها.

ثم قال: إنه لا ينكر أن كثيرًا من الكلام العربي الذي بقي في مالطة مستعمل بطريقة المجاز إما بذكر اللازم وإرادة الملزوم وإما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلا «وحلت» للوقوع في الأمر الصعب وأصله الوقوع في الوحل خاصة، ونحو «الطلاب» للمتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب، ونحو «مغلوب» للنحيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالبًا، وفتيت أي قليل وهو من فتت الشيء إذا كسرته وصغرت جرمه، قال: وإن أهل غورش ينطقون بالأحرف الحلقية على حقها إلا أنهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون مكسور ومفتوح ويضمون ما قبل الألف نحو

قُاعد وهلم جرا، ويقولون منكم وعليكم بكسر الكاف وهي لغة ربيعة وقوم من كلب كما في المزهر ويسمى الوكم.

وذكر من اصطلاحاتهم أنهم يعبرون عن الدخول في الفعل بلفظة «سائر» وهي نظير قول أهل الشام ومصر «رايح» فإذا قال المالطي: أنا ساير نسافر فهي كقول الشامي أو المصري: أنا رايح أسافر.

قلت: يظهر أن سائر هذه كانت مستعملة في المغرب وقد نحتوها فبقي منها سين مفتوحة، فيقولون عن شخص مثلًا هو في حال الأكل سيأكل، وأحيانًا يقلبونها تاءً فيقولون تيأكل، ويقولون في المغرب في مثل هذه الحالة كيأكل، وأظن الكاف هنا منحوتة من «كائن» وذلك كما ينحت أهل الشام لفظة «عمال» فبدلًا من أن يقول هو عمال يأكل تجده يقول: «عمياكل» وفي بعض جهات من شمالي لبنان يقلبون الميم نونًا فيقولون: «عنياكل».

ثم ذكر أحمد فارس اصطلاح أهل مالطة على إدخال لفظة «تا» بين المضاف والمضاف إليه، فيقولون مثلًا: «الرجل تالبيت» وذهب أحمد فارس إلى أنها منحوتة من متاع، قال: فإن أهل المغرب يدخلونا كثيرًا في الإضافة ويبتدئون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقصير اللفظ، ومما يؤيد هذا التوجيه أن المالطيين لا ينطقون بالعين إذا وقعت في آخر الكلمة فيقولون مثلًا: تلا وقلا في طلع وقلع، قال أحمد فارس: وقلب العين ألفًا أو همزة هو من أساليب العرب، كما في تفصى وتفصع، وأقنى وأقنع، والشمى والشمع، وتكأكأ وتكعكع، وزقاء الديك وزقاعه، وزأزأ وزعزع، وبدأ وبدع، والخباء والخباع وغيرها، حتى إنهم قلبوها متوسطة كما في تأرض وتعرض، ودأم الحائط ودعمه، انتهى.

قلنا: إن الهمزة والعين من مخرج واحد فلا عجب أن تأتي ألفاظ بالهمزة وبالعين ومعناهما واحد.

ثم قال أحمد فارس: إنهم في مالطة يجعلون الهاء حاء، وأنشد من شعر المالطيين:

المحبوب تا قلبي سافر ليلي ونهاري نبكيح
جعلنلو بدموعي البحر وبالتنهيدات تا قلبي الريح

أي: ليلي ونهاري نبكيه، وإبدال الهاء حاء لغة من لغات العرب، قالوا المليه، والمليح، والمده والمدح، وتاه وتاح، إلى آخره.

قال: ومما بقي عندهم من فصيح العربية قولهم دار نادية، وحقها دارندية ولكنها أفصح من قول أهل مصر والشام دار ناطية، ويقولون للداية قابلة، ويقولون للرهان مخاظرة، وللعلية غرفة، ويقولون عن لي بمعنى بدالي، وتجالدوا وهو أفصح من تعاركو، وزفن أي رقص، وبوقال وهي أفصح من قول أهل الشام شربة أو نعارة، ومن فصيح كلامهم يماري أي لا يقنع بالحق، ويشرق بالماء، ويستقصي، وفرصاد للتوت، وسفود، وأهل الشام يقولون سيخ وشيش، ويقولون تقزَّر أي تباعد من الأدناس، وعسلوج للقضيب، وجلوز للبندق الذي يؤكل.

قال: ولكن هذه الألفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يترجح أن أصل المالطيين من المغاربة، ولكنه في محل آخر قال: إنه لا شك في كون اللغة المالطية عربية ولكني لست أدري أصل هذا الفرع أشامي هو أم مغربي، فإن فيها عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى فيقولون مثلًا: القداس والقديس والتقربن والأسقف مما لا يفهمه أهل المغرب. أ.هـ.

قلت: إن في المالطية ألفاظًا واصطلاحات شامية، وقد ورد هذا الرأي في الإنسيكلوبيدية الإفرنسية، ولكن الألفاظ المغربية هي بدون شك أكثر.

وذكر أحمد فارس من أوزان كلام مالطة فاعلة للمصدر، فيقولون عملته بالواقفة أو بالقاعدة، والمصدر على هذا الوزن معروف في العربية قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ أي من بقاء، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي كذب، ثم قال: إن بقاء العربية في مالطة لو محرفة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على مالها من القوة والتمكن عند من تصل إليهم من الأجيال، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهيأ لهم وبقوا محافظين على ما عندهم خلفًا بعد خلف، وهؤلاء الإنكليز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات وما تهيأ لهم أن يعمموها عند المالطيين، ويقال: إن الذي تحصل عند أهل مالطة من العربية مما هو مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة.

بحث دقيق جليل عن مغازي العرب في أوربة وجزائر البحر المتوسط

بقلم الأستاذ الأفضل السيد عبد العزيز الثعالبي رئيس الحزب الوطني في تونس

كان بلغنا أن لدى الأستاذ الأجل الأفضل السيد عبد العزيز الثعالبي، وثائق ومعلومات لا توجد عند غيره، في موضوع فتوحات العرب في جنوبي أوربة، فاقترحنا عليه كتابة شيء في هذا الموضوع نجعله كالقلادة في جيد تأليفنا هذا، فتفضل علينا حفظه الله ونفع به الإسلام بالخلاصة التالية:

إن أول واضع لخطة الفتوحات الإسلامية في أوربة هو الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإنه حين ندب أخاه من الرضاع، عبد الله بن سعد بن أبي سرح، لفتح بلاد شمالي إفريقية، ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جيجير والي سبيطلة من قبل البيزنطيين، ندب القائدين البحريين الجليلين عبد الله بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين، وكانا على الأسطول، فأمرهما بالمسير إلى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية في ذلك، تلك الوصية الخالدة التي يقول فيها: إن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس، وإنكم إن فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر، وقد اتخذ ولاة شمالي إفريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراسًا لسياستهم الإسلامية التي يسيرون عليها.

وأول أمير شرع في إعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية الأمير حسان بن النعمان، شيخ وزراء الدولة الأموية، بعد أن دان له شمالي إفريقية بالطاعة فقد أنشأ بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة، وجلب لها الصناع من قبط مصر، وسار على منهاجه في ذلك مولاه طارق بن زياد بعد أن ولي المغرب، فجاز بجيوشه أرض العدوة، وناجز الأندلسيين سنة ٩٢ ثم تلاهما في ذلك إسماعيل بن أبي المهاجر الذي تقلد إمارة شمالي إفريقية في عهد عمر بن عبد العزيز فأغزى أساطيله جنوبي أوربة سنة ١٠٥ وكانت قيادتها لعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، ولم يعد إلا بعد أن أثخن في إيطالية، وهذه الغزوة تعتبر كبشير لإنقاذ الإيطاليين من حكم البيزنطيين الطغاة.

وفي ولاية عبيد الله بن الحبحاب لإفريقية جهز أسطولًا كبيرًا جعل إمارته لقائد جيوشه الموفق حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الفهري، فغزاها سنة ١٢٣ ونكل فيها بالبيزنطيين أشد تنكيل، ولو لم تحصل ثورة البربر ضد الحكم العربي بسبب تخميس

أعشارهم لتملك شطوط إيطاليا وطهرها من حكم البيزنطيين كما فعل ذلك من قبل حسان بن النعمان في شمالي إفريقية.

وفي سنة ٢٠٧، بعد استقرار الدولة الأغلبية جهز زيادة الله الأكبر أسطولًا بإمارة قائده محمد بن عبد الله التميمي لمنازلة سردينية، ثم أعاد عليها الكرة سنة ٢١٢، وكانت إمارة الأسطول والجيوش في هذه المرة لقاضي القضاة الإمام أسد بن الفرات، فملك مازرة وحاصر سركوسة، وحول أسوارها أدركت الإمام الشهادة رضي الله عنه سنة ٢١٣ فتولى القيادة العامة صاحب أسطول الأندلس القائد أصبغ المعروف بفرغلوسن، وبعد أن استقرت الأمور في البلاد المفتوحة قلد زيادة الله إمارة إيطالية لابن أخيه إبراهم بن عبد الله بن الأغلب، وما زال مواليًا للجهاد حتى فتح بليرم ونابولي.

وفي ولاية أبي عقال الأغلب بن إبراهيم استؤنفت حرب التحرير في إيطالية سنة ٢٢٤ وتم فتح صقلية.

وفي ولاية الأمير محمد الأول تقدمت الفتوحات في شطوط إيطالية واستمرت من سنة ٢٣٣ إلى سنة ٢٤٠ ففتحت باتية وقطانية وبشيرة.

وفي ولاية الأمير أبي إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ندب والي صقلية العباس بن الفضل لغزو قصر الحديد ومدينة شلقودة وجهز الأسطول وأمر عليه أخاه وسيره لفتح جزيرة أقريطش فكان له واقعة مهولة في البحر الرومي مع أسطول بيزنطية.

وفي عهد أبي الغرانيق محمد الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد خفاجة الولاية على إيطالية وأخرجه سنة ٢٥١ لفتح جنوة ففتحها وتقدم إلى جبال الألب واستمر فاتحًا إلى نهاية سنة ٢٥٢ وفي سنة ٢٥٣ سيرت بيزنطية أسطولًا ضخمًا، لمحاربة المسلمين في شطوط أوربة الجنوبية ومنع جحافلهم من التقدم في فرنسة، فواقعهم خفاجة على شواطئ جنوة وسركوسة وألحق بهم خسارة عظيمة.

وفي سنة ٢٥٥ غزا الأسطول الأغلبي جزيرة مالطة واستولى عليها وألحقها بشمالي إفريقية.

وفي عهد إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد الحسن بن رباح ولاية جنوبي أوربة ونهده إلى الغزو فيما يليها؛ فتقدم إلى مرسيلية وفتح البروفنص فاستنجدت فرنسة بالدولة البيزنطية فسيرت لها أسطولًا مؤلفًا من ١٤٠ مركبًا، فتلقاه الأسطول الإفريقي في عرض البحر الرومي فدارت بينهما معركة مهولة كان الفوز فيها للبيزنطيين بعد أن تحطمت شوانيهم والتجأت بقايا الأسطول الإفريقي إلى بليرم، لكن

الجيوش الإسلامية كانت تتوغل في فرنسة واستمرت على ذلك من سنة ٢٦٦ إلى سنة ٢٧٢ فملكت بعض شواطئ الرون واحتلت كولونيا، غير أن عين البيزنطيين لم تنم عن هذه الفواجع، فأعادوا كرة حملتهم البحرية وحاولوا في هذه المرة قطع خطوط الاتصال بين جنوبي أوربة وشمالي إفريقية، فاحتل أسطولهم مدينة سبرية فقاومهم المسلمون مقاومة عنيفة منعتهم من التقدم.

وفي سنة ٢٧٥ جهزت إفريقية أسطولًا عظيمًا لتعقب أسطول البيزنطيين وشل حركتهم عن التقدم في الشطوط، ولم يلبث أن اشتبك العدو وضربه الضربة الحاسمة ومكن سيادة المسلمين في إيطاليا وجانب من فرنسة.

واستمر نجم الإسلام صاعدًا في أوربا بعد هذه الوقعة العظيمة وأمراء الأغالبة لا ينفكون عن تعزيز المسلمين في ولايتهم الأوربية ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل سعي في الانتكاث حتى دان من كان في حوزتهم من النصارى بالإسلام وتذوقوا حلاوة تحريره إياهم من ظلم الأمراء الإقطاعيين، وطغيان الكنيسة الكاثوليكية واستمر ذلك إلى أن ظهرت النبعة الآثمة نبعة الدعوة العبيدية في قبيلة كتامة البربرية من المغرب الأوسط، وقدر لها أن تجتاح الدولة الأغلبية فتعطل الفتح في أوربا وانقلبت جيوش إفريقية مغيرة على العالم الإسلامي لتقويض دولة بعد أخرى وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق وبسبب ذلك تحولت السياسة الإسلامية تجاه أوربا من الهجوم والتوثب إلى الدفاع والتسليم.

ولم يجن أحد على الإسلام ما جناه عليه هؤلاء العبيديون أو الفاطميون وإليك البيان:

لما تغلب عبيد الله المهدي على إفريقية وزال عنها حكم بني الأغلب كرهت الولايات الإسلامية في أوربا أن تقدم طاعتها للمتغلبين، فأجمع أصحاب الشأن فيها على إعلان الاستقلال حتى يمتنع نقل الجيش من أوربا إلى إفريقية، فبايعوا بالإمارة القائد أحمد بن زيادة الله بن قرهب؛ وبمجرد انعقاد هذه البيعة كتب الأمير إلى المقتدر بالله الخليفة العباسي بالطاعة، فأنفذ إليه المقتدر بالتقليد والخلع والألوية وطوق من الذهب ولما بلغ ذلك عبيد الله المهدي أخذ يسعى في بث الدسائس والفتن بين المسلمين في أوربا، وما زال بهم حتى اختلت الأمور على ابن قرهب فخُلع سنة ٣٠٣ وقُتل بعد أن وصل إلى المهدية؛ وعقب ذلك اجتمع أولو الحل والعقد من المسلمين في دار الإمارة ببليرم فكتبوا إلى المهدي، وذلك بعد أن بلغهم أنه جهز جيشًا لغزو المشرق بقيادة الطاغية البربري

القائد حباسة بن يوسف يلتمسون منه تعيين الولاة والقضاة وأن يبقى لهم الجيش يدرأون به الأخطار أمام الأعداء إلى غير ذلك من الشروط التي تضمن لهم الاستقلال الداخلي ولا تجعل بلادهم عرضة للغارة والفتوق، فأبى أن يجيبهم إلى هذه الطلبات العادلة، وأخرج إليهم الجيوش والأساطيل وعين عليهم سعيد بن المضيف فحاصرهم شهورًا، وكانت البلاد ممتنعة عنه فتنحى عنها وأرجل جنود كتامة في أرباض الشواطئ المفتوحة للنهب والسلب، ففعلوا الأفاعيل التي أفزعت النساء والذرية؛ حتى إذا رأى المسلمون أنه لا طاقة لهم بهذا الفزع نزعوا إلى طلب الأمان فأمنهم بلا قيد ولا شرط، وعلى أثر ذلك احتل البلاد وهدم أسوار المدن وجرد حاميتها من السلاح والخيل وفرض المغارم الكثيرة، ونصب سالم بن أبي راشد أميرًا عليها وعززه بجيش من كتامة فكان دأبهم الإفحاش في الظلم وسلب الأموال، فانقبضت النفوس وخارت الهمم عن التوسع حتى طمع فيهم رعاياهم الإيطاليون والفرنسيون.

وفي عهد أبي القاسم بن عبيد الله المهدي عين لولاية أوربا خليل بن إسحاق الطاغية؛ فقضى في الحكم أربعة أعوام ارتكب فيها من الجور والفساد ما لم يسمع بمثله، وجعل المسلمين يفرون أفواجًا أفواجًا إلى البلاد النصرانية ويتنصرون. ويحدثنا عنه المؤرخون أنه لما عاد سنة ٣٢٩ إلى شمالي إفريقية كان يفتخر بمظالمه، فقد حضر مجلسًا من وجوه الدولة العبيدية في قصر الإمارة وكانوا يتباحثون في شئون الدولة، فقال: إني قتلت في إمارتي ألف ألف نسمة، فرد عليه أبو عبد الله المؤدب، وكان من عقلاء الرجال في الدولة الشيعية: «لك يا أبا العباس في قتل نفس واحدة ما يكفيك».

وفي أيام الأمير تميم الملقب بالمعز لدين الله وجه القائد جوهرًا في الغزوة الثانية على مصر سنة ٣٥٧ بعد وفاة صاحبها كافور الإخشيدي فاستولى عليها وبنى له مدينة القاهرة، وفي سنة ٣٦١ رحل المعز إلى المشرق واتخذ القاهرة عاصمة لملكه واستخلف على إفريقية أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي مؤسس الدولة الصنهاجية؛ فكان همه ضبط البلاد وتكوين الشعور بالوحدة البربرية، فشعرت الأمم النصرانية المتاخمة للمسلمين في أوربا بسريان هذا الضعف والانحلال في قوة التماسك بالوحدة الإسلامية، فأخذوا يواثبون المسلمين في كل مكان، وما زالوا يجمعون ويؤلبون عليهم إلى أن وافتهم سنة ٣٧٢، فحشدوا قواهم لمناجزة المسلمين في فرنسة، ولما بلغ ذلك أبا الفتوح أمر عامله على جنوبي أوربا أن ينهد لقتالها فتحرك إليهم في جيوش كثيفة ودارت بينهم معارك ارتدت فيها النصرانية على الأعقاب وفاز فيها المسلمون

فوزًا عظيمًا، فما كان من الملك روجار النرماندي قائد هذه الحملات الصليبية الأولى إلا أن استنفر الأمم النصرانية لمحاربة الإسلام في أوربا وإفريقية.

وكان النرمنديون نزلوا من شمال فرنسة إلى جنوبها ثم شرعوا يتعقبونهم ويناجزونهم في إيطاليا ويفتكون منهم المدن، مدينة إثر مدينة، حتى ملكوا جميع البلاد الإسلامية في جنوب أوربا، ومما ساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية أواخر حكم المعز بن باديس إثر الزحفة الهلالية التي سيرها إليهم العبيديون سنة ٤٥٢ من مصر لتقويض معالم شمالي إفريقية.

ولم تقف أطماع النرمنديين على إزالة الحكم الإسلامي من أوربا، بل جنحوا إلى التغلب على المسلمين في مواطنهم الآمنة بإفريقية، فهجموا في سنة ٤٧٦ على المهدية دار المملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مركب عليه ٣٠ ألف مقاتل، وكانت المدينة مفتوحة غير محصنة فتغلبوا عليها وعلى زويلة، وأحدثوا فيها مقتلة ذريعة، وحرقوا وخربوا المعالم المشهورة وأخيرًا صالحهم تميم بن المعز بن باديس على مائة ألف دينار وما انتهبوه من الأموال وسبوه من النساء والذراري.

ولما انتقل الحكم إلى الأمير حسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس سنة ٥١٦ أراد غسل العار الذي لحق الدولة من فعل النرمنديين ورد ما فقدته من الأقطار الواسعة في أوربا، فندب لذلك حليفه الأمير علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني صاحب العدوتين أن ينهد لقتال النرمنديين؛ فأغزى أسطوله شطوط أوربا الجنوبية، وكان بقيادة أبي عبد الله ميمون، فأثخن فيها قتلًا وسبيًا ورد أمم النصرانية على أعقابها بعد أن هلك من الطرفين عدد لا يحصى، ولم تخمد هذه الكارثة همم النرمانديين وتقعد بهم عن استئناف حملتهم على المهدية، فأعادوا الكرة عليها في أساطيلهم أواخر جمادى الأولى سنة ٥١٧ فتلقاهم آساد العرين في كل مكان وتخطفتهم السيوف حتى أبيدوا عن آخرهم، وغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم، فكانت وقعة عظيمة أنعشت أرواح المسلمين بعد طول الخمود؛ ولكن الصليبيين لم يكفوا عن متابعة الغارة فأعادوا الكرة على المهدية سنة ٥٤٣ فاحتلوها بعد وقائع مهولة وخرج منها السلطان حسن بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بجملته وحاشيته إلى جزائر بني مزغناي (الجزائر) وجعل الصليبيون المهدية قاعدة لحركتهم الحربية في شمالي إفريقية وشن الغارة منها على ما يليها من الشطوط التي استولوا عليها، وقد مكثوا بها إلى أن أجلاهم عنها أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي في المحرم سنة ٥٥٥ ولولا نجدته لكانت بلادنا اليوم بلادًا نصرانية من غير شبهة. انتهى.

كتابات عربية على القبور الإسلامية في مالطة

بعد أن أتممنا كتابنا المتضمن غزوات العرب في فرنسة وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ومن جملتها جزيرة مالطة اطلعنا على رسالة للمستشرق الإيطالي (إيطوري روسي) Ettore Rossi الذي يعد من أعلم المستشرقين بأحوال مالطة إن لم يكن أعلمهم وهو الذي حرر الفصل المختص بمالطة في الإنسيكلوبيدية الإسلامية واجتمعنا مع الأستاذ المشار إليه في رومة في هذه الأيام الأخيرة وتباحثنا في تاريخ مالطة وكثير مما يتعلق بشؤونها وهو الذي قدم لنا رسالته هذه باللغة الإيطالية فأحببنا أن ننقل ما جاء فيها من الكتابات العربية التي وجدت على القبور الإسلامية في مالطة والتي جمعها إيطوري روسي وصورها بالفوتوغرافية ونشر صورها في الرسالة المذكورة فنحن آثرنا نقلها كما وجدناها في رسالته إتمامًا للفائدة.

ومما جاء في صدر هذه الرسالة أن نزول العرب في مالطة وقع بحسب الرواية المشهورة في سنة ٢٥٦ للهجرة وأنه من المعلوم أن أبا الأغلب إبراهيم غزا جزيرة صقلية سنة ٢٢١ للهجرة أي ٨٣٥–٨٣٦ للمسيح واستولى عليها فغير معقول أن يكون استولى على صقلية وترك مالطة وهي أقرب إلى إفريقية من صقلية فلابد أن يكون استيلاء المسلمين على مالطة وقع قبل سنة ٢٢٦ للهجرة وفق ٨٦٩–٨٧٠ للمسيح.

أما تاريخ استخلاص مالطة من أيدي المسلمين فيذكرون أنه وقع بين سنة ٩٩٢ للمسيح وسنة ١٠٢٥ وذلك بالغارة البيزنطية، ولكن مما لا شك فيه أن المسلمين بعد أن استرجع المسيحيون مالطة بقوا يسكنون الجزيرة نحوًا من مئتي سنة أي إلى سنة ١٢٢٤ بل إلى سنة ١٢٤٩ بحسب رواية العلامة آماري Amari مؤرخ صقلية.

وهذه هي نصوص الكتابات التي وجدت في المقابر الإسلامية في مالطة ننقلها كما وجدناها في الرسالة المذكورة:

> بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي محمد وعلى آله وسلم تسليمًا، لله العزة والبقا وعلى خلقه كتب الفنا ولكم في رسول الله أسوة حسنة، هذا قبر ميمونة بنت حسان بن علي الهذلي عرف ابن السوسي توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة وهي تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

انظر بعينيك هل في الأرض من باقي — أو دافع الموت أو للموت من راق
الموت أخرجني قصرا فيا أسفى — لم ينجني منه أبوابي وإغلاق
وصرت رهنا بما قدمت من عمل — محصا علي وما خلفته باقي
يا من رأي القبر أني قد بليت به — والترب غبر أجفاني وآماقي
في مضجعي ومقامي في البلا عبر — وفي نشوري إذا ما جئت خلاقي

أخي فجد وتب.

بسم الله الرحمن الرحيم: قل هو اللــه أحدٌ اللــه الصمد لم يلد ولم يولد ولم
(...) توفي ... يوم الأربعا ودخل قبره يوم الخميس من العشر الأو (...).
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين أدعو ربكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب
المـ (...) محمد وآله وسلم تسليمًا إن ربكم الله.
(...) م ثم استوىٰ على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمس
والقمر والنجوم مسخراتٍ.
بأمره ألا له (؟).

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيـ)ـدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليمًا فاز.
(كل نفسٍ ذائقة الموت وإنما توفون أجوركـ)ـم يوم القيامة فمن زحزح عن
النار وأدخل الجنة فقد.
وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. هاذا قبر الشيخ المرحو(م ...).
توفي رحمه الله فى العشر الأول من صفر عام ثمانية وسبعيـ(ـن ...).

بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر محمد ... توفي يوم الثلاثة في ذي الحجة
سنة ثلاث و ...
(...) الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
(...).
(...) العلي العظيم لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر
بالطاغوت (...).
(... لقـ)ـد جاكم رسول من أنفسكم رؤوف فإن تولوا لا إله إلا هو عـ(ـليه

...).

(...) من شعبان سنة ستة وأربعين وخمسمائة برحمة الله وبرضوانه وصلى الله على محمد (...).

(... أجـ)ـوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة (...).

(...) إن المتقين في جناتٍ ونهرٍ في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ (...).

كل نفس (...).

سلام على أهل القبور (...).

... عنده إلا بإذنه يعلم ما بين (...).

... لعطى محمد

قف بالقبور ...

بسم الله الر(حمن ...).

هذا قبر (...).

(... زحـ)ـزح عن النار و(...).

(... ا)لا متاع الغرور.

(... الرحيـ)ـم هذا قبر أمة الله بنت أبو القاسم ابن عرو(ة)

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ.

... الله ...

إنما تو(فون أجوركم ...).

بسم الله الرحمن (الرحيم)

... (إ)براهيم الصمطى.

بسم الله الرحمن الرحيم

... والحـ ...

توفي يوم الخميس الثامن من ... سنة ...

... وخمسمائة

بسم الله الرحمن الرحيم (...)

... لله الله (...)

بسم الله الر(حمن الرحيم ...)
... النار وأدخل الجنة ...
عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم.
لا إله
إلا الله
محمد و
رسول الله

بسم الله الرحمن الرحيم اللـه لا إلـٰه إلا هو الحي القيو(م ...).
أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلا (...).
(...) الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.
(...) شربة ولم يأكلوا من كل رطب ويابس.
(... صلى الله ...) محمد وآله وسلم تسليما إن ... (...)
(...) ... إلا له ... (...).
(... أجور)كم يوم القيامة فمن زحرج عن النار و(...).
(... و)لا نومٌ له ما في السماوات وما في الأرض (...).

سلام على أهل القبور الدوارس   كأنهم لم يجلسوا فى المجالس
ولم يشربوا من بارد الماء شربة   ولم يأكلوا ما بين رطب ويابس

هذا قبر
... عبد
العزيز ...
ورحم الله من
دعا له بالرحمة

هوامش

(١) Dr Jacques Roux طبيب وجراح شهير بلوزان.